

المولى
سيد الهوان

حمقوالطبع كفوظنا

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠١٩م

رقم الإيداع: ٢٠١٩/١٥٧٠١

ISBN : 978 - 977 - 430 - 294 - 7

موقف الحكمة والأثر

www.hekmaa.net

السودان - الخرطوم

نحو فهم صحيح للحقائق الإسلامية

المولى سيد المولى

(فَتَرَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ)

تأليف

أَبِي حَبْرَةَ الْبَدْرِيِّ بِإِصْرَافِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا شَيْءٌ

من إصدارات

موقع الحكمة والاثار

www.hekmaa.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أخي القارئ الكريم، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد:

فإننا بين يدي موضوع بالغ الأهمية؛ لأن حديثنا اليوم عن مرضٍ من أخطر الأمراض على الإطلاق، وآفة من أشد الآفات، وبلية من أعظم البلايا؛ عن مرضٍ استشرى بين العباد، وكثُر واستفحل فيهم إلا مَنْ رحم الله، وقليلٌ ما هم، أسأل الله ﷻ وعلا أن يجعلني وإياكم من المرحومين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

فإليك هذه الكلمات المقتضبة عنه، والتي ستكون بعنوان:

«الهُيُّ سِرِّ الْهُوَانِ»

ولكن قبل الخوض في غمار هذا الموضوع الخطير لابد من مقدمة؛ لتتعرف من خلالها على حقيقة هذا المرض المهلك المردى؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره؛ وذلك من خلال استعراض ما ورد في شأنه من نصوص الكتاب والسنة:

الهوى في ضوء الكتاب والسنة:

لقد ذكر الله تبارك وتعالى الهوى في كثير من آيات القرآن العظيم، وذكر النبي ﷺ الهوى في كثير من الأحاديث الصريحة الصحيحة عنه عليه الصلاة والسلام، وما ذلك إلا لخطورة هذا الهوى، وعظيم ضرره على العباد؛ ولهذا تكاثرت دلالات الكتاب والسنة في ذمه والتحذير منه، وأمر العباد أمراً صارماً جازماً بالبعد عنه؛ فالذي يقرأ كتاب الله جل وعلا يجد آيات كثيرة تصف الهوى وأصحابه وتحذر منه، ومن أتباعه وأتباعه.

وما ذلك إلا لحرص الشارع الحكيم على نجاة العباد من مخاطر هذا الهوى، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) إِنْ جَحْتَبْتُمْ كِبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١) ﴿[النساء: ٢٧ - ٣١].

وقال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ

اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (١٤٧) ﴿[النساء: ١٤٧].

فالهوى هو الذي يقود العبد إلى الضلال؛ فيقوده إلى الإشراف بالله جل وعلا، ويقوده إلى اقتراف المعاصي والمنكرات، والجرأة على رب العالمين تبارك وتعالى؛ بل ويكون سبباً مباشراً في نزع جلباب الحياء والتقوى؛ بل وهو الحامل على ممارسة طبع اللثام مع الله رب العالمين أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، عياداً بالله تعالى من الهوان والخذلان، وطبع اللثام! وسيأتي معنا لاحقاً الكلام على مخاطر الهوى بشيء من التفصيل، إن شاء الله تعالى.

ولما كان الهوى بهذا القدر من الخطورة؛ كان لازماً علينا أن نتكلم عنه، وأن نتعرف عليه، حتى لا نهوي في مهاويه؛ فنهلك عياداً بالله.

وقد أخبر النبي ﷺ أن الهوى يكثر في آخر الزمان تحديداً وبالذات، وسيتسارع فيه العباد والعياذ بالله، وتتجاري بهم الأهواء كما يتجاري داء الكلب بصاحبه والعياذ بالله، وذلك عند ذكره ﷺ للفتن كما في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرُهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنْ أُمْتُكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكَرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيَرْقُقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي! ثُمَّ تَنْكَشِفُ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ!

فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرْخِزَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا
فَأَعْطَاهُ صَفَقَةً يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ؛ فَلْيُطِعهُ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ
فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ»، وسيأتي ذكر ذلك وبيانه قريباً إن شاء الله تعالى.

وسأحاول أن أتناول هذا الموضوع تناولاً مفصلاً قدر الإمكان، مع
الحرص على الإيجاز؛ لكي نتعرف على هذا الأمر، ونقف على حقيقته عن
كُتُب؛ فإنه حري بكل مسلم ومسلمة أن يتعرف عليه، ويهتم به، ويعتني به،
ويحذر منه.

وسيكون تناولنا لهذا الموضوع الحساس الخطير، من خلال عدة محاور:



المحور الأول

بيان حقيقة الهوى وتعريفه عند العلماء

لقد عرف العلماء رحمهم الله تعالى الهوى بأنه: «ميل القلب إلى الشيء»^(١)؛ فميل القلب إلى أمر من الأمور يسمى هوى، وفائدة هذا التعريف أن يعلم الإنسان يقيناً أن ميل هذا القلب يكون بحسب الهوى الذي فيه؛ ولهذا كان لزاماً علينا جميعاً أن نتعرف على ميول قلوبنا، وما تركز إليه هذه القلوب؛ حتى نتعرف على طبيعة ونوعية الهوى الذي يسكنها، لتحسن التعامل معها، ونكتشفها من قريب؛ فإن كان حسناً زدنا في إحسانه، وعملنا على تكثير سواده، وإن كان سيئاً حاربناه وجاهدناه أشد المجاهدة، مهما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وسعينا في اجتثاثه أو التضييق

(١) ويشهد لذلك ما أخرجه مسلم في «صحيحه»، في قصة أسارى يوم بدر، فيما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابن عباس رضي الله عنه؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا أَسْرُوا الْأَسَارَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ: «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هُمْ بَنُو النِّعَمِ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً؛ فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةٌ عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَرَى يَا ابْنَ الْحَطَّابِ»، قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ؛ فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِي مِنْ فُلَانٍ (نَسِيبًا لِعُمَرَ) فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَيْمَةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا؛ فَهَوَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَمَا قُلْتُ... الحديث.

عليه، والحرص على مخالفته حتى يعافينا الله منه.

وسياقي مزيد بيان لهذه الحقيقة بالذات؛ عند الحديث عن خطورة الهوى، نسأل الله العافية والسلامة منه.



المحور الثاني

أقوال العلماء في الهوى

لما كان تعريف الهوى كما تقدم هو: «ميل القلب إلى الشيء»؛
اختلف العلماء في الهوى على قولين:

القول الأول: الهوى كله مذموم:

فقد ذهب طائفة من العلماء إلى أن الهوى كُله مذموم، واحتجوا
بأن أكثر الآيات في القرآن العظيم جاءت دَامَّةً للهوى وأهله، ومن هنا أخذوا
هذا القول، ونزَعُوا بهذا المَنزَع؛ فحكموا على الهوى بأنه كله مذموم.

وممن نَقَلَ عنه هذا القول الإمام الحَبْرُ البَحْرُ ابن عباس رضي الله عنهما، كما
في «مصنف عبد الرزاق» بسند صحيح، قال رجل لابن عباس: «الحمد لله
الذي جعل هَوَانًا على سَوَاك فقال: إن الهوى كُله ضَالَالَةٌ»؛ ولهذا عَمَمُوا
المقال فيه، فقال بعضهم: «الهوى يهوي بصاحبه في نار جهنم»، وقال آخر:
«الهوى يُعْمِي صَاحِبَهُ وَيُصِمُّهُ»، نسأل الله العافية والسلامة.

ولا شك أن من الهوى ما يكون هذا حال صاحبه، وهذا فعل الهوى
به؛ حيث يفعل به الأفاعيل، ويظهر ذلك جليًّا عند معاهد الخصومات بين

الهدى والهوى، فيغلبه هواه فيضمحل هُداؤه، فيُعْمِيه عن رؤية الحق وسَماعه، وإبصاره والاستبصار فيه؛ فترى الأعضاء موجودة ولكن الهوى طغى عليها وصيرها تبعاً له، أسيرة بين يديه، يتلاعب بصاحبه كلعب الصبيان؛ فصارت الأعين لا تبصر إلا الضلال؛ بل وتَحِنُّ إليه وتَعَشُّقُهُ، وتبحث عنه وتَطْلُبُهُ، وتصبح الأذان لا تسمع إلا الباطل، واللسان لا يكاد ينطق بالحق؛ فيَهْوِي العبد في مهاوي الردى عياداً بالله.

قضى الله ربُّ العالمين قضيةً بأن الهوى يعمي القلوب ويُبْكِمُ^(١) ثم إن من أهل العلم مَنْ قال: إنما سُمِّي الهوى بذلك لأنه يهوي بالعبد في نار جهنم.

وقيل: إنما سمي بذلك لأنه يُحِلُّ بصاحبه الهَوَانَ ويتسبب له بالمذلة والصَّغار.

وقيل: إنما سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في مهاوي الرذيلة، وينأى به عن سُبُل الكرامة والفضيلة.

ولهذا قال جل وعلا في شأن من سَيَقْتَحِمُ جهنم وَيَتَقَحَّمُهَا، والعياذ بالله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا

(١) لابن القيم في كتابه «طريق الهجرتين».

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩]؛ فالأعضاء موجودة ولكنها لم تنفع صاحبها، ولم ينتفع منها لآخرته؛ بل سخرها لخدمة دنياه، وهواه الخرب، نسأل الله العافية والسلامة، ولاشك أن كل هذه المعاني موجودة في هذا النوع من الهوى، عياداً بالله منه ومنها.

فيا لله كم لهذا الهوى المذموم من قَتِيلٍ وَسَلِيلٍ وَجَرِيحٍ، فَمُقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَكُلُّ يَنَالُهُ مِنَ الْهَوَانِ بحسب ما يتعاطى من هواه حتى يتوب إلى هدى الله فيعافيه الله، وإلا كانت الأخرى والعياد بالله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَتَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا زَكَاةً وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنعام: ٧١، ٧٢].

فلا تغتر أيها العبد، وتأمل فيما قاله الشاعر وقد أجاد أفاد:

انظر بعقلك إنَّ العين كاذبةٌ واسمع بقلبك إنَّ السَّمْعَ خَوَّانٌ

القول الثاني: الهوى منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم:

وهو ما ذهب إليه جماعة من العلماء، وذلك بناءً على التعريف السابق؛ حيث قالوا: بما أننا قد عَرَفْنَا الهوى بأنه هو: «ميل القلب»؛ فعليه يكون الهوى منه ما

هو محمود ومنه ما هو مذموم، وذلك بحسب ما في القلب من الميل.

- فإذا كان ميل القلب إلى طاعة الله جل وعلا ومراضيه؛ فلا شك أنه محمود بهذا الاعتبار.

- وأما إذا كان ميل القلب إلى معصية الله جل وعلا، والسعي فيما يسخط الله ﷻ ويغضبه؛ فلا شك أنه مذموم.

- وإذا كان ميله إلى مسكوت عنه، أو أمر مباح ليس فيه نهي؛ فهو مما لا تثريب على العبد فيه؛ بل قيل: هو من جملة المحمود؛ لعدم نهي الشارع عنه؛ لا نهي تحريم لا، ولا نهي كراهة.

واحتجوا لهذا القول بما جاء في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، لما قالت للمصطفى عليه الصلاة والسلام: «ما أرى ربك إلا يسارع في هواك!»^(١).

فعائشة رضي الله عنها هنا تخبر أن للنبي ﷺ هوى، وهو ﷺ لم ينكر عليها ذلك؛ فهو إقرار منه ﷺ لها، ولا شك أن الهوى الذي في قلب المصطفى عليه الصلاة

(١) كما في الصحيحين، واللفظ للبخاري، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَقُولُ: أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا؟، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تُرْجَى مَنْ نَشَأُ مِنْهُمْ وَتَقْوَى إِلَيْكَ مَنْ نَشَأُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مَعَنَ عَزَلَتْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قُلْتُ: مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ»، وفي لفظ لمسلم: «وَاللَّهِ مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ لَكَ فِي هَوَاكَ»، وفي لفظ له: «إِنَّ رَبَّكَ لَيُسَارِعُ لَكَ فِي هَوَاكَ».

والسلام هو أفضل وأكمل وأجمل وأحسن وأرقى أنواع الهوى على الإطلاق، وهو وصف كمال بهذا الاعتبار، وهذا القول هو الراجح، والله أعلم.

إذًا؛ فالهوى منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، بحسب طبيعة ونوعية ذلك الهوى المخالط للقلوب.

واحتجوا أيضًا بما جاء في الحديث الضعيف: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»، ونحن لا نحتج بهذا الحديث، وإنما ذكرناه استثناسًا، وللتعريف بضعفه كذلك، وإلا فالحجة بما تقدم في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها وأرضاهما.

وممن روي عنه هذا القول الإمام المفسر، أحد أعلم الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن؛ ألا وهو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه، ومما نُقِلَ عنه في ذلك قوله: «أنتم في زمان يقود الحقُّ الهوى، وسيأتي زمان يقود الهوى الحقَّ، فنعوذ بالله من ذلك الزمان!»^(١).

يريد أن الغالب على أهواء العباد في زمان الصحابة رضي الله عنهم أنها تميل مع الحق، وتركن إليه وتعمل به، فهي متبعة للهدى مِيَالَةً إليه، وسيأتي زمان بضد ذلك وخلافه، وليت شعري لعله هذا هو الزمان الذي يقصد، أو قريب

(١) تفسير القرطبي في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، قلت: ولم يذكر له مرجعًا ولا إسنادًا، ولم أجده مستندًا، فالله أعلم.

منه، نسأل الله العافية والسلامة.

ولهذا كان لزماً علينا أن نتعرف على هذا الأمر، عباد الله، وأن نَصُدِّقَ مع الله فيه، حتى تكون النجاة بإذن الله تعالى.
وتأمل قوله: «سيأتي زمان يقود الهوى الحق».

نعم، إنه حين تُلوَّى أعناق الأدلة والنصوص تحريفاً وتعطيلاً، وَيُتَحَايَلَ على الكتاب والسنة، وَيُتَأَوَّلان بالتأويلات الفاسدة الباطلة؛ كل ذلك بغية مسaire الهوى المذموم، وتطويماً للشرائع لَتُقَصَّلَ على مقاس الهوى لتمريره وتسويغه، فَتُسَرَّبَلُ الأهواء الفاسدة سربال الدين بَغِيًّا وَعُدْوَانًا، وَتَلَيِّسًا وَتَضْلِيلًا؛ كل هذا لكي يُبَرَّرَ كُلُّ واحدٍ من المُبْطِلِينَ باطله وبغيه وطغيانه^(١)؛ عياداً بالله من الخذلان!

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة النبوية»: «وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه؛ فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله؛ بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، ويكون مع ذلك معه شبهة دين: أن الذي يَرْضَى له وَيَغْضَبُ له أنه السُّنَّةُ، وهو الحق وهو الدين؛ فإذا قُدِّرَ أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام، ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قَصَدَ الْحَوِيَّةَ لنفسه وطائفته، أو الرياء؛ لِيُعْظَمَ هو ويثنى عليه، أو فعل ذلك شجاعة وطبعاً، أو لغرض من الدنيا؛ لم يكن لله، ولم يكن مجاهداً في سبيل الله.

فكيف إذا كان الذي يَدَّعِي الحق والسُّنَّةَ هو كُنْظِيرُهُ؛ معه حق وباطل وسنة وبدعة،

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: «والمعروف في استعمال الهوى عند الإطلاق: أَنَّهُ الميلُ إلى خلاف الحقِّ، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ٤١﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وقد يُطلق الهوى بمعنى المحبة والميل مطلقاً؛ فيدخل فيه الميل إلى الحقِّ وغيره، وربما استُعمل بمعنى محبة الحقِّ خاصة، والانقياد إليه.

وسئل صفوان بن عَسَّال: هل سمعتَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ يذكر الهوى؟ فقال: سأله أعرابيٌّ عن الرجل يُحِبُّ القَوْمَ ولم يلحق بهم، فقال: «المرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

ولمَّا نزل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تُرْجَىٰ مِنْ نَشَأٍ مِّنْهُمْ وَتَوَّيَ إِلَيْكَ مِنْ نَّشَأٍ﴾ ، قالت عائشة للنبي ﷺ: «ما أرى ربَّكَ إلا يُسَارِعُ في هواك».

وقال عمر في قصة المشاورة في أسارى بدر: «فَهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت»، وهذا الحديث مما جاء استعمال الهوى

= ومع خصمه حق وباطل وسنة وبدعة.

وهذا حال المختلفين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، وكفر بعضهم بعضاً، وفسق بعضهم بعضاً؛ ولهذا قال تعالى فيهم: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ٤ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ ٥﴾ [سورة البينة: ٤-٥] «... اهـ.

فيه بمعنى المحبة المحموده، وقد وقع مثل ذلك في الآثار الإسرائيلية كثيراً، وكلام مشايخ القوم وإشاراتهم، نظماً ونثراً؛ يكثر في هذا الاستعمال.

ومما يناسب معنى الحديث من ذلك قول بعضهم:

إِنَّ هَوَاكَ الَّذِي بَقْلَبِي صَيَّرَنِي سَامِعًا مُطِيعًا
أَخَذْتَ قَلْبِي وَغَمَضَ عَيْنِي سَلَبْتَنِي النَّوْمَ وَالْهُجُوعَا
فَكَذَرْتُ فَوَادِي وَخُذَرْتُ قَادِي فَقَالَ: لَا بَلْ هُمَا جَمِيعَا. اهـ.

إذاً؛ فالراجع في هذه المسألة، أن الهوى ينقسم إلى قسمين:

١- هوى محمود. ٢- هوى مذموم.

وكل بحسبه، والناس في ذلك مقل ومستكثر.

إذ كما تقدم أن الهوى هو الميل إلى الشيء ومحبتة، ثم الناس بعد ذلك فيه على درجات؛ فمنهم من يستغرق فيه حتى يكون مُتِمِّمًا عاشقًا، ومنهم من هو دون ذلك، بحسب قوة الداعي ودرجة الاستجابة، ثم بعد ذلك يتفاوتون فيه؛ فمنهم من لا يقبل به عدلاً، ولا يرضى عنه عوضاً، وقد امتلأت نفسه يقيناً به، ورضاً عنه وتصديقاً له، فتراه عاملاً به، داعياً إليه، صابراً عليه، جاداً في تحصيله، صادقاً في طلبه، وكل بحسبه فمقل ومستكثر.

وخير الهوى ورأسه: الميل إلى الهدى واعتناقه، والاستسلام والانقياد

له رغبة ورهبة، وأنسا وبهجة به، والموفق مَنْ وفقه الله تعالى، وهداه إلى أن يكون هو اه تبعاً لهداه، والله المستعان، نسأل الله من فضله العظيم.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ

الْعَذَابِ لَّهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، عياداً بالله من الخذلان!



المحور الثالث

بيان خطورة الهوى وعظيم ضرره

يقول العلماء: «إن الحكم على الشيء هو فرغ عن تصويره»؛ وعليه فلن نُحَسِّن التعامل مع الهوى حتى نتعرف عليه، ونقف على خطورته وحقيقته؛ فإن الذي لا يعرف خطورة الهوى لن يَكْتَرِث به؛ بل وسيقع في الهوى المذموم من حيث لا يشعر جهلاً به، لإعراضه عن معرفته ومعرفة خطورته، أو من حيث يشعر استخفافاً به، أو زهداً في اجتنباه والحذر منه، ومثل هذا سَتَجَارَى به الأهواء حتى تَسْتَحْكِمَ عَقْلَتَهُ، والعياذ بالله، إلا أن يتداركه ربه تبارك وتعالى برحمة منه وعفو، فيوفقه إلى الاستغفار والتوبة النصوح، والأوبة السريعة عن الغي والهوى إلى الهدى، نسأل الله تعالى العفو والعافية، والهداية والثبات على الهدى، حتى نلقاه به مقبلين غير مدبرين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وإن المتأمل في الأدلة الشرعية يجد أن الله ﷻ قد كفانا مئونة ذلك من قريب، وبأيسر سبيل، بفضلله ومَنِّه وكرمه؛ فمن رحمته تبارك وتعالى أن يَبَيِّنَ لعباده خطورة الهوى في مواضع متكاثرة من الكتاب والسنة، رحمةً منه ﷻ بهم؛ لعلمه تبارك وتعالى أن أعظم ما يهلك العباد هو اتباعهم للهوى

المذموم والعياذ بالله؛ إذ هو من أعظم مزالق ومداخل الشيطان، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

والآن، عباد الله، هيا بنا لتتعرف على بعض مخاطر الهوى وأضراره:

الخطر الأول: أن الهوى كان سبباً في إهلاك الأمم الماضية الغابرة:

التي إنما هلكت باتباعها لأهوائها، فَصَلَّتْ لما مالت إلى أهوائها الفاسدة المبطلّة، وعظّمتها وتمسكت بها؛ فعاشت في الدنيا المعيشة الضنك، ويوم القيامة إلى نارٍ تُلْطَى لا يصلّاها إلا الأشقي، يقول الله جل وعلا مبيّناً هذه الحقيقة: ﴿قُلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ﴿٧٧﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسِلُهم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ [التوبة: ٦٩، ٧٠].

فالله جل وعلا في هذه الآيات، وفي غيرها من الآيات؛ يبين حقيقة يجب ألا نغفل عنها، ألا وهي أن الأمم من قبلنا قد استمتعت بخلافها؛ أي بأهوائها الضالة المنحرفة، كما استمتعت الأمم من قبلهم بخلافهم، وخاضت بأهوائها الضالة المنحرفة كالذي خاضوا؛ فهلكوا والعياذ بالله!

وقد بين الله تبارك وتعالى أن من هذه الأمة من سيأخذ مأخذ الأمم من قبله، وسيسعى في تحكيم أهوائه الضالة المضلة، وسيجري عليه مثل ما جرى على أولئك؛ إذ قد عملَ بمثل أعمالهم حيث اتبعوا أهواءهم، عياداً بالله من الغواية بعد الرشد.

وقد نبّه النبي ﷺ على هذه الحقيقة، كما في «الصحيحين» من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟!»؛ أي: فمن المعني أصالة إلا أولئك.

فإذا كانت الأمم، ممن كانوا قَبْلَ اليهود والنصارى، قد هلكت بالهوى المذموم واتباعه؛ فإن اليهود والنصارى أيضاً هلكوا باتباع الهوى، وهو الخلاق المذكور في هذه الآيات، وإن فئاماً كثيرين من هذه الأمة أيضاً سيهلكون كذلك باتباعهم الهوى المذموم، والعياذ بالله.

فهذا خطرٌ عظيمٌ وشرٌ مستطير لا بد أن نكون على حذر شديد منه.

قال تعالى: ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ٥٩ ﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ٦٠ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ، بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ٦١ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ٦٢ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ٦٣ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ٦٤ ﴾ [مريم: ٥٩ - ٦٤].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتِيٍّ مِّنْ رَبِّهِ كَمَنْ ذُرِّيَّتُهُ لَهُ، سَوْءٌ عَمَلُهُ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٤].

وقال تعالى: ﴿ أَفْتَرَبِ السَّاعَةَ وَأَنشَقَّ الْقَمَرَ ١ ﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ٣ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ٤ حَكَمَهُ بِلَعْنَةٍ فَمَا تُعْنِ الْأَنْذَرُ ٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ ٦ ﴾ [القمر: ١ - ٦].

الخطر الثاني: أن الهوى غالباً ما يجعل العبد، يعيش بعيداً عن تحقيق العبودية التامة العامة لله رب العالمين:

وما ذلك إلا لأن الهوى يجعل العبد لا يفهم حقيقة العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، ولا يعي المعنى الحقيقي لـ «لا إله إلا الله محمد رسول الله»؛ ولهذا

قال الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ (١٣) ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَانِسَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ﴾ (١٥) ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ (١٦) ﴿طه: ١٣ - ١٦﴾؛ فهذه آيات صريحة بينة جليلة القدر، تدل على أن الهوى يجعل العبد يَغِيبُ عن المعنى الحقيقي للعبودية التامة العامة لله الواحد القهار؛ ولهذا حذر الله منه، وذكره في سياق بيان العبودية الحقة، والقيام بها له تبارك وتعالى؛ فقال: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ (١٦) .

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ (٢٨) ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنِ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (٣٠) [الكهف: ٢٨ - ٣٠].

والله جل وعلا يقول في كتابه العزيز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ (٥١) [الذاريات: ٥٦].

ويقول ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) ﴿فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] الآية.

ويقول ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٣) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٦٣) [الأَنْعَام: ١٦٢، ١٦٣].

هكذا يبين الله تعالى حَقَّه لِعِبَادِهِ لِيَقُومُوا بِهِ، إِلَّا أَنْ الْهُيُوتَ يَجْعَلُ صَاحِبَهُ بِمَعَزَلٍ عَنْ فَهْمٍ مِثْلٍ هَذِهِ النُّصُوصِ الْوَاضِحَاتِ الْبَيِّنَاتِ؛ فَيَغِيبُ عَنِ الْعَبْدِ هَذَا الْمَفْهُومَ الْعَامَّ لِلْعِبَادِيَّةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حَتَّى يَتَّخِذَ مِنْ هَوَاهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ مُتَّبِعًا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَلَا يَهْوِي شَيْئًا إِلَّا تَبِعَهُ وَعَبَدَهُ، عِبَادًا بِاللَّهِ^(١)!

(١) جاء في كتاب «كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ» لِابْنِ رَجَبِ الْحَنْبَلِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ وَرَدَ إِطْلَاقُ الْإِلَهِ عَلَى الْهُيُوتِ الْمُتَّبَعِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾»، قَالَ: هُوَ الَّذِي لَا يَهْوِي شَيْئًا إِلَّا رَكْبَهُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ الَّذِي كُلَّمَا هَوِيَ شَيْئًا رَكْبَهُ، وَكُلَّمَا اسْتَهْوَى شَيْئًا أَتَاهُ، لَا يَحْجُزُهُ عَنْ ذَلِكَ وَرَعٌ وَلَا تَقْوَى، وَرَوَى مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ: «مَا تَحْتَ ظِلِّ سَمَاءٍ إِلَهٍ يَعْبُدُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ هَوًى مُتَّبَعٍ»، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «لَا تَزَالُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَدْفَعُ عَنْ أَصْحَابِهَا، حَتَّى يُوَثِّرُونَ دُنْيَاهُمْ عَلَى دِينِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ رُدَّتْ عَلَيْهِمْ، وَيَقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ».

وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا تَنْتَقِشُ»، فَذَلِذَا عَلَى أَنْ كُلِّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا وَأَطَاعَهُ، وَكَانَ غَايَةً قَصْدَهُ وَمَطْلُوبَهُ، وَوَالِيٌّ لِأَجَلِهِ وَعَادِيٌّ لِأَجَلِهِ؛ فَهُوَ عَبْدُهُ، وَكَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ مَعْبُودَهُ وَإِلَهَهُ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى طَاعَةَ الشَّيْطَانِ فِي مَعْصِيَتِهِ عِبَادَةً لِلشَّيْطَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَعْهَدُ إِلَيْكُمْ بَيْنِي عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠]، وَقَالَ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَتَّبَعُ لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]؛ فَمَنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ بِعِبَادِيَّةِ الرَّحْمَنِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهُ

ولهذا ليس بعجيب أن نجد في عالمنا اليوم بعض العباد، ممن يتسبب إلى الإسلام، يَحْضُرُ الدين والعبادة في دُورٍ مُعَيَّنَةٍ، وأعمال مخصوصة؛ وذلك من جرّاء اتباعه للهوى، والعياذ بالله، الهوى الذي جعله يتقي من الدين ما يروق له ويهواه، ويتنكر أو يتغافل عما لا يوافق هواه، قد جعل القرآن عِضِينَ فَفَرَّقَهُ، فاتبع بعضه وتنكّر لبعضه، عيادًا بالله من هذا الخُلُقِ الخبيث المُردِي.

وبعضهم من شدة زُهدِه في تعلُّم الهدى، أصبح لا يعرف عن الدين إلا ما يهواه، ويظن أنه ما كُفِّفَ إلا بذلك؛ فالهوى المذموم جعله يعيش

= يعبد الشيطان بطاعته له.

ولم يَخْلُصْ من عبادة الشيطان إلا من أخلص عبودية الرحمن، وهم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٩٢]، فهم الذين حققوا قول: «لا إله إلا الله»، وأخلصوا في قولها، وَصَدَّقُوا قَوْلَهُمْ بِفِعْلِهِمْ؛ فلم يلتفتوا إلى غير الله، محبةً، ورجاء، وخشية، وطاعة، وتوكلًا، وهم الذين وَصَدَّقُوا في قول: «لا إله إلا الله»، وهم عباد الله حقًا. فأما من قال: لا إله إلا الله بلسانه، ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته؛ فقد كَذَّبَ فِعْلُهُ قَوْلَهُ، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله، في طاعة الشيطان والهوى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٦٢]، فيا هذا، كُنْ عبد الله، لا عبد الهوى؛ فإن الهوى يهوي بصاحبه في النار: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَتَفَرِّقُونَ خَيْرًا أَمَرَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّاتُ﴾ [يوسف: ٣٩]، «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار»، والله لا ينجو غداً من عذاب الله، إلا من حقّق عبودية الله وحده، ولم يلتفت إلى شيء من الأغيار، من عِلِمَ أن معبوده الله فردٌّ؛ فَلْيُفَرِّدْهُ بالعبودية: ﴿وَلَا تَتَّخِذْ لِكُلِّ عِبَادَةٍ رَبًّا وَاحِدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، اهـ.

بعيداً عن تحقيق المعنى الحقيقي التام العام لـ «لا إله إلا الله».

ألا فلنعلم جميعاً: أن هذه الكلمة الطيبة ليست مجرد كلمة تقال بالألسن؛ بل هي واقع يُعاش، وعلم يُتَعَلَّم ليعمل به، ومنهج متكامل للحياة! قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

إذاً هذا خطرٌ عظيم يقع فيه صاحب الهدى، يوم أن يعيش بعيداً عما خُلق لأجله.

ففي الهدى الاستسلام العام التام لله، ومع الهدى يتبع بعض الاستسلام، حتى يفضي بالعبد إلى الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض.

أيها الإنسان، أما خُلِقْتَ لتعبد الله تعالى؟! إذاً فكيف تعيش بعيداً عما خلقت لأجله؟! ألم تعلم أنك ما خلقت لشيء سوى عبادته ﷻ؛ لا لجمع الأموال، ولا لكري الأنهار والأشجار، ولا للمنافسة في الجاه والسلطان، ولا للتفاخر بالأزواج والأولاد، والأحساب والأنساب، ولا للجري وراء شيء من هذا العرض الفاني.

إنما خلقنا الله فقط لنعبده وحده لا شريك له، هذه هي وظيفتنا الحقيقية أجمعين في هذه الحياة الدنيا.

ويجب علينا أن نتذكر دائماً، أن كل أمر يُغفلنا عن وظيفتنا، ويُبعدنا عنها؛ لا شك أنه أمرٌ خطير للغاية، وأنه لا بد أن نحذر منه غاية الحذر، وأن نبتعد عنه كلّ البعد، مهما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، والله تعالى يقول مبشراً عباده المجاهدين في سبيل تحقيق مرضاته: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٦٩] العنكبوت.

ولنعلم أن مجاهدة الهوى تتضمن العمل على تغيير الطباع ومخالفة العوائد، التي أملاها الهوى على صاحبها؛ حيث قد مكث معها زماناً طويلاً، ومن هذه الحِثِّيَّة تكون مجاهدة الهوى فيها نوع من الشدة على النفس؛ بل قد تكون على العبد من أشد أنواع المجاهدة والصبر والمُصابرة، ولكن إذا علم العبد خطورة الهوى؛ استسهل الصعب، وانقادت له النفس، بإذن الله تعالى.

ومن جميل ما قاله أحدهم:

أشدُّ الجِهَادِ جِهَادُ الهوى وَمَا كَرَّمَ المرءَ إِلَّا التَّقَى

صفات عباد الرحمن:

قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [١٣] وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [١٥]

إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ
بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَّدْ فِيهِ مُهَسَّنًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا
فَأُولَئِكَ يَدْعِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا
كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾
وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَةً آعِيبَ وَاجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْرِبُونَ الْعُفْرَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا
نَجْمَةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ
رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴿[الفرقان: ٦٣-٧٧].

الحقوق العشرة:

إنها الوصايا الكبار الحسان التي أوصى الله تعالى عباده أجمعين بها،
فتأملها في هذه الآيات الثلاث، ثم احرص كل الحرص على العمل بها؛
لتكون من الذين يعقلون ويتذكرون ويتقون الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَكَلَّوْا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا
تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ
نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا

تَقْنُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾
وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ
ذَا قُرْبَىٰ وَيَعْهَدُ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ
ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

الخطر الثالث: أن الهوى يُنسي العبد الدار الآخرة، ولقاء الله تبارك وتعالى:

فالهُوى يجعل العبدَ يعيش الغفلة بكل معانيها، ويقدر ما عنده من الهوى المذموم بقدر ما يكون عنده من الغفلة؛ ولكثرة اتباع الهوى في هذه الأيام وكثرة عرضه والترغيب فيه؛ كثُرَت الغفلة في العباد اليوم، والعباد بالله!

ولكنها الغفلة عن ماذا؟ إنها الغفلة عن أعظم أمرٍ يجب أن نعتني به، وأن يكون حاضراً في أذهاننا وحياتنا؛ ألا وهو عبادة الله ﷻ، والتفكير في الدار الآخرة، ولقاء الله ﷻ، وتذكر الجنة والنار؛ ولهذا كم من الملايين اليوم يَجْرُونَ وراء الهوى، وكم من الملايين اليوم يعيشون الغفلة! إلا من رحم الله وقليل ما هم، والسبب في ذلك تجاريهم مع الهوى، ومسارعتهم فيه، وركونهم إليه؛ حتى وقعوا في الورطة حين عاشوا الغفلة، والعباد بالله، نسأل الله العافية والسلامة؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَأَذْكُرَنَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، فاحذر الحذر! فإن من يتجارى

مع الهوى سيعيش الغفلة ولا بد، والعياذ بالله، حتى يصير إلى حياة البهائم؛ بل أضل، كما تقدم.

نوعا الغفلة في الذكر الحكيم:

الغفلة نوعان:

١- غفلة هي بمعنى الجهل بالمعلومة وحكم المسألة: فهو ذاهل عنها والذهن خال عنها تمامًا، وهذه إذا لم تكن عن إعراض وعناد؛ فصاحبها معذور عند الله تعالى حتى تُقام عليه الحجة، وسواء كان ذلك في الأصول أو في الفروع؛ لكونها لم تُعرض له ولم تُعرض عليه؛ ولهذا أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللِّتِّينِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۚ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۝١٦٤ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٦٥ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝١٦٦﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٦].

وفي هذا النوع من الغفلة يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ

رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى يَظْلِمِ أَهْلَهَا غَافِلُونَ ۝١٣﴾ [الأنعام: ١٣١].

٢- غفلة عن قصد وعمد: وهي التي تكون عن إعراض أو استكبار أو عناد ونحو ذلك من المعاني؛ فالحق قد عُرض عليه، ثم أعرض عنه والعياذ بالله! فلا عذر للعبد في هذه الغفلة التي جنى بها على نفسه، فهي مما عملت يداه وكسبته نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].
وقال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَّعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].
وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

وفي هذا النوع من الغفلة يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [٧] أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [يونس: ٧، ٨].

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى
قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ
أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ [النحل: ١٠٦ - ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ
لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ
أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وجمع بينهما تبارك وتعالى في قوله تعالى: ﴿يَسَّ ١﴾ وَالْقُرْآنَ
الْحَكِيمَ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ
﴿٥﴾ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَنتَ بِأَبَاوَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾

[يس: ١ - ٨].

ففي بادئ الأمر قبل النذارة كانوا محللاً لها بدعوتهم إلى الهدى، ثم لما
أعرضوا صاروا إلى الأخرى فحق عليهم القول، عياداً بالله من الخذلان!

الهوى وعبادة الدنيا:

بل إن بعض المتبعين للهوى سيتجارى بهم حتى يصبح عبداً للدنيا؛
بدلاً من أن يكون عبداً لله رب العالمين، وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ؛

بل وصرح عليه الصلاة والسلام.

كما في «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ؛ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَبِكَ فَلَا انْتَقَشَ، طَوَّيَ لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُعْبِرَةً قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

وهكذا يصير حال العبد الذي يتبع هواه إنه سيكون عبداً للدنيا؛ إذ فيها يوالي وفيها يعادي، ولها يرضى ولها يسخط، وتراه مشغولاً بها حتى الثمالة؛ فلا وقت لديه ليقيم دينه، ولا أن يعمل به وله؛ بل ولا أن يفكر فيه، عياداً بالله من الخذلان، وما أكثر مَنْ هذه حاله اليوم! والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

وما أحسن قول الناظم:

أَبْتَيَّ إِنَّ مِنَ الرِّجَالِ بَهِيمَةً فِي صُورَةِ الرِّجْلِ السَّمِيعِ الْمُبْصِرِ
فَطِنٌ بِكُلِّ مُصِيبَةٍ فِي مَالِهِ وَإِذَا أَصِيبَ بِدِينِهِ لَمْ يَشْعُرْ

الخطر الرابع: أن الهوى يورث العبد المَهَانَةَ:

فالهُوَى سرُّ الهوان، عباد الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ سَمْعُوتٌ أَوْ يَعْقُوبُ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَآلُ نَعْمٍ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٤﴾ [الفرقان: ٤٤]؛ فلا

يزال الهوى بصاحبه حتى يُصَيِّرُهُ أَهَوْنَ عَلَى اللَّهِ بِكَرَّكَكَ مِنَ الْجُعْلَانِ، الَّتِي تَدْفَعُ النَّتْنَ بِأَنْفِهَا؛ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ!

ولنعلم أن هناك تلازمًا وثيقًا بين الهوى والهوان.

ولهذا قال قائلهم:

إِنَّ الْهَوَانَ هُوَ الْهَوَى قُلُوبِ اسْمِهِ فَإِذَا هَوِيَتْ فَقَدْ لَقِيَتْ هَوَانًا
وَقَالَ أَحَدُهُمْ مَرَّةً: «الهوى هو الهوان، سرقت نونه»؛ أي: إذا أتيت
بكلمة الهوان، واختلست منها حرف النون؛ صارت الهوى؛ فهناك تلازم
وثيق بين الهوان والهوى؛ فبقدر ما في القلب من الهوى المذموم، بقدر ما
يكون العبد مَهِينًا، والعياذ بالله، عند الله تبارك وتعالى.

وهنا سؤال يطرح نفسه ملحقًا بالإجابة عنه؛ ألا وهو: هل للهوى
حُدُود يقف عندها، عباد الله؟

إِنَّ الْجَوَابَ الصَّرِيحَ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ هُوَ: كَلَّا أَبَدًا، لَيْسَ لِلْهَوَى الْمَذْمُومِ
حَدٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَصِلَ بِالْعَبْدِ إِلَى دَرَجَةِ الْخُرُوجِ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.
وهذه هي بُعْيَةُ الشَّيْطَانِ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْهُ؛ فَإِنَّ النُّفُوسَ تَتَوَقَّعُ إِلَى مُزِيدٍ
مِنَ الْهَوَى، وَتَتَطَلَّبُهُ أَكْثَرُ وَأَكْثَرُ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ!

ولهذا قال قائلهم:

وَالنَّفْسُ إِنْ أَتَيْتَهَا مِنْهَا فَاعِزَّةٌ نَحْوُ هَوَاهَا فَاهَا

فهي تريد المزيد، لا تكل ولا تمل، تريد أن تعب منه أكثر وأكثر، كلما وجدت إليه سبيلاً، عياداً بالله! فالحذر الحذر من ذلك؛ فإن الحذر من ذلك يعد من أعظم سبل النجاة، وأوائل طريق الفلاح بإذن الله جل وعلا.

الهوى لن يغني عن صاحبه شيئاً، وإن كثر أهله:

قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مَلَّتْهُمْ قُلُوبُ ۚ هَٰذَا هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أُنزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۝﴾ [الرعد: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ۝١٩ هَٰذَا بَصَرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْقَوْمِ يُوقِنُونَ ۝٢٠﴾ [الجاثية: ١٨-٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمَنَاجِيَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا

فَيَنْتَعِثُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَهَنَّمِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿[المائدة: ٤٨-٥٠].

وجاء في «الإبانة الكبرى» لابن بطة، عن ميمون بن مهران، قال: «إياكم وكل هوى يسمى بغير الإسلام».

وروى ابن الجوزي في ذم الهوى، عن معاوية بن صالح أنه قال: «المروءة ترك اللذة، وعصيان الهوى».

الخطر الخامس: أنه يتسلط على أهم عضو في جسدك ألا وهو القلب:

ألا ترى أن كل مرض يهون عند صاحبه، إذا ما قُورِنَ بمرض القلب! فإذا بلغ المرض القلب عاش العبد الهم والغم، وتنغصت معيشته، وأنفق الأموال الطائلة للتداوي من هذا الداء العضال، الذي أصاب أهم عضو في جسده، وإذا كان هذا الخوف والقلق في جانب المرض الحسي في الأبدان؛ فلا شك أن ما يصيب الجانب المعنوي، الذي هو الدين والهدى؛ أعظم وأشد ضرراً وأعظم خطراً.

فكما أن هناك أمراضاً حسية تصيب القلب؛ فإن هناك أمراضاً أخطر وأفظع تصيبه كذلك؛ كالشرك، والكفر، والنفاق، والحسد، والكبر، والرياء،

ونحو ذلك من أدواء القلب المعنوية، التي لا تقارن أبدًا بأدواء البدن الحسية، وكلها أساسها وأسها الهوى المذموم.

إذاً فمن مخاطر هذا الداء العضال: أنه يتسلط على القلوب والعياذ بالله؛ فيطفئ فيها نور الفطرة أو يضعفه، ويعمي البصيرة أو يضعفها، نسأل الله العافية والسلامة.

وقد أخبر النبي ﷺ أن الهوى يكثر في آخر الزمان، ويتسارع فيه العباد، والعياذ بالله، كما في «صحيح مسلم» عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ: أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتْنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ، فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ؟ قَالُوا: أَجَلْ، قَالَ تِلْكَ تُكْفِرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّيَامُ وَالصَّدَقَةُ، وَلَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتْنَ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ، قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ، فَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: أَنْتَ اللَّهُ أَبُوكَ! قَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكَيْتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكَيْتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا؛ فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجَحِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ».

قَالَ حُذَيْفَةُ: وَحَدَّثَنِي أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابٌ مُغْلَقٌ، يُرْشِكُ أَنْ يُكْسَرَ، قَالَ

عُمَرُ: أَكْسَرَا لَا أَبَا لَكَ! فَلَوْ أَنَّهُ فُتِحَ لَعَلَّهُ كَانَ يُعَادُ، قُلْتُ: لَا؛ بَلْ يُكْسَرُ، وَحَدَّثَنِي أَنَّ ذَلِكَ الْبَابَ رَجُلٌ يُقْتَلُ أَوْ يَمُوتُ؛ حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَعْلِيَّ، قَالَ أَبُو خَالِدٍ: فَقُلْتُ لِسَعْدٍ: يَا أَبَا مَالِكٍ، مَا أَسْوَدُ مُرْبَادًا؟ قَالَ: شِدَّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ، قَالَ: قُلْتُ: فَمَا الْكُوزُ مُجَحِّيًا؟، قَالَ: مَنُكُوسًا.

معاني بعض الكلمات:

المبجحي: المائل عن الاستقامة والاعتدال.

المُربادُ: المتغير سواده بكُدْرَة.

الصفاء: جمع الصفاة؛ وهي الصخرة الملساء.

فهذا الحديث يحكي حالة قلوب بعض العباد مع الفتن، وكيف أن الهوى يميل بهذه القلوب شيئًا فشيئًا إلى الهلكة، والعياذ بالله؛ حتى تصبح مخالفتهم للحق ظاهرةً بينة، فتراهم يتبعون الهوى في كل صغير وكبير؛ فهو شعارهم المقدم عندهم، والعياذ بالله؛ فهم يتجاوزون مع هذه الفتن التي تعرض على قلوبهم، فيركنون إليها فتنةً فتنةً؛ اتباعًا للهوى، وميلًا بقلوبهم إلى هذه الفتن؛ والعياذ بالله.

ولهذا يقول النبي ﷺ كما في «الصحيحين» من طريق زكريا عن

الشعبي عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْحَلَالُ بَيْنَ

والحرام بين، وبينهما أمورٌ مشتهيات لا يعلمهن كثير من العباد؛ فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه»، ثم قال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

وفي الحديث الذي في «صحيح الإمام مسلم»^(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الزَّانَا، مَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَالْعَيْنَانِ زَانَاهُمَا النَّظْرُ، وَالْأُذُنَانِ زَانَاهُمَا السَّمْعُ، وَاللِّسَانُ زَانَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زَانَاهُ الْبَطْشُ، وَالرَّجُلُ زَانَاهُ الْخَطْأُ، وَالْقَلْبُ يَهُوئِيلُ وَيَتَمَنَّى، وَيَصْدُقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيَكْذِبُهُ؛ فَلاَحِظْ كَيْفَ أَنْ النَّبِيَّ ﷺ جَعَلَ الْمَعْوَلَ عَلَى مِيلِ هَذَا الْقَلْبِ، وَهُوَ الْهُوَى يُسَاكِنُهُ وَيَخَالِطُهُ، ثُمَّ يَتَصَرَّفُ فِيهِ وَيَعْصَفُ بِهِ؛ عِيَاذًا بِاللَّهِ.

فلننظر، عباد الله، إلى ماذا تميل قلوبنا؟ أتميل إلى الخبث والفاحشة والإفساد في الأرض؟ أم تميل إلى معاندة الهوى ومخالفته لتكون النجاة؟!

وتأمل قوله ﷺ: «والقلب يهوئ ويَتَمَنَّى، والفَرْجُ يَصْدُقُ ذَلِكَ أَوْ يَكْذِبُهُ».

فعلينا، عباد الله، أن نعلم علم اليقين أن صلاح قلوبنا يعني صلاحنا،

(١) قلت: وهو في «الصحيحين» مختصراً من رواية ابن عباس عن أبي هريرة بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّانَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَرَزْنَا الْعَيْنَ النَّظْرَ، وَرَزْنَا اللِّسَانَ الْمُنْطِقَ، وَالنَّفْسَ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجَ يَصْدُقُ ذَلِكَ كُلُّهُ وَيَكْذِبُهُ».

وأن فسادها هو فسادنا.

وإن من رحمة الله جل وعلا أنه قد جعل في القلوب فطرة سوية فطر العباد عليها، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو يمجسانه، أو ينصرانه».

وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالًا، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبُهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لَأُبْتَلِيكَ، وَأُبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرُؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَان...» الحديث.

فالله ﷻ خلقنا على الحنيفية السمحة، على ملة إبراهيم ﷺ، على الفطرة السوية الكاملة، على حب الخير والميل له، وقبوله، واعتناق الهدى، إلا أن هذه الفطرة إن عَمِلْنَا على تخريبها؛ تخربت وانحرفت.

ولما كان الهوى من أعظم جند إبليس؛ فإنه لا يلبث أن يأتي الهوى فيُخرب تلك الفطرة، والعياذ بالله!

فالحذر الحذر، أخي المسلم وأختي المسلمة، من أن نجلب لهذه القلوب

ما يفسد عليها فطرتها السوية ويخربها؛ فنكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْبِرِّ أَكْثَرُ مِنَ الْفَاسِقِ أَكْثَرُ﴾ ﴿٣٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسِكُ الْقَرَارُ ﴿٣٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٤٠﴾ [إبراهيم: ٢٨ - ٣٠]!

قال الحافظ ابن مفلح في «الآداب الشرعية»: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْقُلُوبَ تَضَعُفُ وَتَمَرُضُ وَرُبَّمَا مَاتَتْ بِالْغَفْلَةِ وَالذُّنُوبِ، وَتَرِكَ إِعْمَالِهِ فِيمَا خُلِقَ لَهُ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الْمَطْلُوبَةِ شَرْعًا، وَأَعْظَمُ ذَلِكَ الشَّرْكُ، وَتَحْيَا وَتَقْوَى وَتَصِحُّ بِالتَّوْحِيدِ وَالْيَقَظَةِ وَإِعْمَالِهِ فِيمَا خُلِقَ لَهُ، وَالضَّدُّ يَزُولُ بِضِدِّهِ، وَيَنْفَعِلُ عَنْهُ عَكْسُ مَا كَانَ مُنْفَعِلًا عَنْهُ.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ وَقَدْ يُورِثُ الذَّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرِكَ الذُّنُوبِ حَيَاةَ الْقُلُوبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِضْيَانُهَا

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَوْ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ^(١): «إِنَّ

(١) هذا الحديث بهذا اللفظ غير موجود، وإنما الموجود ما رواه مسلم في صحيحه وسبق إيرادُه عن حذيفة ونصه: «تُعَرِّضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ يُعَرِّضُ

الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ نَكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءٌ، ثُمَّ إِذَا أَذْنَبَ نَكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءٌ؛ حَتَّى يَبْقَى أَسْوَدُ مُرَبَّدًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ؛ فَالْهُوَى أَعْظَمُ الْأَذْوَاءِ وَمُخَالَفَتُهُ أَعْظَمُ الدَّوَاءِ. اهـ.

الناس شركاء في الحرث والهم:

وهنا مسألة يجب التنبيه لها: ألا وهي أن هناك خصلة يجتمع فيها العباد كلهم، فكل الناس يشتركون فيها؛ ألا وهي خصلة الهم والحرث، فما من عبد إلا وهو يعمل، أو يفكر أن يعمل، ومدة هذا الحرث والهم ومُضْمَرُهُ هي أعمارنا، التي نغدو فيها جميعًا طاعنين إلى الله تعالى.

يقول النبي ﷺ في هذا الشأن، والحديث في صحيح الإمام مسلم من طريق يحيى بن أبي كثير عن سلام عن أبيه عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كلُّ الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها».

فالعباد كلهم يشتركون في خصلة الغدو؛ أي: كلهم يسيرون حثيثاً

= أَشْرَبَهَا، نَكِتَ فِيهِ نُكْتَةً سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نَكِتَ فِيهِ نُكْتَةً بَيْضَاءَ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرَبَّدًا كَالْكُوزِ، مُبْجَحِيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ.

لِلْقَاءِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَكَلْنَا لَنَا أَعْمَارَ نَقْطَعُهَا، وَنَقْتَرِبُ فِيهَا مِنْ لِقَاءِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ فَهَذَا الْيَوْمَ الَّذِي نَحْرُصُ عَلَى كِتْمِ أَنْفَاسِهِ، وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِ، وَالتَّخْلُصِ مِنْهُ؛ يَعْنِي: أَنَّكَ قَدْ تَرَكْتَ الدُّنْيَا وَرَاءَكَ بِمَقْدَارِ يَوْمٍ، وَاقْتَرَبْتَ مِنْ لِقَاءِ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَقْدَارِ يَوْمٍ!

ولهذا قال فضيل بن عياض لرجل: «كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة، قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك، توشك أن تبلغ، فقال الرجل: يا أبا علي، إنا لله وإنا إليه راجعون، قال له الفضيل: تعلم ما تقول؟ قال الرجل: قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون. قال الفضيل: تعلم ما تفسيره؟ قال الرجل: فسّره لنا يا أبا علي، قال: قولك: إنا لله؛ تقول: أنا لله عبد، وأنا إلى الله راجع؛ فمن علم أنه عبد الله وأنه إليه راجع؛ فليعلم بأنه موقوف، ومن علم بأنه موقوف فليعلم بأنه مسئول، ومن علم أنه مسئول فليعد للسؤال جواباً! فقال الرجل: فما الحيلة؟ قال: يسيرة، قال: ما هي؟ قال: تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى وما بقي؛ فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضى وما بقي!»^(١).

فكل الناس إذن يغدو، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «فبائع نفسه؛ فمُعْتَقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا»؛ هذه هي الخصلة الثانية التي يشترك فيها العباد كلهم؛ فإن الكل سوف يبيع، كلنا سنبيع عباد الله، ولكن منا من سيبيع فيريح البيع؛ نسأل من فضله العظيم، ومنا من سيبيع فيخسر؛ والعياذ بالله.

(١) «حلية الأولياء» (٨ / ١١٣).

فمن باع نفسه لله ﷻ ليشترى مرضي الله ﷻ، ويتقرب إلى الله تعالى بالطاعات والقربات؛ فقد ربح البيع، ومن باع نفسه للشيطان والهوى؛ فقد خسر البيع؛ عياداً بالله تعالى من الخسران.

ف«كل الناس يغدو فبائع نفسه»؛ أي والله، عباد الله؛ «فمعتقها» أي: معتق رقبتها من نار تلظى، لا يصلها إلا الأشقي، «أو موبقها» أي: إذا باع نفسه لأعدائه، والعياذ بالله، هذه هي الحقيقة التي لا تقبل مراوغة وتحايلاً، عباد الله؛ فلا نخادع أنفسنا؛ فالأمر جد ليس بالهزل!

فلينظر كل واحد منا فيم يقطع عمره ولمن باع نفسه، ولا بد أن تكون الإجابة، عباد الله صريحة وواضحة وأنت حي؛ فإن الإجابة بعد الموت لا تنفع صاحبها طرفة عين أبداً، وسيطلب أقوام الرجعة فلا يرجعون، والاستعتاب فلا يُعتبون؛ كما قال تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۚ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُؤْتَىٰ عَذَابٌ سَاعَةً ۚ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۝٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٥٦﴾ فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذَرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْعُمُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ

حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَا الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ [الروم: ٥٥-٦٠].

نعم، عباد الله: إيانا أن يستخفنا الذين لا يعلمون؛ فَيَسْتَفْزِنُونَا إِلَى الموبقات! وَيُقْلِقُونَا إِلَى المحبطات والمهلكات؛ فإنه ليس هناك مجال للرجوع ولا إمكانية للعودة، وما ثمة من سبيل إلى الاستعتاب، عباد الله؛ فالله الله في إحسان العمل اليوم، قبل ألا يكون دينار ولا درهم! فإنما الدنيا يوم وثانٍ، وتأتينا بعدها الأنباء، فإما من السعداء أو من الأشقياء!

أَسْأَلُ الله تعالى أن يجعلنا من سعداء الدارين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والهادي إليه!

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

الخطر السادس: أن الهوى جند من جنود إبليس النجباء:

فإبليس يُسَحِّرُ هذا الهوى، ويستعمله في إضلال العباد؛ ولهذا نجد كثيراً من الناس اليوم يتبعون الشيطان وأعوانه، مع أن الله جل وعلا قال في كتابه العزيز عن كيد الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وهذه العلاقة بين الشيطان والهوى تمكنا من الإجابة على تساؤل،

قد يرد على بعض الأذهان؛ ألا وهو: كيف يصف الله جل وعلا كيد الشيطان بالضعف، مع أن كثيرًا من العباد قد وقعوا في شركه وحبائله؛ بل وصدق على كثير منهم ظنه فاتبعوه، عيادًا بالله؟!

فالجواب: أن هذا يتضح، وبجلاء، عندما نتعرف على هذه العلاقة الخطيرة، والورطة العظيمة؛ عندما يقترن كيد الشيطان من الخارج مع الهوى من الداخل؛ فيحيط بالعبد عدوان متطافران متناصران.

نعم، إنه كما وصف الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦)، إنه كيد ضعيف، ولكنه إذا وافق بيئة خصبة، نشأ وترعرع فيها ذلك الكيد؛ فصار وبأله عظيمًا، وضرره مستطيرًا، والعياذ بالله.

فقد جبل الله ﷻ ابن آدم، فيما جبله عليه من الهوى ابتلاءً وامتحانًا: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]؛ وليعلم الله جل وعلا من يختار العبودية لله ﷻ على غيره تبارك وتعالى، ويسير راضيًا مطمئنًا إلى الحق تبارك وتعالى، والآخر الذي ارتمي في أحضان الهوى، فمال مع الشيطان، والعياذ بالله؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَوْمُنَا بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿١١﴾ [سبا: ١٩، ٢٠]؛ لكي تتمايز الصفوف ولتستبين سبيل المجرمين.

كما قال تعالى: ﴿الْم ۝ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ

لَا يُفَقِّهُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِهُنَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ لَاقٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ [العنكبوت: ١-٦].

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

نعم، ليُعْلَمَ من الذي يجاهد هواه الذميمة، ويركن إلى الرحمن الرحيم تبارك وتعالى، ومن الذي يساير هواه الذميمة، ويركن إلى الشيطان الرجيم، والعياذ بالله؛ فلا سواء، عباد الله، بين الفريقين!

فرح الشيطان بالهوى:

ولهذا فرح الشيطان بهذا الهوى فرحاً كبيراً، وقد جاء ما يشير إلى هذا، كما في «صحيح الإمام مسلم» في الحديث الذي أخرجه من طريق حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتِمَّالُكَ».

نعم إنه جاء لينظر ما هو هذا المخلوق الذي خلقه الله تعالى بيده؟، وفي بعض روايات بني إسرائيل، التي ذكرها ابن كثير في تفسيره: أن إبليس خاطب

آدم قائلاً، وهو لم ينفخ فيه الروح بعدُ، قال له: «لقد خُلِقْتَ لأمر عظيم، ولكن والله لئن سُلِّطْتُ عليك لأهلكنك، ولئن سُلِّطْتُ علي لأعصينك!».

فالعداوة، عباد الله، إذاً قديمة جدًّا؛ فهي ضاربة في عمق التاريخ، وذلك منذ أن أكرم الله تعالى آدم فخلَّقه الله تبارك وتعالى بيديه الشريفتين وصَوَّرَهُ وَعَدَّكَ، وقد أبدى هذا العدو اللدود هذه العداوة؛ حتى قبل أن ينفخ في آدم ﷺ الروح، وذلك في قوله ﷺ: «فجعل إبليسُ يُطِيفُ به ينظر ما هو؟ فلما رآه أجوف عرف أنه خلُق خلقًا لا يتمالك»؛ أي: سوف يستميله ويأخذه معه بذلك الهوى.

خطبة الشيطان في أتباعه الذين اتبعوا الهوى دون الهدى:

وإذا كان هذا الحديث يتكلم عن المبدأ؛ فقد ذكر الله تعالى في القرآن العظيم ما سيكون في المعاد؛ حيث ذكر الله جل وعلا في كتابه العزيز الخطبة التي سوف يلقيها الشيطان، والعياذ بالله؛ في أتباعه في نار جهنم.

جاء في جامع البيان (تفسير الطبري): «عن عامر الشعبي في هذه الآية: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتَ بِمُصْرِخِي﴾ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ»، قال: «خطيبان يقومان يوم القيامة، إبليس وعيسى ابن مريم؛ فأما إبليس فيقوم في حزنه فيقول هذا القول، وأما عيسى ﷺ فيقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنَّ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا

مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾
[سورة المائدة: ١١٧] . انتهى .

وروى فيه أيضًا عن الحسن البصري رحمه الله تعالى، قال: «إذا كان يوم القيامة، قام إبليس خطيبًا على منبر من نار، فقال: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِينَ﴾، قال: بناصري، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾، قال: بطاعتكم إياي في الدنيا». انتهى.

نعم، عباد الله، فلتأمل في هذه الآية: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾؛ أي انتهى الأمر؛ فذهب أهل الجنة إلى الجنة، وذهب أهل النار إلى النار؛ فسقي وسعيد؛ فمن أخذ كتابه باليمين، نسأل الله من فضله العظيم، ومن أخذ كتابه بالشمال، نسأل الله العافية والسلامة، عندها يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ .

نعم، عباد الله، فإننا ما رأينا أحدًا من الناس قد أشهرَ الشيطان عليه سيفًا وسلهً وهدده وقاده إلى العصيان! هل رأينا ذلك؟ كلا والله ما رأيناه، وما رأينا أحدًا أوثقه الشيطان في القيود وكَبَلَه بالسلاسل حتى لا يجيب داعي الله ﷻ إلى الصلوات والقربات والطاعات، هل رأينا ذلك عباد الله؟! كلا والله ما رأيناه؛ ولهذا قال: ﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾؛ أي: وسوست لكم، فوافق وسواسي

هواكم، فمِلْتُمْ إِلَىٰ وَسْوَاسِي بَقُلُوبِكُمْ، وَرَكَنْتُمْ إِلَيَّ بِأَعْمَالِكُمْ، وَتَرَكْتُمْ وَعْدَ رَبِّكُمْ الْحَقَّ، الَّذِي وَعَدَكُمْ إِيَّاهُ.

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾؛ أي: ما أنا بمُغِيثِكُمْ، وما أنتم بِمُغِيثِي ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) فتبرأ من أتباعه، والعياذ بالله، كما غرَّهم في الدنيا؛ فالذكي كل الذكاء والفطن حقيقة الفطنة؛ هو ذلك العبد الذي يتنبه لهذا الكيد الشيطاني قبل فوات الأوان؛ فيتبرأ من الشيطان قبل أن يتبرأ الشيطان منه.

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (٣٣) [لقمان: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨)

فهل اتضحت، عباد الله، المسألة؟! وهل عرفنا، عباد الله، سرها؟
وهل فهمنا لماذا يتبع أكثر العباد الشيطان مع أن كيده ضعيف؟!

إذاً هو الهوى الذي يميل القلوب إلى الشيطان، والعياذ بالله.

ما أكثر الهلكى عياداً بالله!

ولنا أن نتذكر كثرة الهلكى، وقتلى إبليس اللعين، الذين تحالفوا معه
بأهوائهم؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَفْئِدَةُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ
عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ
لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠١، ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْيَوْمَ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَنْبِئِي
ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ
مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِلاَّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ
الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى
أَفْوَاهِهِمْ وَتُغْلَقُ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ شَاءَ
لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ شَاءَ
لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

وفي «الصحيحين»، واللفظ للبخاري، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ! فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ، قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ؛ فَعِنْدَهُ يَنْشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ...» الحديث.

قال ابن القيم في نونيته:

يا سلعةَ الرحمن لستِ رخيصةً بل أنت غاليةٌ على الكسلانِ

يا سلعةَ الرحمن ليس ينالها في الألف إلا واحد لا اثنانِ

فالله المستعان! مَنْ النَّاجِي مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَلْفِ؟!

ولهذا كان السلف يقولون: «لا تنظر إلى الهالك كيف هلك، فإن الهلكى كثر، ولكن انظر إلى الناجي كيف نجا!»؛ أي: انظر وتفكر، وقف وتأمل، كيف نجا هذا الواحد من بين الألف؛ لتسلك طريقه وتعمل بمثل عمله لتكون من الناجين، كما نجا بإذن الله ﷻ، ولا تغتر بكثرة الهالكين؛ فقد قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١١٥، ١١٦].

صفة الرحمن الراجعة ودعوة الشيطان هي الخاسرة:

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ٢٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾ [النساء: ٢٧ - ٢٩].

احذر الصَّفَقَةَ الْخَاسِرَةَ:

إنه ومع شدة عداوة الشيطان لبني آدم وعظمتها، إلا أنك تجد كثيرًا من العباد قد تولّاه من دون الله عيادًا بالله من الخذلان، ومن الصَّفَقَةَ الْخَاسِرَةَ، والقسمة الضيّق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ٥٠﴾ أَفَتَخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ٥١﴾ [الكهف: ٥٠]، فسحقًا لمن استبدل ولاية الرحمن بولاية الشيطان.

وقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٢٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ٢٩﴾

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا نَنْشَأُ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ١١٧ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخْذَنْ مِنْ عِبَادِكِ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ١١٨ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَتَيْتُهُمْ وَلَا مَرَنْتُهُمْ فَلْيَبْتَكَنَّ أَذَابُ الْأَنْعَمِ وَلَا مَرْتُهُمْ فَلْيَغَيِّرْ بَخْلُكَ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ١١٩ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ١٢١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ١٢٢ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٢٣ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ١٢٤ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ١٢٥﴾ [النساء: ١١٦-١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ٦١ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ٦٣ وَأَسْفَرْنَا مِنْ أَصْطَفَى مِنْهُمْ بِصَوْنِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بَخْلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ

وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ
فَضْلِهِ إِنَّهُ كَذَّابٌ يَكْتُمُ رَجِيمًا ﴿٦٦﴾ [الإسراء: ٦١ - ٦٦].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرِضُكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا
يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا
مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

[فاطر: ٥ - ٨].

فبئس الحال لمن عمَدَ إلى التحوُّل من الكرامة إلى المهانة، ومن
ولاية الرحمن إلى ولاية الشيطان!

ولاية الشيطان عذاب من الرحمن:

واعلم رحمك الله تعالى: أنَّ مما يُتَبَلَى به العبد ويكون عذاباً من الله
تعالى، مُسَلِّطاً عليه بما كسبت يده، وبإعراضه عن الهدى وإقباله على
الهُوى؛ أن يكون للشيطان ولياً من دون الله تعالى، كما قال الله تعالى:
﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ قَدْ جَاءَنِ مِنْ أَلَعِلِمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾
يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَابَتِ إِيَّيْ أَخَافُ أَنْ

يَمْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ [مريم: ٤٣ - ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ ﴿١١١﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١١٢﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١١٣﴾ [النساء: ١١٩ - ١٢١].

الخزائن بيد الله والله هو الرزاق:

اعلم وفقك الله أن خزائن الهداية بنوعها الحسية والمعنوية، من توفيق ورشاد واستقامة وسداد، وطعام وكساء ومسكن، ودواء وشفاء، ومغفرة وحسن بلاء؛ كله بيد الله، ولا يملك خزائنها إلا الله وحده.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ [الحجر: ٢١، ٢٢].

وقال تعالى مُبَيَّنًا ما أمر به خاتم أنبيائه وسيد رسله أن يبلغه لأتمته: ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال تعالى مُبَيَّنًا ما أمر به أول رسله نوح عليه السلام أن يبلغه لأتمته: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ

لِّلَّذِينَ تَزِدُّوا عَيْنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّ إِيَّاذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ [هود: ٣١].

فهذان خطابان من الله تعالى لأول رسله ولخاتمهم؛ وهو بيان أنه أمره تعالى لجميع الرسل كذلك، صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٧﴾ [المنافقون: ٧].

وقال تعالى: ﴿فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾

[الشورى: ١١، ١٢]

﴿وَابْتَهِمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٢﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٨﴾ [العنكبوت: ١٦ - ١٨]

فويل للمشركين الذين يزعمون أن بيدهم تصرف الأرزاق أو شيء من

ذلك؛ بل كل ذلك حق محض لله الواحد القهار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَنْقَوْنَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١].

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ بَلِ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [النمل: ٦٤ - ٧٠].

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا

أَلْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٥﴾ قُلْ لَا تُشْكُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُشْكِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴿سبأ: ٢٢ - ٢٨﴾.

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاذْكُرُوا تَوْفِيقَهُ ﴿٣﴾ [فاطر: ٢، ٣].
﴿ أَمِنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ ﴿١﴾ [الملك: ١].

وجاء في صحيح مسلم عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً؛ فلا تظالموا، يا عبادي، كلُّكم ضالٌّ إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلُّكم جائعٌ إلا من أطعمته؛ فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلُّكم عارٍ إلا من كسوته؛ فاستكسبوني أكسكم، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً؛ فاستغفروني أغفر لكم».

يا عبادي، إنكم لن تبُلُّوا ضري فتضروني، ولن تبُلُّوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم؛ كانوا على

أَتَقْنِي قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمُ، وَإِنْ سَكُنُمْ وَجِنَكُمُ؛ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمُ، وَإِنْ سَكُنُمْ وَجِنَكُمُ؛ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.

يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ، أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

أسباب الرزق المحمود:

وإنما قيدته بالمحمود؛ لأن هناك مَنْ يُرْزَق ولكنّه يَسْأَلُكَ السُّبُلَ المحرمة، والعياذ بالله، وهذا مِنَ الرزق الخبيث، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، والآن إليك أبرز الأسباب التي دل عليها الشارع الحكيم:

١- تحقيق توحيد الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [البقرة: ١٦١، ١٦٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ [الطلاق: ١١، ١٢].

٣- القيام بالشرعية الغراء والاستمسك بالهدي النبوي:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطُفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ [القصص: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿٧٩﴾ وقال الذين أوتوا العلمَ ويليكم ثوابُ الله خيرٌ لمن ءامنَ وعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا بِالْصَّبْرِ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنًا وَيَكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ [القصص: ٧٩ - ٨٣].

٤- تحقيق مقام التوكل على الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنْتَبِهَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۝٣٧ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضَرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨ ﴾ [الزمر: ٣٦ - ٣٨].

وجاء في سنن الترمذي عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»، قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١).

(١) قلت: أما ما قاله البزار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسنده؛ حيث روى هذا الخبر فقال: حَدَّثَنَا يَشْرُ بْنُ أَدَمَ، قَالَ: نَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ قَالَ: نَا حَيْوَةُ، عَنِ ابْنِ هُبَيْرَةَ، عَنْ بَكْرِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي تَمِيمٍ الْجَيْشَانِيِّ، عَنْ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا».

وَهَذَا الْحَدِيثُ لَا نَعْلَمُ رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِهَذَا الْإِسْنَادِ، وَأَحْسَبُ أَنَّ بَكْرَ بْنَ عَمْرٍو لَمْ يَسْمَعْ مِنْ أَبِي تَمِيمٍ. انتهى.

كَانَ الْإِسْنَادُ قَدْ حَصَلَ فِيهِ انْقِلَابٌ، فَإِنْ عَامَةً أَصْحَابُ كِتَابِ الْحَدِيثِ إِنَّمَا يَرْوُونَهُ مِنْ طَرِيقِ بَكْرِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُبَيْرَةَ، عَنْ أَبِي تَمِيمٍ الْجَيْشَانِيِّ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِهِ مَرْفُوعًا، وَلَيْسَ الْخَبَرُ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ هُبَيْرَةَ، عَنْ بَكْرِ بْنِ عَمْرٍو؛ بَلِ الْعَكْسُ فَابْنُ هُبَيْرَةَ هُوَ شَيْخٌ لِبَكْرِ فِي هَذَا الْخَبَرِ، وَلَيْسَ الْعَكْسُ، وَبَكْرٌ إِنَّمَا يَرْوِيهِ عَنْ أَبِي تَمِيمٍ الْجَيْشَانِيِّ بِوَسْطَةِ

٥- ملازمة الاستغفار والإكثار منه:

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُومُوا أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١٠ - ١٤].

٦- الدعاء:

قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۚ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣٨، ٣٩].

٧- المحافظة على الصلوات، والقيام بها على الأهل والذرية:

قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۚ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ

= شيخه ابن هبيرة؛ لأجل هذا جرى التنبية. والله أعلم.

يُشِيرُكَ بِحَيِّ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٦﴾

[آل عمران: ٣٨، ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ ﴿١٣٢﴾ [طه: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُمَ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٣٧﴾ [آل عمران: ٣٧].

٨- كثرة الصدقة:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي بَسِطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ [سبا: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

وجاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ».

٩- صلة الأرحام وعلى رأس ذلك بر الوالدين:

جاء الصحيحين عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ رِزْقُهُ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ».

١٠- امثال أمر الله تعالى والاستقامة على شرعه:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْنُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَلَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهٌُ مُنْحَشِرٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَنْخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَانَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَعَلِمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٤ - ٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ

رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا ﴿٤﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤١﴾﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الحج: ٤٩، ٥٠].

١١- الهجرة والجهاد في سبيل الله:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَاُولَٰئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ جِلَّةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ فَاُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١٩﴾﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسِعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ٩٧ - ١٣].

١٢- الإكثار من الذكر ولزوم المساجد لإقام الصلاة:

قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا

وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ [النور: ٣٦، ٣٨].

١٣- طاعة الأزواج وحُسنُ التَّبَعْل:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْتَنْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَّلَ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهُا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ ﴿٣١﴾ [الأحزاب: ٣١].

لا تغتر بالخبيث وإن كثر:

ولو أعجبك كثرة الخبيث عددًا وكمًّا وحسًّا ومعنى.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ [المائدة: ١٠٠].

الشیطان يُخَوِّفُ بالفقر ليأمر بالفحشاء:

اعلم رحمك الله تعالى أن الشيطان يَسْلُكُ مَسْلَكَ التَّخْوِيفِ مِنَ الْهَدْيِ لِيَأْمُرَ بِالْهَوَى مُسْتَعْمِلًا التَّهْدِيدَ بِالْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ، كما قال الله جل وعلا: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٦٨﴾ [البقرة: ٢٦٨].

واعتبر بهذه الآيات، قال الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ خَالِدٍ وَمُلْكٍ لَا يَبُلَى ﴿١٢﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٣﴾ ثُمَّ اجْنَبْنَاهُ رَبُّهُ، فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢٠ - ١٢٢].

فيُعمل على إشعار العبد بالفقر إلى ما تطمح إليه نفسه ثم يهدده بالفقر للمحافظة عليه، ثم يوهمه أن هذه المحافظة لا تكون إلا بمخالفة الهدى المتمثل في أمر الله ورسوله ﷺ على سبيل المؤمنين.

فَيُفْقِرُ التَّاجِرَ إِلَى الْغِنَى وكثرة المكاسب؛ فيأمره ببيع الحرام ومنع الزكاة والبخل، وَيُفْقِرُ الْمُلُوكَ وَالْأُمَرَاءَ إِلَى الْمَحَافَظَةِ عَلَى الْمُلْكِ؛ فيأمرهم بموالاتة الكافرين، وتطبيق القوانين الوضعية والدساتير الجاهلية، ومداينة المشركين، ومحاربة المجاهدين من العلماء والدعاة والمصلحين، والمقاتلين والمنفيين في سبيل الله، والعمل على نشر الفساد والرياسة، وَيُفْقِرُ طُلَّابَ الْمَنَاصِبِ وَالرِّيَاسَاتِ إِلَى رُكُوبِ الدِّيمُقْرَاطِيَةِ الْكَافِرَةِ الْفَاجِرَةِ، ومداينة المجرمين والمشركين، والاستجابة إلى المفسدين في الأرض، الذين يريدون إهلاك الحرث والنسل، وَيُفْقِرُ النِّسَاءَ إِلَى النِّكَاحِ؛ فيأمرها بالتبرج والسفور، وَأَنْ تُكْثِرَ مِنَ الْخُرُوجِ، وَأَنْ تَخْرُجَ كَاسِيَةً عَارِيَةً، وَيُفْقِرُ أَقْوَامًا إِلَى الظهور والشهرة؛ فيأمرهم بالتصوير والبحث عن رضا الجماهير مهما استطاع، وإن داهنهم وتنازل لهم عن بعض مبادئه ودينه، الذي يعتقده مما أوجبه الله تعالى عليه وفرضه، عيادًا بالله من الخذلان.

الخطر السابع: شؤم الهوى على صاحبه في خاصة نفسه، وربما امتد ذلك إلى غيره:

فترى صاحب الهوى في كل يوم يزداد قربًا من الشيطان، وبُعدًا من الرحمن؛ فهو في كل يوم يسعى فيما يوبق به نفسه ويُهْلِكُهَا؛ حتى يكون من

الخاصرين؛ قد حق عليه قول الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ (١٠) ﴿[الشمس: ٣]﴾، فالقرآن يصف تعاملُ العبد الخاصر مع نفسه؛ أي: هو يعمل على غشها وخداعها، وتزييف الحقائق لها، وصرفها عن طاعة الله ﷻ بالهوى فأهلكها، والعياذ بالله؛ فهو في كل يوم يقترب من النار، والعياذ بالله.

وأما على غيره: فضرره أيضًا عظيم، والعياذ بالله؛ فالغالب على من اتصل به أنه يُرِيدِهِ معه، عيادًا بالله؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ (٢٨) ﴿[الكهف: ٢٨]﴾، انفرط أمره؛ أي: اختلط عليه الحابل بالنابل، فساءت أحواله وظنونه؛ فصار كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران، قد ركن إلى الهوى والشياطين؛ فاجتالوه عن فطرته، فصار إلى هذه الحالة الردية، والعياذ بالله؛ في تلف وعطب وبوار؛ فإذا اتصلت به وتأثرت به أصابك من شره، ومثل هذا لا شك أنه قريب من الهلاك؛ نسأل العافية والسلامة!

ولهذا توعد الله ﷻ التابع والمتبوع من أمثال هؤلاء؛ بقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿[طه: ١٢٤، ١٢٥]﴾.

وقال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦) وَلِيَأْتِيَهُمْ لِيُصْذَبُوا عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿[٣٧]﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَنِلتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿[٣٨]﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكَ يَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ

فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ [الزخرف: ٣٩ - ٣٩]؛ نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ!

فما أشدَّ شؤمَ صاحب الهوى على كل مَنْ يقترب منه ويصحبُه؛ فالله في البُعدِ عنه، والحذر منه، والفرار عنه كما تفر من المجذوم وأشدُّ؛ فإن الجُذامَ إن كان يصيب بدنك، فإن صاحب الهوى يفسد عليك دينك، ويخرب عليك فطرتك، ويفسد عليك هذه الروح الطيبة، والعياذ بالله؛ فالحذر الحذر من أمثال هؤلاء؛ فإن شياطين الإنس ربما أصبحوا أشدَّ خطرًا وضررًا من شياطين الجن، والعياذ بالله!

فاحذر من مصاحبة أهل الهوى! فإن عدوهم أشدُّ من عدوى الجرب والطاعون، وغيره من الأمراض المعدية، وإذا كنت تحرص كل الحرص أن تبعد عمن فيه داء يُعديك في بدنك؛ فالأُنْ تبتعد عمن داؤه ومرضه يعدي قلبك من باب أولى؛ فسلامة الدين لا تُعدِّلُها سلامة، عباد الله.

فكن على حذر؛ فإن الصاحب صاحب، وكما قيل:

ومن يكن الغراب له دليلاً يمر به على جيف الكلابِ

ويمتد الشؤم إلى الآخرة، كما قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ يَعْبادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٧٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٨٠﴾ [الزخرف: ٦٧ - ٧٠].

شؤم الراعي الذي يتبع الهوى ويرعى رعيته به:

وما أعظم نكبة الرعية عندما يتولى رعايتها أصحاب الهوى المذموم، سواء كان أمير عامة، أو الراعي الخاص كالأب والأم، أو عموم المربين كالمُعَلِّمين، وغيرهم ممن تحمل مسئولية أشخاص تحت يده، والله المستعان! ولهذا ترى كثرة الانحرافات على مستوى الأسر والأفراد والجماعات؛ بل والمؤسسات، أما على مستوى الحكومات؛ فإن الفساد فيها أعظم وأكثر من أن يحاط به ويُذكر؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، كل هذا من شؤم الهوى على الشعوب والأفراد والمجتمعات، والله المستعان وعليه التكلان.

ولنا أن نتذكر في هذا المقام قول الله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُونَ ١٦﴾

[الزمر: ١٥، ١٦].

وما في «الصحيحين»، واللفظ للبخاري، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ؛ فَلَا مِيرَ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

فيا سعادة مَنْ نجا بنفسه ورعيته كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ يَمَآءَ أَنهَم رِيْهُمْ وَوَقَّهَم رِيْهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَتُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

[الطور: ١٧ - ٢٨].

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء: ٩].

الخطر الثامن: تأثيره على العقل والأخلاق:

حيث إن للهوى تأثيراً عجبياً على إفساد العقول والأخلاق، حتى يصبح صاحبه كالمجنون حال تعاطيه للهوى، وحتى تراه في حالة من الهذيان عجيبة؛ فهو يهرف بما لا يعرف، ويتكلم بما لا يُقبل؛ لا شرعاً ولا عقلاً! وتراه يركب من الأخلاق الرذيلة والخصال الذميمة ما يندى له الجبين! وهو في كل ذلك يرى أنه على أحسن حال، والعياذ بالله!

وتراه مُعْتَدًا بعقله وأخلاقه مع فسادهما، إلا أنه لا يشعر بذلك، حتى إنك تجده منافحًا مجادلًا بالباطل عن باطله؛ يضرب الأمثلة الجائرة، والأقيسة الفاسدة، ويحسب أنه على شيء، مع أنه ظُلوم جهول، قد جهل أن عقله سقيم، وخُلُقُه فاسد، وتصوُّره عليل كليل، باتباعه للهوى، وتركه للهدى، وما درى هذا المفتون أنه لن يستقيم عقل العبد ولا تصوُّره ولا خلقه؛ حتى يكون متبعًا للهدى^(١).

ولكن هذا المخدوع قد غرَّه الهوى؛ فهوى به في المهاوي والردائل، وصار به إلى النقائص، حاله كحال إبليس اللعين؛ حيث اتبع هواه، واغتر بعقله، ففاس الأقيسة الفاسدة، وضرب الله الأمثال الجائرة؛ فكانت النتيجة أن طرده الله تعالى من رحمته، وأخرجه من جنته، وأهبطه من سمواته إلى أرضه؛ حيث الهمُّ والغمُّ، والكبد والنكد؛ إلا من اتبع الهدى.

كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا أَهْطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ

(١) راجع كتابي: «المفاهيم والحقائق الغائبة»؛ لمزيد من التعرف على أن العقل لا يستقل بالهدى؛ حتى يتبع الشرع المطهر، وإلا بقي تائهاً تابعاً للهوى، والعياذ بالله!

ذَكَرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾

[طه: ١٢٣، ١٢٤].

نماذج قرآنية يقص الله تعالى فيها تلاعب الهوى بالعقول:

فإليك هذ الآيات التي هي للتمثيل لا للحصر؛ إذ مثلها كثير في الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى إِلَهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا كُنْزٌ لَّا يَنْطُقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩١ - ٩٦].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَئْذِنُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

[الأنبياء: ٥٩ - ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ١١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ١٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ١٣ فَكُتِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ١٤ وَخُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ١٥ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ١٦ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١٧ إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٨ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ١٩ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ٢٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ٢١ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٢ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٢٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهِوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٢٤﴾ [الشعراء: ٩١ - ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ السَّيْرِ ٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ٩ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّيْرِ ١٠ فَاعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّيْرِ ١١﴾ [الملك: ٦ - ١١].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى الْإِلَهِ ١٣﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرَوْهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ١٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ شَاءَ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمُوا

حَرَمَتْ ظُهُورَهَا وَأَنَعَمْ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفَرَاءَ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا
كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ
لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّثْقَةٌ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ
سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ
سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افِرَاءَ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ [الأنعام: ١٣٦-١٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
يَتَابَتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَتَابَتْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي
مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَابَتْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ
الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَابَتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَتَابِرْهُمْ لَيْنَ لَمْ تَنْتَه
لَا رَجْمَكَ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ [مريم: ٤١-٤٦].

فهذه الأمثلة تدل على قُبْحِ الهوى؛ ومع ذلك أصحابه يتسابقون
إليه، وقد تاهت عقولهم، ومَرَجَتْ أَحْلَامُهُمْ، وَلَهَتْ قُلُوبُهُمْ.

ولهذا دعا إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى، لما رأى أقوامًا
يوصفون بالعقل والحكمة والخبرة، ومع ذلك تتلاعب بعقولهم الأهواء
والشياطين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا

وَأَجْبُنِي وَيَنْيَ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَّلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعِنِي
فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

بين الذكاء والعقل:

واعلم، رحمك الله تعالى، أن الهدى الذي أنزله الله تعالى بعلمه وأرسل به رسله وأنزل به كتبه لا يحتاج إلى كبير ذكاء لإدراكه؛ بل ما هو إلا أن يُقْبَلَ العبد بقلبه عليه، ويُصْغِي بسمعه إليه؛ فيراه عياناً بيّناً واضح المعالم، يَعْقِلُهُ كل مَنْ كان له عقل يعقل به، بغض النظر عن مستوى ذكائه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ﴿٣٧﴾ [ق: ٣٧].

إلا مَنْ كابر وعاند وآثر الهوى على الهدى، كما فعل الكفار مع الرسل، واعتبر بقول قوم شعيب عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِّينَ﴾ ﴿٩١﴾ [هود: ٩١]، مع أن دعوته عليه السلام كانت بكلمات يسيرات واضحات بيّنا، لا تحتاج إلى كبير ذكاء، بقدر ما هي بحاجة إلى قلب واع وسمع حاضر شاهد.

وإليك كلماته عليه السلام التي تَوَجَّه بها إلى قومه، قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ عِزَّةٍ وَلَا نَفْعٍ وَالْمِكْيَالُ وَالْمِيزَانُ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ ﴿٨٤﴾ وَيَتَقَوَّمُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ حَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصْلَوكَ
تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي
مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا
الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا
يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ
صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ
إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ [هود: ٨٤ - ٩٠].

وانظر ماذا صنع الذكاء بأصحابه، الذين اعتدوا به وأعرضوا به عن الهدى،
وتعالوا على أمر الله تعالى ورسله، صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين!
واقراء القرآن والسنة، لترى كم أهلك الكفار اعتدادهم بعقولهم،
وعلمهم وفهمهم، وما يدعونه من ذكاء.

وليت شعري! إنَّ أقل المؤمنين ذكاءً، لهو أعقل من جميع أذكاء
المشركين والكافرين، على مرِّ العصور والأزمان؛ إذ قد أدرك المراد منه المسئول
عنه، فعمل بالمطلوب، وحقق شرط القبول، فكان مِنَ النَّاجِينَ، في حين هلك أكثر
الأذكاء؛ حيث غُيِّبَ عليهم أعظم حقيقة على الإطلاق، ألا وهي وحدانية الله
تعالى، واتباع رسله صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين!

وكم من الأذكاء والحفاظ خانهم ذكاؤهم وحفظهم، لما أرادوا أن

يفهموا النصوص على سبيل أنفسهم، معتدين بعلومهم وذكائهم، لا على سبيل المؤمنين؛ فكانوا من المخذولين^(١)!

وهذا الفخر الرازي، وهو معدود عند القوم من أذكاء العالم ومن رؤسائهم؛ يقول بعد أن شَرَّقَ وغَرَّبَ، وذهب وجاء، ونحت عقله وأعمل فكره:

نهاية إقدام العقول عقلاً وأكثرُ سعي العالمين ضلالاً
وأرواحنا في وحشةٍ من جُسومنا وغاية دنيانا أذى ووبالاً
ولم نستفدْ من بحثنا طولَ عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم قال: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ووجدتُ أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]؛ يعني: فأُثِبْتُ «وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]؛ يعني: فأنفي المماثلة، وأنفي الإحاطة به علمًا»، «ومن جَرَّبَ مثل تجربتي عَرَفَ مثل معرفتي» اهـ.

واعتبرَ بحال ابن سينا الذي هلك على الزندقة، والعياذ بالله، وقد نص غير واحد من أهل العلم، منهم الإمام العلامة ابن القيم؛ على كفره وزندقته، كما في «النونية»؛ حيث قال رَحِمَهُ اللهُ:

(١) راجع كتابي «المفاهيم والحقائق الغائبة» تحت عنوان: «مَفْهُومُ مِغْيَارِ الذِّكَاةِ وَالْعَبَاءِ».

هذا الذي قاد ابن سينا والألي قالوا مقاتلته إلى الكفران

وقال:

«فصل: في كلام الفلاسفة والقرامطة في كلام الرب ﷻ»

وأتى ابن سينا القرمطي مصانعاً للمسلمين بإفك ذي بهتان >

وقال فيه وفي نصير الطوسي:

«والحق عندهم ففيمما قاله أتباع صاحب منطق اليونان

ومضى على هذي المقالة أمة خلف ابن سينا فاغتدوا بلُبان

منهم نصير الكفر في أصحابه الناصرين لملمة الشيطان

فاسأل بهم ذا خبرة تلقاهم أعداء كلٍّ موحدٍ رباني

واسأل بهم ذا خبرة تلقاهم أعداء رُسلِ الله والقرآن

صوفيهم عبْدُ الوجودِ المُطَلَقِ الـ معدوم عند العقل في الأعيان

أو ملحدٌ بالاتحاد يدين لا التـ توحيد منسلخ من الأدبان

معبوده موطوءه فيه يـرى وُصفَ الجمالِ ومظهرِ الإحسان

الله أكبرُ كم على ذا المذهب الـ ملعون بين الناس من شيخان»

وراجع رسالة الشيخ ناصر الفهد؛ فقد ذكر فيها جملة ممن وُصفوا بالذكاء

والمُنطق، وهم من أهل الضلال والغواية، والزيف والزندقة، والعياذ بالله.

فَتَبًّا لذكاء هذا نهاية أهله! وَفَتَحَ اللهُ فِطْنَةً هذا مآل أصحابها! وقبح الله ذكاء
يضمحل معه العقل حتى يعبد ما يهواه، من بَقَرٍ وشجر وحجر، وبشر ونظام
ودستور ورتب عسكرية^(١)، وغير ذلك مع علو كعبه في علوم الحياة الدنيا، وإشادة
الناس بعقله فيها وبذكائه وبراعته، وبما معه من عظيم درجاتها العلمية الدنيوية!

والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ونسأله تبارك
وتعالى العفو والعافية وحسن الختام، والعلم النافع والعمل الصالح.

الخطر التاسع: أَنَّ الهوى يجعل العبد يُحِبُّ ما يُفْرِضُهُ وَيُؤْذِيهِ:

وَيَحِمِلُهُ عَلَى الصَّبْرِ وَالتَّصَبُّرِ وَالمُرَابَطَةِ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يُقْبَرَ مَعَهُ
وَبِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا﴾ (٣٩) وَلَقَدْ
أَنَوَّا عَلَى الْفَرِيَةِ أَلَيَّ أَمْطَرَتْ مَطَرُ السَّوَاءِ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا
يَرْجُونَ دُشُورًا (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَلَّذِي أَلَذَّى بَعَثَ اللَّهُ
رُسُلًا (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ

(١) نعم، فلقد أصبحت هذه الرتب العسكرية طاغوتًا، يُعظم عند العساكر أكثر وأعظم من
تعظيمهم لله تعالى، وتوقيرهم لرسول الله ﷺ، حتى إن الواحد منهم ليعرف حكم
الله تعالى ورسوله في المسألة، والأمر الذي أَمَرَهُ به صاحب الرتبة الأعلى منه، فيقول
بصريح العبارة إنه: «عبد المأمور»، أي عبد مأمور مُسْتَعْبِدٌ لِمَنْ أَمَرَهُ، وإن أمره بالكفر
ومعصية الله تعالى ورسوله ﷺ، عيادًا بالله من الزندقة والنفاق، وبيع الدين بالدنيا.

يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ [الفرقان: ٣٩ - ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿١١﴾﴾

[إبراهيم: ٢١].

وأنت ترى هذا واضحاً جليلاً، عندما تجد مَنْ يعترف بضرر ما يتعاطاه من المنكر والمحرم، ومع ذلك يبقى معه ملازماً له، والله المستعان!

وقد أوصى الله تعالى عباده المؤمنين بالصبر والمصابرة والمراعاة المحموده؛ التي هي اتباع الهدى واجتناب الهوى المذموم، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

الخطر العاشر: يجعل صاحبه ينسى حقيقة نفسه:

فيعيش الكِبَر والطغيان، والعلو والإفساد في الأرض، ويحسب أنه يحسن صنعاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ لَهُ سَيِّطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾

[الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وتأمل كيف فعل الهوى بالأمم السابقة؛ بل وانظر حال قارون وفرعون وهامان؛ كيف بغوا وطغوا وتجبروا؛ كل هذا من أفاعيل الهوى بهم، والعياذ بالله، حتى عاشوا الكفر وماتوا عليه؛ بل حتى ادعى فرعونُ الألوهية والربوبية، وكذلك فعل النمرود، عيادًا بالله.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ بِتَأْيِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَمُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أُطْعَمُ الْإِلَاحَ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٣٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٤٠ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ٤٢﴾ [القصص: ٣٨ - ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسْكِنِهِمْ وَزَيَّغَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ٣٨ وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ ٣٩ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠﴾

الخطر الحادي عشر:

يقطع العبد عن الرحمن؛ فتضعف صلته به تبارك وتعالى أو تنعدم؛ فيخذله الله تعالى، ويُخَلِّي بينه وبين أعدائه؛ فيفتكون به.

الخطر الثاني عشر: يُفْسِدُ على العبد تصوُّر حقيقة الإيمان:

الذي كتب الله تعالى النجاة لأهله؛ وهو الإيمان المركَّب من القول والعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح؛ فلا إيمان لمن لا عمل له، وهذا ما وقع لأهل الأهواء من المرجئة، والخوارج، والقدرية، والجهمية، وأهل الكلام، والمعتزلة، والأشاعرة، والرافضة، وغيرهم من أهل الأهواء، الذين أفسد عليهم اتباعهم للهوى تصوُّرهم لحقيقة الإيمان، الذي بعث الله تعالى به الرسل، وأنزل الكتب.

وكذلك ما وقع للجهمية المعطلة، والأشاعرة، والمعتزلة؛ في أسماء الله تعالى وصفاته تبارك وتعالى؛ فمنهم مَنْ عَطَّلَهَا، ومنهم مَنْ أَوَّلَّهَا وصرفها عن حقائقها، ونفى معانيها؛ بالتأويلات الفاسدة، ويحسبون أن هذا من الإيمان، والعياذ بالله من الخذلان، والله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ١٨١ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٢ وَأُمِّلْ لَهُمِ الْآيَاتِ كَيْدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٠ - ١٨٣].

الخطر الثالث عشر: يُفْسِدُ عَلَى الْعَبْدِ تَصَوُّرَ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ:

حتى ربما عاداهما، وصار حرباً على أهل الإخلاص والاتباع، وهذا بعينه ما وقع من المتصوفة المشركين بالله رب العالمين؛ الذين يعبدون غير الله تعالى رغبة ورهبة؛ حيث ينسبون للمخلوقين ما لا يحل نسبته إلا لله رب العالمين الواحد القهار، ثم يزعمون أنهم من أهل التوحيد والسنة، وأنهم على هدى؛ بل ويكفرون مَنْ يخالفهم في ذلك.

فأي غفلة وضلال واتباع للهوى فوق هذا؟ تراهم يستغيثون بالمخلوقين فيما لا يقدر عليه إلا الله رب العالمين، ويطلبون منهم تفريج الكربات وإغاثة اللهفات، وقضاء الحاجات على اختلافها، ويطلبون منهم الرزق، ويطلبون منهم أن يهبوهم الولد؛ بل وتشتمئز نفوسهم وتأنف إذا سمعوا من يقول: لا يقدر على ذلك إلا الله، كل هذا الشرك العظيم، ومع ذلك يحسبون أنهم من أهل الإيمان والإسلام؛ عياداً بالله من الخذلان.

وكذا وقع مثل هذا من الجهمية، وغيرهم من أهل الأهواء؛ ضد أهل الإخلاص والإيمان والاتباع للرسول ﷺ.

والله تعالى يقول: ﴿أَمْ آتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ أَنْتُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۚ﴾ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ، مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ

لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا فِدَاءَ بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَاهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَهُمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

[الزمر: ٤٣ - ٤٧].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا يِمَّا نَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَيْبِكُمْ رَجْسٌ وَعَصَبٌ أَنْتَجِدِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاَنْظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾

[الأعراف: ٧٠، ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتُ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّ عَلَى أَذُنِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ يُخَوِّى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْجُورًا ﴿٤٧﴾ اَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ [الإسراء: ٤٥ - ٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا اثْنَيْنِ وَأُحْيِيْنَا

أَنْتَيْنِ فَأَعْرِفْنَا بِذُنُوبِنَاهُمَا إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوُفُّوهُ فَأُلْحِكُمْ لِلَّهِ الْعِلَى الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ [غافر: ١١-١٢].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسَنًا قَالُوا ءَا مَنَا بِاللَّهِ وَحْدَهُ. وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسَنًا سَأَلَ اللَّهُ إِلَهِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ. وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ [غافر: ٨٣ - ٨٥].

الخطر الرابع عشر: يُعَلِّمُ صاحبه النفاق:

ويهديه إليه، ويدلُّه عليه، ويأمره به؛ وذلك أن صاحب الهوى يسعى في إفساح المجالات لأهوائه؛ فيركب في سبيل ذلك ألواناً من المَراوغة والتحايل، والكذب والمُخادعة، حتى ربما صار به الحال إلى أن يكون من المنافقين الخُلص، عياداً بالله.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ. وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ. جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَا مَنَا بِاللَّهِ وَيَا لَيْتُمْ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿١﴾ في

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ [البقرة: ٨ - ١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٤٢﴾ مُدْبِجِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَنْجِدُوا الْكَافِرِينَ أُولِيَآءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْيَدُونَ أَنْ جَعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾

[النساء: ١٤٢ - ١٤٦].

وفي «الصحيحين» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»، وفي لفظ لمسلم: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّىٰ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ».

وفيهما أيضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خُصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خُصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُوتِيَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

وجاء في «مصنف ابن أبي شيبة»: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ ثَابِتِ بْنِ هُرْمُزٍ أَبِي الْمِقْدَامِ، عَنْ أَبِي يَحْيَى، قَالَ: «سُئِلَ حُدَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْمُنَافِقِ؟ قَالَ: الَّذِي يَصِفُ الْإِسْلَامَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ».

الخطر الخامس عشر: أنه يُرْعَبُ في الأشرار، ويرفعهم:

ويراهم أهدى سبيلاً، وأنهم هم أهل الحضارة والتقدم والرقي، ويُتَّقَرُّ مِنَ الأخيار، ويستهنئ بهم، ويراهم أضل سبيلاً، ويراهم هم أهل التخلف والرجعية، ومن كانت هذه حاله؛ فليبشِّرْ بالهُوان والردى، وسخطٍ من الله جل وعلا، ونارٍ تلظى، لا يصلها إلا الأشقي.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۝٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾ [النساء: ٥١ - ٥٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۝١١٠﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١١١﴾ وَمَنْ خَفَّتْ

مَوْرِيْنُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١١٣﴾ تَلَفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْعِلَاقِمْ ﴿١١٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَتْلُو عَلَيْنَا فَنُكَلِّمُهُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١١٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١١٧﴾ قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١١٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٢١﴾ [المؤمنون: ١٢١-١١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُوْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

[المطففين: ٢٩ - ٣٦].

الخطر السادس عشر: تأثيره على القدوات:

حيث يزين الهوى أقوامًا، ويحث على اتباعهم، وعلى اتخاذهم قدوات، وحيث يحدث عن فساد عريض، يقع في الأرض والأمم والمجتمعات؛ حيث سيصبح رءوس الناس من لا خلاق لهم، وإذا فسدت القدوات فسدت تبعًا لذلك الشعوب والمجتمعات.

واعتبر بحالنا اليوم، لما زين الهوى أقوامًا، وسرت بهم الركبان، وطار بهم إعلام الهوى كل مطار، كيف صار يقود الركب المتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، وكل خبيث مفتون، وخبيثة ماجنة ملعونة، وكاسية وعارية مائلة مميلة، وداعر وداعرة، ولاعب ولاعبة، وممثل وممثلة، وراقص وراقصة، وطاغوت وطاغية.

بل أصبح كثير من أفراد المجتمع ينادي القاضي بطاغوت القانون الجاهلي الوضعي، وبكل احترام وتقدير: يا مولانا، ويسمي المحامي المترافع بالقانون الجاهلي الوضعي: يا أستاذ، ويقدر ويحترم مدير البنك الربوي، ويناديه: يا سعادة المدير.

وكذلك لحماة الطاغوت من الشرط والعساكر، باختلاف رتبهم؛ لكل حقه من التبجيل والاحترام، والتقديم والتقدير؛ بل وترى كثيرين يفتخرون ويتفاخرون بهم، مع أنهم من الذين نذروا أنفسهم لخدمة الدستور الجاهلي، والحاكم بالطاغوت المبدل لشرع الله تعالى، المشرع من دون الله تعالى، مع أن أمثال هؤلاء الحكام هم من أبغض الناس إلى الله تعالى، كما في «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطْلَبٌ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهِرِقَ دَمَهُ»؛ فإننا لله وإنا إليه راجعون، فما أعظمها من رزية! وما أشدها من بلية! والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الخطر السابع عشر: تأثيره على الأحكام والإطلاقات والموازين:

حيث يُخَفِّضُ الذي حَقُّهُ أَنْ يُرْفَعَ، وَيُرْفَعُ الذي حَقُّهُ أَنْ يُخَفِّضَ، وَتَتَّخِذُ البدعُ سُنَنًا وَتُرَى السننُ بدعًا؛ فَتَفْسُدَ الذممُ وَيَبَاعَ الدينُ، وَتَتَّخِذَ تجارةُ ومطيةُ للدنيا، وَتُحَسِّنُ الرذائلُ، وَتَحَارِبَ الفضائلُ، وَتَصْبِحَ الغيرةُ على الأعراسِ موضعَ سخريةٍ، وَتَصْبِحَ الديانةُ موضعَ إكرامٍ وَرجولةٍ، حَتَّى يَأْتِيَ على الناسِ زمانٌ يَتَمَنَّى أحدهمُ الموتَ؛ لِمَا يَرَى من ذهابِ الأعراسِ وَهتكها، وَلِما يَرَى من الفتنِ وَاسْتِطَارَةِ شَرِّهَا.

قال البخاري في «صحيحه»: «باب لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُعْبَطَ أَهْلُ الْقُبُورِ»، ثم ساق حديثَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ» متفق عليه، وفي لفظ مسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ، وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلَّا الْبَلَاءُ».

قال الإمام الدارمي في «سننه»: أخبرنا يعلى ثنا الأعمش عن شقيق قال: قال عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبَسْتُمْ فِتْنَةً، يَهْرُمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَتَّخِذُهَا النَّاسُ سُنَّةً؟ فَإِذَا غَيَّرْتَ قَالُوا: غَيَّرْتَ السُّنَّةَ، قَالُوا: وَمَتَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: إِذَا كَثُرَتْ قُرَاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ فُقُهًاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ أُمَنَّاؤُكُمْ، وَالتَّمَسَّتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ» اهـ. قلت: وأخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» بنحوه.

الخطر الثامن عشر: أنه يُرَيَّفُ على العبد سفينة النجاة، ومراكب الخلاص:

ويُقْبَلُ به على مراكب الهلاك والغرق، وهو يُوهِمُهُ ويخادعه ويرغبه فيها، حتى إنه ليحسبها سبيلاً للنجاة والسلامة والعافية، وما علم هذا المفتون أنه مستدرج ممكور به، عياداً بالله.

واعتبر بهذه الآيات من سورة نوح؛ حيث قال الله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّمَا عَصَوْتَ وَأَبْعَوْتَ مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ، وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝١١﴾ وَمَكُرُوا مَكْرًا كُبَرًا ۝١٢﴾ وَقَالُوا لَا تَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِ الْهَيْكَمِ وَلَا تَنْزِلْ وَدًّا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝١٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۝١٤﴾ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَأَذَلُّوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ۝١٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝١٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝١٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتَنَا وَبَيْتَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ۝١٨﴾ [نوح: ١١ - ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن تَبِيعَ الْهَدْيِ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا أَمِنًا يُجِئْ إِلَيْهِ ثَمَرُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيبَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۝٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ أَيْنَتْنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْفَرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ۝٥٩﴾

وتأمل في قوم هرقل معه؛ حيث دعاهم إلى النجاة فأبوا إلا اتباع الهوى، ثم أبى هو كذلك إلا اتباع الهوى؛ فهلك وهلكوا جميعاً، كما في «صحيح البخاري»: «قَالَ هِرَقْلُ: هَذَا مَلِكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ، ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبِ لَهُ بِرُومِيَّةٍ، وَكَانَ نَظِيرُهُ فِي الْعِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمَصَ؛ فَلَمَّ يَرِمُ حِمَصَ، حَتَّى أَنَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ، عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةِ لَهُ بِحِمَصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَعُلِّقَتْ، ثُمَّ أَطْلَعَ؛ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ، وَأَنْ يَنْبَتَ مُلْكُكُمْ، فَتَبَايَعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟! فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمْرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ عُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفَرَتَهُمْ، وَأَيْسَ مِنَ الْإِيمَانِ؛ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي أَنَا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ؛ فَسَجَدُوا لَهُ، وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ» انتهى.

واعبر بهذا الحديث العظيم؛ ففي «صحيح البخاري» عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاغِ فِيهَا؛ كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقُوا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَا خَرَقْنَا فِي نَصِينَا خَرْقًا وَلَمْ نُوْذِ مِنْ فَوْقِنَا؛ فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا».

الخطر التاسع عشر: أنه يضيع الأعمار، ويفسد الأعمال، ويدعو إلى الإهمال:

حيث يبدد الهوى على صاحبه أوقاته، ويفوت عليه فرص استغلالها؛ ليبقى أسيراً لهذا الهوى مجانباً للهدى؛ فلا يذكر الله إلا قليلاً، ولا يقرأ القرآن إلا من رمضان إلى رمضان؛ هذا إن قرأه، ولا يتعلم أمور دينه؛ فيقع في البدع والضلالات التي تحبط عمله، أو تذهب بأجره أو ببعضه، في حين أنه يضيع أوقاته مع الطرب والمجون، أو مع الكلام الفارغ الذي لا طائل من ورائه، أو مع اللهو واللعب، وتعاطي المحرمات.

وإن أعمارنا لقصيرة، وإنما هي خزائن أعمالنا؛ فلتتق الله تعالى في أنفسنا، وفي أعمارنا.

قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ [العصر: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ ۝١١٣ قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١٤ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝١١٦ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۝١١٧ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۝١١٨﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ۖ (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِيهِ يَتَطَطَّعُ (٣٣) أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ (٣٤) ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ (٣٥) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۖ (٣٦)﴾

[القيامة: ٣١ - ٣٦].

الخطر العشرون: أنه يَفْسِي القلب:

فلا يكاد يذكر الله تعالى إلا قليلاً؛ بل وربما لا يذكره البتة، والعياذ بالله؛ حتى يختم عليه، ويطبّع عليه؛ فلا ينتفع بالذكرى، ولا يعي المواعظ، ولا يتعظ بها، تتوالى عليه الفتن في دينه فلا يهتم لها، فلا يتوب ولا يثوب، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ۖ (١١٣) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۖ (١١٧)﴾ [التوبة: ١١٦، ١١٧]؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۖ (٧٤)﴾ ﴿أَفَنظَمُعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۖ (٧٥)﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ

عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ [البقرة: ٧٤ - ٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَاسِ وَأَضْرَأَ لَعَلَّهُمْ يَنْضَعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَاسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا سَأُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

[الأنعام: ٤٢ - ٤٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٦، ١٧].

الخطر الحادي والعشرون: نسيان واقع أمته في ماضيها وحاضرها:

فيصبح منبتاً لاهئاً وراء قوم لا خلاق لهم، يبحث عن هويته التي ضيعها بهواه، ويستسقي المخارج لورطاته والخلاص من مآزقه، من خلال التنكُّر لواقعه، فيصبح كالحمامة التي أرادت أن تقلد الغراب في مشيته؛ فلم تستطع، فلما أرادت معاودة مشيتها؛ فإذا بها قد نسيته؛ فلا هي أصبحت غراباً، ولا هي بالتي بقيت على مشيتها، وهكذا حال من يُفتن بقوم لا خلاق لهم؛ عياداً بالله من الخذلان.

الخطر الثاني والعشرون: التنكر لآلام أمته وجراحاتها:

لأنه لا يعيش واقعها ولا قضيتها؛ بل هو فاتن مفتون بهواه؛ بل لربما كان عوناً للأعداء على أمته، ليرضي أهواءه بالدرهم والدينار والشهوات؛ حتى لربما قاتل في صف أعداء أمته ضدها، وربما تجسس لحساب أعداء أمته ﴿هُرَّ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ فَتَلَاهُمُ اللَّهُ أَنْ يَوْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرَدِّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [٥٤] ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [٥٦] ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مَنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٥٧] [المائدة: ٥٤ - ٥٧].

الخطر الثالث والعشرون: الإضرار بنصر هذه الأمة:

حيث إن للنصر مقومات وأسباباً، وكلما كثر المتبعون لأهوائهم كانوا حجر عثرة أمام نصر هذه الأمة؛ فما أشأهم على أمة الإسلام! وما أبأس أمة الإسلام بهم! والله المستعان.

الخطر الرابع والعشرون: إضرار صاحب الهوى بخيرية هذه الأمة الوسط:

التي هي خير أمة أخرجت للناس؛ حيث يجعله هواه يتنكر للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو سر خيريتها مع الإيمان بالله ﷻ؛ بل ويتنكر حتى لأهم قضايا الإيمان؛ وهي عقيدة الولاء والبراء في الله تعالى، التي لا تقوم للعروة الوثقى بدونها قائمة، فتجده يسعى جاداً في تهमيش عقيدة الولاء والبراء.

وإن هذا النوع من المتبعين لأهوائهم، هم من شرار المنتسبين لهذه الأمة؛ بل ومثْلُهُمْ وكذلك ممن قارب حالهم؛ بنس المثال الذي يُنسب لهذه الأمة زوراً وهتافاً؛ إذ هم ليسوا منها، والعياذ بالله، وبسببهم يُشْنَعُ على الإسلام وأهل التقوى، من جرّاء سوء حالهم ومقالهم، وذلك لاتباعهم لأهوائهم، والله المستعان.

الخطر الخامس والعشرون: ومن الأخطار، تقليل المصلحين، وتكثير سواد أصحاب المعاصي، حتى لا يؤمّر بمعروف، ولا ينهى عن منكر، وذلك هو زمان ظهور الفساد في البر والبحر؛ عياداً بالله، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) قَاقَمَ وَجْهَهُ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ، مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ (٤٣)

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ. وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ [الروم: ٤١-٤٥].

وقد جاء في «مصنف ابن أبي شيبة» بسند صحيح من طريق عمرو بن مرة عن زاذان، قال: سَمِعْتُ حُدَيْفَةَ يَقُولُ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَيْكُمْ زَمَانٌ، خَيْرُكُمْ فِيهِ مَنْ لَا يَأْتُرُ بِمَعْرُوفٍ وَلَا يَنْهَى عَنْ مُنْكَرٍ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَيَأْتِي عَلَيْنَا زَمَانٌ نَرَى الْمُنْكَرَ فِيهِ فَلَا نُغَيِّرُهُ؟ فَلَا وَاللَّهِ لَنُفْعَلَنَّ، قَالَ: فَجَعَلَ حُدَيْفَةُ يَقُولُ بِأَصْبُعِهِ فِي عَيْنِهِ: كَذَبْتُ وَاللَّهِ، ثَلَاثًا، قَالَ الرَّجُلُ: فَكَذَبْتُ وَصَدَقَ».

الخطر السادس والعشرون: أنه يجعل صاحب الهوى يسعى في التلبيس والتدليس:

ليبرر هواه، ويمرر باطله؛ فيجادل بالباطل ليبرهن أنه على الهدى، وما عليم أنه على الهوى، والعياذ بالله، وقد وَقَعَ بهذا فساد عريض، فكم من كاتب وصحفي وإعلامي؛ بل وعالم وطالب علم، يسعى في تثبيت باطله الذي زينه له هواه، والله المستعان.

الخطر السابع والعشرون: أنه يُثْقِلُ على العبد ضحبة الصالحين، وَيُقَبِّطُهُ عن ذكر الله تعالى وطاعته والسعي في مرضيه:

وربما تجارى به الأمر حتى يكره رضوان الله فيحبط عمله، عياداً بالله من الخذلان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ ۖ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا

مَا نَزَلَ اللَّهُ سَطُيْعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٦٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا
نَوَفْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِضُرُوبٍ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ﴿٦٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا
أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٦٨﴾ [محمد: ٢٥ - ٢٨].

الخطر الثامن والعشرون: أنه يُرغب في الكفر والزندقة، ويزين ذلك:

وترداد الطامة عندما يُوهّم صاحبه أن في ذلك سبيلاً للغنى والرياسة،
والمحافظة على الملك والجاه والمال؛ عياداً بالله من الخذلان.

الخطر التاسع والعشرون: أنه يُوقع العبد في الأمن من مكر الله تعالى:

حتى إنه لَيَذْهَلُ عن الحذر من الاستدراج والمكر الذي يقع على
الغافلين من حيث لا يشعرون ﴿جَزَاءً وَفِاقًا﴾ ﴿٦٩﴾ [النبا: ٢٦]، ﴿وَمَا رَبُّكَ
بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ﴿٦٩﴾ [فصلت: ٤٦].

وقد حذر الله تبارك وتعالى عباده من ذلك، كما في قوله تعالى:
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا
إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا
فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ ﴿١٧﴾

أَوَإِنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُوتِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ [الأعراف: ٩٧ - ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾

[النحل: ٤٥ - ٤٧].

الخطر الثلاثون: أن الهوى يكثر من وجود المترفين:

ويُغري الناس أن يتجاوبوا معهم، وهنا تقع الهلكة كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمَّاكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمَّاكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿١٣٣﴾ [الأنعام: ١٣٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ ﴿١٦﴾ [الإسراء: ١٦].

وقد ذكر ابن جرير الطبري في «تفسيره» لها عدة معان: فمنها: «إن

الأغلب من تأويله: «أمرنا مترفيها بالطاعة؛ ففسقوا فيها بمعصيتهم الله، وخلافهم أمره، كذلك تأوله كثير ممن قرأه كذلك».

ثم قال: «وقد يحتمل أيضًا إذا قرئ كذلك أن يكون معناه: جعلناهم أمراء ففسقوا فيها؛ لأن العرب تقول: هو أمير غير مأمر، وقد كان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يقول: قد يتوجّه معناه إذا قرئ كذلك إلى معنى أكثرنا مترفيها». اهـ.

ثم قال: «وقرأ ذلك أبو عثمان: ﴿أَمَرْنَا﴾ بتشديد الميم، بمعنى الإمارة». اهـ.

ثم قال: «وقد تأول هذا الكلام على هذا التأويل جماعة من أهل التأويل».

ذكر من قال ذلك: حدثنا علي بن داود، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها؛ فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب». اهـ.

ثم نقل عن أبي العالية قال: «﴿أَمَرْنَا﴾ مثقلة: جعلنا عليها مترفيها: مستكبريها».

ونقل عن مجاهد: «في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قال: بعثنا».

ثم قال: «وذكر عن الحسن البصري أنه قرأ ذلك ﴿أَمَرْنَا﴾ بمدّ الألف من أمرنا، بمعنى: أكثرنا فسقتها».

فكثرة المترفين المفسدين، وتسلطهم على العباد، وركون الناس إليهم؛ علامة من علامات الهلاك، أو دُئُونُ العذاب الذي قد انعقدت أسبابه؛ نسأل الله العافية والسلامة.

الخطر الحادي والثلاثون: أن الهوى يُضَعِّفُ الأخوة الإسلامية، ويشتت المسلمين ويفرقهم:

بل وربما تحاربوا فيما بينهم حتى يقتل بعضهم بعضًا، وما ذلك إلا لأن كلا منهم قد تعصَّبوا لأنفسهم، وقبائلهم وموروثاتهم، واتبعوا خطوات الشياطين؛ فاتبعوا أهواءهم؛ فقادتهم إلى الاقتتال فيما بينهم، والتَّهَاجُرِ والتَّقَاتُعِ، عيادًا بالله.

كما في صحيح مسلم عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَزْنَينِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي إِلَّا يُهْلِكَهَا بَسَنَةِ بَعَامَةٍ وَلَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ إِلَّا أَهْلِكَهُمْ بَسَنَةِ بَعَامَةٍ، وَلَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا؛ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

وفي صحيح البخاري عَنْ جَابِرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:

﴿قُلْ هُوَ الْفَارِدُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، قَالَ: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكَ﴾ ، قَالَ أَعُوذُ بِوَجْهِكَ: ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا أَهْوَنُ، أَوْ هَذَا أَيْسَرُ».

وفي صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ آيَسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ».

الخطر الثاني والثلاثون: أنه يبدد الحسنات إما بإحباطها أو بإزالة أثرها:

وذلك عندما يوقع الهوى العبد في محبطات الأعمال الصالحة، وهي نواقض الإسلام؛ من شرك وكفر ونفاق أكبر، أو يوقعه في البدع، أو يستدرجه إلى الرياء والسمعة، أو إلى الممن والأذنى، أو بالاستطالة في الأعراض والغيبة والنميمة، والبغي والظلم، أو يُغريه بالمعاصي والفواحش والمنكرات؛ فتكثر سيئاته فترجح في الميزان يوم القيامة على حسناته؛ فتكون الهلكة، والعياذ بالله، فلا ينتفع بما عمله من الصالحات لينجو من عذاب الله وسخطه يوم لقائه، إلا أن تتداركه رحمة أرحم الراحمين، أو شفاعة مقبولة عند الله من الشَّافِعِينَ.

قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٣٣﴾ [محمد: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى

كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ
تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ
الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ نَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ آيِلٍ
إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ [هود: ١١٢ - ١١٥].

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ
أَخَذَتْ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»، والراجح أن هذا في القادة في
الإحداث والابتداع، وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ
رَدٌّ»، وهذا على الراجح في حق المقلدين والأتباع.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنْتَدِرُونَ مَا

الْمُفْلِسُ؟»، قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

فلنحافظ عباد الله على أعمالنا التي اجتهدنا في القيام بها، رجاء رضوان الله تعالى وثوابه، وفرارًا من سخطه وعقابه.

العلاج في الإصلاح:

وعلينا أن نسعى في منع ذلك، من خلال نشر العلم النافع، والدعوة إلى العمل الصالح؛ لنحارب الهوى، ونعمل بالهدى الذي به يؤلف الله تعالى بين القلوب، ويوحد الصفوف، وكذلك علينا بالسعي الحثيث في الإصلاح بين المؤمنين، عملاً بِوَصِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى لَنَا أَجْمَعِينَ، كما قال تعالى: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَفْتَنَلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

وجاء في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَوْ أَتَيْتَ

عَبَدَ اللَّهُ بْنُ أَبِي، قَالَ: فَأَنْطَلَقَ إِلَيْهِ وَرَكِبَ حِمَارًا، وَأَنْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ، وَهِيَ أَرْضٌ سَبِيحَةٌ، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَذَانِي تَنْتُ حِمَارِكَ، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: وَاللَّهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ، قَالَ: فَعَضِبَ لِعَبْدِ اللَّهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، قَالَ: فَعَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ، قَالَ: فَكَانَ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَبِالْأَيْدِي وَبِالنِّعَالِ، قَالَ: فَبَلَعْنَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِمْ: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾.

وجاء في صحيح البخاري: باب قول النبي ﷺ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ»، وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾.

ثم ساق الحديث من طريق أَبِي مُوسَى قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: اسْتَقْبَلَ وَاللَّهُ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ مُعَاوِيَةَ بِكِتَابٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: إِنِّي لَأَرَى كِتَابَ لَا تُؤَلِّي حَتَّى تَقْتُلَ أَقْرَانَهَا، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ، وَكَانَ وَاللَّهُ خَيْرَ الرَّجُلَيْنِ: أَيُّ عَمْرُو إِنْ قَتَلَ هَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ؟ مَنْ لِي بِأُمُورِ النَّاسِ، مَنْ لِي بِنِسَائِهِمْ، مَنْ لِي بِضَعِيعَتِهِمْ؟

فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ: عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ بْنِ كُرَيْزٍ؛ فَقَالَ: أَذْهَبَا إِلَيَّ هَذَا الرَّجُلُ فَاعْرِضَا عَلَيْهِ، وَقُولَا لَهُ، وَاطْلُبَا إِلَيْهِ؛ فَأَتِيَاهُ فَدَخَلَا عَلَيْهِ فَتَكَلَّمَا، وَقَالَا لَهُ، فَطَلَبَا إِلَيْهِ؛ فَقَالَ لَهُمَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَدْ أَصَبْنَا مِنْ هَذَا الْمَالِ،

وَلِإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ عَاثَتْ فِي دِمَائِهَا، قَالَا: فَإِنَّهُ يَعْزِضُ عَلَيْكَ كَذَا وَكَذَا، وَيَطْلُبُ إِلَيْكَ، وَيَسْأَلُكَ، قَالَ: فَمَنْ لِي بِهَذَا؟ قَالَا: نَحْنُ لَكَ بِهِ، فَمَا سَأَلَهُمَا شَيْئًا إِلَّا قَالَا: نَحْنُ لَكَ بِهِ؛ فَصَالَحَهُ، فَقَالَ الْحَسَنُ: وَلَقَدْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرَةَ يَقُولُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَنْبَرِ، وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يُقْبَلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً، وَعَلَيْهِ أُخْرَى، وَيَقُولُ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».



المحور الرابع

ما العلاقة بين الهوى والنفس الأمارة بالسوء؟

قد يتساءل الإنسان: ما هي العلاقة بين الهوى المذموم والنفس الأمارة بالسوء؟

والجواب عن ذلك: أن العلاقة بينهما علاقة تلازم؛ فهي علاقة حميمة مترابطة وثيقة؛ فحيث وُجد الهوى وُجدت النفس الأمارة بالسوء، والعكس، وحقيقتها أن النفس تأمر بالسوء، والهوى يزينه؛ ولهذا تجد بعض العباد يقع في المعاصي الشنيعة، الذميمة شرعاً وعقلاً وفطرةً وعرفاً، ومع هذا كله يجد لذة فيها، والعياذ بالله، والسبب في ذلك أن الهوى زين له تلك المعاصي، والعياذ بالله، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

واعتبر بحال «زليخا» زوجة العزيز، التي ذكرها الله تعالى في سورة يوسف؛ كيف أنها تقرر وتعترف، بأن ما تطلبه هو من سوء والقيبح، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]. ومع ذلك هي تطلبه بكل ما أوتيت من قدرات وإمكانات ونفوذ، نعوذ بالله من عمى الهوى وصممه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زُوِّنُوا أَنْ يَصِفُوهُ فَاسْتَعْصَمُوا وَلَكِنْ لَمْ يَعْلَمْ مَاءُ امْرَأَتِهِ لِيُصْغِرَ وَلِيَكُونَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وظاهر الآيات أن النسوة تجاوزن معها وعذرتهن، ولا إخالهن إلا يحببن ما

أحبت؛ ولهذا سمت ملائمتهن لها مكرًا؛ أي: تَصَنُّعًا وَطَعْنًا، غيرََ منهن عليها ومكرًا؛ لا ديانةً وعفافًا وشرَفًا وطهرًا، عيادًا بالله من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والله أعلم.

إنها مصيبة كبرى تحل بساحة العبد، والعياذ بالله؛ ومن علامة ذلك أن ترى العبد الغافل إذا قلت له: اتق الله؛ تعجب من كلامك؛ لأنه لا يرى أنه مخطئ أصلاً؛ بل يرى أنه من الكُمَّل من العباد، وأنه من أصلح العباد وأتقاهم؛ بل وأنه لم يفعل خطأً أصلاً، فيبتدرك قائلاً: ما شأنك؟، ولماذا تقول لي: اتق الله؟ أتراني كافرًا؟ لماذا كل هذا الكلام؟ أتراني قد أمسكت بيد الشيطان وسأيرته؟، نعم مثل هذا الهذيان نسمعه كثيرًا على ألسنة هؤلاء الغافلين عن حقيقة واقعهم؛ فهو غافل لا يشعر بمصيبته، من جراء فساد تصوُّره لقبيح حاله، وشنيع فعاله، نسأل الله العافية والسلامة.

نعم إن هذه العلاقة الوثيقة هي التي تقلب الموازين، والعياذ بالله، حتى يرى العبد القبيح حسنًا، والعكس، عيادًا بالله، كما قال قائلهم:

يُقَضَّى عَلَى الْمَرْءِ فِي أَيَّامِ مُحْتَتِهِ حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ

فالنفس الأمارة بالسوء تأمر، والهوى يزين ذلك، ويلمعه ويبهرجه.

وتأمل فيما يقع من الشرك بالله ﷻ، والكفر، والنفاق، فإنه أشنع الأمور وأفحشها وأعظمها، ومع هذا نجد بعض العباد يقع في ذلك، ويتلذذ

به، والعياذ بالله؛ بل ويتقرب إلى الله تعالى به؛ والسبب في ذلك أن الهوى قد زين له سوء هذه الفعال، وقبيح تلك الخصال، حتى أوقعه في الجرم الأعظم، والذنب الذي لا يغفر، والعياذ بالله.

وتأمل حال فرعون فيما ذكره الله تعالى في شأنه، لما ادعى الألوهية؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِّفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾؛ هكذا اختلّت عنده الموازين فرأى أسوأ الفعال وأقبح الخصال حسناً، والعياذ بالله، وهذا ليس بعجيب إذا تذكرنا العلاقة بين النفس الأمارة بالسوء والهوى، كما تقدم.

ونمثل على ذلك أيضاً بفاحشة من أشد الفواحش وأشنعها؛ ألا وهي فاحشة الزنا، التي لا يرتضيها عاقل، فضلاً عن أن يكون مؤمناً موحداً؛ لزوجه، ولا لأمه، ولا لأخته، ولا لابنته، فكيف يرتضيه للآخرين؟!

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢)

[الإسراء: ٣٢].

فطبع وقبيح وشنيع هذا الصنيع، ولكن الهوى يزينه، ويجعل صاحبه يركب هذه الفاحشة؛ بل ويتفاخر بها أمام الناس، ويُرِي أصحابه جوارَ سفره، إلى كم من دول الفساد والعهر والدعارة قد سافر! وكم من المتع الجنسية الخبيثة قضاها في الحرام، والعياذ بالله! ويذكر قصصه الغرامية، ومواقفه الرزية الرذيلة المشينة بين العباد! بل ويصور ذلك ويشهره، وكأنه من

أصحاب البطولات، وما هو إلا من أصحاب الغراميات والليالي الحمراء وهتك الأعراض وصحبة الزانيات، والعياذ بالله، بل وربما أحب انتشار ذلك وفُشُوهُ، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وقل مثل ذلك في الخبائث والرذائل الأخرى؛ كترك الصلوات، والجمع والجماعات، وترك الفرائض، وارتكاب المحرمات كالتبرج والسفور، وشرب الخمر والديانة، والنظر إلى المحرمات والأجساد العارية، والقُبُلَات الحارة، عبر شاشات العجل الفضي، الذي يقبع عليه أكثر الناس اليوم «التلفاز»، وعبر الجوالات، ومواقع الإنترنت التي تنشر الخنا والفجور، وقل مثل ذلك في الغدر والخداع والكذب، والغيبة والنميمة، وشرب الدخان وسف الصعود أو السقوط، إلى غير ذلك من الخبائث.

فليس بعجيب أن تجد من يتلذذ بالعصيان، والجهر به، ومبارزة الله تبارك وتعالى، وهو لا يتأثر بذلك ولا يستحي؛ لا من الله، ولا من خلق الله، والسبب وراء ذلك أن هذه المعاصي قد زينها الهوى له، نسأل العافية والسلامة.

بل وربما ذهب العبد إلى ما هو أبعد من ذلك، عندما يفعل الفواحش والموبقات من الشراكيات والكفريات، ثم ربما ازداد فجوراً وكفراً فينسبها إلى الله تعالى، وإلى شرعه تبارك وتعالى، ليسربل واقعه بالديانة، ويحسب أنه في ذلك من المحسنين المهتدين، وهذه الحالة الردية

الخطيرة ذكرها الله تعالى عن أهل الجاهلية الأولى كما قال تعالى: ﴿يَبْنِي
ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا
لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَعْثِهِمَا إِنَّهُ يَرِنُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوُونَهُ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ
أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا
بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي
بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا
بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٧ - ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ
إِلَّا يَظُنُونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا مِمَّا
يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْيَامًا مَعْدُودَةً قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ
عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَنْ
كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحْطَطَ فِيهَا خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٧٨ - ٨١].

وكذا فعل فرعون كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ
مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾

وقال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وكذلك يفعل طواغيت الحكم اليوم، ومن ورائهم علماء السوء،
الدعاة على أبواب جهنم، عيادًا بالله منهم.

وكما قيل:

قد حَسَّنَ الله في عَيْنِي مَا صَنَعْتُ حَتَّى أَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ
حَقًّا إِنْ لِلْهُوَى لَسْكْرَةٌ

كل هذه الفضائع والقبايح وهم لا يستحون، ولا يشعرون، ولا
يمقتون أنفسهم، ولكنه تزيين الهوى، والعياذ بالله منه، ولكنهم سيندمون
ولات حين مندم!

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ
أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ
وَأَحْيَيْتَنَا أَثْنَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِدُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر: ١٠، ١١].

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى
هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ
الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤١، ٤٢].

قال ابن القيم في «الفوائد»: «عُلِّمَاءُ السَّوِّ جَلَسُوا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ

يَدْعُونَ إِلَيْهَا النَّاسَ بِأَقْوَالِهِمْ وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى النَّارِ بِأَفْعَالِهِمْ؛ فَكَلِمَا قَالَتْ أَقْوَالُهُمْ
لِلنَّاسِ: هَلُمُّوْا! قَالَتْ أَفْعَالُهُمْ: لَا تَسْمَعُوا مِنْهُمْ، فَلَوْ كَانَ مَا دَعَوْا إِلَيْهِ حَقًّا كَانُوا
أَوَّلَ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُ، فَهَمُ فِي الصُّورَةِ أَدِلَاءُ وَفِي الْحَقِيقَةِ قُطَاعُ الطُّرُقِ اهـ.

وقال ابن القيم في «الفوائد»: «دخل النَّاسُ النَّارَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَبْوَابٍ:

- بَابُ شُبْهَةٍ أَوْرَثَتْ شُكَّا فِي دِينِ اللَّهِ.

- وَبَابُ شَهْوَةٍ أَوْرَثَتْ تَقْدِيمَ الْهُوَى عَلَى طَاعَتِهِ وَمَرْضَاتِهِ.

- وَبَابُ غَضَبٍ أَوْرَثَ الْعَدْوَانَ عَلَى خَلْقِهِ.

أَصُولُ الْخَطَايَا كُلِّهَا ثَلَاثَةٌ:

- الْكِبَرُ: وَهُوَ الَّذِي أَصَارَ إِبْلِيسَ إِلَى مَا أَصَارَهُ.

- وَالْحِرْصُ: وَهُوَ الَّذِي أَخْرَجَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ.

- وَالْحَسَدُ: وَهُوَ الَّذِي جَرَأَ أَحَدَ ابْنِي آدَمَ عَلَى أَخِيهِ.

فَمَنْ وَقِيَ شَرَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ فَقَدْ وَقِيَ الشَّرَّ؛ فَالْكَفَرُ مِنَ الْكِبَرِ،
وَالْمَعَاصِي مِنَ الْحِرْصِ، وَالْبَغْيُ وَالظُّلْمُ مِنَ الْحَسَدِ. اهـ.



المحور الخامس

ما علامة المتبعين للهوى؟

وهنا أسئلة محورية مفصليّة في موضوعنا: ألا وهي:

* كيف أتعرف على ما في قلبي؟

* هل هذا القلب ممن يتبع الهوى المحمود أم ممن يتبع الهوى المذموم؟

* وما العلامة الفارقة في ذلك؟

* وما الشارة التي متى وجدتها علمت أني قد أصبحت على حافة

الهاوية، وبدأت مسلسل الانحراف والضياع؟

إن هذه الأسئلة كلها قد بين الله ﷻ في كتابه العزيز جوابها، في آية

جامعة كشفت الحال، وبيّنت الأمر بياناً شافياً كافياً، لكل من كان له قلب أو

ألقى السمع وهو شهيد؛ ألا وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ

فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ كَافِرُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَرُهُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ

اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ [القصص: ٥٠].

إن هذه الآية الجامعة المانعة قد حسمت المسألة، وكشفت عوار

وأستار الهوى، حتى ما بقي لمتحايِلٍ من كلمة أو محاولة مراوغة.

إنها علامة بينة واضحة جلية: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ (أي: أيها النبي ﷺ)، ويقبلوا أمرك، ويركنوا إلى ستك، ويعملوا بشريعتك؛ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبَعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ، نعم، هكذا جاء الحكم فصلاً عدلاً، وقضاء مُبرماً، مِنْ لَدُنْ حكيم خبير، جل الله في علاه، فحين لا يستجيبون لك فاعلم مباشرة، واحكم فوراً أنهم من أصحاب الهوى المذموم، وأنهم من المتبعين للهوى، وأنهم لا يريدون الهدى الذي أُرْسِلَتْ به؛ فهم لا يقبلونه ولو تلفظت ألسنتهم بأنهم متسبون إليك، وإلى دينك ظاهراً، ويشهدون لك بالرسالة؛ إلا أنهم إذا تعارض دينك مع أهوائهم؛ فالمقدم، قولاً واحداً عند هؤلاء؛ هو الهوى ومرادات النفس، بلا تردد؛ عياداً بالله تعالى من النفاق وأحواله.

فهم يتلفظون بكلمات الإيمان، ويمتنعون عن العمل بذلك، إلا إذا كان الإيمان يوافق أهواءهم، وهذا دالٌّ على أحد ثلاثة أحوال: إما أنهم في قلوبهم مرض، أو ريبة (وهذا هو النفاق)، أو أنهم يرمون الله تعالى ورسوله ﷺ بالحيف، وهو الظلم والجور، عياداً بالله من ذلك، وهذا هو الكفر الصراح.

وقد جاءت الآيات مصرّحة بذلك؛ فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ

﴿٤٩﴾ أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ أَلَّا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ [النور: ٤٦ - ٥٠].

نعم، إنهم إذا وافق الحق أهواءهم ركنوا إليه، وأخذوه وقبلوه، وقالوا به، وانقادوا، وأما إن خالف أهواءهم تنكروا له، وأعرضوا عنه، وزهدوا فيه؛ بل ربما حاربوه صراحة، أو مراوغة بمحاربة حملته والداعين إليه!

وهذه من أبرز خصال اليهود، التي وقعوا بها في الكفر، واستحقوا بها غضب الله تعالى ولعنته، والحيولة بينهم وبين الاهتداء والتوبة، والعياذ بالله؛ حيث تجاروا مع أهوائهم، حتى عمدوا إلى التلاعب بالشرع، وتبديل الدين وتحريفه، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْزِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْءٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: ٤١].

وقد ذكر الله تعالى عن المنافقين شهادتهم للنبي ﷺ بالرسالة، ثم أكذبهم تبارك وتعالى في شهادتهم، وفضحهم ووبخهم، ووصفهم بأقبح الأوصاف، ولعنهم لما أرادوها على مستوى الألسن فحسب، دون الاستسلام والانقياد، والعمل بهديه ﷺ ظاهراً وباطناً، في المنشط والمكره،

والعسر واليسر؛ أي: شهادة بدون إقرار^(١)؛ فقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاخْذِرْهُمْ فَإِنَّهُمْ إِلَهُاتٌ يَدْعُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ١-٤].

ولهذا كان من أبرز علامات المؤمنين الصادقين: أنهم إذا جاءهم الأمر من أمر الله، أو أمر رسوله: أنهم يتجاهلون أهواءهم، ومرادات نفوسهم؛ ليقولوا مدعنين طائعين راضين: سمعنا وأطعنا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]؛ فإنما هو الاستسلام التام والانقياد العام لله رب العالمين.

فهذه علامة بيّنة لكل العباد، يتعرفون من خلالها نوع الهوى الذي في قلوبهم؛ فقد جعل الله تعالى هذه الاستجابة علامة بارزة، وعلمًا ومنارًا على اتباع الهدى، وجعل عَدَمَهَا شارة ظاهرة، وفضحًا صريحًا، وبيانًا شافيًا، وكشفًا لحال المتبعين لأهوائهم.

(١) راجع كتابي «إسعاف السئول»، وكتابي «الديمقراطية والإسلام ضدان»؛ للتعرف على أن معنى الإقرار الشرعي هو الذي يتضمن ويستلزم الاستسلام والانقياد، لا عمل القلب فقط، وستجد الأدلة الصريحة على ذلك فيهما.

إنها والله الكاشفة والفاضحة: إن الهوى والهدى
ضدان لا يجتمعان، وخصمان لا يصطلحان.

ولهذا قال بعض العلماء:

«لا يجتمع الهدى مع الهوى،

إلا إذا اجتمع الحوت مع الضب».

فإن الحوت يموت إذا أُخرج من الماء، والضَّبُّ يموت إذا أُودِعَ في الماء؛ فهما ضدان لا يجتمعان؛ فإما اتباع الهوى، أو اتباع الهدى؛ ولهذا أمر الله ﷻ العباد كلَّهم باتباع الهدى، ومخالفة الهوى؛ قال الله جل وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

إذا ما ثمة إلا الاستسلام التام، والانقياد العام، لله الواحد القهار تبارك وتعالى، وبذلك أمر الله جميع العباد، فقال ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) [البقرة: ٢٠٨، ٢٠٩].

وقال الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿يَتَخَيَّ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

[مريم: ١٢].

فالاستمساك بالدين، والقيام به جملة وتفصيلاً؛ هو أمر الله تعالى للعالمين، وهو التقوى التي وصى الله تعالى بها جميع العباد؛ قال تعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَُوا سَبِيلَ الرَّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَُوا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٦١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلَفَكَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤ - ١٤٧].

نعم هكذا أمروا أن يأخذوا بأحسنها، ولم يقل تبارك وتعالى: بالحسن؛ بل قال: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ ؛ للاستغراق والاستقصاء في إصابة الأعلى، وإن خالفت أهواءهم!

وقال سبحانه: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٤٣﴾

[الزخرف: ٤٣].

وقال ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ ﴿١٣١﴾ [النساء: ١٣١].

ولهذا جعل الله تعالى للمحبين له ﷺ ولرسوله ﷺ علامة يُعرفون بها وَيَتَمَيَّزُونَ بها من بين جميع الأنام؛ ألا وهي اتباعهم لرسول الله ﷺ في كل صغير وكبير، وفي كل ما يأتون وَيَذَرُونَ؛ في المشط والمكره، والعسر واليسر؛ فقال الله جل وعلا في آية الابتلاء والامتحان والمحنة: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وفي «الصحيحين» عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعَنَا، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: «أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَشْطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَآثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَلَّا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ».

نعم حقاً، عباد الله: إنها الآية الفاصلة الفارقة بين المحبين الصادقين، والآخرين المزييفين.

ولنعد بذاكرتنا، عباد الله، إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ

أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۖ لَنُعْقِدَ الْمُقَارَنَةَ؛ لَنُخْرِجَ بِالنَّتِيجَةِ الصَّائِبَةِ وَالنَّهَائِيَةِ.

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: «ولبعض المتقدمين:

تَعْصِي الْإِلَهِ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ هَذَا الْعَمَرِيُّ فِي الْقِيَاسِ شَنِيعٌ

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأُطْعِمَتْهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ

فجميع المعاصي: تنشأ من تقديم هوى النفوس على محبة الله

ورسوله، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى، في مواضع من كتابه،

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾.

وكذلك البدع: إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع؛ ولهذا يُسمى

أهلها أهل الأهواء.

وكذلك المعاصي: إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة

ما يحبه.

وكذلك حبُّ الأشخاص: الواجب فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول

ﷺ؛ فيجب على المؤمن محبة الله، ومحبة من يحبه الله، من الملائكة والرسل

والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً؛ ولهذا كان من علامات

وجود حلاوة الإيمان: أن يُحبَّ المرء لا يُحبه إلا الله، وتحرّم موالاة أعداء الله،

ومن يكرهه الله عموماً، وقد سبق ذلك في موضع آخر.

وبهذا يكون الدين كله لله، ومن أحبَّ الله، وأبغض الله، وأعطى الله، ومنع الله؛ فقد استكمل الإيمان، ومن كان حُبُّه ويُبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه؛ كان ذلك نقصاً في إيمانه الواجب، فيجب عليه التَّوبَةُ من ذلك، والرُّجوع إلى اتِّباع ما جاء به الرسول ﷺ، من تقديم محبة الله ورسوله، وما فيه رضا الله ورسوله، على هوى النفس ومراداتها كلها» اهـ.

أمثلة مما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم:

ولنذكر، عباد الله، طرَفًا مما كان عليه الرَّعِيلُ الأوَّل من سَلَفِنَا الصَّالِح، من المسارعة إلى مرضي الله ورسوله، ولو كان على حساب النفس وحظوظها، وهواها وميولها:

ففي «صحيح مسلم» عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كُنَّا نَحَاقِلُ الْأَرْضَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتُكْرِمُهَا بِالثُّلُثِ وَالرُّبْعِ وَالطَّعَامِ الْمُسَمَّى، فَجَاءَنَا ذَاتَ يَوْمٍ رَجُلٌ مِنْ عُمُومَتِي، فَقَالَ: نَهَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَمْرٍ كَانَ لَنَا نَافِعًا، وَطَوَاعِيَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنْفَعُ لَنَا، نَهَانَا أَنْ نَحَاقِلَ بِالْأَرْضِ فَتُكْرِمُهَا عَلَى الثُّلُثِ وَالرُّبْعِ وَالطَّعَامِ الْمُسَمَّى، وَأَمَرَ رَبَّ الْأَرْضِ أَنْ يَزْرَعَهَا أَوْ يُزْرِعَهَا، وَكَرِهَ كِرَاءَهَا وَمَا سِوَى ذَلِكَ».

تأمل معنى ما يقوله هذا الصحابي الجليل، يقول: نهينا عن أمرٍ ظاهره أنه فيه مصلحة لنا، لكننا أيقنا أن طواعة الله ورسوله هي أنفع شيء

لنا، فنفضوا ما في أيديهم، وأقبلوا على أمر الله ورسوله.

يقول هذا عن المال، الذي يعلم الكل مكانته؛ من طلب الناس وتعلقهم بهم، وقد جعله الله قيامًا للناس، وهو مما زين للعباد، كما قال تعالى: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ (١٤)﴾ [آل عمران: ١٤]، وقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٦١)﴾ [الكهف: ٤٦]، ولكنهم عملوا بوصية الله تعالى؛ فاختاروا ما عند الله تعالى ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ (١٤)﴾ [آل عمران: ١٤]، والعمل بالباقيات الصالحات.

وفي مراسيل عروة بن الزبير وغيره^(١): جاء عبد الله بن رواحة رضي الله عنه

(١) كما في «مصنف عبد الرزاق» عن ابن جريج قال: أخبرني ربيعة بن أبي عبد الرحمن: أن النبي ﷺ لما علا المنبر يوم الجمعة قال: «اجلسوا»، فسمع رجل من الأنصار قول النبي ﷺ ذلك وهو بالطريق لم يدخل المسجد؛ فجلس في بني غنم، قال: فلما أقيمت الصلاة دخل الرجل، فقال له النبي ﷺ: «ألا رُحْتَ»، فأخبره الخبر، فقال له النبي ﷺ خيرًا، زعموا أن ذلك الرجل عبد الله بن رواحة.

وفيه أيضًا قال: أخبرنا معمر عن أيوب قال: بلغني أن ابن رواحة سمع النبي ﷺ وهو بالطريق يقول: «اجلسوا»؛ فجلس في الطريق فمر به النبي ﷺ فقال له: «ما شأنك»، قال: سمعتك تقول: اجلسوا فجلست، فقال له النبي ﷺ: «زادك الله طاعة». وفيه أيضًا: عن ابن جريج عن عطاء قال: بينا النبي ﷺ يخطب، إذ قال: «اجلسوا»، فسمع ابن مسعود؛ فجلس بباب المسجد في جوف المسجد، فقال له النبي ﷺ: «تعال يا عبد الله».

إلى المسجد ذات يوم، فسمع النبي ﷺ يخطب يتكلم يعظ أصحابه، وكان الوقت وقت هاجرة وشدة حر، فسمع عبد الله بن رواحة النبي ﷺ يقول: «اجلسوا»، فجلس عبد الله بن رواحة في الحر، فما تقدم ولا تأخر عن مكانه؛ بل ما أن سمع هذه الكلمة من النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام: «اجلسوا»؛ حتى بادر إلى الامتثال! نعم إنها مثال عملي للطوعية التامة العامة، لله تعالى ورسوله ﷺ، وأن ذلك من صميم الإيمان.

ولهذا بين النبي ﷺ أهمية أن يكون هوى العباد تبعاً لشرعه وما جاء به، كما بين ﷺ أن حقيقة الإيمان، إنما تتمثل في ميل القلب التام العام إلى طاعة النبي عليه الصلاة والسلام، وطاعة الله رب العالمين، كما في «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ

= وجاء متصلاً عند الطبراني في «المعجم الأوسط»: حَدَّثَنَا مَسْعَدَةُ بْنُ سَعْدٍ، ثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُثَنَّرِ، ثَنَا فَضَالَةُ بْنُ يَعْقُوبَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، أَنَّ عُرْوَةَ، حَدَّثَهُ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَلَسَ عَلَى الْمُنْبَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ: «اجلسوا»، فَسَمِعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «اجلسوا»، فَجَلَسَ فِي بَنِي غَنَمٍ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَاكَ ابْنُ رَوَاحَةَ جَالِسٌ فِي بَنِي غَنَمٍ، سَمِعَكَ وَأَنْتَ تَقُولُ لِلنَّاسِ: «اجلسوا»، فَجَلَسَ فِي مَكَانِهِ. لَمْ يَزِرْ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ إِلَّا إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، وَلَا عَنْ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا فَضَالَةُ بْنُ يَعْقُوبَ، فَقَرَدَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُثَنَّرِ. انتهى. قلت: والمرسل هو المحفوظ، والله أعلم.

فِي النَّارِ»، وفي رواية: «وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ».

والآن: إن السؤال الذي يطرح نفسه، ويلج بالإجابة عنه: إذا أتاك الأمر الشرعي، وأتاك الهوى؛ فأيهما تقدم؟ أمر الله تعالى، أم هوى نفسك؟

وتذكر قوله ﷺ: «أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»، نعم، أحب إليه من هواه، أحب إليه من شهواته، أحب إليه من عاداته وتقليده، أحب إليه من ماله وجاهه وسلطانه؛ بل ومن الدنيا بحذافيرها؛ بل حتى من نفسك، فإياك أن تركز إلى هواك فإنه سَيَرْدِيكَ وَيُضِلُّكَ.

إن المؤمن الصادق بحق وحققة، إنما يركن إلى الهدى الذي جاء به النبي ﷺ لماذا؟؛ لأنه يحب الله ورسوله أكثر من كل شيء، حتى من نفسه، ويعترف بنعمة الله عليه؛ حيث أنقذه بالهدى من الهوى الداعي إلى الكفر والضلال، والانحراف والعصيان؛ ولهذا كان من أبغض الأشياء إليه أن يعود إلى ما كان عليه، من فجور وفسوق وإجرام.

وتأمل في هذا الحديث المخرَّج في «الصحيحين» أيضًا من حديث أنس؛ يقول النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي عَاقِلٍ زُهْرَةَ بْنِ مَعْبِدٍ أَنَّهُ سَمِعَ جَدَّهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ هِشَامٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ أَخَذَ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ». انظروا في هذه الأحاديث وتأملوها؛ لِيَتَبَيَّنَ لَنَا حَقِيقَةُ الْإِتِّبَاعِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّ الْهَدْيَ يَعَارِضُ الْهُوَى عَلَى طَوْلِ الْخَطِّ.

فَالْهَدْيُ لَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى أَنْقَاضِ الْهُوَى

فَإِذَا وَجَدَ الْهُوَى الَّذِي يُضِلُّ، فَحِينَئِذٍ يَعْتَزِلُ الْهَدْيُ قَلْبَ الْعَبْدِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ؛ فَالْهُوَى يَعْمِي وَيَصْمُ؛ يَعْمِي عَنْ رُؤْيَا الْحَقِّ، وَيَصْمُ عَنْ سَمَاعِهِ؛ وَلِهَذَا مَتَى مَا سَكَنَ الْهُوَى فِي قَلْبِ الْعَبْدِ لَمْ يَقْبَلِ الْحَقَّ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَإِذَا خَاطَبْتَهُ بِالْأَدْلَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، اعْتَرَضَ عَلَيْهَا بَهْوَاهُ وَضَغَطَ وَاقِعَهُ، حَتَّى يَرُدَّ الْحَقَّ وَيُدْحِضُهُ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِيَّاكُمْ وَالْهُوَى؛ فَإِنَّ الْهُوَى يَصْمُ وَيَعْمِي»^(١)؛ نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ!

فَاللَّهُ اللَّهُ فِي مِتَابَعَةِ هَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلِتَتَذَكَّرَ جَمِيعًا مَقُولَةَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، الَّتِي يَقُولُ فِيهَا: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحْلِي وَلَا بِالتَّمْنِي، إِنَّ الْإِيمَانَ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَقَهُ الْعَمَلُ»^(٢)، فَهَذِهِ عَلَامَةُ بَيْنَةِ فَارِقَةٍ

(١) قَالَ فِي «كَنْزِ الْعَمَالِ» (٣/ ٥٤٧): «السَّجْزِي فِي «الْإِبَانَةِ» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ».

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ»، وَفِي كِتَابِ «الْإِيمَانِ» لَهُ، وَأَخْرَجَهُ كَذَلِكَ الْإِمَامَانِ: ابْنُ

بين اتباع الهوى واتباع الهدى.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ [النور: ٥٤ - ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٣٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِن ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَلَٰئِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

[البقرة: ١٣٥ - ١٣٨].

وقال ﷺ: ﴿وَمَا ءَانَتْكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ

= المبارك وأحمد في كتاب «الزهد»، وأخرجه ابن بطلة في «الإبانة»، وغيرهم، وسنده صحيح.

إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ [الحشر: ٧].

ولذلك حذر الله ﷻ عباده من اتباع الهوى، وبين لهم أنه سبب رئيس للضلال، وطمس القلب والختم عليه؛ فتكون الغفلة والعياذ بالله منها، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ﴿٦٦﴾ [ص: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ ﴿٦٦﴾ [طه: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ﴿٧٧﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [الجاثية: ١٨].

وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَفَلَبِهَ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِّنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ [الجاثية: ٢٣].

ولذلك نهيينا أن نتبع أهواء المفتونين، وأمرنا أن نُبَيِّنَهُم، ونُفَاصِلَهُم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيُكُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ [الأنعام: ٥٦].

وقد تقدم قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إياكم والهوى، فإن الهوى يصم، ويعمي».

وجاء في «تفسير ابن أبي حاتم»: «عَنِ الشَّعْبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن شبرمة قَالَ: «إنما سمي هوى لأنه يهوى بصاحبه إلى النار».

معنى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾:

جاء في «جامع البيان» المعروف بـ«تفسير الطبري»: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍ وَحَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَفَّيْهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ فَمَنْ يَعْدِلِ اللَّهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣)».

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ ؛ فقال بعضهم: معنى ذلك: أفرأيت من اتخذ دينه بهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركه؛ لأنه لا يؤمن بالله، ولا يحرم ما حرم، ولا يحلل ما حلل، إنما دينه ما هويته نفسه يعمل به». انتهى.

ذكر من قال ذلك: حدثني عليّ، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية، عن عليّ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ قال: ذلك الكافر؛ اتخذ دينه بغير هدى من الله، ولا برهان.

حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ قال: لا يهوى شيئاً إلا ركه؛ لا يخاف الله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أفرأيت من اتخذ معبوده ما هويت عبادته نفسه من شيء.

ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا يعقوب، عن جعفر، عن سعيد، قال: كانت قريش تعبد العزى، وهو حجر أبيض، حيناً من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأوّل وعبدوا الآخر، فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ۚ﴾.

وأولى التأويلين في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: أفرأيت، يا محمد، من اتخذ معبوده هواه، فيعبد ما هوى من شيء دون إله الحق، الذي له الألوهة من كل شيء؛ لأن ذلك هو الظاهر من معناه دون غيره». انتهى.

وللعلماء في ذم الهوى ومخالفته، والتحذير منه والترغيب في معانته وتركه؛ كتب كثيرة، وحسبك بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤١، ٤٠].

طريق مُزَكَّى ومسارة محمودة:

قال تعالى عن أنبيائه ورسله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ بِالْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خِشَعِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال عنهم وعن عباده المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ أُنْهَمَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

﴿يُسْكِرُونَ﴾ : أي: يتنافسون ويتسابقون، حبًّا وشوقًا، وإجلالًا وتعظيمًا، وذُلًّا وانقيادًا، ورجاء وخوفًا من الله جل وعلا، وكما قيل: مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفَ كَانَ اللَّهُ أَتَقَىٰ وَلَهُ أَرْجَىٰ وَمِنْهُ أَخَوْفٌ.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ﴾ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ [طه: ٨٣، ٨٤].

وقد أمر الله تعالى عباده بالمسارعة والمسابقة إليه في مواضع أخرى من الذكر الحكيم، ثم ضرب المثل هنا بأنبيائه ورسله؛ لَتَمَثَّلَ الْقُدُوءُ العلمية واقعًا عمليًّا للركب المبارك من أتباع الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنعام: ٨٩ - ٩٠]؛ لتطمئن القلوب، وتأنس بالرفقة، وتعلم أنه طريق مُرَكَّبٌ؛ فيحصل الثبات، وتنشط النفوس للتسارع في مرضي الله جل وعلا، صابرة ومحتسبة.

ومن جميل ما نقل عن الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

إِذَا هَبَّتْ رِيَا حُكَّكَ فَأَعْتَنَمَهَا فَعُقِبْتُ كُلَّ خَافِقَةٍ سَكُونُ
ولا تغفل عن الإحسان فيها فلا تدري السكون متى يكون

وهذا بيت نُظِمَتْهُ؛ أشد به عزمي وعزمكم؛ لخدمة دين الله تعالى:

إِنْ صَحِيحَ الْعَزْمِ كَالرَّيْحِ كُلَّمَا تَقَاعَسَ أَصْحَابُ تَصَدَّرَ وَانْبَرَى

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (٢٦)

[النساء: ٦٩].

وقال ﷺ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

عرض الفتن سنة كونية إلهية؛ فأَي عبد أنت معها؟

إن سنة الابتلاء والتمحيص واقعة لا محالة؛ ففضاء الله تعالى لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، وله في ذلك تبارك وتعالى الحكمة البالغة، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَئِكَ هُمُ الرُّسُلُ أُولَئِكَ عَلَى خُصَّةٍ وَالْغُلَامَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْأَنْبِيَاءَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِهُنَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٤].

وجاء في صحيح مسلم عن حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا؛ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا

نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا؛ فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجَحَّيًّا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ، وقد تقدم شرح معاني بعض كلمات هذا الخبر من قبل.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلَ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ۚ﴾ (٤٢) فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ، مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)

[الروم: ٤٢ - ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَعَهَا ۙ (١) وَالْقَمَرُ إِذَا نَلَّهَا (٢) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا (٣) وَاللَّيْلُ إِذَا غَشَّهَا (٤) وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾

[الشمس: ١ - ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧)﴾ [الشورى: ٧].

المحور السادس

أنواع الهوى ومراتبه ودرجاته

اعلموا، عباد الله رحماني الله وإياكم؛ أن الهوى أصناف وأنواع، وضروب، وفنون وأشكال؛ وهو على دركات بعضه أغلظ وأشد من بعض؛ فمنه ما يُورث العبد الكفر بالله جل وعلا والشرك والنفاق الأكبر؛ عياداً بالله، ومنه ما يوقع العبد في كبائر الذنوب، نسأل الله العفو والعافية، ومنه ما هو دون ذلك، والله المستعان؛ فالشيطان يستدرج العباد بخطواته، مستغلاً فساد أهوائهم؛ فيتدرج بهم حتى يهلكهم بالعظائم والموبقات، عياداً بالله منه، فإن عجز تدرج إلى ما هو أدنى من ذلك.

وهكذا يعمل على هذا المنوال، وكلما وجد فرصة، وعنت له بارقة للعودة بالعبد إلى دعوته إلى الكفريات والكبائر؛ فعل مباشرة، وإلا سعى فيما هو دون ذلك؛ لعله أن يضعف دين العبد، فيسلك معه مسالك الهلاك والبوار، عياداً بالله، فالمهم عنده أن يصيب من العبد غرة وغفلة؛ ليُهْلِكَ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ وذلك بأن يصرفه عن شيء، ولو يسير، من الهدى، ثم يَسْتَرْزِلُهُ بخطواته، وَيَسْتَرْزِلُهُ بِرُخْفِ قوله إلى الهلاك والبوار، مُجَلِّباً عليه في ذلك بخيله ورجله، ومشاركته في ماله وولده، وإنما السعيد من كان من حزب الله

المُخْلِصِينَ، وعباده المُخْلِصِينَ؛ فإنه حتمًا سيكون من النَّاجِينَ، نسأل الله من فضله العظيم، ونسأله تعالى العافية والسلامة، من مَكْرِ الشَّيَاطِينِ وَأُولِيائِهِمْ.

فالهُدَى إمامه، ومُقدِّمه وقُدوته هو الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ، وانظر في هذا الحديث العظيم المُخِيف؛ لتعلم حجمَ المكر والكيد الذي يُدارُّ من حولك؛ لتعتصم بالله العظيم، وتكون مع الهدى دومًا وخصمًا على الهوى أبدًا.

ففي «صحيح مسلم» عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ؛ فَيَبْعَثُ سَرَايَاهُ؛ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ؛ فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً».

وفي لفظ طريق أَبِي مُعَاوِيَةَ: حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنَزَلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْرَاتِهِ»، قَالَ: «فَيَذَرِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نَعَمْ أَنْتَ!»، قَالَ الْأَعْمَشُ: أَرَاهُ قَالَ: «فَيَلْتَرِمُهُ».

والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا لِنَاثِقَةٍ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضُلَّةً لَهُمْ وَلَا يُنَبِّئُهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْتَكَنَّ ءَاذَانَ

أَلَا نَعْمَ وَلَا مَرْهَمٌ فَلْيَعِزِّ رَبِّ خَلَقَ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ
 اللَّهُ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ
 إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

[النساء: ١١٦ - ١٢١].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ
 عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ
 ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ
 شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾
 كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَآنَهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ١ - ٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
 إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ
 لَئِنْ آخَرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَآخُتَنَكَ ذَرِّيَّتَهُ ﴿٢﴾ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَن
 تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٤﴾ وَأَسْتَغْفِرُ مَن أَسْطَعْتَ مِنْهُمْ
 بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ
 وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٥﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ
 بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَبَنَّوْا مِنْ
 فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء: ٦١ - ٦٦].

فالله الله، عباد الله، في الفرار إلى الله تعالى أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، البر الرؤوف الرحيم، ولتفرغ إليه جميعاً مقبلين على هداه، ملتزمين جميع مراضيه، ولنحذر من الهوى والشيطان وأعوانه.

قال تعالى: ﴿فَفِرُوا إِلَى اللَّهِ إِنْ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ٥٠ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنْ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٥١ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ٥٢ اتَّوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ٥٣ فَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ٥٤ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ٥٥ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: ٥٠ - ٥٨].

الله تبارك وتعالى أرحم بنا من أمهاتنا:

ففي «الصحيحين» عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحَلَّبُ تُذِيهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَحَدَتْهُ، فَأَلَصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟»، قُلْنَا: لَا؛ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَلَّا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدَهَا»، وفي لفظ: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدَهَا».

وفي «الصحيحين» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ؛ فَقَالَتِ النَّارُ: أُوْثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبَّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟» قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ

رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابٌ أَعَذَّبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي؛ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا؛ فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِي حَتَّى يَضَعَ رَجُلُهُ، فَتَقُولُ: قَطِ قَطِ قَطِ! فَهَذَا لَكَ تَمْتَلِي وَيُزَوِّي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا.

وفي «الصحيحين» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».

وفي «الصحيحين» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً؛ فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ؛ لَمْ يَنَاسُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ؛ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ!».

وفي لفظ: «إِنَّ اللَّهَ مِائَةَ رَحْمَةٍ؛ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ؛ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَحَّمُونَ، وَبِهَا تَغْطِفُ الْوُحُشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وإليك عزيزي القارئ، هذه الكلمات النيرات لشيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله تعالى؛ يُدَكِّرُ فيها بخطورة الشيطان وخطواته، وأنه هو الأمر بالعصيان، ومحادة الله ورسوله:

قال رحمه الله تعالى في كتابه «مدارج السالكين» (ج ١/ ص ٢٢٢-٢٢٧):
«النظر الرابع: نظره إلى الأمر له بالمعصية، المزين له فعلها، الحاض له عليها، وهو شيطانه الموكل به؛ فيفيده النظر إليه وملاحظته اتخاذ عدوًا، وكمال الاحتراز منه، والتحفظ واليقظة والانتباه لما يريد منه عدوه، وهو لا يشعر؛ فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض، لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها:

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله، وبدينه، ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسوله عنه؛ فإنه إن ظفر به في هذه العقبة؛ بردت نار عداوته واستراح، فإن اقتحم هذه العقبة، ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان؛ طلبه على:

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة، إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله، من الأوضاع والرسوم المحدثه في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئًا، والبدعتان في الغالب متلازمتان، قل أن تنفك إحداهما عن الأخرى، كما قال بعضهم: تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال، فاشتغل الزوجان بالعرس؛ فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيشون في بلاد الإسلام، تضحج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

وقال شيخنا: تزوجت الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة، فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة.

فإن قطع هذه العقبة وخلص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة

المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب، فإن سمحت به نصب له أهل البدع الحبائل، وبَعَوَه الغوائل، وقالوا: مبتدع محدث، فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة؛ طلبه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر؛ فإن ظفر به فيها، زَيَّنَّها له وحسَّنَّها في عينه، وسوف به، وفتح له باب الإرجاء، وقال له: الإيمان هو نفس التصديق؛ فلا تقدر فيه الأعمال، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق؛ وهي قوله: لا يضر مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة.

والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه؛ لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله، وصاحبها لا يتوب منها، ولا يرجع عنها؛ بل يدعو الخلق إليها، ولتضمُّنْها القول على الله بلا علم، ومعاداة صريح السنة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة، وتولية من عزله الله ورسوله، وعزل من ولاه الله ورسوله، واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره، وموالاته من عاداه، ومعاداة من والاه، وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبتته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب، وطلب العِوَج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملةً.

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ صاحبها من

الدين، كما تنسل الشعرة من العجين؛ فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمى، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها؛ طلبه على:

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر، فكال له منها بالقفران، وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما عَشِيتَ من اللَّئَمِ، أَوْ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّهَا تُكْفَرُ باجتنب الكبائر وبالحسنات؟، ولا يزال يهْوَنُ عليه أمرها حتى يَصِرَّ عليها؛ فيكون مرتكب الكبيرة، الخائف الوَجَلِ النادم أحسن حالاً منه؛ فالإصرار على الذنب أقبح منه، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

وقد قال ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب»، ثم ضرب لذلك مثلاً بقوم نزلوا بفلاة من الأرض، فَأَعْوَزَهُمِ الحطب؛ فجعل هذا يجيء بعود، وهذا بعود، حتى جمعوا حطباً كثيراً، فأوقدوا ناراً، وأنضجوا خُبْزَتَهُمْ؛، وكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد، وهو يستهين بشأنها؛ حتى تُهْلِكَه^(١).

(١) هذا الحديث الذي ذكره الإمام ابن القيم، قد أخرجه الطبراني، وأحمد والسيوطي له، من طريق أنس بن عياض، قال: حدثني أبو حازم، لا أعلمه إلا عن سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب؛ فإنما مثل محقرات الذنوب، كقوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه».

وأخرجه الحميدي، وأبو يعلى، من طريق إبراهيم بن مسلم الهجري، عن أبي الأحرص الجشمي، قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ:

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار،
وأَتبع السيئةَ الحسنةَ؛ طلبه على:

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها؛
فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزوُّد لمعاده، ثم
طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك
الواجبات، وأقل ما ينال منه تفويته الأرباح والمكاسب العظيمة، والمنازل
العالية، ولو عَرَفَ السعر لما فَوَّتَ على نفسه شيئاً من القربات، ولكنه

= «إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرضكم هذه، أو ببلدكم هذا، ولكنه قد رضي
منكم بالمحقرات من أعمالكم، فاتقوا المحقرات فإنهن من الموبقات، أولاً أخبركم
بمثل ذلك: مثل ركبِ نزلوا فلاة من الأرض، ليس بها حطب فتفرقوا، فجاء ذا بعود،
وجاء ذا بعظم، وجاء ذا بروثة، حتى أنضجوا الذي أرادوا، فكذلك الذنوب».
وفي لفظ: «إن الشيطان قد يش أن تعبد الأصنام في أرض العرب، ولكنه سيرضى
منكم بدون ذلك، بالمحقرات، وهي الموبقات يوم القيامة، اتقوا المظالم ما
استطعتم، فإن العبد يجيء بالحسنات يوم القيامة، يرى أنه ستنجيه، فما زال عبد
يقوم، فيقول: يا رب، ظلمي عبدك مظلماً، فيقول: امحوا من حسناته، ما يزال
كذلك حتى ما يبقى له حسنة من الذنوب، وإن مثل ذلك كسفر نزلوا بفلاة من
الأرض، ليس معهم حطب، فتفرق القوم ليحطبوا، فلم يلبثوا أن حطبوا، فأعظموا
النار، وطبخوا ما أرادوا، وكذلك الذنوب».

قلت: وإبراهيم الهجري لين الحديث يُضَعَّفُ في الحديث، ولكن معناه صحيح؛ فقد
جاء في أحاديث المظالم والقصاص فيها؛ ما يشهد له، وسيأتي معنا حديث عائشة
بمعناه، وهو حديث صحيح، والله أعلم.

جاهلٌ بالسعر، فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة، ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات، والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشتري، وقدر ما يعوض به التجار؛ فبخل بأوقاته، وضنَّ بأنفاسه أن تذهب في غير ربح؛ طلبه العدو على:

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات؛ فأمره بها، وحسَّنها في عينه وزَيَّنَّها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح؛ ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسبًا وربحًا؛ لأنه لمَّا عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله ودرجاته العالية؛ فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمَرَضِي عن الأَرْضَى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؛ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول.

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرءوسها، وسيدها ومسودها؛ فإن في الأعمال والأقوال سيدًا ومسودًا، ورئيسًا ومرءوسًا، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت...» الحديث، وفي الحديث الآخر: «الجهاد ذروة سنام الأمر»، وفي الأثر الآخر: «إن الأعمال تفاخرت، فذكر كل

عمل منها مرتبته وفضله، وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن»، ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق، من أولي العلم السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه.

فإذا نجا منها، لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لا بد منها، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياءه، وأكرم الخلق عليه، وهي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير؛ فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهر عليه بجنده، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط.

وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها؛ فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله والقيام له بأمره، جدَّ العدو في إغراء السفهاء به؛ فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب، وأخذ في محاربة العدو، لله وبالله، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين، وهي تسمى عبودية المراغمة، ولا يتنبه لها إلا أولو البصائر التامة.

ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له، وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه:

أحدها: قوله: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]؛ سمي المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغماً، يراغم به عدو الله وعدوه، والله يحب من وليه مراغمة عدوه وإغاظته، كما قال

تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْثُونَ مَوْطِئًا يَغِيظَ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وقال تعالى في مثل رسول الله وأتباعه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ، فَكَزَرَهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فمغاظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له؛ فموافقته فيها من كمال العبودية، وشرع النبي للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: «إن كانت صلاته تامة، كانتا ترغمان أنف الشيطان»، وفي رواية: «ترغيمًا للشيطان»، وسماها المرغمتين.

فَمَنْ تَعَبَّدَ اللَّهُ بمراغمة عدوه، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه، وموالاته ومعاداته لعدوه؛ يكون نصيبه من هذه المراغمة، ولأجل هذه المراغمة حُمد التبختُّر بين الصَّفيين، والخُيلاء والتَّبَخْتُّر عند صدقة السر؛ حيث لا يراه إلا الله؛ لما في ذلك من إرغام العدو، وبذل محبوبة من نفسه وماله لله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول، وبالله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان، ولاحظه في الذنب؛

راغمه بالتوبة النصوح؛ فأحدث له هذه المراجعة عبودية أخرى.

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار التوبة، لا تستهزئ بها، فلعلك لا تظفر بها في مصنف آخر ألبتة، والله الحمد والمنة وبه التوفيق اهـ.

وإن المتأمل ليجد أن أهواء العباد متباينة مختلفة، لاسيما في هذه الأزمنة المتأخرة؛ فإن الأهواء والاختلافات تكثر قُرب قيام الساعة، وقد أخبر النبي ﷺ عن ذلك كما في «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا، شَبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ». فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَفَّارِسَ وَالرُّومِ؟، فَقَالَ: «وَمَنِ النَّاسِ إِلَّا أَوْلَئِكَ».

وفي «صحيح مسلم» عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللَّهُ الله!».

وفي «صحيح البخاري» من طريق قتادة: أَخْبَرَنَا أَنَسٌ قَالَ: لأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا لَا يُحَدِّثُكُمْوهُ أَحَدٌ بَعْدِي، سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؛ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ، وَإِنَّمَا قَالَ: مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، أَنَّ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزُّنَا، وَيَقْلَ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ، حَتَّى يَكُونَ لِلْخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقِيمُ الْوَاحِدُ».

وفي «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَقَارِبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ

الْفِتْنُ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ، وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ، حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضَ». وهو في مسلم مختصراً.

وفي «الصحيحين»، واللفظ لمسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ!».

وفي «الصحيحين»، واللفظ لمسلم أيضاً، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلْيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخُلْصَةِ»، وَكَأَنَّ صَنَمًا تَعْبُدُهَا دَوْسٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِتَبَالَةٍ.

وفي «الصحيحين»، واللفظ لمسلم أيضاً، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ؛ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ».

فكان لزاماً على كل واحدٍ منا؛ أن يتعرّف على نوعية الهوى الذي في قلبه، حتى تتمكن من مدافعته، وأخذ الحيطة منه، وسلوك سبل النجاة والسلامة منه، بإذن الله تعالى وتوفيقه ومنه وكرمه.

جملة من أبرز الأهواء وأشهرها:

ولعلنا أن نذكر جملة من أبرز الأهواء وأشهرها، وأكثرها انتشاراً بين العباد:

١- إن من العباد من هواه مع تأليهه لنفسه؛ وذلك بأن يزعم أنه رب للعباد، والعباد بالله، وهذا ليس بغريب، عباد الله؛ فقد ذكر الله ﷻ في القرآن العظيم أقواماً

فعلوا ذلك؛ فذكر النمرود وهو الذي ادعى الألوهية في زمان إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وذكر فرعون عندما قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقال مرة في آية أخرى: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤].

هكذا كانت أهواء هؤلاء أن يؤلّوها أنفسهم، والعياذ بالله، ولا تحسبن أن ذلك قد اقتصر على فرعون والنمرود؛ بل مازال هناك إلى يومنا هذا من العباد من يؤله نفسه، وينازع الرب تبارك وتعالى في أخص صفاته؛ فمن مدع لقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، ومدع لرزق الولد، وآخر يدعي علم الغيب، الذي لا يعلمه ملكٌ مقرب ولا نبي مرسل.

هكذا هي أهواؤهم قادتهم إلى هذه المهالكة الرذيلة التي تورث صاحبها جهنم، والعياذ بالله؛ حيث وقع في أعظم ورطة لا يغفرها الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]؛ فصار من أهل الخلود في النيران كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَا وَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

جاء في «فتح الباري» للحافظ ابن حجر: «وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال: أنا لا آخذ عن الموتى، وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت.

وكذا قال آخر: أنا آخذ عن قلبي عن ربي؛ وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع، نسأل الله الهداية والتوفيق.

وقال غيره: من استدلل بقصة الخضر، على أن الولي يجوز أن يطلع من خفايا الأمور على ما يخالف الشريعة، ويجوز له فعله؛ فقد ضل، وليس ما تمسك به صحيحاً؛ فإن الذي فعله الخضر ليس في شيء منه ما يناقض الشرع» اهـ.

وقال ابن حزم في «المحلى»: «مَسْأَلَةٌ: وَمَنْ قَالَ: إِنَّ فِي شَيْءٍ مِنَ الْإِسْلَامِ بَاطِئًا غَيْرَ الظَّاهِرِ، الَّذِي يَعْرِفُهُ الْأَسْوَدُ وَالْأَحْمَرُ؛ فَهُوَ كَافِرٌ يُقْتَلُ وَلَا بُدَّ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]؛ فَمَنْ خَالَفَ هَذَا فَقَدْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ». اهـ.

٢- وهناك آخر قد أمره هواه بأن يصير نفسه طاغوتاً، مشرعاً للعباد من دون الله تعالى، أو مع الله تعالى؛ فهذا هواه في منازعة الرب ﷻ، في صفة هي من أخص صفاته جل وعلا؛ ألا وهي صفة الحكم والتشريع؛ فإن الله ﷻ هو الْحَكْمُ وإليه الْحُكْمُ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَصْدَحِي السَّجْنَاءُ رَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [٣١] مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا

تَعْبُدُوا إِلَّا آيَاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

[يوسف: ٣٩، ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ ﴿٣١﴾

[الأحزاب: ٣٦].

وقال ﷺ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ [القصص: ٦٨].

وقال جل في علاه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُصِّى بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٢١﴾ [الشورى: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٦٦﴾ [الكهف: ٦٦].

وفي «سنن النسائي»: «المجتبى» و«الكبرى»، و«سنن أبي داود» من طريق يزيد؛ يعني: ابن المقدام بن شريح؛ عن أبيه، عن جده شريح، عن أبيه هانئ: أنه لما وفد إلى رسول الله ﷺ مع قومه، سمعهم يكتونه بأبي الحكم، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله هو الحكم، وإليه الحكم؛ فلم تكني أبا الحكم؟» فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين، فقال رسول الله ﷺ: «ما أحسن هذا! فما لك

من الولد؟»، قال: لي شريح ومسلم وعبد الله، قال: «فمن أكبرهم؟» قال: قلت: شريح، قال: «فأنت أبو شريح».

قلت: وسنده صحيح، وتخريج النسائي له في «المجتبى» تصحيح منه للخبز.

وهؤلاء الطواغيت المؤلّهون لأنفسهم يأبون إلا أن يكونوا هم الحكام في العباد، والمشرعين لهم؛ فيعقدون المجالس الدستورية، ويسمونهم بالمجالس التشريعية، وهذا يسمونه رئيس المجلس التشريعي وهذا نائبه، هذا يشرع في الصباح، والآخر ينسخ في المساء، والعياذ بالله.

ومن هؤلاء كذلك الأحرار والرهبان؛ وهم العلماء والعُباد الذين يشرعون للعباد ما لم يأذن به الله، كما قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَبًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَهًا إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

فهؤلاء الطواغيت ومن أطاعهم عالمًا مختارًا في التحريم والتحليل والتبديل للدين؛ كلهم في الحكم سواء بسواء، وإن اعتذروا بما اعتذروا به، قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [١٦] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا

يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ
وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي
الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ [النحل: ١٠٦ - ١٠٩].

وتأمل وتساءل: يُشْرَعُونَ لمن؟ إنهم يُنَازِعُونَ الله تعالى فيشرعون
لعباد الله تعالى، فالأمر عند هؤلاء الطواغيت أن الله تعالى يخلق ويرزق
فقط، وهم لهم التشريع والحكم والأمر، نسأل الله العافية والسلامة من هذه
الردة الصَّلُعاء، والكفر البواح، وهي التي قال الله تعالى فيها، مخاطبًا
المؤمنين باسم الإيمان؛ ليتقوا الله في إيمانهم، ويحافظوا عليه حتى يموتوا
عليه: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ
لَوْمَةً لَاحِظَةً ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَأْتِيَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا
الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعَبًا مِمَّنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارُ أُولِيَاءُ وَأَتَقُوا
اللَّهَ إِنَّ كُنْهَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ [المائدة: ٥٤ - ٥٧].

وَأَيُّ تَوَلَّى وولاية أعظم من الأخذ بشرائعهم، وجعل الأمر إليهم،

ونبذ شريعة الله تعالى، وهو القائل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

لا فرق بين طاغوت وطاغوت:

ولابد أن نعلم، أنه لا فرق في ذلك بين مَنْ وضع التشريعات الجاهلية، وبين من أتى بها من الكفار وطبّقها، ومَنْ وجدها لما تولّى حكم البلاد فأعملها، وعمل بها، ومَنْ قضى بها وحكم بها لفض النزاعات بين العباد؛ فكلهم من الطواغيت المرتدين عن الدين، ولكن كفر بعضهم أغلظ من بعض، وآخرتهم جميعاً إلى الكفر الأكبر المخرج من الملة؛ نسأل الله العافية والسلامة.

فسبحانك يا الله! إن الخلق خلقك، والملك ملكك؛ فلا بد أن يكون الأمر أمرك، تباركت وتعاليت، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾^(١)، ولكن الطواغيت

(١) الأمر هنا نوعان : الأمر الكوني والأمر الشرعي، أما الكوني فلا يملكون المنازعة فيه أصلاً؛ بل هي سنة الله تعالى التي لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، هكذا قضى الله تعالى، وإنما تقع المنازعة في الأمر الشرعي فيبدلون ويحرفونه ويتلاعبون به، وينكرونه ويتروكونه، وهذا من ابتلاء الله تعالى لعباده، ولو شاء الله تعالى ما فعلوه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١١٢) وَلِيَصْنَعَ إِلَيْهِ أَفْئِدَةً الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَوْهُ وَليَقْرَأُوا مَا هُمْ مُّقَرَّفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ

يَفْرَقُونَ، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣)﴾ [الناس: ١-٣].

وقال ﷺ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾

[الأعراف: ٥٤].

وقد حذر الله جل وعلا الحكام من ثلاثة أمور: «ألا يتبعوا الهوى، وألا يخشوا إلا الله، وألا يقولوا على الله ما لا يعلمون»، كما قال الحسن بن يسار البصري رحمه الله تعالى^(١).

= السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا وَمِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) [الأنعام: ١١٢ - ١١٨]

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلََّا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١١٩) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْذَوْهُمْ وَلَيْسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٢٠)﴾ [الأنعام: ١٣٦، ١٣٧].

(١) جاء في تفسير ابن أبي حاتم مِنْ طَرِيقِ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ حَمِيدِ الطَّوِيلِ: «أَنَّ

يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]،
فإن الله جل وعلا أخذ عليهم ألا يتبعوا الهوى في الحكم بين العباد: ﴿لِتَحْكُمَ

= إياس بن معاوية لما استقصى؛ أتاه الحسن فرآه حزينا، فبكى إياس، فقال: ما يبكيك؟ فقال: يا أبا سعيد، بلغني إن القضاة ثلاثة: رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة، فقال الحسن: إن فيما قص الله من نبأ داود ما يرد ذلك، ثم قرأ: أخذ الله على الحكام ثلاثة: ألا يشتروا بآياته ثمنا قليلا، ولا يتبعوا الهوى، ولا يخشوا الناس، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ...﴾ [ص: ٢٦] الآية، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْكَاسَ وَآخِشُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤]، قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]. انتهى.

وجاء في صحيح البخاري: «باب مَن يَسْتَوْجِبُ الرَّجُلُ الْقَضَاءَ» وقال الحسن: أخذ الله على الحكام ألا يتبعوا الهوى، ولا يخشوا الناس ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤]، ثم قرأ ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنْفُسُ﴾ [ص: ٢٦].

وَقَرَأَ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا الَّذِينَ آسَلَمُوا لِلَّيْنِ هَادُوا وَالزَّيْنُونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا الْكَاسَ وَآخِشُونَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٤٤] [المائدة: ٤٤].

وَقَرَأَ ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [٧٨] فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَا آدَمَ حُكْمًا وَعِلْمًا [الأنبياء: ٧٨]، [٧٩] فَحَمِدَ سُلَيْمَانُ وَلَمْ يَلْمُ دَاوُدَ، وَلَوْ لَا مَا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ أَمْرِ هَذَيْنِ؛ لَرَأَيْتُ أَنَّ الْقَضَاءَ هَلَكُوا، فَإِنَّهُ أَتَى عَلَى هَذَا بَعْلِيهِ، وَعَدَرَ هَذَا بِاجْتِهَادِهِ انتهى.

بَيِّنَ الثَّانِي بِمَا أَرْكَكَ اللَّهُ ﴿ [النساء: ١٠٥]، وهؤلاء الطواغيت يحكمون بما يرونه هم؛ ولهذا قال ﷺ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]؛ فهذه الآية محكمة في الكفر الأكبر، في قول عامة المفسرين من السلف، باعتبار التشريع من دون الله تعالى^(١)؛ ولهذا

(١) وقال آخرون: بل يدخل فيها كذلك الكفر الأصغر، وذلك في حق من استقر الشرع عنده، فَحُكْمُهُ وقضاؤه بالكتاب والسنة في عموم البلاد، وَمَحَاكِمُهُ كذلك؛ إلا أنه حاد عَرَضًا عن ذلك، ولم يكن أمرًا مستقرًّا عنده؛ فهذا من الكفر الأصغر، وذلك إنما يكون في واقعة معينة وبملابسات مخصوصة، وليست هديًا لهذا القاضي ولا طريقة متبعة عنده؛ إذ لو كانت هديًا له؛ لكان ذلك من الكفر الأكبر،

وهذا ما قرره الإمام أبو مجلز كما في «تفسير الطبري»: «حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، قَالَ: حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُدَيْرٍ، قَالَ: أَتَى أَبَا مِجْلَزٍ نَاسٌ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ سَدُوسٍ، فَقَالُوا: يَا أَبَا مِجْلَزٍ، أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ أَحَقُّ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ أَحَقُّ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ أَحَقُّ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: يَا أَبَا مِجْلَزٍ، فَيَحْكُمُ هَؤُلَاءِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ؟ قَالَ: «هُوَ دِينُهُمُ الَّذِي يَدِينُونَ بِهِ، وَبِهِ يَقُولُونَ، وَإِلَيْهِ يَدْعُونَ، فَإِنْ هُمْ تَرَكُوا شَيْئًا مِنْهُ عَرَفُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَصَابُوا ذَنْبًا»، فَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ، وَلَكِنَّكَ تَفْرُقُ، قَالَ: أَنْتُمْ أَوْلَىٰ بِهَذَا مِنِّي، لَا أَرَىٰ رَأْيَكُمْ، وَأَنْتُمْ تَرَوْنَ هَذَا وَلَا تَحَرَّجُونَ، وَلَكِنَّهَا أَنْزَلْتُ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَأَهْلِ الشَّرْكِ، أَوْ نَحْوًا مِنْ هَذَا» انتهى.

فانظر، رحمك الله، كيف بَيَّنَّ أبو مجلز الضابط الدقيق في هذه المسألة الحساسة الخطيرة، التي ذهل عنها فئام من أهل العلم المعاصرين؛ حتى وقعوا في الضلالة، والعياذ بالله؛ حيث لما أغفلوا هذا الضابط الدقيق الذي ذكره أبو مجلز والذي يُمَثَّلُ

= فَهَمَّ السلف الصالح لهذه المسألة الخطيرة؛ قاسوا القياس الفاسد؛ بل كان قياسهم من أفسد أنواع القياس؛ وذلك في قوله: «هُوَ دِينُهُمُ الَّذِي يَدِينُونَ بِهِ، وَبِهِ يَقُولُونَ، وَإِلَيْهِ يَدْعُونَ، فَإِنْ هُمْ تَرَكُوا شَيْئًا مِنْهُ عَرَفُوا أَنَّ هُمْ قَدْ أَصَابُوا ذَنْبًا».

فَبَيَّنَ أَبُو مجلز، رَحِمَهُ اللهُ، أَنَّ الضابط في ذلك هو الاعتبار بِحال الحاكم والمحكوم به، فَإِنَّ المرجعية المطلقة العامة عند هؤلاء الحكام هي الشريعة الإسلامية، والحكام يُقَرُّونَ بذلك قولاً وعملاً؛ حيث يعملون بذلك واقعاً عملياً معاشاً؛ فللشريعة الربانية الهيمنة والعلوية، والسلطة والسيطرة والسطوة العامة، فكلمة الله هي العليا، فعلى هذه الحقيقة الصارخة عَوَّلَ أَبُو مجلز واعتمد، وتلك هي الحجة السلفية القاطعة التي دمج بها باطل هؤلاء الخوارج؛ فقطع بها دابرهم وأزحق باطلهم، وأبطل بها حججهم.

هذه هي المسألة المفصلية، التي تُبَيِّنُ الْفَرْقَ الْعَظِيمَ وَالْبَوْنَ الشَّاسِعَ بَيْنَ حكام اليوم، وَبَيْنَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْحُكَّامُ فِي زَمَنِ أَبِي مجلز، وَلِتَعْلَمَ أَنَّ كُلَّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنَ الْمَعَاصِرِينَ لِيَمْنَعَ مِنْ إِنْزَالِ حُكْمِ الْكُفْرِ عَلَى الْحُكَّامِ وَالْمُبْدِلِينَ لِشَرَعِ اللَّهِ تَعَالَى الْيَوْمَ، وَعَلَى الْقَضَاةِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِالطَّاغُوتِ؛ يَعْتَمِدُونَ عَلَى هَذَا الْأَثَرِ لَا سِوَاهُ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا سَاءَ فَهْمُهُمْ لَهُ؛ اسْتَعْمَلُوا أَحَدَ أَسْوَأِ أَنْوَاعِ الْقِيَاسَاتِ؛ فَقَالُوا بِقَوْلِ خَطِيرٍ، وَأَفْسَدُوا فَسَادًا عَرِيضًا وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

إِنَّ حُكَّامَ الْيَوْمِ وَقَضَاتِهِمْ، مَنْطَلَقَ حُكْمِهِمْ وَمَرْدَهُمْ إِلَى حُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ، الْمَتَمَثِّلِ فِي الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ، وَالِدَسَاتِيرِ وَالْمَوَاقِفِ الْكُفْرِيَّةِ، الَّتِي وَضَعَهَا الْبَشَرُ لِلْبَشَرِ وَحُكْمَ بَهَا الْعِبَادُ الْعِبَادَةِ، بَيْنَمَا حُكَّامُ السَّلَفِ كَانُوا يَحْكُمُونَ بِالشَّرِيعَةِ؛ فَمِنْهَا يَنْطَلِقُونَ وَإِلَيْهَا يُرْجَعُونَ؛ فَأَيُّ مَقَارَنَةٍ وَقِيَاسٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ طَوَاغِيتِ وَقَضَاةِ الْحُكْمِ الْجَاهِلِيِّ الطَّاغُوتِيِّ؟

وَلَمَّا سَاءَ فَهْمُ هَؤُلَاءِ الْمَعَاصِرِينَ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ الصَّارِخَةِ وَالْقَضِيَّةِ الْمَفْصَلِيَّةِ الْخَطِيرَةِ؛ ذَهَبُوا يَأْخُذُونَ قَوْلَ أَبِي مجلز لِيَنْزِلُوهُ عَلَى غَيْرِ وَاقِعِ الْحَالِ الَّذِي كَانَ فِيهِ حَادِثَةُ أَبِي مجلز؛ فَفَقِشَلُوا فَشْلًا ذَرِيعًا وَأَخْطَطُوا خَطًّا فَادِحًا وَجَهِلُوا جَهْلًا عَظِيمًا.

وَلِهَذَا كَانَتْ الْقَاعِدَةُ الْعَظْمَى مِنْ قَوَاعِدِ الِاسْتِدْلَالِ وَالتَّأْصِيلِ: أَنَّهُ يَجِبُ تَنْزِيلُ الدَّلِيلِ عَلَى مِثْلِ وَاقِعِ التَنْزِيلِ.

= وأما هؤلاء المعاصرون فأغفلوا تمامًا هذه القاعدة الجلييلة؛ فوقع هذا الخلل القاتل، وصاروا يتكلمون بكلام أشبه ما يكون بالهذيان، فتسمعهم يقولون: إن القاضي إذا حكم في مسألة أو أكثر بهواه، وإن ترك مِثات المسائل؛ بل قال بعضهم: وإن عطل الشريعة تمامًا فلا يكفر حتى يستحل، أو حتى يعتقد، أو حتى يُسَّرَّع، ونحو ذلك من العبارات. والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه ويُلح بالإجابة عنه: هؤلاء الحكام والقضاة، الذين يحكمون بالقوانين الوضعية، عندما يتبعون أهواءهم؛ يعدلون عن ماذا إلى ماذا؟

والجواب: إنهم يعدلون عن حكم الطاغوت إلى أهوائهم، فليس للشريعة هنا ذكر ولا محل، فما علاقة هذه الحال الكفرية الطاغوتية بكلام أبي مجلز، وما كان عليه الحكم آنذاك؟

ومن أراد المزيد حول هذا الموضوع الخطير فليراجع كتابي «فتنة العصر التشريع». ثم نقول: ما حكم من جعل فض النزاعات بين الناس بالقوانين الوضعية، أليس هو من صناديد الكفر والردة بنص الكتاب العزيز؟
الجواب: بلى، والله الذي لا إله غيره.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥].
إذا فما حكم القاضي، الذي يفض النزاعات بين الناس بحكم الجاهلية الطاغوتي، المتمثل في القوانين الوضعية؟

الجواب: إنه والذي نفسي بيده كافر بالله تعالى، مرتد عن الإسلام، وإن صلى وصام وحج كل عام.

ولن يغني عن هؤلاء القضاة، ما يقوله بعض من لم يفقه حقيقة هذه المسألة من المنتسبين للعلم، فأخطأ وقال: إن القاضي ما دام أنه لم يشرع، ولم يستحل بقلبه، ولم يفضل حكم الطاغوت ولم يقل بجوازه؛ أنه لا يكفر، وإنما يكفر فقط الحاكم العام الذي وضع التشريع، أو أتى به واعتمده؛ لا القاضي بحكم هذا الطاغوت، ألا =

= فليعلم هؤلاء القضاة أنهم شركاء أصليون في هذه الردة الصلعاء.

والك هذا المثال:

ما حكم المسلم الذي يعمل موظفًا في كنيسة ما ليعمد الناس ويتصرّمهم، مع زعمه أنه لا يعتقد ذلك، ولا يقبله بقلبه، ولكنه مجرد موظف يعمل لينال الراتب فقط؟

الجواب: هو كافر بالله العظيم، وإن زعم ما زعم من متاع الحياة الدنيا وزينتها؛ بل قد بين الله تعالى أن الكفر يقع بسبب استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٦٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَسْتَحَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٦٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ (١٦٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٦٩﴾ [النحل: ١٦٦ - ١٦٩].

وكذلك القاضي بالطاغوت، لن يُغني عنه ما يزعمه من عمل القلب؛ من عدم قبوله وعدم استحلاله، ولكنه مجرد موظف يعمل ليتقاضى الراتب فحسب.

وكذلك كل من يعمل بالكفر لينال عرض الحياة الدنيا، من جنود الطاغوت الذين يعملون على تنزيل الأحكام والمواد الكفرية الطاغوتية ويلزمون الناس بها، إلا المكره وهو الذي لا يملك من أمره شيئاً؛ فهو يُحمّل على فعل الكفر حملاً، ويكره عليه قسراً؛ فهذا الذي استثناه الله تعالى.

وهذا ما قرره النبي ﷺ كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قَالَ: «تَمَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ وَعَبْدُ الْحَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رِضِي وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَمَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَسَ، طُوبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بِعِتَانِ قَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشَعَّتْ رَأْسُهُ مُغْبِرَةً قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْجَرَّاسَةِ كَانَ فِي الْجَرَّاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشْفَعْ».

وبين النبي ﷺ أيضاً فيما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ؛ يُضْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا،

= أَوْ يُنْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا.

وسياأتي مزيد بيان في ذلك لاحقاً إن شاء الله تعالى.

على أن هناك مَنْ قال: إن ذلك أيضاً من الكفر الأكبر (أي الحكم في قضية معينة، مع استقرار الحكم بالشرعة عموماً)؛ لأثر ابن مسعود رضي الله عنه الصحيح، كما في «تفسير الطبري»: «حدثنا المثنى قال: حدثنا أبو غسان قال: حدثنا إسرائيل، عن حكيم بن جبير، عن سالم بن أبي الجعد، عن مسروق قال: سألت ابن مسعود عن السحت، قال: الرشا، فقلت: في الحكم؟ قال: ذاك الكفر ...

حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال، حدثنا هشيم قال، أخبرنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن سلمة بن كهيل، عن مسروق، وعلقمة: أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة، فقال: هي السحت، قالوا في الحكم؟ قال: ذاك الكفر، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثني حجاج، عن المسعودي، عن بكير بن أبي بكير، عن مسلم بن صبيح قال: شفع مسروق لرجل في حاجة، فأهدى له جارية، فغضب غضباً شديداً، وقال: لو علمت أنك تفعل هذا ما كلمت في حاجتك، ولا أكلم فيما بقي من حاجتك، سمعت ابن مسعود يقول: من شفع شفاعة ليردَّ بها حقاً، أو يرفع بها ظلماً، فأهدى له، فقبل؛ فهو سحت، فقبل له: يا أبا عبد الرحمن، ما كنا نرى ذلك إلا الأخذ على الحكم، قال: الأخذ على الحكم كفر» انتهى، والجمهور على القول الأول.

وبذلك نعلم أن آية المائدة هنا حمالةٌ وجوه من الحق، فهي محكمة في الكفر الأكبر والأصغر، بحسب حال الحاكم، والله أعلم.

وأما الاحتجاج بما يُنسب إلى ابن عباس رضي الله عنه من قوله: «كفر دون كفر»، وقصة يوسف عليه السلام، وقصة النجاشي رضي الله عنه الذي قال فيه النبي ﷺ: «مات اليوم رجل صالح»، على أنني أقول: هل يسمى من يوصف بكفر دون كفر بالصلاح، مع أن هذا الوصف أشد من الزنا، وعمل قوم لوط، ومن المرابي، والعاق، والسارق، وقاطع الطريق والسبيل.

وللفائدة فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنه أن آية المائدة حاقّة على المشركين، كما في

= السنن الكبرى للنسائي بسند صحيح: «تَأْوِيلُ قَوْلِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾».

أَخْبَرَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ حُرَيْثٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا الْفَضْلُ بْنُ مُوسَى، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَتْ مَلُوكٌ بَعْدَ عِيسَى بَدَّلُوا التَّوْرَةَ، وَالْإِنْجِيلَ، فَكَانَ فِيهِمْ مُؤْمِنُونَ يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ، فَقِيلَ لِمُلُوكِهِمْ: مَا نَجِدُ شَيْئًا أَشَدَّ مِنْ شَيْءٍ يَشْتُمُونَنَا هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يَقْرَأُونَ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾»، هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ مَعَ مَا يَعْبُونَنَا بِهِ فِي أَعْمَالِنَا فِي قِرَاءَتِهِمْ، فَادْعُهُمْ فَلْيَقْرَأُوا كَمَا نَقَرُّ، وَلْيُؤْمِنُوا كَمَا آمَنَّا، فَدَعَاهُمْ فَجَمَعَهُمْ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ أَوْ يَتْرَكُوا قِرَاءَةَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ إِلَّا مَا بَدَّلُوا مِنْهَا، فَقَالُوا: مَا تُرِيدُونَ إِلَيَّ ذَلِكَ؟ دَعُونَا، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: ابْنُوا لَنَا أَسْطُوَانَةً، ثُمَّ ارْفَعُونَا إِلَيْهَا، ثُمَّ أَعْطُونَا شَيْئًا تَرَفُّعُ بِهِ طَعَامَنَا، وَسَرَابِنَا؛ فَلَا تَرُدُّ عَلَيْنَا، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: دَعُونَا نَسِيحُ فِي الْأَرْضِ، وَنَهْنِيهِمْ وَنَشْرِبُ كَمَا يَشْرَبُ الْوَحْشُ، فَإِنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْنَا فِي أَرْضِكُمْ فَاقْتُلُونَا، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: ابْنُوا لَنَا دُورًا فِي الْفِيَا فِي، وَنَحْتَمِرُ الْأَبَارَ وَنَحْتَرِثُ الْبُقُولَ، فَلَا تَرُدُّ عَلَيْنَا وَلَا تَقْرُبُنَا، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْقَبَائِلِ إِلَّا وَلَهُ حَمِيمٌ فِيهِمْ، قَالَ: فَفَعَلُوا ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارِعُوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، وَالْآخَرُونَ، قَالُوا: نَتَّبَعُ كَمَا تَعْبُدُ فَلَانٌ، وَنَسِيحُ كَمَا سَاحَ فَلَانٌ، وَنَتَّخِذُ دُورًا كَمَا اتَّخَذَ فَلَانٌ، عَلَى شِرْكِهِمْ، لَا عِلْمَ لَهُمْ بِإِيمَانِ الَّذِينَ اقْتَدُوا بِهِ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ انْحَطَّ رَجُلٌ مِنْ صَوْمَعِيَّتِهِ، وَجَاءَ سَائِحٌ مِنْ سِيَاحَتِهِ، وَصَاحِبُ الدَّيْرِ مِنْ دَيْرِهِ، فَأَمَّنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْخَذْ مِنْكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾، أَجْرَيْنِ بِإِيمَانِهِمْ بِعِيسَى ﷺ، وَبِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَبِإِيمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَصَدِّقِهِمْ، قَالَ: ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ الْقُرْآنَ، وَاتِّبَاعَهُمُ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بِكُمْ﴾ «لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَإِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» (١٩) «الآيَةُ» انتهى.

أقول لهذا وغيره من الشبهات: راجع كتابي «فتنة العصر التشريع» لمزيد من

قال ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَكًا بَعِيدًا ۝٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۝٦١﴾ [النساء: ٦٠، ٦١]، هكذا هي أهواؤهم، والعياذ بالله.

الكفر ملة واحدة:

وإنَّ كُفْرًا ببعض الكتاب ككُفْرٍ بالكتاب كُلِّه، وإنَّ الكفر الذي وقع فيه قوم نوح وعاد وثمود وأهل الكتاب وغيرهم؛ إنَّ وَقَعْنَا فِيهِ؛ كان الحُكْمُ واحداً؛ أي كحكمهم تماماً إذ لا فرق في المكفرات بين الأمم، كما قال تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝٤٣﴾ [القمر: ٤٣].

جاء في تفسير الطبري قال: «حدثنا ابن بشار قال حَدَّثَنَا عبد الرحمن قال حَدَّثَنَا سفيان وحدثنا بن وكيع قال حَدَّثَنَا أبي عن سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي البختري عن حذيفة في قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

= التفاصيل؛ فقد حشدتُ فيه القُولات المتكاثرة عن الصحابة، ومن تبعهم من السلف والخلف، وبيَّنتُ فيه القواعد التي ساروا عليها في هذا الأصل العظيم من أصول الديانة والتوحيد، الذي لا تقوم للإيمان قائمة بدونه، وإن زعم الحكام المشرِّعون من دون الله ما زعموا، وإن صلَّوا وصاموا وحجَّوا كل عام؛ فإنهم من أئمة الكفر والزندقة والنفاق.

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ، قال: نعم الأخوة؛ لكم كل حُلوة ولهم كل مُرَّة، وَلَتَسْلُكُنَّ طَرِيقَهُمْ قَدَى الشَّرَاكِ انتهي.

هذه الحقيقة الصارخة الصاعدة، بينة المعالم في الكتاب والسنة، ومع ذلك يتعمى عنها كثير من الناس، حتى بعض الإسلاميين من دعاة وعلماء؛ فتراهم ينافحون ويطالبون بتثبيت الشريعة كمصدر أساسي للتشريع مع غيره من المصادر؛ وهذا هو عين الكفر والشرك الأكبر، والذنب الذي لا يغفر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٣٦﴾

[الكهف: ٢٦].

دعوة قرآنية إلى التجرد والإنصاف، لاستبانة السبيل، وإصابة الحق والهدى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفُرْدَىٰ ثُمَّ نُنْفَكُّوهُمَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ إِلَا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦].

إن هذه الآية الفاذة الجامعة؛ كشفت لطالب الحق والهدى، السبيل التي لا محيد عنها، ولا خيار غيرها؛ لإصابة الحق والتوفيق إليه، وإليك ما قدمته هذه الآية العظيمة من المعطيات والشروط، التي تضمن الوصول إلى الهدى والحق بسبيله الأوحـد: ﴿إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَحْدَةٍ﴾ :

١- أن يكون القيام لله وحده، أي إخلاصًا وقصدًا، وإجلالًا وتعظيمًا، ومراقبة وافتقارًا، وذلاً وانقيادًا.

٢- عدم التأثر بكثرة العدد وبهرجه، ولا بقلته ووحشته؛ بل مهما كان العدد فالقيام أبدًا لا بد أن يكون لله وحده، بغض النظر عن عدد مَنْ قام لذلك، حتى وإن بقيت وحدك على مستوى نفسك.

٣- التجرد من حظوظ النفس الكامنة، وطرح التصورات الماضية، مع تجنب ضجيج الإعلام المهجن والمدجن، الذي كان يقود نحو منحى معين، مستقطبًا الأتباع على أنهم إمعات له؛ إذ هم من وسائله وأدواته.

٤- الانعتاق من موروثات تعاضمتها النفوس، وعظمها الأتباع.

٥- التنكر للأوسمة والألقاب التي كانت تطلق جزافًا؛ للتفكير والتحذير والتخدير، كالرمي بالجنون والسحر والكهانة، وفي عالم اليوم كالغلو والتنطع، والإرهاب والتشدد، والتخلف والرجعية، والتزمت، والكتب الصفراء.

﴿ثُمَّ نَتَفَكَّرُوا﴾ .

نعم، بعد تحقيق ما تقدم سيستفيع العبد بالتفكير؛ فقد ذهبت الغشاوة، وتجردت النفس من حظوظها وضغط ما حولها؛ فذهبت السكره وجاءت الفكرة.

عندها سيجدون أن كل ما أشيع حول الحق، وحملته ودعائه وقادته؛ هو كذب وافتراء؛ بل إنما معهم الحق الصراح البواح؛ الذي لطالما غطت عليه تلك العوامل، السابقة الذكر آنفًا وغيرها، عندها اقرأ: ﴿مَا

بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَى وَفَرْدَى ثُمَّ
تَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ
شَدِيدٍ ﴾ [سورة سبأ: ٤٦].

الديمقراطية آلية كفرية، لا تبررها المصلحة:

إن ميزان المصالح والمفاسد أصبح مُخَرَّقًا، وَمَحَلًّا لِلْهَوِ واللُّعْبِ.

وإنه إذا كان لا يجوز بالاتفاق جمع الناس على محرم، كالنساء
المتبرجات، أو المُرْدَان، أو الموسيقى والغناء المحرم؛ لتعليمهم ووعظهم؛
فذاك في الْمُحَرَّمِ الْكُفْرِيِّ مِنْ بَابِ أُولَى.

لا للتداول السِّلْمِي للسلطة:

حقيقة شرعية حكم فيها الله تبارك وتعالى بحكمه، وقررها النبي ﷺ
في هديه وسنته.

فالحاكم في الإسلام الأصل أنه إنما يأتي بشورى أهل الحل والعقد،
أو باستخلاف الخليفة التقي النقي الورع، وإذا كانت الشورى على أكثر من
واحد استشير المسلمون ليختاروا بينهم، وليس لهم الخروج عما قرره أهل
الحل والعقد واختاروه لهم؛ فهم في ذلك تبع لاختيار أهل الحل والعقد؛
وهم العلماء الربانيون أصالة، وهم في كل ذلك على شرط الإسلام

والقرآن، وشرط رسول الله ﷺ؛ أن يقودنا الحاكم المختار بكتاب الله تعالى، وألا يحكم فينا إلا بشريعة محمد ﷺ، وألا يأتي كفرًا بواحا.

وهذا محل اتفاق من الصحابة رضي الله عنهم في شأن الخليفة العام، كما فعل ذلك عمر رضي الله عنه بحضرتهم ومجمعهم، ولم ينكر عليه في ذلك أحد منهم؛ حيث اختار ستة وجعل الأمر بينهم وفيهم، ثم خير عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه الناس بين عثمان وعلي رضي الله عنهما، ولم يأذن لهم بالخروج عن هذين الخيارين؛ فإما عثمان وإما علي رضي الله عنهما.

فمتى ما كان الخليفة على ذلك الشرط باقياً وبه قائماً؛ فلا يجوز عزله، ولا توقيت مدة ينتهي فيها حكمه، ولا الافتئات عليه، إلى أن يموت أو يعجز، أو يزول كونه جنة بشوكتة ونفوذه وسلطانه، والله أعلم.

هوى الديمقراطية وتغيير الحكام:

وقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على الحاكم الشرعي، وأمر بقتل وقتال المُفْتَتِنِ عليه، والأحاديث في هذا صحيحة صريحة.

وأما ما يُسمى بالتداول السلمي للسلطة فإنما هو من سبيل الكافرين، وخطة ومنهج الطواغيت، والحكام المشرعين المبدلين، وهو تشريع محض من الجاهلية المعاصرة في مقابلة تشريع رب العالمين، ورسوله الأمين عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم، وقد انخدع بخطة وسبيل الكافرين هذه فنام من

المسلمين، حتى من خواصهم، والله المستعان.

وهذا مصداقاً لما جاء في الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، قال: «لتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو سلکوا جحر ضب لسلکتموه»، قلنا: يا رسول الله، اليهود، والنصارى قال: «فمن؟».

وإن المستبصر ليعلم يقيناً أن من وراء ذلك مكرّاً كباراً، من طواغيت العالم المستعمرين للبلاد، الساعين في استعباد العباد؛ حيث إنهم يضمّنون بذلك إمكانية تغيير الحاكم إذا لم يجز في ركاہم، ويوافق أهواءهم وأجنداتهم ومراداتهم؛ وذلك من خلال تهبيج العامة عليه، وتسليط العلمانيين وأشباههم من المنافقين؛ ليعملوا على شيطنة الحاكم، ومن ورائهم الهمج الرعاع، وعليه فسيحسب الحاكم لهم ألف حساب، وسيبقى يرقب ما يرضيهم عنه ليبقى على حكمه عدة دورات ديمقراطية، كما يزعمون، أو دكتاتورية، لا يهم؛ ما دام أنه يتناغم تماماً مع الغرب الكافر والسياسة الدولية.

كما أن في ذلك قرصاً مواتية لهم لنشر الفوضى، وإحداث الفُرقة بين الشعوب، وزعزعة الأمن، وتجرئة الشعوب على حكامها بغير حق، ونشر الشحنة بينهم تحت غطاء وشعار محاربة الدكتاتورية، وبسط الديمقراطية، ونبذ الإقصائية والتهميش، متى ما احتاجوا إلى ذلك، والله أعلم.

خطورة تتبع الرخص تشبيهاً وهوى:

قال الإمام أحمد: «لو أن رجلاً عمل بقول أهل الكوفة في النبذ،

وأهل المدينة في السماع، وأهل مكة في المتعة كان فاسقاً».

وقال الأوزاعي: «مَنْ أَخَذَ بِنَوَادِرِ الْعُلَمَاءِ؛ خَرَجَ عَنِ الْإِسْلَامِ».

قال ابن حزم في الإحكام نقلاً عن سليمان التيمي: «لو أخذت برخصة كل عالم؛ اجتمع فيك الشر كله».

وجاء في «السنة» لعبد الله بن أحمد: «وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ: «شَرُّ دَاءٍ خَاطَطَ قَلْبًا يَعْنِي الْهَوَى»، وَقَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «اتَّقُوا اللَّهَ مَعَشَرَ الْقُرَاءِ وَخُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَاللَّهُ لَئِنْ اسْتَقَمْتُمْ؛ لَقَدْ سُبِقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، وَلَكِنْ تَرَكْتُمُوهُ يَمِينًا وَشِمَالًا؛ لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا، أَوْ قَالَ: مُبِينًا».

وجاء في «الاعتصام» للشاطبي: «وَخَرَجَ ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالْخُصُومَاتِ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّهَا تُحْبِطُ الْأَعْمَالَ».

وَقَالَ النَّخَعِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ٦٤]، قَالَ: «الْجِدَالُ وَالْخُصُومَاتِ فِي الدِّينِ».

وَقَالَ مَعْنُ بْنُ عِيسَى: «انْصَرَفَ مَالِكٌ يَوْمًا إِلَى الْمَسْجِدِ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى يَدَيْهِ، فَلَحِقَهُ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أَبُو الْجَدِيرَةِ يُتَّهَمُ بِالْإِزْجَاءِ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، اسْمَعْ مِنِّي شَيْئًا أَكَلَمْتُكَ بِهِ، وَأُحَاجُّكَ بِرَأْيِي، فَقَالَ لَهُ: اخْذِرْ أَنْ

أَشْهَدُ عَلَيْكَ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أُرِيدُ إِلَّا الْحَقَّ، اسْمَعْ مِنِّي فَإِنْ كَانَ صَوَابًا فَقُلْ بِهِ،
أَوْ فَتَكَلَّمْ، قَالَ: فَإِنْ عَلَّبْتَنِي؟ قَالَ: اتَّبِعْنِي، قَالَ: فَإِنْ عَلَّبْتُكَ؟ قَالَ: اتَّبِعْتُكَ،
قَالَ: فَإِنْ جَاءَ رَجُلٌ فَكَلَّمْنَاهُ فَعَلَبْنَاهُ؟ قَالَ: اتَّبِعْنَا، فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ: يَا عَبْدَ اللَّهِ،
بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا بِدِينٍ وَاحِدٍ، وَأَرَاكَ تَنْتَقِلُ.

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: «مَنْ جَعَلَ دِينَهُ عَرَضًا لِلْخُصُومَاتِ أَكْثَرَ التَّنَقُّلِ».

وَقَالَ مَالِكٌ: «لَيْسَ الْجِدَالُ فِي الدِّينِ بِشَيْءٍ».

وَالْكَلَامُ فِي ذَمِّ الْجِدَالِ كَثِيرٌ، فَإِذَا كَانَ مَذْمُومًا، فَمَنْ جَعَلَهُ مَحْمُودًا
وَعَدَّهُ مِنَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ بِإِطْلَاقٍ؛ فَقَدْ ابْتَدَعَ فِي الدِّينِ، وَلَمَّا كَانَ اتِّبَاعُ الْهَوَى
أَصْلُ الْإِبْتِدَاعِ؛ لَمْ يَعْدَمْ صَاحِبُ الْجِدَالِ أَنْ يُمَارِيَ وَيَطْلُبَ الْعَلَبَةَ، وَذَلِكَ
مَطْنَةٌ رَفَعَ الْأَصْوَاتِ «انتهى».

وجاء في السنن الكبرى للبيهقي: «أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ قَالَ:
سَمِعْتُ أَبَا الْوَلِيدِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الْعَبَّاسِ بْنَ سُرَيْجٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ
إِسْمَاعِيلَ بْنَ إِسْحَاقَ الْقَاضِيَّ يَقُولُ: دَخَلْتُ عَلَى الْمُعْتَضِدِ، فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا
نَظَرْتُ فِيهِ، وَكَانَ قَدْ جُمِعَ لَهُ الرُّخَصُ مِنْ زَلَلِ الْعُلَمَاءِ، وَمَا احتَجَّ بِهِ كُلُّ
مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ؛ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُصَنَّفُ هَذَا الْكِتَابِ زُنْدِيقٌ، فَقَالَ:
لَمْ تَصِحَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ؟ قُلْتُ: الْأَحَادِيثُ عَلَى مَا رَوَيْتَ، وَلَكِنْ مِنْ أَبَاحِ
الْمُسْكِرِ، لَمْ يُبَيِّحِ الْمُتَنَعَةَ، وَمَنْ أَبَاحَ الْمُتَنَعَةَ لَمْ يُبَيِّحِ الْغِنَاءَ وَالْمُسْكِرَ، وَمَا مِنْ

عَالِمٍ إِلَّا وَلَهُ زَلَّةٌ، وَمَنْ جَمَعَ زَلَلَ الْعُلَمَاءُ ثُمَّ أَخَذَ بِهَا؛ ذَهَبَ دِينُهُ؛ فَأَمَرَ الْمُعْتَصِدُ فَأُحْرِقَ ذَلِكَ الْكِتَابُ».

وسياقي لاحقاً مزيد تقرير لهذه المسألة الكبيرة الخطيرة.

٣- وآخرون أهواؤهم مع «فصل الدين عن الحياة والسياسة والدولة، أو إن شئت فقل: أهواؤهم مع العلمانية، والديموقراطية، والوطنية، والقومية، والماسونية، والإنسانية، والدولة المدنية، والاشتراكية، والإلحاد، وكل بلاء وكفر أكبر»، أو إن شئت فقل بلفظ جامع مانع: هم مع «النفاق الأكبر»، فهم رُعاته ودُعائته، ثم سَمَّه بعد ذلك ما شئت، فَأَخِيَّةُ ذَلِكَ إِلَى النفاق، والكفر والزندقة والردة، والعياذ بالله.

والمحصَّل أنها إرادة هدم الدين، وتحجير شرع رب العالمين، ومطاردة العبودية لله ﷻ، والتضييق عليها، حتى تحصر في دُور معينة، وطقوس مخصوصة؛ فإذا أردت أن تعبد الله فاعبد في المسجد فقط، فإذا خرجت فاعبد مَنْ شئت، واتبع ما شئت من الهوى.

هذا هو حالهم بمقالهم وفعالهم، كما وصفهم ربهم تبارك وتعالى وهو بهم أعلم؛ حيث قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤]؛ إذ لا علاقة عند هؤلاء المفسدين في الأرض المتبعين لأهوائهم؛ بين الدين وسائر مجالات الحياة الدنيا، ويصرحون بذلك فمن قائل: فما لله وما لقيصر

لقيصر، وآخر يقول: الدين لله والوطن للجميع، ونحو ذلك من كلام النفاق والرَّذَّة والزندقة؛ ولهذا بين الله جل وعلا أن الهوى يقود إلى عبادة غير الله جل وعلا، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [البجائية: ٢٣]، نسأل الله العافية والسلامة.

فالعلمانية التي ينادى بها اليوم بمختلف مسمياتها المعاصرة؛ هي صورة صارخة من صور الإشرار بالله ﷻ؛ وهي علامة بينة على اتباع القوم أهواءهم، والعياذ بالله.

وعلينا أن نعلم، نحن المسلمين أن العلمانية ليست أمرًا جديدًا، كما يظن البعض فيحسبون أنها وليدة العصر؛ كلا، عباد الله؛ فالعلمانية ما بُعث نبي ولا رسول إلا وقُوبِلَ بها من قِبَلِ أئمة الكفر وأعوانهم، وهم الملائم المذكورون في قصص القرآن الكريم؛ لأن حقيقة العلمانية تعدُّ الآلهة؛ فإنه للاقتصاد، وإله للسياسات، وآخر لعلاقات الدول، وآخر للعادات والتقاليد، وآخر لكذا وكذا، وهكذا، وإله يصلِّي له ويسجد، لكنه لا يُعبد وحده، ويفرَّد.

هكذا يبغيونها عوجًا، ويريدونها زندقة وردة وكفرًا؛ ولهذا قال الله جل وعلا عن أمثال هؤلاء، لما سمعوا دعوة الحق والهدى، المتمثلة في تحقيق العبودية العامة التامة لله جل وعلا؛ قال سبحانه: ﴿وَيَحِبُّوْنَ أَن جَاءَهُمْ مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ۝٤ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَأَنْطَلَقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا

سَمِعْنَا هَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَخْلَقُ ﴿٧﴾ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ [ص: ٤-٨].

ما هو هذا الذي ما سَمِعُوهُ مِنْ قَبْلُ؟ إنه قول الأنبياء والمرسلين لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ، فقابلوهم مباشرة وبلا أدنى تردد: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا شَيْءٌ مُجَابٌ﴾ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ كُنَّا هَذَا شَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا هَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَخْلَقُ ﴿٧﴾ ، نعم هكذا استكروا ذلك؛ كيف يجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ ونحن نريدها آلهة متعددة.

وكذلك علمانية اليوم؛ يقولون: كيف تريدون أن تطبقوا الدين في السياسات، والاقتصاد، وعلاقات الدول، و... و... إلى غير ذلك؟

كما قال تعالى عن أهل الجاهلية الأولى، في تحكُّمهم بأهوائهم الضالة، وعقولهم الفاسدة؛ فصاغوا تشريعاتهم الجاهلية؛ فجاءت عوراء شنعاء، بكماء صماء، لا عقل ولا حلم، ولا عدل ولا علم، يضحك منها السفهاء فضلاً عن العقلاء، ولكنه الشرك الذي يسفه الأحلام، ويفسد العقول؛ حتى يصير العبد أسوأ حالاً مِنَ البهائم العجماء، نسأل الله تعالى العافية والسلامة، وقد تقدم ذكر الأمثلة والأدلة على ذلك.

فضح القرآن القوم:

بل وذكر الله ﷻ العلمانية صراحة في كتابه، كما في قصة شعيب عليه السلام، قال الله جل وعلا: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصْلُكَ نَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا

يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا شِئْتُمْ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

[هود: ٨٧].

نعم هكذا هي فهمهم، يقولون: يا شعيب، أي دخل للدين في المال؟ المال نحن كسبناه وتحصلنا عليه؛ فنحن نتصرف فيه وحدنا كما نشاء وبما نشاء؛ فأَي دخل للدين فيها؟ فأهواؤهم قضت بأنه لا محل للدين هنا أبداً؛ لا في أموالنا، ولا اقتصادنا، ولا علاقاتنا، واجتماعياتنا، ولا معبوداتنا، وموروثات آبائنا وأجدادنا، فالدين له أماكنه، وأوقاته المخصصة المحصورة، فلا تخرجه عن دائرته الضيقة هذه ليشمل جميع مناحي الحياة ويتدخل في شئوننا العامة والخاصة؛ فعندهم لا هيمنة للدين على الحياة؛ بل الهيمنة للأهواء، ولا مانع عندهم مِنْ أَنْ يُعْطُوا الدِّينَ فُرْصاً ضيقة محكومة لا حاكمة، هكذا أرادوا، من باب الديمقراطية زعموا، وإنما هو دين الشيطان وحزبه.

فلك أن تتذكر الدِّينَ إذا جاء رمضان، وإذا جاء موسم أداء الزكاة، على تَحَفُّظٍ لبعضهم في ذلك، ولك أن تتذكر الدِّينَ في موسم الحج، وأوقات الصلوات وهكذا، أما أن تقحم الدين في كل شيء؛ فلا وكلا؛ بل الأصل تحقيق الحرية الفردية، واتباع الهوى، وإنما يأتي الدين تبعاً لا أصلاً، ومحكوماً لا حاكماً.

هكذا كانت محصلة خطاب قوم شعيب لشعيب: أننا نقبل منك أن تصلي وتأمر بالصلاة، ولكن لا نقبل منك أن يتعدى ذلك إلى الأموال

(الاقتصاد)، والموروثات (العوائد والاجتماعيات والعلاقات)، ومناحي الحياة؛ فلا دخل للدين في مجريات واقعنا؛ بل لابد أن يُطَوَّع الدين للواقع وضغطه، وحال العالم وفعل الأكثر، ومن ناحية أخرى فهم يطالبونه بأن يكون ديمقراطيًا؛ إذ كما أعطيناك حريتك في التبعّد بالصلاة، فأعطنا حريتنا في أموالنا وموروثاتنا، فهم يطالبون بفرصة لهم في مقابل الفرصة التي أعطوها لشعيب ﷺ، نعم هكذا هي الديمقراطية، إنها ربيبة العلمانية ورضيعتها.

وليس هذا خاصًا بشعيب ﷺ؛ بل ما من نبي ولا رسول إلا وقد حُوِّطَ بنفس هذه اللهجة والطريقة، مع اختلاف تعابيرهم، كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصُوا بِهِمْ لَوْلَهُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾ (٥٣) [الذاريات: ٥٣].

علماني من حيث لا يشعر:

فالعلمانية إذا صورة صارخة من صور الإشرak بالله ﷻ، وللأسف الشديد أنك تجد بعض العوام، وكثير من الناس يرددون بعض ألفاظ العلمانية وهم لا يشعرون؛ فتجد منهم من إذا خاطبته بالكتاب والسنة، ودعوته إلى التزام شرع الله جل وعلا والاستقامة عليه؛ قال لك: «يا أخي لا تشدد، ساعة لقلبك وساعة لربك»، وآخر يقول: «ألم أصل؟ ألم أصم رمضان؟ ألم أحج هذا العام؟ فماذا تريد مني بعد ذلك؟»، وثالث يقول لك: أنا لست علمانيًا، وفي نفس الوقت يدعو إلى الديمقراطية والحريات، وإلى القوانين الوضعية والجاهلية لسياسة الدولة داخليًا وخارجيًا، وينادي إلى تحكيم

المواطنة في تحديد علاقات المجتمع، ورابع يقول: «لا تكن مُتَرَمِّتًا، فإن الدين يسر» كلمة حق أريد بها باطل، «أيش المشكلة؟ عصيت الله ﷻ ساعة، وأطعته ساعة»، وأمثال هذه الألفاظ المضالة المضلة، والله المستعان.

ونسي هذا المسكين أن الله ﷻ أمره أن يعبد وحده لا شريك له، وما خلقه إلا لكي يقوم بهذه الوظيفة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ففَيَصْرُ وما يملك؛ بل والدنيا والآخرة؛ بل وكل شيء؛ هو ملك لله الواحد القهار.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فالحياة كلها والممات كذلك؛ لا بد أن يكون لله رب العالمين: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١١١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١١٢) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أُبَدِّعُ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزْرُ وَاِزْرَهُ وَزَرَّ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١١٤) [الأنعام: ١٦١ - ١٦٤].

مفهوم خاطئ لحديث صحيح:

وذلك أن البعض ظن أن قول النبي ﷺ لحنظلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ساعة وساعة»؛ المقصود به أنه لا بأس أن يتعاطى العبد أحيانًا بعض المحرمات،

في بعض الأوقات؛ حيث يوحى إليه شيطانه أن هذا من باب الترويح عن النفس، عياداً بالله، ولا شك أن هذا قول خبيث؛ بل لو تأمله العبد لوجده قولاً كفرئياً؛ حيث ينسب إلى النبي ﷺ أنه أحل لأُمته تعاطي المحرمات أحياناً، نعوذ بالله من الخذلان.

ساعة وساعة وكلها في الحق:

إن قوله ﷺ: «ساعة وساعة» المقصود بها ساعات الحق، إلا أنها تتفاوت في فضلها، وإلا فهل يظن عاقل، فضلاً عن المؤمن، أن يأمر النبي ﷺ بساعة في الحلال، وأخرى في الحرام؟ معاذ الله، وحاشى رسول الله ﷺ.

وإنما قلت هذا؛ لأن البعض، كما تقدم، قد فهم هذا الحديث خطأ؛ بل وسمعت من يحتج بقوله ﷺ: «ساعة وساعة» على الترويح عن النفس بالحرام، وهذا كثير عندما تنكر على بعضهم مُنكره، فيقول لك: «يا أخي، لا تشدد، ساعة وساعة».

وإليك سياق الخبر تاماً؛ لتعلم أنه ليس فيه ذكر لمحرم أبداً.

ففي «صحيح مسلم» عَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسَدِيِّ، وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْنَا عَيْنَ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا

الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ؛ فَتَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا.

فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُدَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسَنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ؛ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدَوُّمُونَ عَلَيَّ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ؛ لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةَ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ! وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً وَسَاعَةً!»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

وبهذا يكون قد اتضح معنى هذا الحديث، الجليل القدر، العظيم الفائدة.

وإن من جميلٍ وبديعٍ ما قاله بعضهم: «إِنَّ الْإِسْلَامَ أَرْقَى مِنْ أَنْ يُخْبَسَ بَيْنَ بَابِ الْمَسْجِدِ وَقِبْلَتِهِ؛ فَاَلْمَسَاجِدَ فِي الْإِسْلَامِ إِنَّمَا بُنِيَتْ لِيُخْرَجَ مِنْهَا الدِّينُ إِلَى الْحَيَاةِ، لَا لَتَكُونَ أَقْفَاصًا لِلشَّرِيعَةِ».

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَكَافٍ﴾ فائدة جلييلة: أي: وكذلك أموت على هذا الدين، مستقيمًا على شرع رب العالمين، ولو كلفني ذلك حياتي؛ إذ ما خُلِقْنَا لِنَعِيشَ وَنَحْيَا، وَإِنَّمَا خُلِقْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا ثُمَّ نَلْقَاهُ، فَيُوفِينَا أَجُورَنَا، وَيَرْحَمَنَا، وَيَرْضَى عَنَّا، وَيَحْقُقَ لَنَا مَا وَعَدَنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَضْلًا

منه وتكرماً ومنّة، إنه لا يخلف الميعاد.

والمعنى: أن الحياة كلها والممات كذلك؛ ملك لله رب العالمين، بدينه نحيا وعلى دينه نموت، وفي سبيله نُجاهد، أسأل الله لي ولكم حسن الخاتمة، والصدق مع الله تبارك وتعالى، حتى نلقاه مقبلين غير مدبرين ولا مبدلين.

وهذا القدر من الآية فيه التذكير بضرورة الثبات على الأمر، والعزيمة على الرشد؛ حتى يوافي العبدُ ربّه تبارك وتعالى بذلك، نسأل الله من فضله العظيم.

فكن من المفلحين الذين يعيشون لله ومع الله وبالله، قد رضوا عن الله تعالى، وعن دينه وشريعته ونبيه ﷺ.

جاء في صحيح الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ رَضِيَ بِاللّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا؛ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ، فَقَالَ أَعِدَهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ: «وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةً دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

فالرضا بالله ربًّا هو تَوْحِيدُهُ، وبالإسلام دينًا هو العملُ به، وبمحمد ﷺ رسولًا هو تَصَدِيقُهُ بِاتِّبَاعِهِ، والانقياد له أمرًا ونهيًا.

المبطلون وشيطنة الإسلام:

إن المتأمل في مجريات الأحداث، منذ ما يقرب القرن من الزمان؛ يجد أن العلمانية المأفونة الكافرة؛ تسعى حثيثاً في شيطنة الإسلام؛ لتقبيحه والتنفير عنه؛ وذلك من خلال شيطنة بعض المنتسبين إليه من الدعاة، وبعض الجماعات الإسلامية والأحزاب، التي ترفع شعار الإسلام؛ حيث يتبعون زلاتهم، ومواقفهم التي يعتبرونها مشيئة وقادحة فيهم، ثم يقومون ببثها هنا وهناك، مصورين للآخرين، حتى من المسلمين؛ أن هذا هو الإسلام، وهذه هي دعوته ومنهجه وطريقته؛ ليعودوا بذلك خصماً على الإسلام.

ثم تطور الأمر، فصار طعنًا في الشريعة الإسلامية الغراء، وفي صلاحيتها في قيادة الأمم والشعوب، وأنها لا تصلح لهذا الزمان، ولا تتناسب مع هذه الحضارة الماثلة اليوم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أخذوا ينادون بنبذ حملة الشريعة وعلماؤها؛ بدعوى أنهم تجار دين؛ في حين أنهم قادة إسلاميون ربانيون، يسعون حثيثاً في تنزيل إسلام محمد ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم بحذافيره، لتقوم الأمة بحق ربها تبارك وتعالى؛ فينصرها الله تعالى ويعزها، ويبارك لها فيما رزقها؛ ولتألف قلوبهم، وتذهب الشحنة من بينهم؛ فيصبخوا على قلب رجل واحد، أقوياء أعزاء.

أقول: هذ الطريقة الخبيثة انطلت على كثير من المسلمين للأسف الشديد، فأخذوا يُقيّمون الشريعة الإسلامية من خلال تلك الممارسات

الخاطئة، التي يتعاطاها بعض من رفع شعار الشريعة ودعا إليها، ولكنه إما أنه أخطأ السبيل في تطبيقها، أو أنه اتخذ من ذلك وسيلة للكسب الدنيوي، والوصول إلى الرياسة والملك، ثم لما وصل لم يقد الأمة بالشريعة الحقة، التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم؛ بل أخذ يتلاعب بالأدلة ويتحايل على الشريعة لتوافق هواه ومراداته؛ فاتخذ الدين لهواً ولعباً والعياذ بالله، فصار منافقاً في ثوب وشعار إسلامي، ثم يزعم أنه ما أراد إلا الإصلاح، وقد كَذَبَ؛ وهل يكون إصلاح بالتلاعب بالدين والتحايل على الشريعة الغراء؛ بل إنما هو النفاق، والعياذ بالله.

كما قال تعالى في فضح أمثال هؤلاء، الذين يَنْتَصِلُونَ مِنَ التَّزَامِ الشَّرِيعَةِ الغراء، فيما لهم وما عليهم، في المنشط والمكره، والعسر واليسر، وعلى أثره عليهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنْتَفِقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۝٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۝٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۝٦٣﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٣].

أقول: لقد استعمل العلمانيون والشيوعيون وعموم الملاحدة ذلك؛

لتشويه صورة الإسلام والشرعة المحمدية، ولكن نقول لهم، ولمن انخدع بهم من المسلمين الذين يعبدون الله على حرف، والذين إن أعطوا من الدنيا رضوا، وإن لم يعطوا منها سخطوا:

إن الإسلام لا نعرفه من ممارسات فلان وفلان، وإنما من عمل النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم؛ فقد حفظ الله الوحي كتاباً وسنة، وحفظ لنا سبيل المؤمنين، والذين هم الصحابة أصالة، ثم من تبعهم بإحسان، فمرجعيتنا نحن أهل الإسلام محفوظة معصومة، نحاكم إليها كل من خالفها أو خرج عليها.

وإنما تُنسب تلك الأخطاء والممارسات السيئة إلى أصحابها؛ لا إلى دين الله تبارك وتعالى، ولا إلى شريعة محمد ﷺ؛ فالخطأ مردود على صاحبه، والشرعية براء من خطئه، وعلينا أن نُعلم المخطيء ونبصره، ولا نتبرأ منه^(١) إلا إن أصرَّ على ذلك، وكان خطؤه مما يستلزم البراءة منه.

(١) جاء في صحيح البخاري: باب إِذَا قَالُوا: صَبَأْنَا وَلَمْ يُحْسِنُوا أَسْلَمْنَا. وَقَالَ ابْنُ عَمْرٍو: فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ.

وفيه أيضاً قال: باب بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ. حَدَّثَنِي مُحَمَّدُو، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ وَحَدَّثَنِي نُعَيْمٌ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأْنَا صَبَأْنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِئًا

ثم نقول لهؤلاء المفسدين في الأرض، الذين يريدون إهلاك
الحرث والنسل:

هل ما فعلتموه من شيطنة الإسلام؛ بذكر أخطاء بعض حملته؛ هل
ستفعلونه مع الطب والهندسة مثلاً وغيرها من العلوم؟
إن من المعلوم قطعاً أن هناك أخطاء طبية، وأخرى هندسية، وثالثة
مهنية في شتى أنواع العلوم المعارف الحياتية؛ فهل سيقوم العلمانيون
بشيطنة تلك العلوم وأهلها، والمطالبة الحثيثة الجادة بإغلاق تلك المعاهد
والدور التعليمية، التي تُعلم فيها تلك العلوم، أم أنهم سيقولون: إن هذه
أخطاء فردية، لا يمكن أن نغلق لأجلها وبسببها تلك الدور، ولا أن نمنع
من تلك العلوم.

فنقول لهم: فكيف قَبِلْتُمْ أَنْ تُشَيِّطُوا الإسلام والشرعية الغراء؛
بممارسات وأخطاء بعض حملتها ودعاتها؟

وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ
الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ (١٨) [الأنبياء: ١٨].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى

= أَسِيرُهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ أَمْرِ خَالِدٍ أَنْ يَقْتُلَ كُلَّ رَجُلٍ مِمَّا أَسِيرُهُ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ
أَسِيرِي، وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ، حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرْنَاهُ، فَرَفَعَ
النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ مَرَّتَيْنِ».

جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ [التوبة: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿٨١﴾
وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٨٢﴾

[الإسراء: ٨١، ٨٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ ﴿٤٩﴾ [سبا: ٤٩].

إِنَّ هَذَا إِنْ دَلَّ؛ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الْحَقِّدِ وَالْعَدَاءِ وَالْبُغْضِ، الَّذِي
سَكَنَ قُلُوبَ هَؤُلَاءِ الْمَجْرَمِينَ؛ مِنَ الْعِلْمَانِيِّينَ وَالْدِيمُقْرَاطِيِّينَ وَالشُّيُوعِيِّينَ
وَالْبَعِثِيِّينَ، وَعُمُومِ الْمَفْسُودِينَ فِي الْأَرْضِ؛ عَلَى الْإِسْلَامِ الْحَقِّ وَالشَّرِيعَةِ
الْمُحَمَّدِيَةِ الْغَرَاءِ.

٤- وآخر هواه مع إرضاء الكُبراء، وَعِلْيَةِ الْقَوْمِ، مُجَامِلَةً وَمِدَاهِنَةً، وَلَوْ
عَلَى حِسَابِ الدِّينِ، وَحَقَّ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ؛ فَالْمَقْدَمُ عِنْدَهُ وَهَمُّهُ الْأَكْبَرُ؛
رِضَا هَؤُلَاءِ الْمَفْسُودِينَ فِي الْأَرْضِ، وَلَوْ سَخَطَ رَبُّ النَّاسِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فَلَيسَ
عِنْدَهُ وِلَاءٌ وَبِرَاءٌ فِي اللَّهِ، وَلَا يَعْرِفُ مَعْنَى اللَّبَاءَةِ مِنَ الطَّاعُوتِ وَالْكَفْرِ بِهِ؛ بَلِ
تَرَاهُ يَسْعَى فِي خِدْمَةِ الطَّاعُوتِ وَمُخَالَطَتِهِ؛ بَلِ وَيَبْرُزُ مُتَصَدِّرًا بَازًا غَيْرَهُ، مَدَافِعَةً
عَنِ الطَّاعُوتِ، وَتَعْذِيرًا عَنْهُ، وَتَبْرِيرًا وَتَمْرِيرًا لَهُ، وَيَسْخَرُ عِلْمَهُ وَقَلَمَهُ؛ لِتَشْيِيتِ
أَرْكَانِ حُكْمِ هَذَا الطَّاعُوتِ أَوْ ذَاكَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَنَبَيِّنَنَّهُ لِّلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا

بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَيَتَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْأَفْرَءُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩، ١٧٠].

وقد أمر الله تعالى عباده بمجانبة الطاغوت، والكفر به، والبراءة منه ومن أهله.

لا تتصنع ولا تجامل في دينك (بين المداواة والمصانعة والمداهنة):

جاء في كتاب «الروح» للحافظ ابن القيم: «الْمُدَاوَاةُ صِفَةُ مَدَحٍ، وَالْمُدَاهَنَةُ صِفَةُ دَمٍّ؛ والفرق بينهما: أن الْمُدَاوِيَّ يَتَلَطَّفُ بِصَاحِبِهِ حَتَّى يَسْتَخْرِجَ مِنْهُ الْحَقَّ أَوْ يَرُدَّهُ عَنِ الْبَاطِلِ، وَالْمُدَاهِنَ يَتَلَطَّفُ بِهِ لِيُقَرَّهُ عَلَى بَاطِلِهِ وَيَتْرَكَهُ عَلَى هَوَاهُ؛ فالْمُدَاوَاةُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، وَالْمُدَاهَنَةُ لِأَهْلِ النِّفَاقِ.

وقد ضُربَ لذلك مثل مطابق: وهو حال رجل به قرحة قد آلمته، فجاءه الطبيب المداوي الرفيق، فتعرف حالها، ثم أخذ في تليينها، حتى إذا نضجت أخذ في بطئها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها، ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم؛ ما يمنع فساده ويقطع مادته، ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما يُنشف

رطوبتها، ثم يشد عليها الرباط ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت.

والمُدَاهِنُ قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء؛ فاسترها عن العيوبِ بخرقه، ثم أله عنها، فلا تزال مدَّتْها تقوى وتستحكم، حتى عظم فسادها.

وهذا المثل أيضًا مطابق كل المطابقة لحال النفس الأمارة مع المطمئنة؛ فتأمله» اهـ.

وقال في «زاد المعاد في هدي خير العباد»: «وَتَدَارِي، بِالْهَمْزَةِ؛ مِنَ الْمُدَارَاةِ؛ وَهِيَ مُدَافَعَةُ الْحَقِّ؛ فَإِنْ تَرَكَ هَمْرُهَا صَارَتْ مِنَ الْمُدَارَاةِ؛ وَهِيَ الْمُدَافَعَةُ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ» اهـ.

وفي «صحيح البخاري» قال: «باب الْمُدَارَاةِ مَعَ النَّاسِ، وَيَذْكُرُ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: إِنَّا لَنَكْثِرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ، وَإِنْ قُلُوبُنَا لَتَلْعَنُهُمْ».

ثم ساق الحديث المتفق على صحته، من طريق عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ: أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: «اؤْذِنُوا لَهُ فَيَسْأَلُ ابْنُ الْعَشِيرَةِ، أَوْ: يَسْأَلُ أَخُو الْعَشِيرَةِ»، فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْتُ مَا قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ فِي الْقَوْلِ، فَقَالَ: «أَيُّ عَائِشَةَ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ تَرَكَهُ، أَوْ: وَدَعَهُ، النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ».

قال القرطبي في «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»، بعد ذكره لحديث عائشة هنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «والفرق بين المداراة والمداينة: أن المداراة بذل الدنيا لصالح الدنيا أو الدين، وهي مباحة ومستحسنة في بعض الأحوال، والمداينة المذمومة المحرمة: هي بذل الدين لصالح الدنيا، والنبى ﷺ إنما بذل له من دنياه حُسن عشرته، والرفق في مكالمته، وطلاقة وجهه، ولم يمدحه بقول، ولا رُوعي في ذلك في حديث؛ فعلى هذا فلا يناقض قوله ﷺ في هذا الرجل فعله معه؛ لأنَّ قوله ذلك إخبار بحق، ومداراته له حسن عشرة مع الخلق؛ فلا مدفع لأهل الزيف والضلال؛ إذ لا يبقى على ما أوضحناه إشكال» اهـ.

وأخرج أبو داود في كتابه «الزهد» من طريق عبد الله بن باباه، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: «خَالِطِ النَّاسَ وَزَايِلُهُمْ، وَصَاحِبُهُمْ بِمَا يَشْتَهُونَ، وَدِينَكَ لَا تَتْلَمَنَّهُ»، قلت: وسنده جيد.

وفي كتاب «المجالسة وجواهر العلم» لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي: من طريق مَيْمُونِ بْنِ أَبِي شَيْبٍ قَالَ: «قَالَ صَعَصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ لِابْنِ أَخِيهِ: إِذَا لَقِيتَ الْمُؤْمِنَ فَخَالِطْهُ، وَإِذَا لَقِيتَ الْفَاجِرَ فَخَالِطْهُ، وَدِينَكَ فَلَا تَكِلْهُ إِلَى أَحَدٍ»، قلت: وسنده لا بأس به.

قال ابن القيم في «مدارج السالكين»: «وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ؛ سَقَطَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ» انتهى.

لا إيمان بلا ولاء وبراء:

وعلينا جميعاً أن نعلم: أن عقيدة الولاء والبراء، والتي تتمثل في الحب في الله والبغض في الله؛ هي أوثق عرى الإيمان، وأنه لا تقوم للإيمان قائمة أبداً إلا به؛ فالكفر بالطاغوت أصل أصيل لا يتصور وجود للإيمان بدونه أبداً.

وأسوق إليك أخي القارئ الكريم؛ جملة من النصوص الدالة على هذا المعنى العظيم، الذي جهله أو تجاهله كثير من المسلمين اليوم، إلا من رحم ربي، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المرحومين؛ اتباعاً لأهوائهم، ومسايرةً لضغط واقعهم، واتباعاً للشعارات الفاجرة، التي تلغي الفوارق الدينية؛ لتجمع الناس على الوطنية، والإنسانية، ونحو ذلك من المعاني الفاسدة؛ التي يراد من ورائها هدم الدين، وقطع علاقة العبد برب العالمين، وتقييم العباد بعيداً عن الدين، وصلتهم بالله رب العالمين:

قال الله تعالى: ﴿لَا يَخْزِي الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيَحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَقْنَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقْنَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَنَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي

نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ۖ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ۖ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَدُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِيرِ الْمُنَافِقِينَ يَأْنْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيْبِنُوعُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

[النساء: ١٣٦ - ١٤٠].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا إِلَهُكُمْ سُلْطَنًا مُبِينًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٣﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ ۖ إِنَّ شُكْرَكُمْ وَءَامْنَتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاقِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء: ١٤٤ - ١٤٧].

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمَا مَا أَخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَدَسِقُونَ ﴿٨١﴾

[المائدة: ٧٨ - ٨١].

وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ

قَلِيلًا مِمَّا تَدْكُرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣].

وقال تعالى: ﴿يَنْبِئُ آدَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم
مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمًا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ
حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَبَالٍ لِيَبْغِيَ اللَّهُ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ
فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي
الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ
﴿٧٤﴾﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا
الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

[الأَنْفَال: ٧٢ - ٧٥].

وقال تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧١، ٧٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَسْقِمَ كَمَا أُمِرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْعَوْا اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٣﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ النُّعْلِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ

فِيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْأَحْسَنُ
وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ
لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ هُمْ سُوءُ الْحَسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ ﴿١٨﴾

[الرعد: ١٦ - ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ
بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَلَمْ يَأْتِصَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَوْ يَسَاءَ اللَّهُ لَهَدَى
النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ
حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي
غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي
مِن دُونِ أَوْلِيَائِي إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ
صَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ
رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَنُحِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا
وَاتَّخَذُوا ءَالِيئِي وَرُسُلِي هُرُورًا ﴿١٠٦﴾ إِن الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ
نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٠ - ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ
الْعَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ

أَلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ [العنكبوت: ٤١ - ٤٣].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ [الزمر: ٢، ٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُشِرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَفَقَّهْتُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ أَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِقَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ بَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) [الحشر: ٨، ١١].

وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا

أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ
اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤].

وفي «صحيح البخاري» قال: «والحب في الله، والبغض في الله؛ من الإيمان، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً؛ فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان؛ فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن ميتٌ فما أنا على صحبتكم بحريص» اهـ.

وفي «الصحيحين»، واللفظ للبخاري؛ عن أنس عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

وفي «سنن أبي داود» وغيره مرفوعاً بسند لا بأس به عن أبي أمامة رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحب الله، وأبغض الله، وأعطى الله، ومنع الله؛ فقد استكمل الإيمان»، وجاء عند ابن أبي شيبه موقوفاً على أبي أمامة وفيه ضعف^(١).

(١) ولكن قال موسى بن هارون: «روى أبو أسامة عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، وكان ذلك وهمًا منه رضي الله عنه، هو لم يلق ابن جابر، وإنما لقي عبد الرحمن بن يزيد بن تميم؛ فظن أنه ابن جابر؛ وابن جابر ثقة، وابن تميم ضعيف». اهـ.

والآيات والأحاديث وأقوال أهل العلم من الصحابة والتابعين والأئمة المهديين في هذا الباب كثيرة جداً، وهذه الكثرة دالة على خطورة الأمر، وضرورة التنبُّه إليه، والتنبيه عليه؛ وما ذلك إلا لكثرة كيد الشيطان به، والإرجاف بالناس فيه، وتمييع هذه القضية الكبيرة المتعلقة بأصل الدين، ولأن كثيراً من الناس يتهاونون بها، ويقدمون عوائد حياتهم، ومجاملاتهم، ومصالحهم المزعومة عليها، نسأل الله العافية والسلامة، وسيأتي معنا ذكر المعيار الرباني لتقييم الإنسان.

٥- وآخر هواء مع ترك الصلوات، والتهاون في شأنها، والتكاسل عن شهودها، والقيام بحق الله تعالى فيها، والزهد في أدائها جماعة، فتراه بُطْطاً متكاسلاً، ثُومًا متناوِماً عنها، بطيء الإجابة لها والاستجابة إليها؛ فالمنادي يقول: «ال صلاة خير من النوم»، وهواه يقول: «بل النوم خير من الصلاة»، هكذا هواه، والعياذ بالله، قد قطع الصلة بينه وبين الله ﷻ.

مع أن هذا المسكين يعلم يقيناً، أن الذي خلقه فسواه فعدله هو الله رب العالمين، الذي أحسن إليه غاية الإحسان، ومع ذلك كله يتعامل مع الله تعالى بمثل هذا اللؤم، نعوذ بالله من الخذلان، ونكران الجميل والإحسان.

ومع أنه يعلم يقيناً أن جميع مصالحه عند الله ﷻ، إلا أنه يعمد إلى قطع صلته بالله تعالى بتركه للصلاة.

أرأيت، أخي المسلم وأختي المسلمة؛ كيف أن الهوى قبيح مُهلك؟

واعلم، رحمك الله تعالى: أن الصحابة رضي الله عنهم قد أجمعوا على كفر تارك الصلاة بدون تفصيل، وإنما نشأ التفصيل ممن بعدهم؛ وإلا فإن الصحابة ما كانوا يتوقفون في كفر مَنْ تجرأ على ترك الصلاة؛ عياداً بالله من الخذلان.

وقد نقل هذا الإجماع غير واحد من أهل العلم، كالترمذي في «سننه»، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة»، وابن القيم؛ بل وقال ابن القيم في كتابه «الصلاة وحكم تاركها»: «قال أبو محمد ابن حزم في المحلى (٢٤٢/١): وقد جاء عن عمر، وعبدالرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل، وأبي هريرة، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم: أن من ترك صلاة فرضٍ واحدة متعمداً حتى يخرج وقتها؛ فهو كافر مرتد» اهـ.

الأدلة الدالة على كفر تارك الصلاة:

وإليك جملةً من الأدلة الدالة على كفر تارك الصلاة؛ لكي يعلم العبد أنه قد أتى باباً عظيماً من الفجور والكفر، نسأل الله العافية والسلامة؛ فلعل تاركها، إن علم خطورة وفداحة وقبيح ما فعل؛ يحمله ذلك على المحافظة على الصلاة، والحذر الشديد من تركها؛ فيكون من أهلها وأهل إقامتها (أهل حي على الصلاة، حي على الفلاح)، نسأل الله تعالى لنا ولكم الهداية والقبول.

قال الله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ

بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ [الروم: ٣١، ٣٢].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْضُ مَعَ الْخَافِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤٧].

وقال تعالى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَفِرَّةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر: ٤٨ - ٥١].

وقال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ، بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٥٩ - ٦٣].

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَاقُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا هُمْ فِي سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [التوبة: ١١].

وفي «صحيح مسلم»: باب بيان إطلاق اسم الكفر على مَنْ ترك الصلاة، ثم ساق حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد؛ اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويلي، أُمِرَ ابن آدم

بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فَأَبَيْتُ فَلَيَّ النَّارُ».

وحديث جابر يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر؛ تَرْكَ الصَّلَاةِ».

وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري يقول: بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمن بِذَهَبِيَّةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحْصَلْ مِنْ تَرَاهَا، قَالَ: فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ؛ بَيْنَ عَيْشَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَأُقْرَعَ بْنِ حَابِسٍ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعِ: إِمَّا عُلْقَمَةَ، وَإِمَّا عَامِرَ بْنِ الطَّفِيلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «أَلَا تَأْمَنُونَنِي، وَأَنَا أَمِينٌ مِنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً»، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْتَيْنِ، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ، كَثُّ اللَّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الْإِزَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اتَّقِ اللَّهَ، قَالَ: «وَيْلَكَ، أَوْلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ»، قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَضْرِبُ عَنْقَهُ؟، قَالَ: «لَا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يَصْلِي...» الْحَدِيثُ.

وفي «صحيح مسلم» عن عوف بن مالك: عن رسول الله ﷺ قَالَ: «خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تَحِبُّونَهُمْ وَيَحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشَرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تَبْغُضُونَهُمْ وَيَبْغُضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تَنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ

من ولا تكلم شيئاً تكرهونه؛ فاكروهوا عمله، ولا تنزعوا يداً من طاعة».

بينما قال ﷺ كما في «الصحيحين» من طريق جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض؛ فقلنا: حدّثنا أصلحك الله بحديث ينفع الله به، سمعته من رسول الله ﷺ، فقال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، قال: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان».

فبمقارنة الحديثين: نعلم يقيناً أنَّ من الكفر البواح ترك إقامة الصلاة، وأن إقام الصلاة لا بد أن يكون مع إقامة الدين، وإلا لم يُعِنْ إقام الصلاة شيئاً؛ لا عن الحُكَّام إذا حكموا بالطاغوت، ولا عمن كانوا طواغيت بأنفسهم؛ كمن ادعى علم الغيب، أو دعا الناس لعبادته ومن عبد وهو راض، ولا عن العبد إذا كفر بالله تعالى من باب غير ترك الصلاة؛ كالسحر، أو الاستهزاء بالدين، أو بالله تبارك وتعالى، أو بالنبي ﷺ، أو سبَّ الله تعالى، أو سبَّ رسوله ﷺ، ونحو ذلك من المكفرات والموبقات، المخرجة عن ملة الإسلام، عياداً بالله^(١).

(١) وهنا كلام نفيس للحافظ ابن القيم، سأنقله كاملاً لعظيم النفع والفائدة، قال الإمام ابن القيم في كتابه «إعلام الموقعين عن رب العالمين»: «ومنها: أن قوله: ﴿فَإِنْ نَنْزَعُكُمْ فِي شَيْءٍ﴾؛ نكرة في سياق الشرط؛ تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين؛ دقه وجله، جلبيه وخفيه، ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه، ولم

= يكن كافيًا؛ لم يأمر بالرد إليه؛ إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع، إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع.

ومنها: أن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله ﷻ، هو الرد إلى كتابه؛ والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إليه نفسه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته.

انتفاء الإيمان بانتفاء الرد: ومنها: أنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه؛ فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان؛ ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه، ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين؛ فإنه من الطرفين، وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر، ثم أخبرهم أن هذا الرد خير لهم، وأن عاقبته أحسن عاقبة، ثم أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول؛ فقد حكم الطاغوت وتحاكم إليه؛ والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده؛ من معبود أو متبوع أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله؛ فهذه طواغيت العالم إذا تأملت، وتأملت أحوال الناس معها؛ رأيت أكثرهم من عبادة الله، إلى عبادة الطاغوت؛ وعن التحاكم إلى الله، وإلى الرسول، إلى التحاكم إلى الطاغوت؛ وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى الطاغوت ومتابعته؛ وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفاترين من هذه الأمة؛ وهم الصحابة ومن تبعهم، ولا قصدوا قصدهم؛ بل خالفهم في الطريق والقصد معًا.

ثم أخبر تعالى عن هؤلاء بأنهم إذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول؛ أعرضوا عن ذلك، ولم يستجيبوا للداعي، ورضوا بحكم غيره، ثم توعدهم بأنهم إذا أصابتهم مصيبة في عقولهم وأديانهم، وبصائرهم وأبدانهم وأموالهم بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول، وتحكيم غيره والتحاكم إليه، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّمَ آتَايُذُنُ اللَّهِ أَنْ يُضِلَّهُمْ بَعْضُ دُورِهِمْ﴾؛ اعتدروا بأنهم إنما قصدوا الإحسان والتوفيق؛ أي بفعل ما يرضي الفريقين، ويوفق بينهما؛ كما يفعله من يروم التوفيق بين ما جاء به الرسول وبين ما خالفه، ويزعم بذلك أنه محسن قاصد الإصلاح والتوفيق، والإيمان إنما يقتضي إلقاء الحرب بين ما جاء به الرسول وبين كل ما خالفه؛ من طريقة وحقيقة، وعقيدة وسياسة

وفي «مسند أحمد بن حنبل» وغيره بسند حسن، عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف».

وفي «سنن الترمذي» بسند صحيح عن عبد الله بن شقيق العقيلي، قال: «كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»، قال أبو عيسى: «سمعت أبا مصعب المدني يقول: من قال: الإيمان قول، يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه» اهـ.

وقد اتفق الأئمة الأربعة على أنه لاحظاً لتارك الصلاة في الحياة الكريمة أبداً؛ فأقوالهم تدور على الحبس حتى يصلي، أو القتل بسيف السلطان، وعنهم روايات صحيحة محفوظة، يقولون فيها بكفر تارك الصلاة، ومُروقه عن ملة الإسلام.

فتأمل كيف أن هوى تارك الصلاة قاده إلى الذلة والهوان؛ بل جمع عليه خِزْي الدنيا وعذاب الآخرة، فهل من توبة نصوح لله رب العالمين، تجبر الكسر، وتُقِلُّ العثرة، وتعيد العزة والكرامة، بعد المذلة والهوان.

٦- وآخر هواه مع الأفلام والمسلسلات، والنظر في وجوه المومِسات،

والكاسيات العاريات؛ فهو متلذذ بذلك، والعياذ بالله؛ بل وعلى استعداد تام أن يلغي جميع المواعيد لكي يقبع أمام «العجل الفضي»؛ أعني: الشاشات والقنوات الفضائية التي يعكف أمامها الساعات الطوال، هكذا هي أهواؤهم، والعياذ بالله.

وما علم هذا المسكين أنه معاقب من حيث لا يشعر؛ فإن من الخذلان المبين أن يستمرى العبدُ النظر إلى مثل هذه الفواحش، التي تنزع الحياء نزعا، وتغتال الفضيلة اغتيالاً، وتُضعِف الغيرة إن لم تُذهِبْها تماماً، نسأل الله العافية والسلامة.

ولنا أن نذكر وتذكر هنا دعوة أم جريج على ولدها، بأن يعاقب بالنظر في وجوه المومسات، نعم، الحديث دل على أن هذه عقوبة وبلية، ولكنها عند أصحاب الأهواء الضالة المضلة فكاهة ومتعة، وأنس وبهجة، نعوذ بالله من الخذلان.

وإليك قصة جُرَيْجٍ مع أمه؛ ففي «الصحيحين»، واللفظ لمسلم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَةً فَكَانَ فِيهَا، فَاتَّهَتْ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَأَنْصَرَفَتْ؛ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ اتَّهَتْ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ

فَانْصَرَفْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَنَّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَيَّ وَجُوهَ الْمُؤْمِسَاتِ.

فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُثْمَلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَا فِتْنَتَهُ لَكُمْ، قَالَ: فَتَعَرَّضْتُ لَهُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا؛ فَأَنْتَ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ فَأَمَكَّنْتُهُ مِنْ نَفْسِهَا؛ فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ؛ فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ.

فَاتَوَّهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ، وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَيْنَتْ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ؛ فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيِّ؟، فَبَجَاءُوا بِهِ فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ؛ فَصَلَّى؛ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ، مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانُ الرَّاعِي، قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقْبَلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبِيٌّ لَكَ صَوْمَعَتُكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا.

وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارَاهُ وَشَارَهُ حَسَنَةً، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا؛ فَتَرَكَ التَّدْيَ، وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى تَذْيِهِ فَجَعَلَ يَرْضَعُ، قَالَ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ، يَأْصِبُهُ السَّبَابَةُ فِي فَمِهِ فَجَعَلَ يُمْصُهَا.

قَالَ: وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَيْنَتْ سَرَقَتْ، وَهِيَ

تَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ؛ فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا؛ فَتَرَكَ الرِّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَهَنَّاكَ تَرَا جَمَاعَ الْحَدِيثِ؛ فَقَالَتْ: حَلَقْنِي، مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهِذِهِ الْأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَيْنَبُ سَرَقَتْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا؛ قَالَ: إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا: زَيْنَبُ، وَلَمْ تَزِنْ، وَسَرَقَتْ وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا».

فيا لله! كم من الناس اليوم معاقب هو وأسرته من حيث لا يشعرون؛ بنظرهم إلى هذه المناظر المخجلة لو كان ثمة حياة! ولكن الأمر كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ: إِذَا لَمْ تَسْتَجِبْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»، أخرج به البخاري من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال الإمام المحدث أبو حاتم محمد بن حبان البستي في كتابه «روضة العقلاء»: «الواجب على العاقل لزومُ الحياء؛ لأنه أصلُ العقل وبذرُ الخير، وتركُهُ أصلُ الجهل وبذرُ الشر، والحياء يدل على العقل، كما أن عدمه دالٌّ على الجهل، ومن لم ينصف الناسَ منه حيأؤه، لم ينصفه منهم قِحتُهُ، ولقد أحسن الذي يقول:

وَلَيْسَ بِمَنْسُوبٍ إِلَى الْعِلْمِ وَالنَّهْيِ فَتَى لَا تُرَى فِيهِ خَلَائِقُ أَرْبَعُ

فَوَاحِدَةٌ تَقْوَى الْإِلَهَ الَّتِي بِهَا يَنَالُ جَسِيمَ الْخَيْرِ وَالْفَضْلِ أَجْمَعُ
وَتَانِيَةٌ صِدْقُ الْحَيَاءِ فَإِنَّهُ طِبَاعٌ عَلَيْهِ ذُو الْمُرُوءَةِ يُطْبَعُ
وَتَالِثَةٌ حِلْمٌ إِذَا الْجَهْلُ أَطْلَعَتْ إِلَيْهِ خَبَايَا مِنْ فُجُورٍ تُسْرِعُ
وَرَابِعَةٌ جُودٌ بِمِلْكٍ يَمِينِهِ إِذَا نَابَهُ الْحَقُّ الَّذِي لَيْسَ يُدْفَعُ

وَأُنَشِدُنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْبَغْدَادِي:

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ فَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِ إِذَا قَلَّ مَاؤُهُ
حَيَاءُكَ فَاحْفَظْهُ عَلَيْكَ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى وَجْهِ الْكَرِيمِ حَيَاؤُهُ
أَنْبَأَنَا أَبُو خَلِيفَةَ، حَدَّثَنَا ابْنُ كَثِيرٍ، حَدَّثَنَا سَفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ،
عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: أَلَا تُشِيءُ فِي الْمُؤْمِنِ الْفَحْشُ.
قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْحَيَاءُ اسْمٌ يَشْتَمِلُ عَلَى مُجَانِبَةِ الْمَكْرُوهِ مِنَ الْخُصَالِ.
وَالْحَيَاءُ حَيَاءَانِ:

أَحَدُهُمَا: اسْتِحْيَاءُ الْعَبْدِ مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، عِنْدَ الْإِهْتِمَامِ بِمُبَاشَرَةِ مَا
حَظَرَ عَلَيْهِ ^(١).

وَالثَّانِي: اسْتِحْيَاءُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، عِنْدَ الدُّخُولِ فِيْمَا يَكْرَهُونَ مِنَ
الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ مَعًا.

(١) فِي الْأَصْلِ: (خَطَرٌ) وَهُوَ خَطَأٌ.

والحياءان جميعاً محمودان، إلا أن أحدهما فرض والآخر فضل؛
فلزوم الحياء عند مجانبة ما نهى الله عنه فرض، ولزوم الحياء عند مقارفة ما
كره الناس فضل.

وأنشدني محمد بن المنذر بن سعيد، عن محمد بن خلف التيمي
قال: أنشدني رجل من خزاعة:

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ الْيَالِي وَلَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
فَلَا وَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ
يَعِيشُ الْمَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ وَيَبْقَى الْعُودُ مَا بَقِيَ اللَّحَاءُ اهـ.

٧- وآخر هواء مع الأغاني (آلات اللهو والطرب)؛ فإن لم يسمعها
في سيارته ففي منزله، فإن لم يجدها هنا أو هناك دندن بها بفمه، واليوم هناك
سيد الأدوية؛ أعني: الجوالات التي تصحب العبد في حُلِّهِ وَتَرَحَالِهِ، وفي
مضجعه ومسيره، ووقوفه قائماً وقاعداً وراقداً، وعلى كل حال، حتى وهو
يقضي حاجته يسمع من خلالها تَتَنَّا تَتَنَّا؛ فهو لا يتصور حياته بدون غناء
ومعازف وطرب شيطاني، والعياذ بالله.

والله تعالى يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن
سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٦]، وقد قرر ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهما، وهما خبراً
هذه الأمة، وترجماً القرآن العظيم: أنه الغناء، أنه الغناء، أنه الغناء.

وترى الواحد منهم يطارد الحفلات الصاخبة، ويسأل عنها، ويسعى إليها، في سُعار كالمجنون، والعياذ بالله، فإذا سمع بها طار إليها، واشتاق إليها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومنهم من لا يَدَّخِرُ وسعًا في إقامة مثل هذه الحفلات الماجنة، كلما وجد إليها سبيلًا.

وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي مالك الأشجعي قال: قال النبي ﷺ: «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ، وَلَيَبْزُلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عِلْمٍ، يَرْوُحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ، يَأْتِيهِمْ (يَعْنِي: الْفَقِيرَ) لِحَاجَةٍ فَيَقُولُوا: ازْجِعْ إِلَيْنَا عَدَا، فَيُيَسِّتُهُمُ اللَّهُ، وَيَضْعُ الْعِلْمَ، وَيَمْسُحُ آخِرِينَ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، وتأمل كيف كانت سببًا في أن يقع بهؤلاء الخسف، والمسح، والعياذ بالله، نسأل الله العافية والسلامة^(١).

(١) إن من المعضلات الكبار التي تحل بالأُمم والشعوب: انتشار المعاصي والمنكرات بدون إنكار لها، واعتبر بحال بني إسرائيل، كيف حلت عليهم اللعنة، وحقَّت عليهم كلمة العذاب؛ لما تركوا شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى رُبِّي على هذه المنكرات الصغير، وهرم عليها الكبير، وفقد العامة الإحساس تجاهها؛ فصارت من مَسَلَمَاتِ الواقع، وعادات المجتمع الراسخة، كما قال تعالى: ﴿لُعِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

= ولقد وَعَظَنَا الله تبارك وتعالى بقصة أصحاب القرية، التي ما نجا منها إلا الذين قاموا بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال تعالى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا تَأْتِيهِمْ إِلَّا جُبُرٌ مَدَّيْنٌ لَا يَسْبِتُونَ إِلَّا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذَرَةٌ إِنْ رِئَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَنْفَوْنَ ١٦٤ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ١٦٥ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ١٦٦﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٦].

وهذه هي سنة الله تعالى الجارية في خلقه أنه لا ينجو إلا المصلحون كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ مِنَ الْآفُرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُو أَيْمَنِ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ١١٣﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٤﴾ [هود: ١١٦، ١١٧].

وقد بين النبي ﷺ سبب هلاك الأمم كما في «الصحيحين» عن أم المؤمنين أم الحكم زينب بنت جحش رضي الله عنها: أن النبي ﷺ دخل عليها فرعاً يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وحلق بأصبعه: الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله، أهلك وفيها الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبيث».

ولهذا جاء الأمر الصريح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٠٩﴾ [آل عمران: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه، وذلك أضعف الإيمان».

= ولنعلم جميعاً أننا في سفينة واحدة، وهي سفينة المجتمع، التي متى ما كثر الخرقُ فيها كان ذلك مؤذناً بغرقها، وغرقها هلاكها، ولا سبيل إلى النجاة إلا بالنهي عن الفساد في الأرض.

وقد بين لنا ذلك المصطفى ﷺ كما في «صحيح البخاري» عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً». وإن من المنكرات العظيمة التي ظهرت في هذه الأزمنة المتأخرة: تقليعة استعمال الأغاني والموسيقى في الجوالات، وفي كل مكان، ولا شك أن هذا من الخطير العظيم، الذي عاقبته وخيمة على العباد والبلاد.

ويا لله العجب! إن المتأمل للواقع، يجد أن العالم الإسلامي كله يمر بفترة هي من أشد الفترات، وأحلكها، في هجمة شرسة صريحة معلنة على الإسلام وأهله، ثم يأتي هؤلاء ليزيدوا الطين بلةً، باستعمال ونشر هذه الأغاني والمعازف في كل مكان، حتى دخلت وللأسف الشديد إلى بيوت الله تعالى المساجد، إنها مثل للغفلة التي حذرنا منها ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقد بين النبي ﷺ أن هلاك بعض هذه الأمة سيكون بسبب الاجتماع على المعاصي والمنكرات الشبيهة بمثل هذه الاحتفالات، كما في «صحيح البخاري» عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر، والحرير، والخمر، والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم (يعني: الفقير) لحاجة فيقولوا: ارجع إلينا غداً، فيبيئهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة».

وقد بين الله تبارك وتعالى أن انتشار الغناء مؤذن بفساد عريض، وضلال مبين؛ فيكف إذا تضمن اختلاطاً وعرباً وفجوراً؟ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ

= يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بَعِيرٌ عَلِيمٌ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوءًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦﴾ [لقمان: ٦].

وخير من فهم القرآن هم صحابة رسول الله ﷺ، وبالرجوع إلى أقوالهم نجد أن خبرهم وعالمهم عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي كان يقول كما في «الصحيحين» عنه: «والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله؛ إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله؛ إلا أنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل؛ لركبت إليه»؛ كان يقول هذا والصحابة متوافرون، وما يرد أحد منهم عليه قوله؛ قال هذا الخبر في الآية المتقدمة، فيما جاء في «الأدب المفرد» وفي «شعب الإيمان»: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان نا علي بن عبد الرحمن بن عيسى بن ماني الكوفي نا أحمد بن حازم بن أبي غرزة أنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبيه عن ابن مسعود: في قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَلْتَأَسَ مِنْ يَشْتَرَى لَهُوَ الْكَذِبُ﴾ قال: «رجل يشتري جارية تغنيه ليلاً أو نهراً». قلت: إسناده قوي.

وجاء مثل ذلك عن الذي دعا له النبي ﷺ بالفقه في الدين، وتعلم التأويل، كما في «الأدب المفرد» للبخاري حدثنا حفص بن عمر قال: حدثنا خالد بن عبد الله قال: أخبرنا عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: في قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَلْتَأَسَ مِنْ يَشْتَرَى لَهُوَ الْكَذِبُ﴾ قال: «الغناء وأشباهه». قلت: وهذا إسناده مقبول في التفسير، وإن كان خالد الواسطي قد سمع عطاء بعد الاختلاط؛ إلا أن الأئمة ما زالوا يقبلون أسانيد هي أقل من هذا بكثير في التفسير، وقد تابع الواسطي ابن فضيل عن عطاء.

وفي «شعب الإيمان» و«السنن» للبيهقي: أخبرنا أبو الحسين بن بشران أنا الحسين بن صفوان نا عبيد الله بن أبي الدنيا نا أبو خيثمة وعبيد الله بن عمر نا غندر عن شعبة عن الحكم عن حماد عن إبراهيم قال: قال عبد الله بن مسعود: «الغناء ينبت النفاق في القلب». قلت: إسناده جيد.

وفي «شعب الإيمان» و«السنن» للبيهقي من طريق أبي خيثمة: نا بشر بن السري عن عبد العزيز بن الماجشون عن عبد الله بن دينار قال: «مر ابن عمر بجارية صغيرة تغني فقال: لو ترك الشيطان أحداً لترك هذه». قلت: وسنده جيد.

= فهذه أقوال الصحابة وفُهومهم، تبين خطورة المسألة، ولا عبرة بفهم يخالف فهم الصحابة وعلومهم؛ ولهذا اتفق الأئمة الأربعة على تحريم المعازف والغناء. ومما تجدر الإشارة إليه أنه قد جاء في القراءة السبعية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هكذا بالفتح، وهذا دليل على أن الغناء ضلال للعبد نفسه، وضلال لغيره، ففساده عام يشمل النفس والآخرين.

وأخرج البيهقي في «الشعب» عن خالد بن عبد الرحمن قال: «كنا في عسكر سليمان بن عبد الملك؛ فسمع غناء من الليل، فأرسل إليهم بكرة فجاء بهم، فقال: إن الفرس لتسهل فيسوق له الرمكة (الفرس البرذونة التي تتخذ للنسل)، وإن الفحل ليخطر فتضعب له الناقة، وإن التيس لينب فتستحرم به العنز، وإن الرجل ليتغنى فتشتاق إليه المرأة».

وأخرج عن يزيد بن الوليد الناقض: «يا بني أمية، إياكم والغناء؛ فإنه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر». فالغناء زائدة من زوائد الفجور، وداعية الزنى، وصوت إبليس العالي، الذي جنده لنشر الفحشاء والمنكر، ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]، فما أكثر صرعاه وأسراه وقتلاه في هذا الزمان!

بل وكان السلف يقطعون الدفوف، كما في «مصنف ابن أبي شيبة» بسند صحيح حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان عن منصور عن إبراهيم قال: «كان أصحاب عبد الله يستقبلون الجوارى في الأرقعة معهن الدفوف فيشقونه»، وعبد الله هنا هو ابن مسعود رضي الله عنه.

وكان بعض التابعين يقولون: إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه دف، كما في «مصنف ابن أبي شيبة»: حدثنا بن فضال عن الحسن بن عبيد الله عن معاذ العمي عن شريح: «أنه سمع صوت دف فقال: الملائكة لا يدخلون بيتاً فيه دف»، حدثنا يحيى بن سعيد وابن مهدي عن سفيان عن عمران بن سلمة قال: قال لي خيثمة: «أنا سمعت سويداً يقول: لا تدخل الملائكة بيتاً فيه دف».

٨- وأخرى هواها مع فتنة الرجال بجمالها وزيتها، وبخروجها متعطرة كاسية عارية؛ إما بلباسٍ شفاف، أو بلباسٍ ضيقٍ تعجب في كثير من الأحيان كيف دخلت فيه! وهي للأسف الشديد تخرج أمام نظر أوليائها من

= وما أجمل ما قاله ابن القيم في نونيته، بعد أن وَصَفَ شيئاً من سماع أهل الجنة، وأنسهم بغناء الحور العين، والأصوات الشجية في جنات النعيم فقال:

نَزَّهَ سَمَاعَكَ إِنِ ارْدَتْ سَمَاعَ ذِي لَا تُؤْثِرُ الْأَذَى عَلَى الْأَعْلَى فَتَحُ
يَاكَ الْغِنَاءَ عَنِ هَذِهِ الْأَلْحَانِ رَمَ ذَا وَذَا يَا ذَلَّةَ الْحَرَمَانِ
أَذْنَى عَلَى الْأَعْلَى مِنَ النُّقْصَانِ إِنَّ اخْتِيَارَكَ لِلْسَمَاعِ النَّازِلِ الْـ
إِيمَانٍ مِثْلُ السُّمِّ فِي الْأَبْدَانِ وَاللَّهُ إِنَّ سَمَاعَهُمْ فِي الْقَلْبِ وَالـ
أَبْدَانِ مِنَ الْإِشْرَاقِ بِالرَّحْمَنِ وَاللَّهُ مَا انْفَكَ الَّذِي هُوَ دَائِبُهُ
حُبًّا وَإِخْلَاصًا مَعَ الْإِحْسَانِ فَالْقَلْبُ بِيَسْتُ اللَّهُ ﷻ
عَبْدًا لِكُلِّ فَلَانَةٍ وَفُلَانٍ فَإِذَا تَعَلَّقَ بِالسَّمَاعِ أَصَارُهُ
فِي قَلْبٍ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ الْأَحَانِ الْغِنَا
تَقْيِيدُهُ بِشَرَائِعِ الْإِيمَانِ نَقْلَ الْكِتَابِ عَلَيْهِمْ لَمَّا رَأَوْا
مَا فِيهِ مِنْ طَرَبٍ وَمِنْ الْأَحَانِ وَاللَّهُوُ خَفَّ عَلَيْهِمْ لَمَّا رَأَوْا
تُ الْقَلْبِ أَنَّى يَسْتَوِي الْقُوتَانِ قُوتُ النَّفْسِ وَإِنَّمَا الْقُرْآنُ قُو
جُهَالِ وَالصَّبِيَّانِ وَالنَّسْوَانِ وَلِذَا تَرَاهُ حَظُّ ذِي النُّقْصَانِ كَالـ
عَقْلِ الصَّحِيحِ فَسَلَّ أَحَا الْعِرْفَانِ وَأَلَدُهُمْ فِيهِ أَقْلُهُمْ مِنَ الْـ
أَبْرَارِ فِي عَقْلٍ وَلَا تُرْآنِ بِأَلَذَّةِ الْفَسَاقِ لَسْتُ كَلَذَّةِ الْـ

أب وأخ وغيرهم؛ ولهذا كثرت الدياثة في هذه الأزمنة المتأخرة، والديوث لا يريح رائحة الجنة، والعياذ بالله، ولكن هكذا صيّرهم الهوى.

خطر النساء:

اعلم، رحمك الله: أن الشيطان يستدرج بعض النساء، وهن كثر؛ ليُكَنَّ أجنادًا له، يستعملهنَّ في إضلال العباد وإغوائهم، كما أنه يزين المرأة، حتى الصالحة، إذا خرجت من منزلها؛ ليصرف أنظار الرجال إليها، وكما قيل:

غَايَةُ وَكَأْسٍ، تَفْعَلَانِ مَا لَا تَفْعَلُهُ الْجِيُوشُ الْجَرَّارَةُ

فلتتقِ النساءَ رَبَّهُنَّ عَزَّ وَجَلَّ، وَلْيَدْرَأَنَّ الْفِتْنَةَ بَأَنْفُسِهِنَّ عَنْ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّ لَهُنَّ فِي ذَلِكَ عَظِيمَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِيَحْذَرْنَ مِنْ كَيْدِ الْكَائِنِينَ، وَلِيَلْتَزِمْنَ الضُّوَابِطَ الشَّرْعِيَّةَ فِي خُرُوجِهِنَّ، وَلِيَتَّقِينَ اللَّهَ جَلَّ فِي عِلَالِهِ؛ فَإِنَّ مَسْئُولِيَّتَهُنَّ عَظِيمَةً، وَالْخَطَرُ بِهِنَ جَسِيمٌ، وَلْتَتَذَكَّرَنَّ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَلْقَى مَعْسُوكَ الْكَلَامِ، وَلَطِيفَ الْأَفْعَالِ؛ لِيُفْسِدَ الْمَرْأَةُ وَيُغْوِيَهَا؛ لِيَهْلِكَ الْحَرِثُ وَالنَّسْلُ.

وفي أشباههم وغيرهم ممن هذه صفتهم قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۖ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥]، فإن من معاني الحرث النساء وجماعهن، كما قال تعالى: ﴿سَأَوْفُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتْكُمْ أَنِّي سَتَمُّ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وأما

النسل فهو الذرية، ومما يفسدها الزنى، والعياذ بالله.

وما أكثر مواليد الزنى اليوم! فقد عجت بهم دُور اللقطاء، والعياذ بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد بين النبي ﷺ أن الزنى سيفشو ويظهر في آخر الزمان، كما في «الصحيحين» عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا لَا يُحَدِّثُكُمْ بِهِ غَيْرِي قَالَ: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيَقِلَّ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرَ الزَّنى، وَتُشْرَبَ الْحُمُرُ، وَيَقِلَّ الرَّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ، حَتَّى يَكُونَ لِحَمْسِينَ امْرَأَةً قِيمُهُنَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ»، وفي لفظ مسلم: «وَيَفْشُو الزَّنى، وَيُشْرَبَ الْحُمُرُ، وَيَذْهَبَ الرَّجَالُ، وَتَبْقَى النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِحَمْسِينَ امْرَأَةً قِيمٌ وَاحِدٌ».

وقد أخبر النبي ﷺ عن خطر النساء، وحذر وأبلغ وبين ﷺ، وأبدى فيه وأعاد، كما في «صحيح مسلم» عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبَلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتُدْبَرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ».

وفي «الصحيحين» عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا

الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

وقال كما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»؛ فالصنف الأول: الظلمة الذين يأكلون أموال الناس (المكوس): وهي الضرائب، والجمارك، والجبايات (يَجْبُونَهَا بالحرام في وَصَح النهار، بقوة السلطان الجائر، والصنف الثاني: «نساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت»، نسأل الله العافية والسلامة.

قال شيخنا العلامة المحدث بَقِيَّةُ السَّلَفِ الحافظ سليمان بن ناصر العلوان، حفظه الله وفك أسره: «أساس الفضيلة في المرأة الحياء؛ فهو الذي يَبْعَثُ عَلَى الْحِشْمَةِ وَالْعِفَّةِ؛ إِذَا ذَهَبَ تَهَيَّأت لكل رذيلة» اهـ. نسأل الله العافية والسلامة.

ويل لهؤلاء التُّجَّار:

فليتق الله التُّجَّارُ الَّذِينَ يَتَّاجِرُونَ فِي اسْتِيرَادِ وَتَصْنِيعِ وَبَيْعِ الْمَلَابِسِ، الَّتِي تَنْشُرُ الْفَاحِشَةَ فِي الَّذِينَ آمَنُوا، وَنَذَكَّرُهُمْ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ [النور: ١٩].

٩- وأخرى تهوى التشبه بالغرب؛ فهي تشبه بأعداء الله تعالى من اليهود، والنصارى، والمجوس، والذين أشركوا، هكذا هواها.

وكذلك هو في الرجال كثير؛ فكثير من العباد اليوم يهَوون الغرب ويعشقون حياته، ويفرحون بمبادئه، والعياذ بالله؛ فترى الواحد منهم مُرْتَمِيًا في أحضانهم، يلبس لباسهم، ويتكلم لغتهم، ويعشق حياتهم، ويأنس بمناهجهم، والعياذ بالله، وبالجمله فهو مفتون بأحوال الصم البكم، الذين لا يعقلون، الذين هم أضل من الأنعام سبيلاً.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢١﴾
﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ [الأنفال: ٢١ - ٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٥﴾
[الأنفال: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا
(٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ
سَبِيلًا (٤٤)﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

ومع ذلك ترى في المسلمين اليوم، مَنْ ينادي ويتنادى بتعظيم
الغرب الكافر في بلاد المسلمين، فهذا من أعظم أنواع الهوى، الذي يتبعه
بعض العباد في هذه الأزمنة المتأخرة، وفي هذا العقد بالذات.

فتأمل كيف جعلهم الهوى يرتضون لأنفسهم هذه الصفقة الخاسرة،
ويتخذون هؤلاء الأراذل قدوة لهم، يتبعونهم حذو القذة بالقذة، وهذا علم
من أعلام النبوة؛ حيث أخبر النبي ﷺ عن هذا كما في حديث أبي سعيد
الخدري رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ، شِرًّا بِشِيرٍ، وَذِرَاعًا
بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ سَلَكَوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكَتُمُوهُ»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟»، متفق عليه.

وفي «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا
تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخِذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا، شِرًّا بِشِيرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ»،
فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَفَّارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «وَمَنِ النَّاسِ إِلَّا أَوْلَئِكَ».

وقد نهى النبي ﷺ عن التشبه بهم، وأكد على ذلك وأكثر منه وكرره،
حتى أصبح الأمر واضح المعالم في شريعته ﷺ؛ فمن ذلك ما أخرجه مسلم
في «صحيحه» عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاصَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ؛ لَمْ

يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعَزُّوهُنَّ فِي الْمَحِيضِ...﴾ [البقرة: ٢٢٢] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ»، فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ؛ فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَعَبَادُ بْنُ بَشِيرٍ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ يَقُولُ: كَذًا وَكَذًا؛ فَلَا نُجَامِعُهُنَّ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا، فَخَرَجَا فَاسْتَقْبَلَهُمَا هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا، فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا.

وفي «صحيح مسلم» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: رَأَى النَّبِيُّ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي نَجِيحٍ مُعْصَفَرَيْنِ، فَقَالَ: «أَأَمَرْتُكَ بِهَذَا؟»، قُلْتُ: أَعَسَلَهُمَا؟ قَالَ: «بَلْ أَحْرَقَهُمَا».

فهذا هوئ عظيم قد عَمَّ وَطَمَ فِي الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ؛ تَرَى هَوَاهُمْ مَعَ تَتَبِعِ الْمُؤَصَّاتِ الْغَرِيبَةِ الْفَاجِرَةِ، فَمَا أَنْ تَظْهَرَ تَقْلِيْعَةً فِي الْغَرْبِ الْكَافِرِ فِي الْبِلَاسِ أَوْ الْهَيْثَاتِ أَوْ الْقَصَّاتِ؛ حَتَّى يِيَادِرَ فِتَامٍ مِنْ شَبَابِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، بَلْ وَأَحْيَانًا مِنْ شَبَابِهِمْ وَكِبَارِهِمْ، إِلَى تَقْلِيدِهِمْ وَالتَّشَبُّهِ بِهِمْ فِيهَا، وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ.

الْقَرْعُ حَرَامٌ، وَلِبَاسُ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَّاتِ مِنَ الْكِبَائِرِ:

فَفِي «الصَّحِيحِينَ» مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَفْصٍ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ نَافِعٍ أَخْبَرَهُ عَنْ نَافِعٍ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: «سَمِعْتُ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْهَى عَنِ الْقَرْعِ، قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ: قُلْتُ: وَمَا الْقَرْعُ؟ فَأَشَارَ لَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ قَالَ: إِذَا حَلَقَ الصَّبِيُّ وَتَرَكَ هَاهُنَا شَعْرَةً وَهَاهُنَا وَهَاهُنَا، فَأَشَارَ لَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ إِلَى نَاصِيَتِهِ وَجَانِبِي رَأْسِهِ.

وفي رواية «صحيح مسلم»: «قُلْتُ لِنَافِعٍ: وَمَا الْقَرْعُ؟ قَالَ: يُحَلَقُ بَعْضُ رَأْسِ الصَّبِيِّ وَيُتْرَكُ بَعْضٌ».

وفي «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سَيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ، يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَخْرُجْنَ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا».

وإليك هذه الرائعة من روائع الشعر النسوي، للشاعرة الأحسائية أم مصعب، تحكي فيها ضياع هوية المتشبهات بالغرب الكافر:

أَسْفِي عَلَى بِنْتِ الْكَرَامِ أَرَاهَا	بِلِبَاسٍ فَاسِقَةٍ تَتَّبِعُهُ خُطَاهَا
مَالِي أَرَاهَا تَقْتَدِي بِخَلِيعَةٍ	وَتَدُوبُ فِي أَفْكَارِهَا وَرُؤَاهَا!
بَاتَتْ تَظُنُّ الْعُرْيَ يَرْفَعُ قَدْرَهَا	يَحْكِي ثِقَافَتَهَا لِمَنْ يَلْقَاهَا
فِي نِصْفِ مِثَرٍ أَقْبَلْتُ وَكَانَتْهَا	بُنْتُ الْكُھُوفِ بِفَقْرِهَا وَعَنَاهَا

أَثَرِي الْمَصَانِعُ أَفْقَلْتُ أَبْوَابَهَا أَمْ أَنْ سِعْرَ الْمِثْرِ قَدْ أَغْيَاهَا؟
 أَمْ هَكَذَا شَاءَتْ شَيَاطِينُ الْهَوَى فَتَفَنَّنَتْ فِي نَزْعِ ثَوْبِ حَيَاهَا؟
 وَيَكَادُ يَقْتُلُنِي الشُّعُورُ بِأَنَّنَا مُسَحَّتْ هُوَيْتُنَا وَضَاعَ سَنَاها
 مَا إِنْ بَيُوتُ الْغَرْبِ تُطْلِقُ صِيحَةً إِلَّا وَبِنْتُ الْمُسْلِمِينَ وَرَاهَا
 يَا بِنْتَ خَيْرِ النَّاسِ أَنْتِ عَلَيَّ هَلْ يَبْعُ الْأَعْلَى خُطَا أَذْنَاهَا؟
 أَنْسَيْتِ وَالْقُرْآنُ يُنْكِي أَنْ مَنْ يَتَّبِعِ الْأَهْوَاءَ يَعْصِي اللَّهَ؟
 فِي قَلْبٍ أَتُكِّ مِنْ لِبَاسِكِ غُصَّةٌ ذَبَلْتُ لِكُنْزَةٍ مَا بَكَتْ عَيْنَاهَا
 وَأَبُوكِ لَوْ يَدْرِي لِمَاتَ فُجَاءَةً يَنْهَى النِّسَاءَ وَيُتُّهُ نِسَاهَا
 زَيْدِي جَمَالَكَ يَا أُخِيَّةُ بِالتَّقَى قَدْ أَفْلَحَتْ مَنْ لِبَاسُهَا تَقَوَّاهَا
 وَتَشَبَّهِي بِالصَّالِحَاتِ لِنَنْعَمِي بِالْأَمْنِ فِي الدُّنْيَا وَفِي آخِرَاهَا

وإليك أيضًا هذه الأبيات من قصيدة رائعة لأحد الشعراء، يقول فيها:

لَكِنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ لِشَهْوَةٍ وَالبعضُ حُبُّهُمْ كَعَضِّ النَّابِ
 أَحَبُّهُمْ وَأَقْوَلُهَا بِصَرَاةٍ إِنَّ الْكِنَايَةَ لَا تُوضِّحُ مَا بِي
 لَمَّا التَّقَيْتُ بِهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وَمَزَجْتُ حُسْنَ كَلَامِهَا بِخَطَابِي

لَاحَتْ قُلُوبُ الْحُبِّ فِي عَيْنِي لَهَا وَتَقَطَّعَتْ نَفْسِي وَطَارَ صَوَابِي
 وَغَضَضْتُ طَرْفِي عِنْدَهَا لَكِنِّي بِبَصِيرَتِي أَحْبَبْتُ لَا بُرَابِي
 هَذَا الْهَوَى لَا شَهْوَةَ بِهِمَّةً تَفْنَى وَيَقَى إِنْهُمَا بَكْتَابِ
 مَا أَنْصَفُوا إِذْ يَدْعُونَ مَحَبَّةً لِحِمَالِ عَيْنٍ أَوْ لِيَرْدِ لُعَابِ
 سَطْحِيَّةً عَمِيَاءُ لَا تَحْفَلُ بِهَا أَوْ يُعْرِفُ الْإِنْسَانُ بِالْجَلْبَابِ
 أَرْجُوكِ لَا تَتَغَيَّرِي إِنْ نِي أُحِبُّكِ هَكَذَا بَعَاءَةً وَحِجَابِ
 أَرْجُوكِ لَا تَتَغَيَّرِي إِنْ نِي أُحِبُّكِ هَكَذَا مَسْتُورَةً بِحِجَابِ
 أَحْسَبْتُ أَنَّ السَّافِرَاتِ مَلَكَنِي أَمْ خَلَّتْ أَنْ إِلَى سِوَاكِ طَلَابِي
 أَيْرَيْنَ حَقِّي وَاجِبًا إِنْ كُنَّ لَا يَرْعَيْنَ حَقَّ اللَّهِ فِي الْأَنْوَابِ
 لَكِنَّهُ التَّقْلِيدُ أَحْكَمَ أَمْرَهُ وَالْغَفْلَةُ اسْتَوَلَتْ عَلَى الْأَلْبَابِ
 وَعَدًّا سَيْرُ قُدِّ كُلَّنَا فِي حُفْرَةٍ فَيْرَيْنَ فِيمَا قُلْتُ كُلَّ صَوَابِ
 لَا تَحْفَلِي بِالنَّاسِ إِنَّكَ مُنِي وَمَوَدَّتِي يَا شَمْعَةَ الْمِحْرَابِ
 يَا جُمْلَةً عَرَبِيَّةً وَالنَّاسُ لَعُو لَا مَحَلَّ لَهُمْ مِنَ الْإِغْرَابِ

١٠- وآخر هواه مع الغش والخداع، والمراوغة والغدر؛ فهو ثعلبان

في جثمان إنس؛ نسأل الله العافية والسلامة.

وليس هذا خاصًا بالأفراد من المجتمع؛ بل يستطيع الأمر في السلطان وحاشيته، الذين يتفننون في أخذ الأموال من الرعية بغير وجه حق، ويفتعلون الحيل لأجل ذلك، ويتفننون في لِيّ أعناق النصوص موافقة لأهوائهم، واحتيالاً على أموال الشعوب المغلوبة على أمرها، والعجيب أنه يظن ويحسب أنه ذكي فهم؛ وإنما هو من أغبياء العالم الذين يبيعون رضوان الله تعالى بحطام الفانية، من درهمها ودينارها، وخميصتها وخميلتها، والطامة أنه يحسب أنه يحسن صنعاً، عياداً بالله من الخذلان.

والله تعالى يقول في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣) ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (١٤) ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٥) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦)

[البقرة: ١١ - ١٦].

ونذكر هذا الصنف الواهم؛ أنه إنما يتاجر بحسناته؛ التي سيبحث عنها يوم القيامة بغيّة النجاة من العذاب والهوان، والفضيحة على رءوس الأشهاد، أحوج ما يكون إليها.

ولنتأمل في هذا الحديث العظيم المرعب، الذي أخرج به مسلم في

«صحيحه» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اتَّذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟»، قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

وفي «صحيح البخاري» معلقاً: «وَقَدْ قَالَ: «إِنَّمَا الْمُفْلِسُ الَّذِي يُفْلِسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»».

وفي «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءِ».

وفي «الصحيحين» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ».

وفي لفظ لمسلم عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ».

وفيه أيضاً عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرٍ عَامَّةٍ».

فإذا انضاف إلى ذلك: أن يكون السلطان كذاباً ناقضاً للعهد؛ فقد تمت الخسارة، والعياذ بالله؛ ففي «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُرَكِّبُهُمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ».

وأذكر نفسي وإياكم؛ بأن الواجب على المسلم أن يتعامل مع المسلمين بمبدأ الأخوة الإسلامية؛ لا بمبدأ شريعة الغاب القوي يأكل الضعيف؛ ففي «الصحيحين» عن عبد الله بن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ؛ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟!»، قَالَ أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَمَا يَرَاهُ النَّاسُ! مَنْ عَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي».

فالويل لمن يأكل أموال الناس بالباطل، ويأكل أموال اليتامى بالباطل، ويغش الناس في بيعهم وشرائهم؛ بل ويسميها شطارة، والعياذ بالله.

فأي ذكاء لمن كانت هذه خسارته، وهذه هي عاقبته، وهوانه

ومذلتة، لا والله؛ بل هو من أغبى الأغبياء، والله المستعان.

١١- وآخر هواه مع الظلم؛ فهو يعشق أن يسمع أنين المظلومين، ويتلذذ ببكاء المحرومين، والعياذ بالله، فهو يفتل عضلاته على الضعفاء والمستضعفين، لا يرحم إذا قدر، ولا يعدل إذا حكم، ولا ينصف إذا دالت عليه الأمور؛ فهو ظالم على كل حال، هكذا زين له الهوى سوء الفعال، وقبيح الخصال، والعياذ بالله، نسأل الله العافية والسلامة.

فتراه ظالمًا في الأعراض، والأموال، والأولاد، يكيل بمكيالين، وَيَزِنُ بِمِيزَانَيْنِ، يَبْخَسُ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، فويل له من قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ١-٦].

والله تعالى يقول في محكم تنزيله: ﴿وَلَوْ رَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۝١٦٥﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٢٥٨﴾ [التوبة: ١٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۝٢١﴾ [يوسف: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۝٢٤﴾

إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ﴿٧١﴾ [الحج: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿٢٧﴾ [الفرقان: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ﴿١٨﴾ [غافر: ١٨].

فالبغي والظلم من أمقت الأشياء عند الله تبارك وتعالى، وقد أمر الله تعالى بضد ذلك؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُوءُكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ [النحل: ٩٠ - ٩٢].

بل وحرّم الظلم حتى مع من نبغضهم أشد البغض، وإن كانوا كافرين؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ۖ اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَنِ اُنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَاعَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الشورى: ٤١، ٤٢].

وفي «صحيح مسلم» عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ خَطِيْبًا فَقَالَ: «وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَا يَنْغِي أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ».

وفي «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا؛ فَلَا تَظَالَمُوا...» الحديث.

ولنعلم جميعًا، أن الظلم عاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة؛ ففي «صحيح مسلم» عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ حَمَلَهُمْ عَلَىٰ أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ».

وفي «الصحيحين» من طريق مُحَمَّدِ بْنِ إِسْرَاهِيمَ: أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ حَدَّثَهُ

أَنَّهُ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنَاسٍ خُصُومَةٌ؛ فَذَكَرَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ فَقَالَتْ: يَا أَبَا سَلَمَةَ، اجْتَنِبِ الْأَرْضَ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شَبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ؛ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ».

وفي «الصحيحين» عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَكْمِلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُقْلِعْهُ»، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وفي «الصحيحين» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ». وفي «الصحيحين» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ولنتأمل في هذا الحديث؛ لنعلم شدة شؤم الظلم على أهله، عياداً بالله تعالى من الظلم والبغي^(١) بكل صوره وأشكاله؛ ففي «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ؛ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ دِينَارًا وَلَا

(١) وفي «الأدب المفرد» للبخاري قال: حدثنا أبو نعيم قال: حدثنا فطر عن أبي يحيى قال: سمعت مجاهدًا عن ابن عباس قال: «لو أن جبلاً بغى على جبل؛ لذلك الباغي»، قلت: هذا إسناد فيه ضعف لحال أبي يحيى القنات؛ فهو ضعيف عند الجمهور، ولكن المعنى صحيح لا غبار عليه، فبالعدل أقام الله تعالى السموات والأرض، وأصلح الله العالم بعدله، وعلمه، وحكمته، كيف لا، وهو الذي خلقه.

دِرْهَمٌ؛ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتٍ صَاحِبِهِ فَحَمِلَ عَلَيْهِ».

وفي «سنن الترمذي» عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعْجَلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ؛ مِنَ الْبُغْيِ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»، قَالَ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

وفي «صحيح مسلم» عَنْ مَعْبُدِ بْنِ كَعْبٍ السَّلَمِيِّ عَنْ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ كَعْبٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَمِيتُهُ؛ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»؛ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: «وَلَنْ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكَ»، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! مَا أَدَقَّ الْحَسَابُ! وما أَشَدَّ تلكَ الخصومةَ يومَ القيامةِ! فويل للظالمين وويل لهم، اللهم أَجِرْنَا مِنَ الظلمِ وأهله، يا رب العالمين.

وفي «صحيح مسلم» عَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمٍ بْنِ حِزَامٍ قَالَ: مَرَّ بِالشَّامِ عَلَى أَنَاسٍ، وَقَدْ أُفِيمُوا فِي الشَّمْسِ، وَصَبَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الزَّيْتُ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قِيلَ: يُعَذَّبُونَ فِي الْخِرَاجِ، فَقَالَ: أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذَّبُونَ فِي الدُّنْيَا».

وفيه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ؛ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ؛ فَارْفُقْ بِهِ».

١٢- ومن العباد من يهوى ماله وتجارته؛ وجاهه ورياسته، قد نذر نفسه لذلك؛ فهو يترك لذلك عبادة ربه، أو يتلاعب بها ويتهاون فيها، وأنت إذا تأملت وجدت أن هذا بعينه هو الذي أهلك أبي بن خلف، وقارون، وفرعون، وهامان، والعياذ بالله؛ ولهذا أخبر النبي ﷺ أن من ترك الصلاة كان كحالة هؤلاء؛ بجامع أن كل واحد من هؤلاء ترك عبادة الله تعالى لحظ نفسه؛ فمنهم من شغلته أمواله، ومنهم من شغله ملكه ورياسته، ومنهم من شغلته وزارته، ومنهم من شغله حسبه ونسبه، ومكانته ومنزلته.

وقد تقدم معنا حديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي ذكر فيه النبي ﷺ تارك الصلاة، وأنه يحشر يوم القيامة مع صناديد وعتاة الكفر والضلال؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «ومن لم يحافظ عليها؛ لم تكن له نوراً، ولا برهاناً، ولا نجاة يوم القيامة، وكان يوم القيامة مع فرعون، وهامان، وقارون، وأبي بن خلف»، نسأل الله العافية والسلامة.

لماذا حل بهم هذا؟ لأنهم اتبعوا أهواءهم، فمالت بهم إلى الضلالة، وصارت بهم إلى الغواية، وركنت بهم إلى الحياة الدنيا؛ فكانوا عبداً لها، اتباعاً لأهوائهم.

وقد تقدم معنا حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّيَارِ، وَعَبْدُ الدَّرْهِمِ، وَعَبْدُ الْحَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رِضْيٍ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ...» الحديث.

والله جل في علاه يقول: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَأَنَّا نَعْمُ بَلْ هُمْ أَصْلُ سَكِيلًا ۝٤٤﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

١٣- ومنهم من همته وهواه مصروفان إلى جمع الأموال؛ فلا يفرق بين حلالها وحرامها، ولا يلتفت إلى ما يدخل عليه من النقص في دينه من جرّائها، ومن جرّاء طلبها، حتى تراه حريصًا على تعلم أمور دنياه وعلومها، وهو في نفس الوقت يزهّد أو يعرض عن تعلم أمور آخرته؛ فتراه جاهلاً في دينه عالمًا بدنياه، والله تعالى يقول: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧].

وهذا من أكثر ما يكون في الناس اليوم فتراهم يُقْلِقُونَ أنفسهم وأبناءهم، ذكورًا وإناثًا، صغارًا وكبارًا، إلى طلب علوم الحياة الدنيا، بمختلف تخصصاتها وفنونها، ويُرَبُّونَهُمْ على أهميتها، وأنها سبب كرامتهم ووجاهتهم، وعلو منزلتهم، وأنها سبب أرزاقهم ومكانتهم الاجتماعية، وكل هذا من تلبس إبليس، ومن اتباع الهوى، والعياذ بالله، وإلا فإن هذه العلوم لم تغن عن أصحابها شيئًا؛ لما انحرفوا وضلوا عن الصراط المستقيم، ولم تنفع الكفار ولم ترفعهم عند الله تعالى جناح بعوضة؛ بل صارت بهم إلى أن كان حكم الله تعالى عليهم بأنهم شر الدواب عنده تبارك وتعالى، كما تقدم.

١٤- وأمّهات بأهوائهن يمنعن بناتهن من ارتداء الحجاب؛ حتى

تُخطب أو تُنكح، وأخريات من النساء تظن أنها لن تتمكن من العمل إلا بالمتاجرة بمفاتنها.

١٥- وآخرون أهواؤهم مع معارضة الشرائع بأهوائهم الضالة المضلة؛ فمن محاربة للتعدد قولاً أو حالاً، ومن معترِض على ختان النساء، وستر وجوههن، وضرورة عزلهن عن الرجال الأجانب عنها، ووجوب أن تحتجب المرأة عنهم، والله تعالى يقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَنَّادٌ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وِرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١) وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ﴿ [البقرة: ١٠١-١٠٢] الآيات.

قال ابن القيم في «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»: «وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ سِلَاحٌ وَمَدَدٌ، يُمَدُّ بِهَا الْعَبْدُ أَعْدَاءَهُ، وَيُعِينُهُمْ بِهَا عَلَى نَفْسِهِ، فَيَقَاتِلُونَ بِسِلَاحِهِ، وَيَكُونُ مَعَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، وَهَذَا غَايَةُ الْجَهْلِ. مَا يَبْلُغُ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ» انتهى.

وقال أيضاً في «الفوائد»: «لَا يُكْرِمُ الْعَبْدُ نَفْسَهُ بِمِثْلِ إِهَانَتِهَا، وَلَا يُعِزُّهَا بِمِثْلِ ذُلِّهَا، وَلَا يُرِيحُهَا بِمِثْلِ تَعَبِهَا، كَمَا قِيلَ:

سَأَتَعِبُ نَفْسِي أَوْ أَصَادِفُ رَاحَةً فَإِنَّ هَوَانَ النَّفْسِ فِي كَرَمِ النَّفْسِ

وَلَا يُشْبِعُهَا بِمِثْلِ جُوعِهَا، وَلَا يُؤَمِّنُهَا بِمِثْلِ خَوْفِهَا، وَلَا يُؤْنِسُهَا بِمِثْلِ وَحْشَتِهَا، مِنْ كُلِّ مَا سَوَى فَاطِرِهَا وَبَارِئِهَا، وَلَا يُحْيِيهَا بِمِثْلِ إِمَاتَتِهَا، كَمَا قِيلَ:

موت النفوس حياتُها من شاء أن يحيا يموت

شراب الهوى حلو، ولكنه يُورث الشرَق، مَنْ تَذَكَّرَ خنق الفخِّ هَانَ
عَلَيْهِ هِجْرَانُ الْحَبَّةِ، يَا مُعْرِقًا فِي شَرِّكَ الْهَوَى جَمْزَةً عَزَمَ، وَقَدْ خَرَقَتْ
الشَّبَكَةَ، لَا بُدَّ مِنْ نُفُوزِ الْقَدَرِ، فَاجْنَحْ لِلسَّلَامِ» انتهى.

١٦- ومن الأهواء هوى وضع الدساتير، واتباعها، وتعظيمها؛ وهذا
من الشرك الأكبر، والذنب الذي لا يُغفر، وإن صلى وصام، وحج كل عام،
وزعم أنه مسلم.

ولنا أن نذكر هنا أن الدستور الجاهلي هو المسيطر على بلاد المسلمين
اليوم، وهو الحاكم الفعلي لها، والعاذ بالله، وهو القاضي على القانون؛ فمهما
تعارض القانون مع الدستور كان الحكم لهذه الدساتير العلمانية الجاهلية، وما
الحُكَّام اليوم إلا منفيين مطبقين له؛ فهم عبيد له، لا عبيد لله.

فلا تغترَّ أيها المسلم بكون القانون إسلامياً كما يزعمون، هذا إذا
سَلِمَ القانون من موادَّ كفرية، وهذا بخلاف الواقع؛ لأنه لا يخلو قانون في
واقعنا من حكم بالطاغوت.

أقول: لا تغترَّ أيها المسلم بأسلمة القانون؛ لأن القانون محكوم
بالدستور الجاهلي العلماني، وله الهيمنة العامة، والطاعة المطلقة،
والتعظيم والتبجيل، حاله كحال المعبودات من دون الله تعالى، في عيون

عباد الطاغوت؛ فليس للتشريع تعظيم ولا وزن، إنما السيادة والتعظيم للقانون والدستور؛ عيادًا بالله من الردة عن الإسلام.

١٧- ومن النساء من هواها مع عصيان زوجها، مع أنه لم يأمرها بمعصية الله؛ فتراها تسعى في التغيص عليه، والتضييق عليه، والتكر له؛ بل وربما سعت في خيانته في دينه أو عرضه، عيادًا بالله من الخسران، وما علمت هذه المفتونة بهواها أنها إنما تؤذي وتمين نفسها؛ فإنما تسعى في أسباب سخط الله عليها.

وَأَدْعُوها أَنْ تتأمل هذه الأحاديث:

جاء في «الموطأ» للإمام مالك برواية محمد بن الحسن من طريق بشير بن يسار أن حصين بن محصن أخبره: أن أمة له أتت رسول الله ﷺ، وأنها زعمت أنه قال لها: «أَذَاتُ زَوْجٍ أَنْتِ؟»، فقالت: نعم، فزعمت أنه قال لها: «كَيْفَ أَنْتِ لَهُ؟»، فقالت: ما أَلُوهُ إِلَّا مَا عَجَزْتُ عَنْهُ، قال: «فَانْظُرِي أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ جَنَّتِكَ أَوْ نَارُكَ».

وفي «الصحيحين» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنِّي أُرِيكُمْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ»، فَقُلْنَ: وَيْمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ».

وفي «الصحيحين» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أُرِيْتُ النَّارَ؛

فَإِذَا أَكْثَرَ أَهْلِهَا النَّسَاءُ؛ يَكْفُرْنَ»، قِيلَ: أَيْ كَفَرْنَ بِاللَّهِ؟، قَالَ: «يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ؛ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»، قال البخاري: «باب كُفْرَانِ الْعَشِيرِ؛ وَهُوَ الزَّوْجُ، وَهُوَ الْخَلِيطُ مِنَ الْمُعَاشَرَةِ»^(١).

(١) قال أهل الحكمة من السلف والخلف: احذر من النساء تسعة: المَنَانَةُ، والأَنَانَةُ، والْحَنَانَةُ، والْحَدَاقَةُ، والْبَرَّاقَةُ، والشَّدَاقَةُ، والِنَمَامَةُ، والسَّالَةُ، والثرثرة.

«واظفر بذات الدين تربت يداك»؛ هذه هي وصية سيدنا محمد ﷺ.

قال في «مطالب أولي النهي»: «تَنْبِيْهُ: نَقَلَ الْمُصَنِّفُ فِي بَعْضِ تَعَالِيْقِهِ عَنِ الْمَآوَرِدِيِّ وَالْعَزَلِيِّ أَنَّهُمَا قَالَا: يُكْرَهُ نِكَاحُ الْحَنَانَةِ، وَالْمَنَانَةِ، وَالْأَنَانَةِ، وَالْحَدَاقَةِ، وَالْبَرَّاقَةِ، وَالشَّدَاقَةِ، وَالْمِمْرَاضَةِ.

فَالْحَنَانَةُ: الَّتِي لَهَا وَلَدٌ تَحْنُ إِلَيْهِ.

وَالْمَنَانَةُ: الَّتِي تَمُنُّ عَلَى الزَّوْجِ بِمَا تَفْعَلُهُ.

وَالْأَنَانَةُ: كَثِيرَةُ الْأَنْبِيَنِ.

وَالْحَدَاقَةُ: الَّتِي تَسْرِقُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَدَقَتِهَا وَتُكَلِّفُ الزَّوْجَ.

وَالْبَرَّاقَةُ: الَّتِي تَشْتَغِلُ غَالِبَ أَوْقَاتِهَا بِبَرِيقِ وَجْهِهَا وَتَحْسِينِيهِ، وَقِيلَ: هِيَ الَّتِي يُصِيبُهَا الْغَضَبُ عِنْدَ الطَّعَامِ فَلَا تَأْكُلُ إِلَّا وَحْدَهَا.

وَالشَّدَاقَةُ: كَثِيرَةُ الْكَلَامِ.

وَالْمِمْرَاضَةُ: الَّتِي تَمَارِضُ غَالِبَ أَوْقَاتِهَا مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ انتهى.

وذاات الدين هي: التقية النقية، الحافظة للغيب بما حفظ الله، التي تطيعك في طاعة الله،

ولا تعصيك إلا في معصية الله، وتنصحك وتحرس على نجاتك؛ فهي مشفقة عليك في

دينك ودنياك، تسرك إن نظرت إليها، وتجيبك إن دعوتها، وترضى منك بالقليل ولا

تحملك الثقل، شكورة إن أعطيتها، صبورة إن منعتها، تحبك ولذلك وتحسن بَعْلُكَ.

١٨- ومن الناس مَنْ هواه مع الغضب للدنيا لا للدين؛ ففيها يوالي، وفيها يعادي؛ فترى جمعاً من الشعوب لا يعبثون بدينهم، فلما تلاعب الحُكَّام بالدين لم يحركوا ساكناً؛ فالدين عند هؤلاء لا بواكي له، وأما لما تلاعب الطاغوت بدينهم، خرجوا وزمجرُوا، وأرغوا، وأزبدوا؛ بل وبعضهم على استعداد أن يموت في سبيل إرجاع رغد دنياه، وحسن عيشه، أما الدين فلا يَأْبُهُ له، والله المستعان.

وما علم هؤلاء أنه لا استقرارَ حقيقيٍّ، ولا أَمْنَ حقيقيٍّ، ولا عيشَ صالحٍ؛ إلا مع إقامة دين الله تعالى، وما عدا ذلك فإنما نعيش أَمْنًا مُرَيِّفًا، وعيشٌ نحن فيه مستدرجون به إلى العذاب، أو الذل والهوان، والعياذ بالله.

وصف دقيق لحالنا اليوم:

وتأمل هذا الكلام النفيس للحافظ ابن مفلح، في كتابه «الآداب الشرعية»، الذي نقله عن ابن عقيل: «وَقَالَ أَيُّضًا: مِنْ عَجِيبِ مَا تَقَدَّتْ أَحْوَالُ النَّاسِ؛ كَثْرَةُ مَا نَاحُوا عَلَى خَرَابِ الدِّيَارِ، وَمَوْتِ الْأَقَارِبِ وَالْأَسْلَافِ، وَالتَّحَسُّرِ عَلَى

= فلتنظر كل زوجة مؤمنة في نفسها مع هذه الصفات الحميدة؛ فما كان منها موجوداً فلتحمد الله، وما كان منها مفقوداً فلتسأل الله، ولتنظر في تلك الخصال الذميمة؛ فما كان منها معدوماً فلتحمد الله، وما كان منها موجوداً فلتسأل الله الإعانة على تركه، والتوفيق إلى استبداله بالذي هو خير.

فسأل الله ﷻ تحصيل المفقود، والنجاة من المكروه المرهوب، وتعود بالحمد والثناء على الله ﷻ، على ما مَنَّ عليها، ووفقها إليه من كريم الخصال، ومحاسن الأخلاق، ناسبةً الفضل إليه جل وعلا وحده لا شريك له، وترجو منه المزيد من فضله وإحسانه.

الْأَرْزَاقِ بِذِمِّ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ، وَذَكَرِ نَكَدَ الْعَيْشِ فِيهِ، وَقَدْ رَأَوْا مِنْ أَنْهَادِ الْإِسْلَامِ، وَتَشَعُّبِ الْأَذْيَانِ، وَمَوْتَ السُّنَنِ، وَظُهُورِ الْبِدْعِ، وَارْتِكَابِ الْمَعَاصِي، وَتَقْصِي الْعُمْرِ فِي الْفَارِغِ الَّذِي لَا يُجْدِي؛ فَلَا أَحَدٌ مِنْهُمْ نَاحَ عَلَى دِينِهِ، وَلَا بَكَى عَلَى فَارِطِ عُمْرِهِ، وَلَا تَأَسَّى عَلَى فَائِثِ ذَهْرِهِ، وَلَا أَرَى لِدَلِكِ سَبَبًا إِلَّا قَلَّةً مُبَالَايَتِهِمْ بِالْأَذْيَانِ، وَعِظَمَ الدُّنْيَا فِي عُيُونِهِمْ؛ ضِدُّ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ يَرْضُونَ بِالْبَلَاغِ، وَيَتَوَحَّوْنَ عَلَى الدِّينِ» انْتَهَى كَلَامُهُ.

قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»: «قال بعض السلف: مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا فَلْيُؤْطِنْ نَفْسَهُ عَلَى تَحْمِلِ الْمَصَائِبِ، وَمُحِبُّ الدُّنْيَا لَا يَنْفَكُ مِنْ ثَلَاثٍ: هَمٌّ لَزِمَ، وَتَعَبٌ دَائِمٌ، وَحَسْرَةٌ لَا تَنْقُصِي؛ وَذَلِكَ أَنَّ مُحِبَّهَا لَا يَنَالُ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا طَمَحَتْ نَفْسُهُ إِلَى مَا فَوْقَهُ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَوْ كَانَ لَابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ؛ لَا يَبْتَغِي لِهَمَا ثَالِثًا»، وَقَدْ مَثَلَ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُحِبَّ الدُّنْيَا بِشَارِبِ الْخَمْرِ؛ كُلَّمَا زِدَادَ شَرِبًا زِدَادَ عَطَشًا» انْتَهَى.

١٩- وآخرون أهواؤهم مع تشبيب أنفسهم بالحرام؛ فيعمدون إلى النَّمَصِ، وَالْوَصْلِ، وَالتَّقْلُجِ لِلْحُسْنِ، وَكُلُّ هَذِهِ مِنَ الْكِبَائِرِ الَّتِي لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهَا^(١)، وَهِيَ مِنْ تَغْيِيرِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَمْرُ بِذَلِكَ هُوَ الشَّيْطَانُ

(١) كَمَا فِي «الصَّحِيحِينَ»، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْوَأْشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَمَصَّاتِ، وَالْمُتَقَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ،

الرجيم كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ۝١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝١١٨ وَلَا أَضِلَّهُمْ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مُنِيتَهُمْ وَلَا مَرَنَّهُمْ فَلَيَبَيِّنَنَّ أَذَاتَ الْأَتْعِمُ وَلَا مَرَنَّهُمْ فَلَيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ۝١١٩ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۝١٢١﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢١].

٢٠- ومنهم من يسعى في تغيير الشيب بالسواد، وهذا مما ينبغي أن يتقَى؛ فقد ورد فيه حديث مُخِيفٌ عن رسول الله ﷺ؛ ألا وهو الحديث الذي يرويه عبد الكريم عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

= الْمُغَيَّرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ يَعْقُوبَ، وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؛ فَاتَتْهُ فَقَالَتْ: مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَأَشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالْمُسْتَمَصَّاتِ، وَالْمُسْتَلَجَّاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيَّرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ؛ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ؛ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحِي الْمُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ، فَقَالَ: لَيْنَ كُنْتُ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ؛ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: فَإِنِّي أَرَى شَيْئًا مِنْ هَذَا عَلَى امْرَأَتِكَ الْآنَ، قَالَ: اذْهَبِي فَاَنْظُرِي، قَالَ: فَدَخَلَتْ عَلَى امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ فَلَمْ تَرَ شَيْئًا؛ فَجَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا، فَقَالَ: أَمَا لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ تُجَافِعْهَا.

وفي «الصحيحين» عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْوَأَشِمَّةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وَالْمُسْتَوَصِلَةَ، وَالْوَأَشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ».

قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون قوم يخضِبُونَ في آخر الزمان بالسَّواد كَحَوَاصِلِ الْحَمَامِ، لَا يَرِيحُونَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»، سنده صحيح وصححه النسائي؛ إذ ذكره في «المجتبى» ورجاله ثقات، وعبد الكريم هنا هو الجزري، كما جاء مصرحاً به في بعض الطرق؛ وهو ثقة ثبت، والله أعلم.

٢١- ومنهم مَنْ هَواه مع الجدال العقيم والمراء السقيم في الدين:

نقل ابن بطة في «الإبانة الكبرى» عن عبد العزيز بن الماجشون أنه قال: «احذروا الجدال! فإنه يقربكم إلى كل موبقة، ولا يسلمكم إلى ثقة، ليس له أجل ينتهي إليه، وهو يدخل في كل شيء، فاتخذوا الكفَّ عنه طريقاً؛ فإنه... والهدى^(١)، وإن الجدال والتعمق هو جور السبيل، وصراط الخطأ؛ فلا تحسبن التعمق في الدين رسخاً؛ فإن الراسخين في العلم هم الذين وقفوا حيث تناهى علمهم، واحذرهم أن يجادلوك بتأويل القرآن، واختلاف الأحاديث عن رسول الله ﷺ وتجادلهم؛ فتزلَّ كما زلوا، وتضلَّ كما ضلوا؛ فقد كَفَتَكَ السَّيْرَةُ (يعني سيرة السلف) مؤنتها، وأقامت لك منها ما لم تكن لتَعْدِلَهُ برأيك.

ولا تَتَكَلَّفَنَّ صفة الدين لمن يَطْعَنُ في الدين، ولا تمكنهم من نفسك؛ إنما يريدون أن يَفْتِنُوكَ، أو يَأْتُونَ بِشَبْهَةٍ فَيُضِلُّوكَ، ولا تقعد معهم؛

(١) هكذا هو في الأصل، ولعله: «فإنه الهدى»، والله أعلم.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [٦٨] [الأنعام: ٦٨]، ولعمري إن صفة الدين كَبِيَّةٌ، وإن سُبُلَهُ لَوَاضِحَةٌ، وإن مَأْخَذَهُ لَقَرِيبٌ لمن أراد الله هداه، ولم تكن الخصومة والجدل هواه» اهـ.

ونقل أيضا الإمام ابن بطة في «الإبانة الكبرى» أن عمر عبد العزيز، كتب إلى بعض عماله: «أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة رسوله ﷺ، وترك ما أحدث المُحْدِثُونَ بَعْدَهُ، فيما قد جَرَتْ به سُنَّتُهُ، وكُفُّوا مَثُونَتَهُ، واعلم أنه لم يبتدع إنسان بدعة، إلا قَدَّمَ قَبْلَهَا ما هو دليل عليها، وعِبْرَةٌ فيها؛ فعليك بِلُزُومِ السُّنَّةِ؛ فإنها لك بإذن الله عصمة، واعلم أن مَنْ سَنَّ السُّنَنَ قد عَلِمَ ما في خِلَافِهَا مِنَ الْخَطَا وَالزَّلَلِ، والتَّعَمُّقِ والْحَمَقِ؛ فإن السابقين عن علم وقفوا، وبِصَصِرٍ نَافِدٍ كَفُّوا، وكانوا هم أَقْوَى على البحث، ولم يبحثوا» اهـ.

وفيه نفس المرجع السابق قال رحمه الله تعالى: «وقال ابن مسعود أيضًا: «إذا أراد الله بعبد خيرا سده، وجعل سؤاله عما يعنيه، وعِلْمُهُ فيما ينفعه»، وقال: «إياكم والتنطع، والتعمق، وعليكم بالعتيق»، وقال أبو يوسف: «العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم»، وقال زيد بن علي لابنه: «يا بني اطلب ما يعينك بترك ما لا يعينك؛ فإن في تركك ما لا يعينك دَرْكًا لما يعينك، واعلم أنك تَقْدُمُ على ما قَدَّمْتَ، ولست تَقْدُمُ على ما أَخَّرْتَ، فأثر ما تلقاه غداً على ما لا تراه أبداً» اهـ.

٢٢- ومنهم من هواه مع تضييع الأوقات، والسهر والسمر باقتراف

الآثام باللغو الحرام، كلعبة «البلوت» و«الكوتشينة»، والألعاب المتضمنة للعب بالحجارة المنقوطة، وهي المعروفة بالنرد، كلعبة السُّلَم والثُّعْبَان، و«اللِّدُو» و«بَنَك الحَظ»، و«الدُّومينو» أو «الضومنة» وهي من أنواع النرد، واللعب بالنرد من المحرمات التي استهان بها كثير من الناس، مع تشديد الشرع فيها، وإنكار الصحابة رضي الله عنهم لها إنكاراً شديداً^(١).

(١) جاء في «صحيح مسلم» عن بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ شَبِيرٍ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خَنْزِيرٍ وَدَمِهِ».

وجاء في «مصنف ابن أبي شيبة» بسند صحيح عن ابْنِ عُمر رضي الله عنه قَالَ: «لَأَنْ أَصْغَعَ يَدِي فِي لَحْمِ خَنْزِيرٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْعَبَ بِالنَّرْدِ».

وفيه بسند صحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، وَقَصَرَ بِهِ مِسْعَرٌ: «إِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الْكِعَابُ الْمُؤَسُّومَةُ الَّتِي تَزْجُرُ رَجُلًا؛ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَيْسِرِ».

وفيه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه، قَالَ: «مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ قِمَارًا كَانَ كَأَكْلِ لَحْمِ الْخَنْزِيرِ، وَمَنْ لَعِبَ بِهَا غَيْرَ قِمَارٍ كَانَ كَالْمُدَّهِنِ يُوَدِّكِ الْخَنْزِيرُ».

وجاء في «الموطأ» و«الأدب المفرد» للبخاري من طريق علقمة بن أبي علقمة عن أمه عن عائشة زوج النبي ﷺ: «أَنَّهُ بَلَغَهَا أَنَّ أَهْلَ بَيْتٍ فِي دَارِهَا كَانُوا سَكَانًا فِيهَا وَعِنْدَهُمْ نَرْدٌ؛ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ لَثَنَ لَمْ تَخْرُجُوا لِأَخْرَجْنَكُمْ مِنْ دَارِي وَأَنْكَرْتُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ»، قُلْتُ: وَسَنَدُهُ جَيِّدٌ.

وفي «الموطأ»: وَحَدَّثَنِي عَنْ مَالِكٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا وَجَدَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهِ يَلْعَبُ بِالنَّرْدِ ضَرْبَهُ وَكُسْرَهَا»، قَالَ يَحْيَى: وَسَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ: لَا خَيْرَ فِي الشَّطْرَنْجِ، وَكُرْهَهَا، وَسَمِعْتُهُ يَكْرَهُ اللَّعِبَ بِهَا وَيَغْيِرُهَا مِنَ الْبَاطِلِ، وَيَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] اهـ.

قُلْتُ: وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ».

٢٣- ومن أهواء مُعَذَّرَةِ الحُكَّامِ المبدلين للدين؛ إلقاءهم اللائمة في ظهور الفساد، وتبدُّل الأوضاع، وشيوع الفتن والضلال؛ مَرَدُّهُ فقط على الشعوب لا على الحُكَّامِ، ويسعون جاهدين في تصوير ذلك وبرهانه، لتبرئة ساحة الحُكَّامِ، مع عظيم فجورهم وضلالهم؛ بل وبعضهم زنديق كافر مرتد، فيعكسون المسألة، ويجعلونها قاعدة مضطردة، عيادًا بالله من التلبس، والتلاعب بالدين، إرضاء للسلطين.

وللرد على هؤلاء، الذين منهم مَنْ يحق عليه وصفهم بأنهم الدعاة على أبواب جهنم؛ سأذكر كلامًا نفيسًا لشيخ الإسلام ابن تيمية، يرد فيه على هؤلاء المبطلين المفتونين:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في «مجموع الفتاوى»: «فَصُلِّ: وَاعْلَمْ أَنَّ عَامَّةَ الْبِدْعِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْعُلُومِ وَالْعِبَادَاتِ فِي هَذَا الْقَدْرِ وَغَيْرِهِ؛ إِنَّمَا وَقَعَ فِي الْأُمَّةِ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، حَيْثُ قَالَ: «مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِّينَ مِنْ بَعْدِي»، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ إِذَا اسْتَقَامَ «وُلَاةُ الْأُمُورِ» الَّذِينَ يَحْكُمُونَ فِي النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ؛ اسْتَقَامَ عَامَّةُ النَّاسِ؛ كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، فِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»؛ لِلْمَرْأَةِ الْأَحْمَسِيَّةِ لَمَّا سَأَلَتْهُ فَقَالَتْ: مَا بَقَاؤُنَا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الصَّالِحِ؟ قَالَ: «مَا اسْتَقَامَتْ لَكُمْ أَيْمَتُكُمْ».

وَفِي الْأَثَرِ: «صِنْفَانِ إِذَا صَلَحُوا صَلَحَ النَّاسُ: الْعُلَمَاءُ وَالْأَمْرَاءُ»؛
 أَهْلُ الْكِتَابِ وَأَهْلُ الْحَدِيدِ؛ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ [الحديد: ٢٥]
 الْآيَةَ، وَهُمْ «أَوَّلُو الْأَمْرِ» فِي قَوْلِهِ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

[النساء: ٥٩].

وَكَذَلِكَ مِنْ جِهَتِهِمْ يَقَعُ الْفَسَادُ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ مَرْفُوعًا وَعَنْ
 جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ زَلَّةُ عَالِمٍ، وَجِدَالُ مُنَافِقٍ
 بِالْقُرْآنِ، وَأُيُمَّةٌ مُضِلُّونَ»؛ فَالْأُيُمَّةُ الْمُضِلُّونَ هُمُ الْأَمْرَاءُ.

وَالْعَالِمُ وَالْمُجَادِلُ هُمُ الْعُلَمَاءُ، لَكِنَّ «أَحَدَهُمَا» صَحِيحُ الْإِعْتِقَادِ
 يَزِلُّ وَهُوَ الْعَالِمُ، كَمَا يَقَعُ مِنْ أُيُمَّةِ الْفُقَهَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَالثَّانِي «كَالْمُتَفَلِّسَةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ، الَّذِينَ يُجَادِلُونَ بِشُبُهَاتِ الْقُرْآنِ،
 مَعَ أَنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ مَنْسَلَخُونَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا احْتِجَاجُهُمْ بِهِ دَفْعًا
 لِلْخُصْمِ، لَا اهْتِدَاءً بِهِ وَاعْتِمَادًا عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «جِدَالُ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ»؛ فَإِنَّ
 السُّنَّةَ وَالْإِجْمَاعَ تَدْفَعُ شُبُهَتَهُ» انتهى.

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «جَامِعُ الْعُلُومِ
 وَالْحُكْمِ»: «وَإِذَا صَارَ مَلُوكُ النَّاسِ وَرَعَوْهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ؛ انْعَكَسَتْ
 سَائِرُ الْأَحْوَالِ؛ فَصُدِّقَ الْكَاذِبُ، وَكُذِّبَ الصَّادِقُ، وَاتَّيَمَّنَ الْخَائِنُ، وَخَوَّنَ
 الْأَمِينُ، وَتَكَلَّمَ الْجَاهِلُ، وَسَكَتَ الْعَالِمُ، أَوْ عُدِمَ بِالْكَلِيَّةِ، كَمَا صَحَّ عَنْ

النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيُظْهَرَ الْجَهْلُ»،
وَأَخْبَرَ: «أَنَّهُ يَقْبُضُ الْعِلْمُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقَ عَالِمٌ، اتَّخَذَ النَّاسُ
رِءُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَصِيرَ الْعِلْمُ جَهْلًا، وَالْجَهْلُ عِلْمًا».

وهذا كله من انقلاب الحقائق في آخر الزمان، وانعكاس الأمور اهـ.

الدخول على السلاطين فتنة:

كان بعض السلف الصالح يقول: «مَنْ دَخَلَ عَلَى السُّلْطَانِ افْتَنَّ»،
مع أن السلاطين كانوا يقيمون الجهاد في سبيل الله، ويقدرّون العلم
والعلماء؛ فكيف لو رأوا علماء دخلوا على الطواغيت المحاربين للجهاد
وأهله، وَوَالُوا الكُفْرَ والكَافِرِينَ، وَضَيَّقُوا عَلَى الْعُلَمَاءِ الرِّبَانِيِّينَ؛ بَلْ وَفِي
بِلْدَانٍ سَجَنُوهُمْ؛ بَلْ وَقَتَلُوا مِنْهُمْ.

قال أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الْعَزَلَةُ»: «لَيْتَ شِعْرِي، مَنْ
الَّذِي يَدْخُلُ إِلَيْهِمْ الْيَوْمَ؛ فَلَا يَصْدَقُهُمْ عَلَى كَذِبِهِمْ، وَمَنْ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِالْعَدْلِ
إِذَا شَهِدَ مَجَالِسَهُمْ، وَمَنْ الَّذِي يَنْصَحُ وَمَنْ الَّذِي يَتَنَصَّحُ مِنْهُمْ؟ إِنْ أَسْلَمَ
لَكَ، يَا أَخِي، فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَأَحُوطُ لَدِينِكَ؛ أَنْ تَقُلَ مِنْ مَخَالَطَتِهِمْ،
وَعُشْيَانِ آبَائِهِمْ، وَنَسَأَلُ اللَّهَ الْغَنَى عَنْهُمْ، وَالتَّوْفِيقَ لَهُمْ» انتهى.

وجاء في كتاب ابن مفلح «الآداب الشرعية»: «فَصْلٌ: انْقِبَاضُ

الْعُلَمَاءِ الْمُتَّقِينَ مِنْ إِيَّانِ الْأَمْرَاءِ وَالسَّلَاطِينِ.

كَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَأْتِي الْخُلَفَاءَ، وَلَا الْوُلَاةَ وَالْأَمْرَاءَ، وَيَمْتَنِعُ مِنَ الْكِتَابَةِ إِلَيْهِمْ، وَيَنْهَى أَصْحَابَهُ عَنْ ذَلِكَ مُطْلَقًا، نَقَلَهُ عَنْهُ جَمَاعَةٌ، وَكَلَامُهُ فِيهِ مَشْهُورٌ.

وَقَالَ مُهَنَّأٌ: سَأَلْتُ أَحْمَدَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْهَرَوِيِّ، فَقَالَ: رَجُلٌ وَسَخٌّ، فَقُلْتُ: مَا قَوْلُكَ إِنَّهُ وَسَخٌّ؟ قَالَ: مَنْ يَتَّبِعُ الْوُلَاةَ وَالْقُضَاةَ فَهُوَ وَسَخٌّ، وَكَانَ هَذَا رَأْيَ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ، وَكَلَامُهُمْ فِي ذَلِكَ مَشْهُورٌ؛ مِنْهُمْ سُؤَيْدُ بْنُ غَفَلَةَ، وَطَاوُسٌ، وَالنَّخَعِيُّ، وَأَبُو حَازِمٍ الْأَعْرَجُ، وَالثَّوْرِيُّ، وَالْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ، وَابْنُ الْمُبَارَكِ، وَدَاوُدُ الطَّائِي، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسَ، وَبِشْرُ بْنُ الْحَارِثِ الْحَافِي، وَغَيْرُهُمْ» انتهى.

وَقَالَ أَيْضًا: «وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: كَانَ الْخَلِيلُ مِنَ الزُّهَادِ الْمُتَّقِعِينَ إِلَى الْعِلْمِ، وَمِنْ خِيَارِ عِبَادِ اللَّهِ الْمُتَقَشِّفِينَ فِي الْعِبَادَةِ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ حُبَيْبٍ الْمُهَلَّبِيُّ لَمَّا وَلِيَ، فَشَرَّيْنِ يَدَيَّ رَسُولِهِ كِسْرًا، وَامْتَنَعَ أَنْ يَأْتِيَهُ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ:

أَبْلَغُ سُلَيْمَانَ أَنِّي عَنْهُ فِي سَعَةٍ وَفِي غَنَى غَيْرَ أَنِّي لَسْتُ ذَا مَالٍ
شَحًّا بِنَفْسِي إِنِّي لَا أَرَى أَحَدًا يَمُوتُ هَزْلًا وَلَا يَبْقَى عَلَى حَالٍ
وَالرِّزْقُ عَنْ قَدْرِ لَا الضَّعْفُ يُنْقِصُهُ وَلَا يَزِيدَنَّ فِيهِ حَوْلٌ مُحْتَالٍ

وَالرُّزْقُ يَغْشَى أَنَاثًا لَا طَبَاحَ لَهُمْ كَالسَّيْلِ يَغْشَى أَصُولَ الدُّنْدَنِ الْبَالِي
كُلُّ امْرِئٍ بِسَبِيلِ الْمَوْتِ مُرْتَهَنٌ فَأَعْمَلْ لِبَالِكَ إِنِّي شَاغِلٌ بِأَلِي
وَالْفَقْرُ فِي النَّفْسِ لَا فِي الْمَالِ نَعْرِفُهُ وَمِثْلُ ذَلِكَ الْغِنَى فِي النَّفْسِ لَا الْمَالِ انتهى.

٢٤- ومنهم مَنْ هواه مع المعاكسات والمغازلات، وهتك الأعراض، ومصاحبة المردان؛ فإنما هو دابة تجري وراء فرجها وشهواتها المحرمة؛ عيادًا بالله.

٢٥- ومنهم من هواه مع مصافحة النساء ومجالستهن، ومسهن باللمس والمزاح؛ عيادًا بالله من الخيانة والغدر، وضعف الغيرة، وقلة الحياء والمروءة، وقد حذر الله تبارك وتعالى من الخضوع بالقول، وكان سيدنا محمد ﷺ لا يصافح النساء، ويأمر بعدم الخلوة بهن وأن يلامسن الرجال، حتى في الطواف؛ كان النساء يظفن حَجَرَةً عن الرجال، وحتى في الغزوات كنَّ يداوين الجرحى، وهنَّ على أكمل ما يكون الاحتشام والعفاف.

قال القرطبي في «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»: «و«يسقين الماء»؛ أي: تحملنه على ظهورهن فيضعنه بقرب الرجال؛ فيتناوله الرجال بأيديهم فيشربوه، و«يداوين»؛ أي: يهيئن الأدوية للجراح ويُصلحنها، ولا يلمسن من الرجال ما لا يحلُّ.

ثم أولئك النساء إمَّا متجالات؛ فيجوز لهن كشف وجوههن، وإمَّا

شواَّبٌ فيحتجب، وهذا كله على عادة نساء العرب في الانتهاض، والنجدة، والجرأة، والعفة؛ وخصوصًا نساء الصحابة» انتهى.

٢٦- ومنهم من هواه مع التشوُّف إلى النقد والتتبع، وربما سماه نقدًا علميًا، وهو لما يتأهل بعُد، وتراه يتشدد بالكلام ويملاً فمه به، وينبري مناطقًا القامات الكبار من أهل العلم، في سوء أدب يحرمه الاستفادة منهم. وكما قيل: إن من الآفات العلمية أن يَتَزَبَّبَ المرءُ قبل أن يَتَحَصَّرَمَ.

ومن جميل ما قاله السراج البلقيني في «محاسن الاصطلاح»: «ولكن الانتهاض لِمْجَرَّدِ الاعتراض من جُملة الأمراض».

وفي مثل هذا يقول أحدهم في كلام نافع مفيد: «أكبرُ مَقَاتِلِ طُلَّابِ العلم؛ تربيتُهُم على النَّقد قبل التَّحصيلِ الحقيقيِّ المُثْمِر؛ فهو فوق كونه تعويذًا لكلِّ أحد على الانتهاض لِمْجَرَّدِ الاعتراض، الذي هو من جُملة الأمراض؛ فيه تضییعٌ مَعْرِفِيٌّ خطيرٌ جدًّا لقيمة النَّقد، وتكثيرٌ لأمثلة النَّقدِ الخطأ التي يتعلق بها الفارُّون من النَّقدِ العلميِّ الصَّحيح، القائم بالعلم والعدل والحلم» اهـ.

٢٧- وآخرون أهواؤهم مع تعليم أولادهم أيًا ما كان التعليم، وإن كان محرَّمًا، وإن فسدت فيه القدوات والمناهج، وإن صرَفَهُم عن علم الكتاب والسنة؛ كل هذا لا يهمهم، بل المقدم عندهم مطلقًا وأبدًا؛ العلم الذي يحصلون به على شهادة دنيوية، يَتَأَكَّلُون بها في دنياهم، ولو على حساب

أُخْرَاهُمْ، وَإِنْ خَرَبَتْ دَنِيَاهُمْ دِينَهُمْ؛ عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَالْخَذْلَانِ.

وَأَكْثَرُ النَّاسِ الْيَوْمَ مُتَّبِعُونَ لِهَذَا الْهَوَى الْخَطِيرِ الْمُبِيرِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَسْئُولُونَ عَنْ هَذِهِ الرِّعْيَةِ الَّتِي غَشَوْهَا، وَدَلَسُوا عَلَيْهَا طَرِيقَ الْحَقِّ، وَسَبِيلَ النِّجَاةِ^(١).

وَلْنَعْلَمَ، عِبَادَ اللَّهِ، أَنْ:

الْعِلْمُ مِنْ جِهَةِ أَثَرِهِ وَنَفْعِهِ: يَنْقَسِمُ إِلَى قَسَمَيْنِ:

* عِلْمُ ضَارٍ: وَهُوَ كُلُّ عِلْمٍ مُحَرَّمٍ؛ كَعِلْمِ السِّحْرِ، وَالْكِهَانَةِ، وَالْعِرَافَةِ، وَالْغِنَاءِ الْفَاحِشِ، وَالْمَوْسِيقَى، وَعِلْمِ الْمَحَامَاةِ وَالْقَضَاءِ الْمَبْنِيِّ عَلَى تَعْلَمِ الْقَوَانِينِ الطَّاعُوتِيَةِ الْوَضْعِيَّةِ، لِلْعَمَلِ بِهَا وَالتَّحَاكُمِ إِلَيْهَا، وَعِلْمِ الْأَفْلَامِ وَالسِّينِمَا وَالْمَسَلْسَلَاتِ، الْقَائِمَةِ عَلَى تَصْوِيرِ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ، وَالِاخْتِلَاطِ بَيْنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ، وَإِخْرَاجِ النِّسَاءِ بِفَتْنَتِهِنَّ وَزِينَتِهِنَّ، أَوْ بَغْيِ ذَلِكَ؛ لِيَرَاهَا النَّاسُ عَبْرَ أَجْهَازَةِ الدَّمَارِ الشَّامِلِ؛ ذَلِكَ الْإِعْلَامُ الْخَبِيثُ الْفَاسِدُ الْهَابِطُ، وَعُمُومًا كُلُّ عِلْمٍ جَاءَ الْمَنْعُ وَالتَّحْذِيرُ مِنْهُ، وَالتَّنْفِيرُ عَنْهُ؛ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَمِنْ الْعِلْمِ الضَّارِّ: تِلْكَ الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ فِي أَصْلِهَا جَائِزَةٌ؛ بَلْ وَنَافِعَةٌ، إِلَّا أَنَّهَا اتُّخِذَتْ غَايَةً وَهَدَفًا، وَمَطْلَبًا وَمَقْصِدًا، فَوْقَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ بِحَيْثُ اشْتَغَلَ النَّاسُ بِهَا، عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِمْ تَعَلُّمُهُ مِنْ عُلُومِ الشَّرِيعَةِ الْغَرَاءِ؛

(١) راجع كتابي «المحبة الحقيقية للأزواج والذرية».

فقطعتهم عن الله تعالى والدار الآخرة، وصرفتهم عن الغاية التي خلقهم الله تعالى لأجلها؛ فصاروا مع الشريعة ضُماً وبُكْماً وعمياً، إلا ما رحم ربي.
فهي علوم في أصلها تنفع، إذا اتصلت بالله جل وعلا، وبشرعه تبارك وتعالى، وإلا عادت وبالأعلى العباد والبلاد.

مثال ذلك: علم الأحياء والكيمياء والجيولوجيا والطب مثلاً تعلمها مباح؛ وهي علوم نافعة في أصلها، ولكنها إذا انفصلت عن الله تعالى، واتصلت بالطبيعة والإلحاد أصبحت علومًا ضارة؛ بل داعية إلى الكفر والضلال، والزندقة والإلحاد؛ والعياذ بالله من ذلك.

ومن ذلك: أن تكون علومًا مقطوعة الصلة بالله تعالى وكتابه، وسنة نبيه ﷺ، حتى صار من المستهجن ذكر الأدلة الشرعية في مقامات تعليم هذه العلوم، التي يسمونها بعلوم الحضارة، وبالعلوم العصرية، مع أن أصول هذه العلوم مثبتة في كتاب الله تبارك وتعالى، وسنة النبي ﷺ، ولكنها السياسة الماسونية الإلحادية العلمانية، التي جاءت لتقطع الصلة بين هذه العلوم ومعلمها للعباد؛ ألا وهو الله رب العالمين؛ بل وصوّروا للأمم أن علم الشريعة يضاد ويصادم العلوم الحضارية الحياتية؛ بل ويعاديها، خابوا وخسروا وكذبوا.

ومن العجائب، والعجائب جمّة في هذا الزمان!؛ أن ترى هذه العلوم تدرّس في مدارس المسلمين وجامعاتهم؛ على أنها علوم جافة بحثة، تكاد تكون مقطوعة الصلة بالله جل وعلا؛ بل وتجد في طيّات ما يُدرس ما هو

مصادم للكتاب والسنة؛ بل وما هو كفر بواح وإلحاد صراح؛ كنظرية التطور أو المعروفة اليوم بالدارونية، وكنظرية دوران الأرض حول الشمس التي زعموا أنها ثابتة، وغير ذلك كثير؛ عيادًا بالله من ذلك كله، ومن تتبع المناهج؛ عرف حجم الخبث المبثوث في طبائنها، عبر المراحل التعليمية المختلفة.

ومما يجب التنبيه له في هذا المجال؛ تذكُّر كيفية انتقال هذه العلوم من بلاد الإلحاد والضلال إلى بلدان المسلمين؛ حيث إن الغرب الكافر، قد عاش فترة من الجهل المُدْقِع، والضلال العظيم، والتخلف في شتى مجالات الحياة، في عصور سماها أهل التاريخ «العصور المظلمة أو عصور الظلام»؛ لأن الكنيسة كانت تحارب العلوم بشتى أنواعها، وتسair الكبراء على حساب الضعفاء؛ فظهرت الفتوى والتشريعات الظالمة الجائرة؛ فثار الناس على الكنيسة ومن فيها، وأبغضوا كل ما هو متصل بها، وأبغضوا الدين تبعًا لذلك؛ إذ هو يمثل دين الأحرار والرهبان، الذين قال الله تعالى في وصفهم: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُونُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

الثورة الفرنسية الإلحادية:

وانطلق ما يُعرف بالثورة الفرنسية، والتي جاءت داعية لفصل الدين عن الحياة، وعن العلوم؛ فجاءت العلوم معزولة تمامًا عن الدين؛ فقامت حضارتهم الماثلة اليوم على الزندقة والإلحاد على مبدأ «لا إله والحياة مادة»، عيادًا بالله منهم، ومن مبادئهم.

ولما أراد المسلمون أن يتعلموا منهم، ويأخذوا عنهم هذه الحضارة المزعومة؛ قاموا، وللأسف الشديد، بنقلها برُمَّتها وعلى علَّاتها، بما فيها من ضلال وانحراف وزندقة وإلحاد، ونقلت إلى بلاد المسلمين على أيدي من يُسمَّون بالمتقنين؛ وهي طبقة من الناس ذهبت إلى بلاد الغرب الكافر، وجاءت مَفْتُونَةٌ بهم، مشبَّعة بمبادئهم المنحرفة، وخُبِثهم وضلالهم.

نعم هم أقوامٌ مِن بَنِي جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، ولكنهم دعاة على أبواب جهنم؛ عيادًا بالله منهم، ومن كيدهم وشرهم ومكرهم، واستمع إلى وصف الله ﷻ لهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ يَخْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمْ الْعُدُو فَاخْذَرْهُمْ فَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَوْفَقُونَ ۚ﴾ [المنافقون: ٤]؛ نعم هكذا فُتِنَ الناس بهم، وبِمَعْسُولِ كلامهم، وتشدُّقهم بالحضارة والمدنية، في محاولة جادة لإغراء المسلمين، بالغرب الكافر وحضارته الإلحادية.

فكانت النتيجة ما نرى من الغثائية المنقطعة النظر، في حين أننا من أكثر الأمم شهادات علمية أكاديمية في شتى العلوم، فما من تخصص إلا وعند المسلمين من حملته المئات؛ بل الآلاف من العباد؛ بل لربما في بعضها الملايين، ولكنهم غشاء كغشاء السيل.

وإذا كانت العلوم المفضولة، إذا أشغلت عن العلوم الفاضلة؛ حرمت؛ فكيف إذا صادمتها وحاربتها؛ بل كيف إذا قامت على نقض الأصلين، اللذين قام عليهما دين الله جل وعلا، الكتاب والسنة؛ لا شك أن الخطب أعظم والجرم أشنع وأفطع، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولهذا كان النبي ﷺ يستعيز بالله من علم لا ينفع، كما جاء في «صحيح مسلم» من طريق عبد الله بن الحارث، وعن أبي عثمان النهدي، عن زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول: كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

والناس اليوم، إلا من رحم الله، انصرفوا إلى هذه العلوم الحياتية، وانقطعوا إليها، وتولّعوا بها، وعولّوا عليها في معاشهم وأرزاقهم، وظنوا بها

النصر والتمكين، ورموا علم الشريعة وراء ظهورهم، وزهدوا فيه، إلا ثقافة يأخذها من هنا أو هناك يتعلل بها، إن احتاج إلى ذلك، فانتشر الجهل بدين الله تعالى، وظهرت الفتن، وعاشت الأمة ذلًا كتبه الله على من تنكّب صراطه المستقيم، وابتغى العزة من عند غيره تبارك وتعالى.

إذاً هذه العلوم، الأصل أن الله تعالى علّمها عباده ليزدادوا إيمانًا به وتعلقًا به، وتوكلًا عليه، لا أن يطغوا بها على حق الله تبارك وتعالى، ويستظهروا بها على دينه وشريعته، والأمر كما قال تعالى: ﴿سَرِّهِمْ عَابِتَنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبْيَنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيبَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ۝٥٤﴾

[فصلت: ٥٣، ٥٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨٣ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمَّ يَكُ يَنْفَعُهُمْ يُعْمِنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلْنَا اللَّهَ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ۝٨٥﴾ [غافر: ٨٣ - ٨٥].

هكذا الأمة إذا أخذت هذه العلوم بهذه الهدايات الربانية؛ كانت عونًا لها على قضيتها التي لأجلها خلقت: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وإن انشغلوا بها وكانت هِمَّتَهُمْ؛ انقطعوا بها عن الله، فَوُكِّلُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وفرحوا بما عندهم من علم، فضلوا وأضلوا، وحقَّتْ عليه كلمة العذاب، والعياذ بالله.

قال ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»: «فصل: حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها؛ ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب، ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة، وأما أهل البدو كلهم وأهل الكُفُور كلهم، وعامة بني آدم؛ فلا يحتاجون إلى طبيب، وهم أصح أبدانًا وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب، ولعل أعمارهم متقاربة.

وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم، وجعل لكل قوم عادة وعرفًا، في استخراج ما يهْجُم عليهم من الأدوية؛ حتى أن كثيرًا من أصول الطب، إنما أخذت عن عوائد الناس وعرفهم وتجاربهم، وأما الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضا الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية؛ فمبناها على الوحي المحض، والحاجة إليها أشد من الحاجة إلى التنفس، فضلاً عن الطعام والشراب؛ لأن غاية ما يقدَّر في عدم التنفُّس والطعام والشراب موتُ البدن وتعطلُّ الروح عنه، وأما ما يقدَّر عند عدم الشريعة؛ ففساد الروح والقلب جملة، وهلاك الأبدان، وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت.

فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم؛ إلى معرفة ما جاء به

الرسول ﷺ، والقيام به والدعوة إليه والصبر عليه، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه، وليس للعالم صلاح بدون ذلك ألبتة، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر؛ إلا بالعبور على هذا الجسم اهـ.

ومن آثار هذا التنكر للعلم الشرعي؛ صرنا نرى فيمن ترفع إليهم الأبصار؛ من أطباء ومهندسين، وأصحاب درجات علمية متنوعة؛ من لا يحسن أن يقيم تلاوة قصار السور، ناهيك عن تلاوة القرآن، وتجد من بينهم من لا يحسن يصلي، ولا يعرف كيفية غسل الجنابة؛ بل لو سألت كثيراً منهم عن معاني بعض قصار السور، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ عَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ ، لم يحز جواباً، ولضرب الأخماس بالأسداس، في إفلاس واضح مشين؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فخرج جيل لا يعرف كثيراً من أمور دينه، ولا يفقه كثيراً من كتاب ربه، ولا ويعلم كثيراً من حدود ما أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ.

يعبدون الله على حرف كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ۝٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ ۚ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ ۚ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ بَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ۝١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۚ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ۚ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝١١﴾

في حين أنه يحسن عدة لغات، ويقرأ كثيراً من الكتب والجرائد والمجلات، ويعرف كثيراً من أخبار العالم، السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك، إلا أنه لا يعرف كثيراً من حدود ما أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ، والله المستعان.

* العلم النافع: وهو أزكى العلوم وأعلاها وأعظمها نفعا على الإطلاق، وكل ثناء ورد في الكتاب والسنة على العلم وأهله؛ إنما المراد به أصالة علوم الشريعة الغراء المطهرة، وهو دال على غيره من العلوم النافعة، وحاكم عليها وضابط لها؛ حتى لا يطغى بها العبد ولا يبغي، ولا يحملها على محامل الشر، ولا يسخرها فيما حرم الله، ولا يعمل بها فيما يخالف فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وهذا العلم ينقسم قسمين:

١- فرض عين: وهو ما لا يسع العبد الجهل به، أو هو ما يلزم كل مكلف من أهله أن يتعلمه، وقلنا: من أهله؛ لأن من العلم ما يكون فرض عين في حق قوم دون آخرين، فإذا صاروا من أهله كان فرض عين عليهم كذلك، مثل الصلاة والزكاة والحج والصيام والوضوء.

ومما هو فرض عين على جميع العباد أن يتعلموه؛ الفقه الأكبر والعلم الأعظم؛ ألا وهو علم التوحيد وما يصاده، وما يجب اعتقاده في الله

رب العالمين، وأعود لأذكر بضرورة تعلم نواقض الإسلام كلها.

٢- فرض كفاية: وهو ما إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، وأما إن تواطأ العباد على ترك تعلمه؛ فإن الإثم يلحقهم جميعاً، إلا مَنْ كان ساعياً في تحصيل الكفاية وإيجادها.

الإسلام لا يحارب العلم النافع:

واعلم، رحمك الله وأرشدك:

- أن الإسلام لا يحارب العلوم النافعة، ولكنه يحارب العلم الضارّ، ويحارب العلم الذي يشغل العبد عما خُلِقَ له، ويصرفه عن وظيفته الحقيقية، التي فيها نجاته وسعادته الحقيقية.

- الإسلام يحارب الأساليب الضالة والملتوية، التي تتضمن التلبيس على الناس، بإلباس الباطل ثياب الحق؛ للتغريب بالجموع الإسلامية.

- الإسلام يحارب الوسائل المنحرفة الجائرة، كما أنه يحارب أسباب الفساد كلها، ويحارب التبعية والتقليد الأعمى للكفار، والتشبه بهم.

- الإسلام يحارب أن تُرتكَب المحرمات والطوائم العظام؛ بدعوى تعليم الناس العلوم الحياتية، في تنكّر واضح للأحكام الشرعية على هذه المحرمات والطوائم، التي منها الفساد العقدي؛ عياداً بالله.

- الإسلام يحارب أن تكون هذه العلوم الحياتية؛ هي المعيار لتحديد التفاضل بين العباد وتقويمهم وتقديهم؛ بل كما قال الله تعالى:

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَجَعَلُ الْمُتْسِلِينَ كَالْجَرَمِ ۖ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٦) أم لكم كتب فيه تدرسون ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لِمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٨].

- الإسلام يحارب أن يتحول الإنسان المسلم إلى دابة؛ همتها جمع الدرهم والدينار، والتنافس على زخرف الحياة الدنيا، على حساب القضية العظمى، ألا وهي تحقيق عبادة الله جل وعلا.

- الإسلام يحارب أن يكون الإنسان المسلم دابة؛ تُدَجَّنُ لأعدائها، وتُسَمَّنُ لدُودِ القبور، في ذهول وإعراض عن الله والدار الآخرة، التي هي الحيوان الحقيقي.

وفي مقابل هذا الاحتفاء العظيم بعلوم الحياة الدنيا؛ وقع هجر عظيم لكتاب الله تعالى، وسنة النبي ﷺ، ومعرفة سبيل المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَكْرَبُ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ﴿٢٠﴾ [الفرقان: ٣٠].

٢٨- ومنهم من هواه مع ادعاء الانتصار للقرآن العظيم، من خلال

إنكاره للسنة النبوية، وعدم قبولها، بدعوى أن الحجة إنما هي في كتاب الله تعالى وحده، وهم الذين يسمّون أنفسهم زورًا وبهتانًا بالقرآنيين، ولعل هذه من مكرهم؛ إذ تسموا بهذا ليسوغ دخولهم في الناس، ويتيسر لهم ذلك، وحتى لا ينفر الناس منهم، وإنما هم الضالون عن القرآن؛ فالقرآن من طريقتهم وسبيلهم براء؛ بل هم ممن يهدم الإسلام، وهم من أجهل عباد الله.

بل طعنهم في السنة يثول بهم إلى تكذيب الله تعالى، الذي تكفل بحفظ هذا الدين، ومنه حفظ القرآن العظيم، وبيان النبي ﷺ الذي أمر الله تعالى باتباعه واتخاذ أسوة؛ فقد أحال الله تعالى عباده على هدي نبيه ﷺ، ولا شك أن الله تعالى لا يحيل على معدوم، ولا على ما هو عرضة للطعن فيه، ولا على ما هو محتمل الزوال؛ بل أحال عباده على الحق المحفوظ المبين، لبيان المعاني وتطبيقها وتنزيلها عمليًا، وتلك هي سنة النبي ﷺ؛ التي تدور على السنة القولية، والعملية، والتقريرية.

فقد أحالنا الله تعالى على رسوله ﷺ، وسبيل المؤمنين، التي عمل بها وَرَبَّيْ عَلَيْهَا أَصْحَابَهُ، وَمَنْ أُحِيلَ عَلَى مَلِيٍّ فَلْيَتَّبِعْ.

وَمَنْ أَعْظَمَ وَأَصْدَقَ، وَأَتَقَى وَأَخْشَى، فِي النَّاسِ؛ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ سَيِّدِ النَّاسِ ﷺ؟

وفي «الصحيحين» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَطْلُ

الْغَنِيِّ ظَلَمٌ، وَمَنْ أَتَيْعَ عَلَىٰ مَلِيٍّ فَلْيَتَّعِ.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَاءَ مَا هَلَكَ الذِّكْرُ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴿٤٤﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤٤)

[إبراهيم: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

[الحشر: ٧]

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٢) [آل عمران: ٣١، ٣٢].

وقال ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٣١) [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩) [الحجر: ٩].

ولا يتم حفظ هذا الذكر إلا بحفظ ما يُبَيِّنُهُ، وهو ما أُرْسِلَ به النبي ﷺ،

وَأَمَرَ بِهِ وَبِإِلَاحِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّا لَنَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ، مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ ۖ يَلْعَلُ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۖ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أَنزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة: ٦٧، ٦٨].

وكذلك من الزنادقة مَنْ يفعل ذلك، وهم يريدون من وراء ذلك هدم الإسلام، مِنْ خِلَالِ الطَّعْنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ؛ لِيُخَلِّصُوا إِلَى التَّلَاعِبِ بِالْآيَاتِ، بِتَحْرِيفِهَا وَتَأْوِيلِهَا بِالْبَاطِلِ وَتَعْطِيلِهَا؛ لِعَنَهُمُ اللَّهُ وَأَهْلُكِهِمْ.

قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَضِيَ عَنْهُ، وَهُوَ يُرَدُّ عَلَى أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، كَمَا فِي كِتَابِهِ «الرَّسَالَةُ»: «وَفِي شَهَادَتِهِ بِأَنَّهُ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ، وَالشَّهَادَةُ بِتَأْدِيتِهِ رِسَالَتَهُ وَاتِّبَاعَ أَمْرِهِ، وَفِيمَا وَصَفْتُ مِنْ فَرْضِهِ طَاعَتِهِ، وَتَأْكِيدِهِ إِيَّاهُ فِي الْآيِ؛ ذَكَرْتُ مَا أَقْدَمَ اللَّهُ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَى خَلْقِهِ، بِالتَّسْلِيمِ لِحُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ: وَمَا سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ فِيهِ لَيْسَ اللَّهُ فِيهِ حُكْمٌ؛ فَحُكْمُ اللَّهِ

سَنَّهُ، وكذلك أخبرنا الله في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ صِرَاطُ اللَّهِ ﴿[الشورى: ٥٢، ٥٣]، وقد سَنَّ رسولُ الله مع كتاب الله، وسَنَّ فيما ليس فيه بعينه نَصُّ كتاب، وكلُّ ما سَنَّ فقد أَلَزَمَنَا الله اتباعه، وجعل في اتباعه طاعته، وفي العُتُودِ عن اتِّباعِها مَعْصِيَتَهُ التي لم يَعْذُرْ بها خَلْقًا، ولم يجعل له مِن اتِّباعِ سُنَنِ رسولِ الله مَخْرَجًا؛ لما وَصَفَتْ وما قال رسولُ الله.

أخبرنا سفيان عن سالم أبو النضر مولى عمر بن عبيد الله سمع عبيد الله بن أبي رافع يحدث عن أبيه أن رسول الله قال: «لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته، يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به أو نهيت عنه؛ فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه» اهـ.

وقال شيخنا الشيخ العلامة الفقيه المحدث: سليمان بن ناصر العلوان فرَّج الله عنه وحفظه بحفظه التام، في كتابه «تنبيه الأمة على وجوب الأخذ بالكتاب والسنة»: «كان السلف رضوان الله عليهم، يشتد نكيرُهم على مَنْ خالف الأحاديث، بالآراء والتعسفَات المريضة، وربما هجروه تعظيمًا للسنة وتوقيرًا لها.

فروى مسلم في «صحيحه» عن سالم بن عبد الله أن عبد الله بن عمر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنتكم إليها»، قال: فقال بلال بن عبد الله: والله لئمنعهنَّ، قال: فأقبل عليه عبد الله فسبَّه سبًّا سيئًا، ما سمعته سبَّه مثله قط، وقال: أخبرك عن رسول الله ﷺ، وتقول: والله لئمنعهنَّ.

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مغفل: أنه رأى رجلاً يخذف فقال له: لا تخذف؛ فإن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف، أو كان يكره الخذف، وقال: «إنه لا يصاد به صيد، ولا ينكأ به عدو، ولكنها قد تكسر السن، وتفقأ العين»، ثم رآه بعد ذلك يخذف، فقال له: أحدثك عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن الخذف، أو كره الخذف، وأنت تخذف! لا أكلمك كذا وكذا.

وروى البخاري في «صحيحه» من طريق الزبير بن عريبي قال: سألت رجلاً ابن عمر رضي الله عنهما عن استلام الحجر، فقال: رأيت رسول الله ﷺ يَسْتَلِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ، قال: قلت: رأيت إن غُلِبْتُ؟ قال: اجْعَلْ رأيت باليمن، رأيت رسول الله ﷺ يَسْتَلِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ.

قال الحافظ ابن حجر على قول ابن عمر رضي الله عنهما: «اجعل رأيت باليمن»: «وإنما قال له ذلك؛ لأنه فهم منه معارضة الحديث بالرأي؛ فأفكر عليه ذلك، وأمره إذا سمع الحديث أن يأخذ به ويتقي الرأي».

وقال ابن عباس، رضي الله عنهما: «والله ما أراكم متتهين حتى يعذبكم الله، أَعَدُّنْكُمْ عن رسول الله ﷺ، وتُحَدِّثُونَا عن أبي بكر وعمر».

قال العلامة سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله: فإذا كان هذا كلام ابن عباس لمن عارضه بأبي بكر وعمر، وهما هما؛ فما تظنه يقول لمن يعارض سنن الرسول ﷺ بإمامه، وصاحب مَذْهَبِهِ الذي يَنْتَسِبُ إليه، ويجعل قوله عياراً على الكتاب والسنة، فما وافقه قَبِلَهُ، وما

خَالَفَهُ رَدُّهُ أَوْ تَأْوَلُّهُ، فَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

وما أحسن ما قال بعض المتأخرين:

فإن جاءهم فيه الدليل موافقاً لما كان للآبَا إليه ذهابُ
رضوه وإقبال هذا مُؤَوَّلٌ وَيَرْكَبُ للتأويل فيه صعبُ
ولا ريب أن هذا داخل في قوله تعالى: ﴿أَتَّخِذُوا أَجْبَارَهُمْ
وَرُحْبَكُنْهُمْ زُرْكَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال أبو السائب: «كنا عند وكيع، قال لرجل عنده ممن ينظر في
الرأي: أشعر رسولُ الله ﷺ، ويقول أبو حنيفة: هو مثله، قال الرجل: فإنه
قد روي عن إبراهيم النخعي أنه قال: الإشعار مثله، قال: فرأيت وكيعاً
غضب غضباً شديداً، وقال: أقول لك: قال رسول الله ﷺ، وتقول: قال
إبراهيم، ما أحقك بأن تحبس، ثم لا تخرج حتى تنزع عن قولك هذا!«.

وهذا الذي ينبغي أن يفعل فيمن رام الوقوف أمام النصوص،
ومعارضتها بقول فلان وفلان، بحجة أنه أعلم منك» اهـ.

٢٩- وأخرى هواها في ظلم صَرَاتِهَا والاستِطَالَة عليهن، والمكر
والكيد لهن، حتى إنها ربما وقعت في الكفر، باستعمال السحر والكهانة،
وذلك الخسران المبين، أو تقع في بعض الكبائر كالقذف والغيبة والنميمة؛
وذلك من الضلال المبين عياداً بالله من الخذلان، ونعوذ بالله تعالى من

الْجَزَعِ، وعدم الرضا بقضاء الله وَقَدَرِهِ وَشَرْعِهِ.

٣٠- ومنهم مَنْ هَوَاهُ مع التَّطَاوُلِ عَلَى العلماء الذين يعظمون العلم، ويعلمون خطره وفضله، ويسعون في إذاعته ونشره، وَتَحْيِيْبِ الناس فيه، وهم عَلَى طريقة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمَنْ تبعهم بإحسان؛ فهم من أهل العلم الربانيين؛ فتجد هذا المفتون أو ذاك يسعى في إسقاطهم والتشغيب عليهم، وتسفيههم وتجريحهم ونقدهم، فَهَمَّتْهُ مَضْرُوفَةٌ إِلَى هذه الخباثات، وما علم أن لحوم العلماء الربانيين مسمومة، وأن سيرة هتكهم معلومة لمن اعتبر واستبصر؛ عيادًا بالله من الخذلان.

وبعض هؤلاء يكون من المتسبين إِلَى العلم، ولكن لسانه سليط؛ فتراه يعمل عمل السفهاء الراغبين عن الرشد، عيادًا بالله؛ وذلك لنزعة كبر خالطته، نسأل الله العفو والعافية، أو نزعة حسد سكتته، عيادًا بالله، فتراه متعاليًا؛ بل وأحيانًا متعالمًا يدعي ما ليس عنده، يتطاول عَلَى الآخرين بجهله، ويزدريهم بعلمه؛ فلا يرى أحدًا فوقه، ولا يعتد بأحد من حوله؛ بل ربما سعى يَبْزُ أئمة الهدى، ومصابيح الدُّجَى، من السلف الصالحين الربانيين، الذين أجمعت الأمة عَلَى إمامتهم وفضلهم، وورعهم وعظيم نفعهم، وعلو كعبهم وظهور سابقتهم؛ فيتقدمهم بعبارات غليظة فَجَّةٍ، وأسلوب سطحي سفيه؛ بل بعضهم ربما كَفَرَهُمْ، وشهد عليهم بالزندقة، عيادًا بالله من خصال الخوارج المارقين؛ فترى هذا المفتون قد نصب نفسه إمامًا للجرح والتعديل، بالهوى والتدجيل،

والتضخيم والتهويل، وكأنه مَالِكٌ لَصُكُوكِ الرَّفْعَةِ والغفران، والذلة والهوان؛ عيادًا بالله من الكِبَرِ والفحش والتفحش.

فهذا دَيَّدَتْهُ وهو هَجَّيراه، وَيَعُدُّهُ دِينًا بينه وبين الله، وما علم أنه مِنَ الأراذل، والعياد بالله.

ومثل هذا قَلَّ أَنْ يُنْتَفَعَ بعلمه، أو أَنْ يَكُونَ أسوة وإمامًا إِلَّا لمفتون مثله، وكما قيل: «الطيور على أشكالها تقع»؛ بل غالبًا ما يكون مردُّ أمره إلى الهوان؛ عيادًا بالله.

ومن يكن الغراب له دليلاً يَمُرُّ به على جِيفِ الكلابِ وكان الأولَى به أَنْ يَهْجُمَ به علمه، لو كان نافعًا؛ على معاني الخشية لله تعالى وتقواه، والقرب منه والتقرب إليه، والورع والزهد، والحرص على نفع الأمة ورفعها، وإكرام علمائها الربانيين، وتأليف القلوب عليهم، لكنه مسكين مخذول من حيث لا يشعر أو يشعر، والله المستعان.

وتأمل هذا الكلام النفيس النافع للحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في كتابه الماتع «فضل علم السلف على الخلف»: «فأصل العلم بالله؛ الذي يوجب خشيته ومحبته، والقرب منه والأنس به والشوق إليه، ثم يتلوه العلم بأحكام الله، وما يحبه ويرضاه من العبد، من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد؛ فمن تحقق بهذين العِلْمَيْنِ كان علمه علمًا نافعًا، وحصل له العلم النافع،

والقلب الخاشع، والنفس القانعة، والدعاء المسموع.

ومن فاته هذا العلم النافع؛ وقع في الأربع التي استعاذ منها النبي ﷺ، وصار علمه وبالأ وحجة عليه؛ فلم ينتفع به؛ لأنه لم يخشع قلبه لربه، ولم تشبع نفسه من الدنيا؛ بل ازداد عليها حرصًا ولها طلبًا، ولم يُسمع دعاؤه لعدم امتثاله لأوامر ربه، وعدم اجتنابه لما يسخطه ويكرهه.

هذا إن كان علمه علمًا يمكن الانتفاع به، وهو المُتَقَلِّ عن الكتاب والسنة، فإن كان مُتَقَلِّ من غير ذلك؛ فهو غير نافع في نفسه، ولا يمكن الانتفاع به؛ بل ضره أكثر من نفعه.

وعلاوة هذا العلم الذي لا ينفع؛ أن يُكسِبَ صاحبه الزهو والفخر والخيلاء، وطلب العلو والرفعة في الدنيا والمنافسة فيها، وطلب مباهاة العلماء، وممارسة السفهاء، وصرف وجوه الناس إليه...».

إلى أن قال: «وربما ادعى بعض أصحاب هذه العلوم معرفة الله وطلبه، والإعراض عما سواه، وليس غرضهم بذلك إلا طلب التقدم في قلوب الناس، من الملوك وغيرهم، وإحسان ظنهم بهم، وكثرة أتباعهم، والتعظيم بذلك على الناس.

وعلاوة ذلك: إظهار دعوى الولاية كما كان يدعيه أهل الكتاب، وكما ادعاه القرامطة والباطنية ونحوهم.

وهذا بخلاف ما كان عليه السلف، من احتقار نفوسهم وازدراؤها

باطناً وظاهراً، وقال عمرو: مَنْ قال: إنه عالم فهو جاهل...».

إلى أن قال: «ومن علامات ذلك: عدم قبول الحق والانقياد إليه، والتكبر على مَنْ يقول الحق، خصوصاً إن كان دونهم في أعين الناس، والإصرار على الباطل؛ خشية تفرق قلوب الناس عنهم بإظهار الرجوع إلى الحق، وربما أظهروا بألستهم ذم أنفسهم واحتقارها على رءوس الأشهاد؛ ليعتقد الناس فيهم أنهم عند أنفسهم متواضعون؛ فيمدحون بذلك، وهو من دقائق أبواب الرياء، كما نبه عليه التابعون فمن بعدهم من العلماء، ويظهر منهم من قبول المدح واستجلابه؛ مما ينافي الصدق والإخلاص؛ فإن الصادق يخاف النفاق على نفسه، ويخشى على نفسه من سوء الخاتمة؛ فهو في شُغل شاغل عن قبول المدح واستحسانه.

فلهذا كان من علامات أهل العلم النافع؛ أنهم لا يرون لأنفسهم حالاً ولا مقاماً، ويكرهون بقلوبهم التزكية والمدح، ولا يتكبرون على أحد.

قال الحسن: «إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المواظب على عبادة ربه، وفي رواية عنه قال: الذي لا يحسد مَنْ فوقه، ولا يسخر ممن دونه، ولا يأخذ على علم علّمه الله أجراً»، وهذا الكلام الأخير قد روي معناه عن ابن عمر من قوله.

وأهل العلم النافع، كلما ازدادوا في هذا العلم، ازدادوا تواضعاً لله، وخشية وانكساراً وذلاً.

قال بعض السلف: ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعاً لربه؛ فإنه كلما ازداد علماً بربه ومعرفة به؛ ازداد منه خشية ومحبة، وازداد له ذللاً وانكساراً.

ومن علامات العلم النافع: أنه يدل صاحبه على الهرب من الدنيا، وأعظمها الرئاسة والشهرة والمدح؛ فالتباعد عن ذلك، والاجتهاد في مجانبته؛ من علامات العلم النافع.

فإذا وقع شيء من ذلك من غير قصد واختيار؛ كان صاحبه في خوف شديد من عاقبته؛ بحيث إنه يخشى أن يكون مكرماً واستدراجاً؛ كما كان الإمام أحمد يخاف ذلك على نفسه، عند اشتهار اسمه وبُعْدِ صِيَّتِهِ.

ومن علامات العلم النافع: أن صاحبه لا يدعي العلم، ولا يفخر به على أحد، ولا ينسب غيره إلى الجهل إلا من خالف السنة وأهلها؛ فإنه يتكلم فيه غضباً لله، لا غضباً لنفسه، ولا قصدًا لرفعته على أحد.

وأما من علمه غير نافع، فليس له شغل سوى التكبر بعلمه على الناس، وإظهار فضل علمه عليهم، ونسبتهم إلى الجهل، وتقصُّصهم ليرتفع بذلك عليهم، وهذا من أقبح الخصال وأزداها.

وربما نسب من كان قبله من العلماء، إلى الجهل والغفلة والسهو؛ فيوجب له حُب نفسه وحُب ظهورها، إحسان ظنه بها، وإساءة ظنه بمن سلف.

وأهل العلم النافع علىٰ ضدِّ هذا؛ يُسَيِّئُونَ الظنَّ بأنفسهم، ويحسنون الظنَّ بِمَن سلف من العلماء، ويُقَرُّونَ بقلوبهم وأنفسهم بِفَضْلِ مَن سلف عليهم، وبِعِجْزِهِم عن بلوغ مراتبهم، والوصول إليها أو مقاربتها، وما أحسن قول أبي حنيفة، وقد سُئِلَ عن علقمة والأسود: أيهما أفضل؟ فقال: والله ما نحن بأهل أن نذكُرهم، فكيف نُفَضِّلُ بينهم!

وكان ابن المبارك إذا ذكر أخلاق من سلف؛ ينشد:

لَا تُعَرِّضْ بِذِكْرِنَا مَعَ ذِكْرِهِمْ لَيْسَ الصَّحِيحُ إِذَا مَشَى كَالْمُقْعَدِ

ومَن علمه غير نافع، إذا رأى لنفسه فضلاً علىٰ مَن تَقَدَّمَ في المقال وتشقَّق الكلام؛ ظنَّ لنفسه عليهم فضلاً في العلوم، أو الدرجة عند الله، لفضل خُصَّ به عَمَّن سبق؛ فاحتقر مَن تَقَدَّمَ واجترأ عليه بِقِلَّةِ العلم، ولا يعلم المسكين أن قِلَّةَ كلام مَن سلف، إنما كان وَرَعًا وخشيةً لله، ولو أراد الكلام وإطالته لما عجز عن ذلك.

كما قال ابن عباس لقوم سمعهم يَتِمَارُونَ في الدين: «أما علمتم إن لله عبادًا أَسَكَّتَهُمْ خشيةُ الله مِن غير عِيٍّ ولا بكم، وأنهم لَهُم العلماء والفصحاء، والطلُّفاء والنبلاء، العلماء بأيام الله؛ غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله طاشت عقولهم، وانكسرت قلوبهم، وانقطعت ألسنتهم؛ حتَّى إذا استفاقوا مِن ذلك يسارعون إلى الله بالأعمال الزاكية؛ يعدون أنفسهم مِن الْمُفَرِّطِينَ، وإنهم

لَأَكْيَاسُ أَقْوِيَاءُ، وَمَعَ الظَّالِمِينَ وَالْخَاطِئِينَ وَإِنَّمَا لِأَبْرَارٍ بَرَاءٌ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْثِرُونَ لَهُ الْكَثِيرَ، وَلَا يَرْضَوْنَ لَهُ بِالْقَلِيلِ، وَلَا يُدْلُونَ عَلَيْهِ بِالْأَعْمَالِ، هُمْ حَيْثُ مَا لَقِيَتْهُمْ مَهْتَمُونَ مَشْفُقُونَ وَجِلُونَ خَائِفُونَ»، خَرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ وَغَيْرُهُ...».

إِلَى أَنْ قَالَ: وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيَجْلِسَ إِلَى الْقَوْمِ، فَيَرُونَ أَنَّ بِهِ عِيًّا، وَمَا بِهِ مِنْ عِيٍّ، إِنَّهُ لَفَقِيهٌ مُسْلِمٌ».

فَمَنْ عَرَفَ قَدْرَ السَّلَفِ، عَرَفَ أَنَّ سَكُوتَهُمْ عَمَّا سَكَتُوا عَنْهُ، مِنْ ضُرُوبِ الْكَلَامِ، وَكَثْرَةِ الْجِدَالِ وَالْخِصَامِ، وَالزِّيَادَةِ فِي الْبَيَانِ عَلَى مَقْدَارِ الْحَاجَةِ؛ لَمْ يَكُنْ عِيًّا وَلَا جَهْلًا وَلَا قَصُورًا، وَإِنَّمَا كَانَ وَرَعًا وَخَشِيَةً لِلَّهِ، وَاشْتَغَالًا عَمَّا لَا يَنْفَعُ بِمَا يَنْفَعُ.

وَسِوَاءُ فِي ذَلِكَ كَلَامُهُمْ فِي أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَفِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، وَفِي الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، وَالْحُكْمِ وَالْمَوَاعِظِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَكَلَّمُوا فِيهِ.

فَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ سَلَكَ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ، وَدَخَلَ فِي كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَالْبَحْثِ، وَالْجِدَالِ وَالْقِيلِ وَالْقَالَ، فَإِنْ اعْتَرَفَ لَهُمْ بِالْفَضْلِ، وَعَلَى نَفْسِهِ بِالنَّقْصِ؛ كَانَ حَالُهُ قَرِيبًا.

وَقَدْ قَالَ إِيَّاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ: مَا مِنْ أَحَدٍ لَا يَعْرِفُ عَيْبَ نَفْسِهِ إِلَّا وَهُوَ أَحَقُّ، قِيلَ لَهُ: فَمَا عَيْبُكَ؟ قَالَ: كَثْرَةُ الْكَلَامِ.

وَإِنْ ادَّعَى لِنَفْسِهِ الْفَضْلَ، وَلَمْ يَنْسَ سَبْقَةَ النَّقْصِ وَالْجَهْلِ؛ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا، وَخَسِرَ خَسِرَانًا عَظِيمًا اهـ.

ومن جميل ما ينسب إلى الإمام الشافعي المطليبي رَحِمَهُ اللهُ:

المرءُ يُعرفُ في الأَنامِ بِفِعْلِهِ وَخَصَائِلِ الْمَرْءِ الْكَرِيمِ كَأَصْلِهِ
اضْبِرْ عَلَى خُلُوِّ الزَّمَانِ وَمُورِهِ وَاعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ
لَا تَسْتَغِيبُ فَتُسْتَغَابُ وَرُبَّمَا مَنْ قَالَ شَيْئًا قِيلَ فِيهِ بِمِثْلِهِ
وَتَجَنَّبِ الْفَحْشَاءَ لَا تَنْطِقْ بِهَا مَا دُمْتَ فِي جِدِّ الْكَلَامِ وَهَزْلِهِ
وَإِذَا الصَّدِيقُ أَسَى عَلَيْكَ بِجَهْلِهِ فَاصْفَحْ لِأَجْلِ الْوُدِّ لَيْسَ لِأَجْلِهِ
كَمْ عَالَمٍ مُتَفَضِّلٍ قَدْ سَبَّهَ مَنْ لَا يُسَاوِي غِرَّةً فِي نَعْلِهِ!
الْبَحْرُ تَعْلُو فَوْقَهُ جِيفُ الْفَلَا وَالْدَّرُّ مَطْمُورٌ بِأَسْفَلِ رَمْلِهِ
وَاعْجَبْ لِعُصْفُورٍ يُزَاحِمُ بِاشِقًا إِلَّا لَطِيشَتِيهِ وَخَفَّةِ عَقْلِهِ
إِيَّاكَ تَجْنِي سُكْرًا مِنْ حَنْظَلٍ فَالشَّيْءُ يَرْجِعُ بِالْمَذَاقِ لِأَصْلِهِ
فِي الْجَوْ مَكْتُوبٌ عَلَى صُحُفِ الْهَوَى مَنْ يَعْمَلِ الْمَعْرُوفَ يُحْزَرَ بِمِثْلِهِ

٣١- وآخرون هواهم مع التبرُّك المحرم البدعي، والآخر الشرطي، ويحتجون بالضعيف والمنكر والموضوع، ومن ذلك حديث أبي أيوب رَحِمَهُ اللهُ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وهو حديث منكر ضعيف كما بيَّنته في كتاب «التوسل»، والله أعلم.

وأما ما نقل عن الإمام أحمد؛ فإنه جار على الأصل العام الخاص

بالنبي ﷺ، من جواز التبرك بالنبي ﷺ، وبآثاره ﷺ، ويلحق بذلك المنفصل كالثياب والوضوء والعرق، والمتصل كالشعر ونحوه، ولعموم دلالة الأدلة عليه، ولكن، كما تقدم، هو خاص بالنبي ﷺ؛ ولهذا لم يفعله الصحابة رضي الله عنهم مع أحد غيره ﷺ؛ لا مع الصديق ولا الفاروق ولا عثمان ولا علي، ولا أحد من آل البيت، ولا مع أحد البدرين والمبشرين بجنت النعيم رضي الله عنهم؛ فمن عممه في غير النبي ﷺ فقد ابتدع في الدين، وأحدث ما لم ينزل به سلطاناً، وأزرى بالصحابة رضي الله عنهم، واختلق ديناً من عنده لا برهان صحيح به.

وهذا التبرك المحض فرق عظيم بينه وبين الشرك بالله تعالى؛ إذ ليس فيه شيء من معاني صرف العبادة لغير الله تعالى، كما يفعله المشركون بأصحاب القبور؛ من دعائهم، ورجائهم، والاستغاثة بهم الاستغاثة الشركية، وتعليق القلوب بهم لقضاء الحاجات وتفريج الكربات ورزق الولد، وعلم الغيب... وغير ذلك من الشراكيات والمعتقدات الجاهلية، في صرف هذه العبوديات وغيرها لغير الله تعالى، وهي لا تحل ولا تجوز إلا لله الواحد القهار، لا شريك له في عبادته؛ كما أنه لا شريك له في ربوبيته وأسمائه وصفاته، وملكه لعباده وخلقه إياهم، وأمره فيهم تبارك وتعالى، وﷺ عما يفعل المشركون.

٣٢- ومنهم من هواه مع الافتتان بالقراء وتتبع الأصوات، ومن القراء من هواه مع فتنة الناس بنفسه، وهذا من الرياء والسمعة، والعياذ بالله.

٣٣- وآخر هواه مع نُكران الجميل وجحد الإحسان، وهذا من أسوأ

أخلاق الإنسان؛ وذلك أنك ترى أو تسمع عن بعض الناس، من الذكور أو من الإناث؛ أنه لا يكاد يحفظ الإحسان، مع أن الله تعالى يقول: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، ويزداد الأمر قبحاً كلما ازداد الإحسان منزلة؛ فنكران جميل من أحسن إليك بماله، ليس كمن أحسن إليك بتعليمك ما ينفعك، وأعلى منه من علّمك الله على يديه أمر دينك، فأصبحت مهتدياً متقيّاً؛ فكان هو السبب في هذه الدلالة على الخير، وفيما أنت فيه من علم وفضل واستقامة، فقد أنقذك الله تعالى به من الضلالة والغواية، وقد كنت على شفا حفرة من النار، وكنت على تخليط في أصول دينك وفروعه، فأصبحت سميحاً بصيراً بأمور دينك بسببه، ثم بعد هذا كله يتقلب مع شيخه انقلاب اللثام على الكرام، ويتعامل معه كأنه لم يعرفه من قبل، فضلاً عن أن يتذكر أنه كان يوماً ما يعلمه، ويأخذ بيده إلى سبيل النجاة والهدى، والله المستعان.

٣٤- وأخرى هواها مع إهمال أولادها، وتركهم للتلفاز والديجيتالات والجوالات ليربيهم، وللخدّامة لترعاهم، وهذا يتيم لأبوين حسيّن، وكان الواجب عليها أن تتقي الله تعالى في أبنائها، وأن تعلم أنها راعية لهم ومسئولة عنهم، كما في «الصحيحين» عن ابن عمر رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: «وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ».

وقد أكرم الله تعالى المرأة، فنسب بيت الزوجية إليها؛ لتقديرها، ولتعلم عظيم المسؤولية الملقاة على عاتقها؛ فتتقي الله تعالى، وتسعى جاهدة في

المحافظة على رعيتهما، وتربيتهما على ما ينجيها وإياهم، يوم تسأل عنهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

وقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٣٣) وَأَذْكُرْ مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

[الأحزاب: ٣٣، ٣٤].

وكذلك كانت تسبب بيوتات النبي ﷺ إلى نساءه، فيقال: بيت عائشة، وبيت حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، وهكذا.

فإذا ضَيَّعت المرأة رعيتهما وانشغل الأب عن تقويمهما؛ فلك أن تسأل هذا السؤال: مَنْ هو اليتيم الذي لم يفقد والديه؟

فيأتيك الجواب في هذين البيتين لأحد الشعراء:

ليس اليتيم مَنْ انتهى أبواه مِنْ هَمِّ الحياةِ وخَلَفَاهُ ذليلاً
إنَّ اليتيمَ هو الذي تَلَقَّى له أُمًّا تَخَلَّتْ أو أَبًا مشغولاً

٣٥- ومنهم مَنْ هواه مع قطع الأرحام، وإشاعة الفرقة والشقاق، وهؤلاء توعدهم الله تعالى باللعن والطرْد، عائداً بالله من أخلاق النفاق والمنافقين.

٣٦- ومنهم مَن هواه مع عقوق الوالدين وجفوتهم، وتقديس الزوجة والأولاد عليهم؛ بل وتقديس الأصحاب والأصدقاء، على إجابة والديه والقيام بحقوقهما؛ عياداً بالله من العقوق.

قال الله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢٤) [محمد: ٢٢ - ٢٤].

٣٧- ومنهم مَن هواه مع إضحاك الآخرين، فهو يشغل وقته بذلك، فترى هجيره الضحك، وتلك هي غالب حاله، حتى إنه لربما كذب ليضحك الناس؛ بل لربما تكلم بكلمة الكفر والاستهزاء، لتسلية نفسه والآخرين؛ عياداً بالله من الردة بعد الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا رَبِّي إِنَّهُ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِمْ وَإِيَّائِهِمْ وَرُسُلِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْزِدُوهُمْ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (٦٦)

[النوبة: ٦٤ - ٦٦].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَبِينُ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ».

وفي «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا؛ يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا؛ يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

وروى أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان في «صحيحه» من طريق بهز بن حكيم قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ! وَيْلٌ لَهُ! وَيْلٌ لَهُ!».

٣٨- ومنهم مَنْ هَوَاهُ مع التَّسَلُّطِ عَلَى المساجد، والتَّحَكُّمِ فِيهَا بهواه لا بشرع الله تعالى وهدهاه؛ فهو يتعامل معها وكأنها بيت من بيوته، ونسي أو تناسى أن هذه البيوت هي لله تعالى، وليست له؛ فتراه يمنع ويأذن، ويزجر، ويأمر وينهى، وهو من الجهلاء بدين الله تعالى؛ بل ربما كان من أجهل عباد الله تعالى، بحدود ما أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ، وهؤلاء من أعظم أسباب الإفساد لبيوت الله تعالى؛ فبسببهم تنتشر الجهالات من البدع والضلالات والمحرمات، وهم يحسبون أنهم على شيء؛ والعياذ بالله، وإنما أُتُوا مِنْ جهلهم وحبهم للتصدر والظهور، مع قلة بضاعتهم الشرعية أو انعدامها.

ومن ذلك تَصَدُّرُ بعض كبار السُّنَنِ، عَلَى ما فيهم من الجهل والتفريط، فيتسلطون على بيوت الله، أَمْرًا وَنَهْيًا، بِحُكْمٍ وَمَقْتَضَى كِبَرِ سِنِّهِمْ، فَبَعْدَ أَنْ قَضَوْا أَيَّامَ شَبَابِهِمْ فِي الضَّلَالَةِ وَالْفُسُوقِ، وَتَوَلَّى الْمَنَاصِبَ، وَالتَّى مِنْهَا مَا كَانَ فِي خِدْمَةِ الطَّاغُوتِ، حَتَّى أُحِيلُوا إِلَى التَّقَاعِدِ وَالْمَعَاشِ؛ أَتُوا

بيوت الله بعد أن تقدمت أعمارهم، فيريدونها عوجًا.

وأنت ترى ذلك حاصلًا من بعض كبار السن؛ حيث إنهم إذا هداهم الله تعالى على كِبَرٍ مِنَ السَّنِّ وَتَقَدُّمٍ مِنَ الْعُمُرِ؛ فصاروا مِنْ عُمَمَارِ بِيُوتِ اللَّهِ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى، يريدون أن يكونوا رءوسًا في الناس في بيوت الله، على سوء فَهْمِهِمْ لَشَرَعِ اللَّهِ تَعَالَى، ويريدون مِنَ النَّاسِ أَنْ يُطَاعُوا وَعُومَهُمْ، على ما يريدون مِنَ الْهُوَى الْمُخَالَفِ لِلْهُدَى، بدعوى الأدب مع الكبار، وإذا قيل لأحدهم: اتق الله، أخذته العزة بالإثم، نسأل الله العافية والسلامة من الخذلان، وكل هذا بسبب تفريطه في طلب العلم في شبابه، ثم لما كَبِرَ واهتدى أراد أن يقع في ضلالة أخرى، بأن يتصدَّر بلا علم صحيح؛ والعياذ بالله^(١).

وهذا منكر عظيم وفعل شنيع، وعلى مَنْ لَا يَعْلَمُ أَنْ يَتَوَاضَعَ لِلَّهِ

(١) ولهذا أخرج البخاري في «صحيحه» معلقًا فقال: «وَقَالَ عُمَرُ: تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوِّدُوا، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَبَعْدَ أَنْ تُسَوِّدُوا، وَقَدْ تَعَلَّمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِي كِبَرٍ سِنِّهِمْ» اهـ.

قلت: وقد وصله ابن أبي شيبة في مصنفه بسند صحيح فقال: حدثنا وكيع قال حدثنا ابن عون عن ابن سيرين عن الأحنف قال: قال عمر: «تفقهوا قبل أن تسودوا».

قلت: قال العلماء في الشرح: «قبل أن تسودوا»؛ أي: قبل أن تصبخوا سادة ورؤساء؛ لأنهم ربما استكنفوا عن الفقه والعلم عندئذ.

وجاء في «غريب الحديث» لأبي عبيد: «قوله: «تفقهوا قبل أن تسودوا»، يقول: تعلموا العلم ما دتم صغارا، قبل أن تصيروا سادة رؤساء منظورا إليكم؛ فإن لم تَعْلَمُوا قَبْلَ ذَلِكَ اسْتَحْيَيْتُمْ أَنْ تَعْلَمُوهُ بَعْدَ الْكِبَرِ، فَبَقَيْتُمْ جَهَالًا تَأْخُذُونَهُ مِنَ الْأَصَاغِرِ؛ فَيَزِرِي ذَلِكَ بِكُمْ» اهـ.

تعالى، وأن يَكِلَ الْعِلْمَ لِعَالِمِهِ، وليس كونك كبيراً في السن يُخَوِّلُكَ أن تُفْتِيَ وتُنْظَرَ في دين الله تعالى وبُيُوتِهِ، بناءً على هَوَاكَ وتصوراتك الشخصية، نعم أنت كبير في السن، ولك حَقٌّ أَنْ تُحْتَرَمَ وتُقَدَّرَ، ولكن اعلم أن الواجب عليك أنت كذلك؛ أَنْ تُحْتَرَمَ وتوقَّرَ وتُبَجَّلَ كلام الله تعالى ورسوله ﷺ، وأن تُعْظَمَ شرع الله تبارك وتعالى وشعائره، وإلا فلا تُلَوِّمَنَّ إِنْ نَفْسُكَ، ولا تَعْجَبْ ولا تَجْزَعْ ولا تحزن إِنْ وَجَدْتَ مِمَّنْ هو أصغر منك سنّاً نَكِيرًا عَلَيْكَ؛ بل عليك أَنْ تعلم أَنَّ الواجب عليك أَنْ تُدْعَى لشرع الله تعالى وتُنْقَادَ، وَإِنْ أَتَاكَ عَلَى لِسَانِ مَنْ هو أصغر منك سنّاً أو قدراً وعلماً، ما دام أنه قد أَتَاكَ بِالْحَقِّ؛ بل عليك أَنْ تَفْرَحَ بِالْحَقِّ، وَأَنْ تَكُونَ وَقَافًا عِنْدَهُ، مُحِبًّا لَهُ، وَأَنْ تَجْتَهِدَ فِي اسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَكَ مِنَ الْعِلْمِ النَافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَالِحِ؛ حَتَّى تَكُونَ مِنَ الْمَفْلُحِينَ؛ وَعَلَيْهِ فَالْصَوَابُ أَنَّ الَّذِي لَهُ الْحَقُّ فِي تَوْجِيهِ النَّاسِ فِي بَيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى؛ هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ الَّذِينَ هُمُ الْأَعْلَمُ بِشَرَعِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا الْجُهْلَاءُ وَالْمَنْظُرِينَ، وَأَصْحَابِ الْهُوَى، وَلَوْ كَانُوا كِبَارًا فِي السِّنِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَأَنَّ الْأَمْسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ ، وهذا تقرير للاختصاص، والمعنى أنها خالصة لله تعالى خاصة به، فلا يجوز الافتئات عليها، لا بالشرك ولا بالبدع، ولا بالمعاصي والمنكرات، ولا بالمحرمات ولا الفواحش، ولا يجوز لأحد أن يتحكم فيها أو يحكم فيها بغير ما يرضي الله تبارك وتعالى، ولا أن يدخل فيها ما يسخط الله، فإنما هي بيوته جل الله في

علاه، كما قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [النور: ٣٦].

ولقد أدخل كثير من الناس في بيوت الله كثيرًا من ذلك، إن لم يكن كله؛ فهناك مساجد حوّلت إلى مقابر؛ فدفنوا فيها أولياءهم وصالحيهـم، ثم عبدوهم من دون الله أو مع الله، فدخل الشرك إلى تلك المساجد؛ فصارت الصلاة فيها محرمة، وبعضها بُني على القبر، وهذه مساجد ضرار لا يجوز دخولها، ولا الصلاة فيها؛ بل حقها أن تهدم؛ إذ قد صارت مقابر وليست مساجد.

ودخلت البدع والخرافات، من الطبول والأشعار الشريكية، فيما يسمى بالتُـوَبَات، وهي المدائح الصوفية، التي يضربون فيها الدفوف ويرقصون، ويغمرون، ويختلط النساء بالرجال، في بيوت الله؛ عيادًا بالله.

وآخرون أدخلوا فيها آلات التصوير، زعموا لتصوير المحاضرات والصلوات، ونسوا أن الله تعالى حرم تصاوير ذوات الأرواح.

وآخرون زخرفوها كما فعلت اليهود والنصارى، وجعلوا فيها ألوانًا من الأصباغ، وامتألت الجدران بالكتابات، حتى صارت في بعض البلدان مزارًا للسُّباح، حتى من الكفار، يأتونها للتفرج والتقاط الصور، وكل ذلك مَنهِيٌّ عنه مُحَدَّرٌ منه؛ فالله المستعان، فما أشدَّ غربة الإسلام بين أهله! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لِجَانُ الْمَسَاجِدِ بَدْعَةٌ:

وآخرون أسسوا ما يعرف اليوم بـ«لجنة المسجد»، وهذه في حد ذاتها بدعة وضلالة، ثم إنها صارت في الغالب سبباً لصد الناس عن سبيل الله؛ فإنما هي فكرة شيطانية أحدثها الطاغوت وأعوانه؛ ليتحكموا في بيوت الله؛ ليمت توجيهها مع مصالحهم، فكم من درس ودورة شرعية أوقفوها بهذه الدعوى الباطلة، وكم من إمام على السُّنة عزلوه بهذه اللجان الفاسدة، قاتلهم الله أنى يؤفكون! وإذا كان لا يؤذَن للعبد أن يفعل ما يشاء في منزله، مما يخالف شرع الله تعالى؛ بل هو مأمور بعبادة الله وتحقيق الاتباع للرسول ﷺ، حتى في منزله، فكيف ببيوت الله تبارك وتعالى؟

ولهذا كان الصحيح أن تسمى «لِجَامًا» لا لِجَانًا؛ لأنها صارت لِجَامًا يمنع الحق وأهله، ويفسح المجال للجهلاء؛ بل وللمفسدين أن يسرحوا فيها ويمرحوا كيف شاءوا، والعياذ بالله.

٣٩- ومنهم من هواه مع تجميع الناس وجمهرتهم، ولو على الباطل ومخالفة السنة الصحيحة الصريحة؛ فالمقصود عنده التجميع، وليس القيام بالحق، بدعوى توحيد الكلمة ودرء ما يسمونه بالفتنة، والتي عندهم مطلق الاختلاف، بغض النظر عما هو على الحق وما هو على الباطل، وما علم هؤلاء أنهم على ضلالة، والعياذ بالله.

بل ومنهم من يتخذ من الخلاف دينًا والعياذ بالله؛ فما أن يجد خلافا

في مسألة ما، أيًا كان ذلك الخلاف، ولو كان الباطل فيه بيّنًا، والحق فيه كالشمس في رابعة النهار؛ مَنَعَ الإنكار على المخالفين للهدي النبوي القويم، بدعوى أنَّ في المسألة خلافًا، عيادًا بالله من الخذلان، فيكفي عند هؤلاء المبطلين أن يُثَبِّتُوا خلافًا في المسألة؛ ليسارعوا إلى المنع من الإنكار مطلقًا؛ بل وتوبيخ المُنْكَرِ، والوقوف مع المُنْكَرِ عليه في خندق باطله وضلاله؛ عيادًا بالله من الهوى وأتباعه، والله المستعان.

طريقة السلف في الإنكار:

واعلم، رحمك الله تعالى، أن السلف كانوا أشدَّ ما كانوا في الإنكار، عندما تتعلق المنكرات بالعقيدة والتوحيد؛ ولهذا ترى أن إنكارهم في مسائل الفروع والاختلافات الفقهية؛ أقل بكثير من حالهم مع البدع والشبهات، والضلالات العقدية.

فلتنبه لهذا المقام؛ فإن أقوامًا يخادعون الناس، ويخلطون الأوراق؛ فيذكرون تَسْمُحَ بعض السلف وعدم تشديدهم في بعض مسائل الفروق الفقهية؛ ليبرروا ويمرروا مسائل البدع والضلالات والشبهات العقدية؛ بغية توسيع الماعون، وإدخال جميع فرق الضلال في أهل السنة والجماعة، بدعوى أنه لا إنكار في مسائل الخلاف.

ولا شك أن هذا من التخبُّط والضياع، الذي ورثته الأمة في هذه الأزمنة المتأخرة عن جماعة الإخوان المسلمين، الذين من أصول فكرهم ومذهبهم؛

البحث عن مبررات لمشاكل وفتن الواقع، والرضوخ للحالة السائدة العامة في المجتمعات الإسلامية؛ بل والعالمية، ثم البحث الجاد عن التخريجات والترقيعات لهذا الواقع المُرّ؛ فتربى أتباعهم ومَن اغترَّ بهم، وكثيرًا من أفراد الأمة، على أنه ليس الشأن أن نصيب الحق ونقصده ونُقَب عنه؛ بل المهم أن نثبت أن في المسألة خلافًا ولو شاذًّا؛ حتى نُصَوِّب الجميع، ويسكت الكلّ، ولا نُحدث فتنة؛ فالكل إذاً عندهم مصيب، والكل له نصيب؛ فحصل التخليط العظيم في دين الله تعالى، في الأصول والفروع، واختلَّت المبادئ، وصارت هذه الجماعة تَتَّظِمُ في داخلها طوائف من المبطلين والضالين، كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة والمرجئة والخوارج؛ بل حتى المشركين، والبعثيين والمارونيين، والنصارى، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فَهَمَّتْهُمْ مَصْرُوفَةٌ إِلَى تَحْقِيقِ تَوْحِيدِ الْكَلِمَةِ، لَا إِلَى تَحْقِيقِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ.

حتى جعلوا المعيار هو الإنسانية لا الإيمان والكفر؛ فقبلوا الملاحدة والدهرية والشيوعيين، وسَوَّوْا بَيْنَ الرافضة وأهل السنة، وبين الأبرار والفجار، وبين اليهود والنصارى الكفار الفجار وبين المسلمين، وَسَمَّوْهُمْ إِخْوَانَهُمْ، وَصَدَّقُوا إِذَ الْقُرْآنَ قَدْ بَيَّنَّ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ إِخْوَةُ الْكَافِرِينَ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أَخْرَجْتُمُنَا لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ

لِيُولِّكَ الْآذِينَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ [الحشر: ١١ - ١٣].

٤٠- ومنهم مَنْ هواه مع عرقلة الدعوة إلى الله تعالى، بوسائل شتى
ملتوية وأخرى صريحة، والعياذ بالله؛ لأنه لا يحب الاستقامة؛ بل يريد
تمرير هواه، والعياذ بالله.

ومنهم مَنْ يعترض الدعوة وبيان الحق للناس بشبهة: أهم شيء الأسلوب.
فتراه ينتقد كل داعية يأتي بما لا يوافق هواه؛ بأن أسلوبه لم يكن مناسباً،
والعجيب أن هذه الشبهة انطلت على كثير من الناس، حتى على بعض حَمَلَةِ
الحق وأنصار الهدى؛ حيث أثرت فيهم هذه الشبهة، لكثرة ضحها من قِبَلِ
المبطلين، وترويجهم لها، وهي من كلمة الحق التي يراد بها الباطل.

نعم، لاشكَّ أنَّ أسلوب الدعوة أمر مطلوب ومهم للغاية، ولكن ما
هو حدود هذا الأسلوب وما ضوابطه، لا شكَّ أنَّ الإجابة القاطعة
الحاسمة، التي يجب المصير إليها، لو أننا أردنا الهدى لا الهوى؛ أنه هو ما
كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأئمة الهدى مِنْ بعدهم، الذين
اتبعوهم بإحسان، وتلك هي سبيل المؤمنين.

وعليه؛ فمتى ما استعمل صاحب العلم والدعوة أحد الطرق، التي دل
عليها سبيل المؤمنين، وحرص على نفع الناس بذلك، بحيث اجتهد رأيه فيما
هو الأنفع لهم مِنَ الأساليب الدعوية، التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه

الكرام وأئمة الهدى؛ فلا شك أنه قد أصاب، إلا أن يكون قد خالف سبيل المؤمنين؛ بحيث وضع الشدة مكان اللين أو العكس، في مسألة نصّت الأدلة على أن المشروع فيها هو استعمال أسلوب معين، أو أن يثبت كونه منتصراً لنفسه، لا للحق والهدى، أما ما عدا ذلك، فغاية ما يقال فيه: إنه يدور بين الأجر والأجرين، وإن خالفه غيره.

ثم يُقال لهؤلاء الذي يتكلمون بهذه الشبهة: هَبْ أَنْ هذا أو ذاك الداعية أخطأ في الأسلوب، ولكنه تكلم بالحق، فما هو الواجب عليكم عندها، هل الإعراض مع الاعتراض على الأسلوب، أم قبول الحق الذي تكلم به مع الاعتراض على الأسلوب؟

إنَّ المتأمل ليجد أنَّ كثيراً من هؤلاء يعترضون على الأسلوب، ولا يقبلون الحق، ولا يعملون به، ولو بعد ذهاب المتكلم به؛ وعليه فهم إنما أرادوا الاعتذار عن قبول الحق، فتعلقوا بمسألة الأسلوب، ليردوا الكلام والمتكلم به، ويعرضوا عن الحق من خلال انتقاد حامله، ولا شك أن هذا مسلك شيطاني، وأنه من كلمة الحق التي أُريدَ بها الباطل.

فهذا هو المعيار إذاً:

هل ستقبل الحق وإن ساء الأسلوب، أم أنك ستتردّد الحق على كل حال ولو جاءك بأحسن أسلوب؟

هنا يتبين صاحب الهوى من طالب الهدى.

وتأمل كيف أن الله تعالى قد أتى رسله ما على مثله يؤمن البشر، وأوتوا المثل الأعلى في الأساليب الدعوية؛ ومع ذلك أعرض أكثر الناس، ولم يقبلوا هدى الله الذي أرسل الله تعالى به رسله، صلوات ربي وسلامه عليهم.

كما قال تعالى: ﴿نَلَكَ الْفَرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠١، ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٣-١٠٦].

٤١- ومنهم من هواه مع نشر الشحنة والبغضاء، بالباطل والغيبة والنميمة، وتأليب الناس بعضهم على بعض؛ فهو لا يرتاح ولا يهدأ إلا في جو من الشحنة والبغضاء، فكلما كان الناس في حالة اختلاف وشحنة وبغضاء، كان هو في حالة سعادة بذلك؛ والعياذ بالله من سواد القلوب، وخبيث الأخلاق والخصال!

٤٢- ومنهم مَنْ هواه مع تزويج بناته، دون اعتبار ولا نظر لدين الخاطب الذي يريد نكاحها، وهذا كثير اليوم؛ إذ المعتبر عند الأكثرين هو حالة الخاطب المادية والاجتماعية، وإن كان فاجراً فاسقاً عريداً، أو كان عقلاً زنديقاً، أو علمانياً مرتداً، أو شيوعياً مارقاً، أو جهمياً ملحدًا، أو ديوثاً ماجناً، أو مبتدعاً ضالاً؛ مرجئاً كان أو أشعرياً، أو قدرياً أو خارجياً، أو غير ذلك من أنواع الضلالات والموبقات، كَمَنْ يُصِرُّ على مشاهدة الأفلام والمسلسلات عبر أجهزة الدمار الشامل، عبر شاشة العجل الفضوي، من تلفاز وديجيتالات وموبايلات عبر الانترنت وغيره؛ فيتابع صُورَ النساء الكاسيات العاريات، وَيَكَلِّهُنَّ لمشاهير الفن الخبيث، من المتهتكات والماجنات ويتعلق بهن^(١)، وتراه مخالطاً للنساء المتبرجات، ويأنس بهن ويضاحكهنَّ، ويخلو بهن ويصافحهن، ويتعاطى السجائر، ويسمع الأغاني بالموسيقى^(٢)، وَيُسَبِّلُ إزاره^(٣) ويحلق

(١) راجع كتابي «أجهزة الدمار الشامل»، لتقف على خطورة هذه الأجهزة المدمرة،

وعظيم المكر الذي يَدُسُّه الأعداء عبرها لأمة الإسلام، ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً.

(٢) راجع تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ٦ وَإِذَا نُنَادَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ [لقمان: ٦، ٧].

(٣) أحاديث تحريم الإسبال والتغليب فيه متواترة عن النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وقد جاءت

عامة دالة على تحريم الإسبال بكل أحواله؛ بلا تفريق بين مخيلة وغيرها، وهكذا فهم

الصحابه رضي الله عنهم، فلم يقل أحد منهم إنه يجوز الإسبال إن كان بغير مخيلة، أي بغير كبر،

ويحرم فقط إن كان مع المخيلة، والصحابه رضي الله عنهم هم علماء الأمة الكبار الذين رضي الله عنهم ورضوا

لحيته^(١)، ويحلق رأسه على طريق القصّات الغربية وهو المعروف في الشرع بالقزع^(٢)، كل هذا أو غيره لا يهم هؤلاء الأولياء؛ إذ المهم عندهم

= عنه، ومات النبي ﷺ وهو عنهم راض، وجعلهم أماناً لأمتهم، وخير قرون أمتهم، وفهمهم يُمثّل سبيل المؤمنين الذي أمرنا باتباعه، وحذّرنا الله تعالى من مُشاقّة سبيلهم، فلا تغتر بما ذهب إليه بعض أهل العلم من ترفيق ذلك، والتفريق فيه بين المخيلة وغيرها.

(١) أجمع المسلمون على فرضية إعفاء اللحية، وتحريم جَرِّها وإزالتها، كما نقل إجماعهم ابن حزم في كتابه «مراتب الإجماع»؛ حيث قال: «واتفقوا أن حلق جميع اللحية مُثَلَّة لا تجوز، وكذلك الخليفة والفاضل والعالم»، كما أن حلقها أو التلاعب بها من التشبه بالمشرّكين والمجوس، فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «خالفوا المشركين؛ وقرّوا اللّحي، وأحفوا الشّوارب» متفق عليه، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جُرِّوا الشّوارب، وأزْحُوا اللّحي؛ خَالِفُوا المَجُوسَ» أخرجه مسلم، كما أن إعفاءها من فِطْرَةِ الرّجال، وحلقها مُخَالَفَةٌ لِفِطْرَةِ الله التي فطر الرّجال عليها، كما أن حلقها تشبه بالنساء، وقد لعن رسول الله ﷺ المخشّين من الرجال، وهم المشبهون بالنساء، كما صرحت بذلك الأخبار.

ومن العجائب أن فرعون وأبا جهل لعنهما الله؛ كانت لهم لحي لعلمهم أنها من سيما الرجال، في حين أنك ترى بعض أتباع النبي ﷺ يحلقونها، مع أن نبيهم ﷺ كان من أكثر الناس لحية؛ بل وأمر بإعفائها؛ بل وجعلها متعلقة بالعقيدة مخالفة للمشركين والكفار، فأعفاء اللحية قُرْبَةٌ وعقيدة وعبادة، قبل أن تكون رجولة وعزة، فالله المستعان، ونشكو إلى الله تعالى تَقَلُّبَ المَفَاهِيم والأحوال.

وذكر ابن عابدين في حاشيته، أنَّ من الأمور التي يَفْسُقُ بها العبد، وتُرَدُّ بها شهادته: «إِذْمَانُ حَلَقِ اللّحي؛ سواء كان عَادَةً لِأَهْلِ بَلَدِ الشَّاهِدِ أَمْ لَا».

(٢) جاء في الصحيحين، والسياق للبخاري، من طريق عُبَيْدِ اللهِ بْنِ حَفْصٍ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ نَافِعٍ أَخْبَرَهُ عَنْ نَافِعٍ مَوْلَى عَبْدِ اللهِ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يَقُولُ: سَمِعْتُ

أَنْ يَزُوجَهَا فَحَسَبَ، بِأَيِّ سَبِيلٍ كَانَ، وَيَكْفِي عِنْدَهُمْ فِي ذَلِكَ أَنْ هَذَا الْخَاطِبُ يَنْطِقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَيُصَلِّي، وَبَعْضُهُمْ يَكْتَفِي بِالشَّهَادَتَيْنِ فَحَسَبَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُصَلِّينَ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِمَا عَلَيْهِ هَذَا الْخَاطِبُ مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ الرَّدِيَّةِ، فَالْمَهْمُ عِنْدَهُمْ، كَمَا تَقَدَّمَ، هُوَ حَالَةُ الْخَاطِبِ الْمَادِيَةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ، يَقْطَعُ النَّظَرَ عَنْ حَالَتِهِ الدِّينِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وربما طرأ ذلك على الزوج لاحقاً، بعد أن يُزَوَّجَ؛ حيث ينتكس الزوج، وينحرف عن الصراط المستقيم؛ فيصبح داعية إلى أحد هذه الضلالات أو بعضها أو كلها، عياداً بالله؛ فيفسد دين زوجته وأبنائه، ويخرب فطرتهم وتصوراتهم، فلا يكثرث الأولياء لذلك، مع تَعَنُّتِ الزوج، وعدم قبوله للنصح والإرشاد؛ بل هو ماضٍ قُدُماً في غِيِّهِ وضلاله وانحرافه؛ بل وربما صار يُشْرِعُهَا وَيُنْتَحِلُهَا دِينًا، مُتَّبِعًا لِرِزَالَتِ بعض أهل العلم، زاعماً اتباعه لفتوى من هنا أو هناك، فلا يلتفتون إلى هذه الزندقة التي صار إليها هذا الزوج، حرصاً منهم على إبقاء الحياة الزوجية بينهما، ولو مع هذه الخبائث والموبقات والضلالات؛ بل والكفریات، وربما اعتذروا بوجود

= رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْهَى عَنِ الْقَرْعِ، قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ: قُلْتُ: وَمَا الْقَرْعُ؟ فَأَشَارَ لَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ قَالَ: إِذَا حَلَقَ الصَّبِيُّ، وَتَرَكَ هَاهُنَا شَعْرَةً، وَهَاهُنَا، وَهَاهُنَا، فَأَشَارَ لَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ إِلَى نَاصِيَتَيْهِ وَجَانِبَيْ رَأْسِهِ، قِيلَ لِعُبَيْدِ اللَّهِ: فَالْجَارِيَةُ وَالْغُلَامُ قَالَ: لَا أَذْرِي هَكَذَا قَالَ: الصَّبِيُّ، قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ: وَعَاوِذُهُ فَقَالَ: أَمَّا الْقَصَّةُ وَالْقَفَا لِلْغُلَامِ فَلَا بَأْسَ بِهِمَا، وَلَكِنَّ الْقَرْعَ أَنْ يُتْرَكَ بِنَاصِيَتَيْهِ شَعْرٌ، وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ غَيْرُهُ، وَكَذَلِكَ شَقَّ رَأْسُهُ هَذَا وَهَذَا.

أولاد بينهما، فَيَجْنَحُونَ إِلَى العاطفة وينسون أَنَّ الدِّينَ أَهمُّ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَنَّ مسألة ضياع دينهم، أولى أَنْ يُعْتَنَى بها مِنْ مسألة ضياع دنياهم، مع أَنَّ الدِّينَ لا يَأْتِي إِلَّا بالخير، ولكنه سوء الظن بالشرع، والعياذ بالله؛ بل إِنَّ صلاح دينهم هو سبب صلاح دنياهم وأخراهم، ولكن أكثر الناس يجهلون هذه الحقيقة العظمى، المسطرة في الكتاب والسنة، وعمل الصحابة رضي الله عنهم.

وكذلك يفعلون إذا ما وقع طلاق بينهما، وخرجت الزوجة من عدتها، فأصبح زوجها الأول أجنبيًّا عنها تمامًا، ثم يَأْتِي بعد فترة متقدِّمًا لها، خاطبًا إياها لينكحها مرة أخرى، فيسارع الأولياء إلى تزويجه، بدعوى ما كان بينهما من الحب والعلاقة، أو بسبب ما بينهما من الأولاد، مع بقاء هذا الخاطب على ما كان عليه من الزندقة أو الانحراف والضلال، وكل هذا مِنْ خيانة الأمانة وتضييع الرعية، وَمِنْ اتباع الهوى دون الهدى، والعياذ بالله.

وربما احتجوا بآية العَصْلِ في سورة البقرة، ليرجعوها إليه على كل حال، وإن كان ما كان مِنَ الطوام والبلايات العظام، التي مازال هذا الخاطب مقيمًا عليها، ينافح عنها؛ بل ويشرعنها ويدعو إليها، عيادًا بالله.

وآية العَصْلِ هي قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَلِكَمُ أَرْكَى لَكُمْ وَطَهُرٌ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: ٢٣٢].

ويظنون أَنَّ الْعَضْلَ مِنْهُيٌّ عَنْهُ مطلقاً على كل حال، ويقولون يكفي تراضي المرأة والخاطب لها وهو زوجها السابق، ونسي هؤلاء القيدَ العظيم، الذي قيد الله تعالى به النهي عن العضل، وجعل الاعتبار به شرطاً في ذلك؛ وهو قوله تعالى: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ .

والمعروف هو ما دل عليه الشارع، وحكم له بأنه معروف؛ لا ما وقع عليه مطلق التراضي بينهما، وإن كان مخالفاً للشرع.

وليت شعري! أي معروف في خاطب هذا حاله من الضلال والانحراف؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى: «وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحْنَ أزواجهنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وَقَوْلُهُ هُنَا: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ لَوْ رَضِيَتْ بِغَيْرِ الْمَعْرُوفِ؛ لَكَانَ لِلأُولَيَاءِ الْعَضْلُ، وَالْمَعْرُوفُ تَزْوِيجُ الْكُفِّ» انتهى.

وجاء في «رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام» للفاكهاني: «لا خلاف منصوص أن للزوجة وللمن قام لها؛ فسُخَّ نكاح الفاسق» انتهى.

وجاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: «وَلَا يَنْبَغِي لِلزَّوْجِ أَنْ يُرَوِّجَ مُوَلَّيَّتَهُ إِلَّا التَّقِيَّ الصَّالِحَ».

اختيار الزوج:

يجب على الولي أن يختار لكريمته الرجل الصالح؛ فيزوجها من صاحب الدين، والخلق الحسن، والمعدن الطيب، والنسب الشريف،

الصالح التقي، الذي إن أَحَبَّهَا أَكْرَمَهَا، وإنْ أَبْغَضَهَا لَمْ يَظْلِمَهَا.

ولا يجوز للولي أن يزوج كريمته من الفاجر، أو الظالم، أو الفاسق، أو المبتدع، أو شارب الخمر، ومن فعل ذلك فقد تعرض لسخط الله، وجنى على المرأة، وتسبب في قطع رحمها، وخان الأمانة.

١ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ، فَرَّوْجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ»، أخرجه الترمذي^(١).

٢ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَحْدُوثُ النَّاسِ

(١) جاء في «المسند المصنف المعلن»: «قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وأبو حاتم المزني له صحبة، ولا نعرف له عن النبي ﷺ غير هذا الحديث. أخرجه أبو داود، في «المراسيل» قال: حدثنا قتيبة بن سعيد، قال: حدثنا الليث، عن ابن عجلان، عن عبد الله بن هرمز اليماني؛ أن رسول الله ﷺ قال؛ بمعناه، قال: فراجع الناس، فرددها ثلاث مرات.

قال أبو داود: قد أسنده عبد الحميد بن سليمان، عن ابن عجلان، وهو خطأ. قال الترمذي: رواه حاتم بن إسماعيل عن ابن هرمز، عن ابني عبيد، عن أبي حاتم المزني، قال محمد، يعني البخاري: وأبو حاتم المزني له صحبة، ولا أعرف له غير هذا الحديث، وسألته عن اسم أبي حاتم فلم يعرفه. «ترتيب علل الترمذي»، وقال ابن أبي حاتم الرازي: أبو حاتم المزني، روى عن النبي ﷺ قال: «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ فَأَنْكَحُوهُ». روى حاتم، عن عبد الله بن هرمز، عن محمد، وعبيد ابني سعيد، عنه. قال ابن أبي حاتم: سمعت أبا زرعة يقول: لا أعلم لأبي حاتم حديثاً غير هذا، ولا أعرف له صحبة. «الجرح والتعديل» انتهى.

مَعَادِنَ، خِيَارُهُمْ فِي الْبَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، إِذَا فَقَّهُوا» متفق عليه.

وجاء في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ
بْنِ جَعْفَرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، قَالَا: ثنا أَبُو يَعْلَى، ثنا عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ يَزِيدَ،
قَالَ: سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَّاضٍ، يَقُولُ: «مَنْ أَعَانَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ؛ فَقَدْ أَعَانَ
عَلَى هَذِهِ الْإِسْلَامِ»، قَالَ: وَسَمِعْتُ رَجُلًا قَالَ لِلْفُضَيْلِ: مَنْ زَوَّجَ كَرِيمَتَهُ مِنْ
فَاسِقٍ؛ فَقَدْ قَطَعَ رَحِمَهَا.

وجاء في شعب الإيمان للبيهقي: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ، أَنَا أَبُو حَامِدٍ
الْحَسَنِيُّ، نَا أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ، نَا الْحُسَيْنُ بْنُ حُرَيْثٍ، أَنَا الْفُضْلُ بْنُ مُوسَى،
عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ الصُّرَيْسِ، عَنِ الْخَلِيلِ بْنِ زُرَّارَةَ، عَنْ مُطَرِّفٍ، عَنِ
الشَّعْبِيِّ، قَالَ: «مَنْ زَوَّجَ كَرِيمَتَهُ مِنْ فَاسِقٍ؛ فَقَدْ قَطَعَ رَحِمَهَا».

وجاء في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي: أَخْبَرَنَا
الْحَسَنُ بْنُ عُثْمَانَ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ، ثنا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ، قَالَ: ثنا
عَبْدُ الصَّمَدِ مَرْذُوقِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ لِلْفُضَيْلِ: مَنْ زَوَّجَ كَرِيمَتَهُ مِنْ
فَاسِقٍ؛ فَقَدْ قَطَعَ رَحِمَهَا، فَقَالَ لَهُ الْفُضَيْلُ: «مَنْ زَوَّجَ كَرِيمَتَهُ مِنْ مُبْتَدِعٍ؛ فَقَدْ
قَطَعَ رَحِمَهَا».

وجاء في «فتح الباري» لابن حجر: «(قوله باب الأكفاء) في الدين
جمع كُفٍّ، بضم أوله، وسكون الفاء، بعدها همزة: المثل والنظير، واعتبار
الكفاءة في الدين متفق عليه» انتهى.

وجاء في «غريب الحديث» للخطابي: «وأخبرنا ابن الأعرابي أخبرنا سعيد بن بشر بن جحوان الحارثي أخبرنا طلق بن غنام، قال: خرج حفص بن غياث يريد الصلاة، وأنا خلفه، فقامت امرأة حسناء فقالت له: أصلح الله القاضي، زوجني فإن لي إخوة يُضْرُونَ بي، قال: فالتفت إليّ فقال: يا طلق، اذهب زوجها، إن كان الذي يخطبها كُفْتًا، فإن كان يشرب النبيذ حتى يسكر؛ فلا تزوجه، وإن كان رافضيًّا؛ فلا تزوجه» انتهى.

قلت: فَمَثَلٌ هنا للفاسق بشارب النبيذ، وللمبتدع بالرّافضي، وهو ما ذكره العلماء عامًّا فيما تقدم، ليدخل فيه جميع أنواع الفسق والبدعة.

وجاء في بستان «الأخبار مختصر نيل الأوطار»: «قَالَ الشَّارِحُ رحمه الله تعالى: قَوْلُهُ: «مَنْ تَرَضَّوْنَ دِينَهُ وَخُلِقَهُ»، فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى اعْتِبَارِ الْكِفَاءَةِ فِي الدِّينِ وَالْخُلُقِ، وَقَدْ جَزَمَ بِأَنَّ الِاعْتِبَارَ الْكِفَاءَةَ مُخْتَصٌّ بِالدِّينِ؛ مَالِكٌ، وَنُقِلَ عَنْ عُمَرَ وَعُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَمِنْ التَّابِعِينَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمُ﴾ * وَاعْتَبَرَ الْكِفَاءَةَ فِي النَّسَبِ الْجُمْهُورُ. قَالَ فِي الْفَتْحِ: وَاعْتِبَارُ الْكِفَاءَةِ فِي الدِّينِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، فَلَا تَحِلُّ الْمُسْلِمَةُ لِكَافِرٍ. قَالَ الْخَطَّابِيُّ: إِنَّ الْكِفَاءَةَ مُعْتَبَرَةٌ فِي قَوْلِ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ: الدِّينِ، وَالْحُرِّيَّةِ، وَالنَّسَبِ، وَالصَّنَاعَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ اعْتَبَرَ السَّلَامَةَ مِنَ الْعُيُوبِ، وَاعْتَبَرَ بَعْضُهُمُ الْيَسَارَ. قَالَ الشَّارِحُ: وَمِنْ جُمْلَةِ الْأُمُورِ الْمُوجِبَةِ لِرِفْعَةِ الْمُتَّصِفِ بِهَا؛ الصَّنَائِعُ الْعَالِيَةُ، وَأَعْلَاهَا عَلَى

الإِطْلَاقِ: الْعِلْمُ، لِحَدِيثِ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ» انتهى.

وجاء في «الروضة الندية شرح الدرر البهية»: «قال رسول الله ﷺ: إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه؛ فزوجوه؛ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، قال في الحجة البالغة: أقول: ليس في هذا الحديث أن الكفاءة غير معتبرة، كيف وهي مما جُبِلَ عليه طوائف الناس، وكاد يكون القدح فيها أشد من القتل، والناس على مراتبهم، والشرائع لا تُهْمَلُ مثل ذلك، ولذلك قال عمر: «لأمنعن النساء إلا من أكفأهن»، ولكنه أراد ألا يتبع أحد محقرات الأمور، نحو قِلَّةِ المال، وورثاة الحال، ودمامة الجمال، أو يكون ابن أم ولد، ونحو ذلك من الأسباب، بعد أن يرضى دينه وخلقه، فإن أعظم مقاصد تدبير المنزل الاصطحاب في خلق حسن، وأن يكون ذلك الاصطحاب سبباً للصالح الدين.

وقال في المسوئ في باب الكفاءة: قال الله تعالى ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ وقال تعالى ﴿ أَهَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحَارًا ﴾ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ، قلت: هذه الآيات تدل على تفاوت مراتب الناس، وإن ذلك أمر ثابت فيهم، ولم يرده الله تعالى، فكان تقريراً، ثم اختلفوا في تحديد المعاني التي يقع بها التفاوت؛ فذهب أكثرهم إلى أنها أربعة: الدين، والحرية، والنسب،

والصناعة، والمراد من الدين الإسلام والعدالة، واعتبر الشافعي السلامة من العيوب المثبتة للخيار أيضًا.

ومعنى اعتبار الكفاءة عند أبي حنيفة؛ أن المرأة إذا زوجت نفسها من غير الكفء فلا أولياء أن يفرقوا بينهما، وعند الشافعي أن أحد الأولياء المستوين، إذا زوجها برضاها من غير كفء لم يصح، وفي قول يصح، ولهم الفسخ إذا زوج الأب بكرًا صغيرة أو بالغة بغير رضاها، وفيه القولان أيضًا. انتهى. أقول: قوله ﷺ: «من ترضون دينه وخلقه» فيه دليل على اعتبار الكفاءة في الدين والخلق، وقد جزم بأن اعتبار الكفاءة مختص بالدين مالك، ونقل عن عمر وابن مسعود، ومن التابعين عن محمد ابن سيرين وعمر بن عبد العزيز، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾، واعتبر الكفاءة في النسب الجمهور... إلى أن قال:

قال في الفتح: «واعتبار الكفاءة في الدين متفق عليه، فلا تحل المسلمة لكافر» انتهى. وأعلى الصنائع المعتبرة في الكفاءة في النكاح على الإطلاق العلم؛ لحديث: «العلماء ورثة الأنبياء» انتهى.

وجاء في «مجلة البحوث الإسلامية»: «ومما يشرع للمولى أن يختار لموليته الرجل الصالح التقى، ولو لم يكن غنيًا أو وجيهاً؛ فإن في ذلك إحسانًا إلى المرأة، وعناية بمستقبلها، وسلامة دينها، وأن الرجل الصالح يصون دين المرأة، ويمنعها مما يشينها، ويساعدها على الاستقامة والصلاح، مع

ما في ذلك من طاعة للرسول ﷺ في قوله: «إذا أتاكم من ترضون دينه، وأمانته، فزوجوه، إن لا تفعلوا تكن فتنه في الأرض وفساد كبير»، ومن كمال النصح لموليته أن يبحث لها هو بنفسه عمن يصلح زوجاً لها، فقد فعل مثل ذلك بعض السلف الصالح، كما ثبت عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه عرض على أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان رضي الله عنهما؛ الزواج من ابنته حفصة بعد وفاة زوجها، لعلمه رضي الله عنه بصلاحهما وتقواهما، ومنزلتهما في الإسلام» انتهى.

٤٣- ومنهم من هواه مع إعانة الطاغوت على طغيانه وكفره، وظلمه وضلاله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَنَ وَخَنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨]، ولما وقعت المحنة للإمام أحمد في فتنه القول بخلق القرآن، وثبت فيها ثباتاً عظيماً كالطود العظيم، وناظر وجادل بالحق، ونصره الله تعالى بالبيان والبرهان على الجهمية في ذلك الزمان، وناله من البلاء ما ناله، وذلك في ذات الله تبارك وتعالى، حتى ضرب ضرباً شديداً، حتى تضرر بذلك ضرراً بالغاً، وسجنه الخليفة زماناً، لعله أن يُقْلَعَ أو يترجع؛ فأبى إلا الصمود، والوفاء بعهد الله والميثاق؛ إذ رأى أنه لا يسهه أن يستعمل التَّقِيَّةَ، ولا الاعتذار بالإكراه، وبينما هو في هذه الحال الشديدة، إذ جاءه السجنان، وكأنه قد استشعر عظيم المظلمة التي وَقَعَتْ على هذا الإمام الكبير، وكيف أنه قد أُوذِيَ في الله تعالى وسجن، وما كان لمثله أن يُفْعَلَ به مثل هذا، فإنما السجن للمجرمين والقتلة، والمفسدين في الأرض،

لا للعلماء والدعاة والمصلحين، فكأن ضميره أثَّبه، ونفسه عاتبته، فأراد أن يجد لنفسه مخرجاً من هذه الورطة، فقال للإمام أحمد: يا أبا عبد الله، هل أنا من أعوان الظلمة؟ فقال له الإمام أحمد: لا؛ بل أنت من الظلمة.

الطيور على أشكالها تقع:

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

[الإسراء: ٨٢ - ٨٤].

فلتفكر في هذه الآية: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾.

فصاحب الهدى يُشاكِلُه الهدى؛ أي يناسبه ويوافقُه، ويميلُ إليه وينويه، وهو يبحث عن الهدى وهو طبيعته، فهو يحبه ويأنسُ به ويركُنُ إليه، وصاحب الهوى مع الهوى كذلك والعياذ بالله، نسأل الله تعالى أن يجعل الهدى شاكِلتنا، طبيعة ودعوة، وطلبًا وحُبًّا، ومنهجًا، وحياة ومماتًا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

جاء في تفسير ابن كثير: «قال قتادة في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه، ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢)؛ إنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله

جعل هذا القرآن شفاء، ورحمة للمؤمنين.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۖ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ۖ﴾ (٨٤).

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم الله تعالى في حالتي سرائه وضرائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد؛ أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه، قال مجاهد: بُعد عنا. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ، مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وبأنه إذا مسه الشر، وهو المصائب والحوادث والنوائب؛ ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ (٨٤) أي: قَطَطَ أَنْ يَعُودَ، يَحْصُلُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرْاءٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) ﴿هود: ١٠، ١١﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ ، قال ابن عباس: على ناحيته، وقال مجاهد: على حدته وطبيعته، وقال قتادة: على نيته، وقال ابن زيد: دينه.

وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، وهذه الآية، والله أعلم، تهديد للمشركين ووعد لهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى

مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٣٢﴾ [هود: ١٣١، ١٣٢]؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ ﴿٨٤﴾ ، أي: منا ومنكم، وسيجزي كل عامل بعمله؛ فإنه لا تخفى عليه خافية».

المحافظة على الكرامة في المحافظة على التقوى:

اعلم رحمك الله وأرشد، أن حقيقة كرامة الإنسان؛ إنما تكون بمحافظته على تقواه لله تعالى؛ إذ هذا هو سرُّ كرامته، وإنما نبّهت على هذا؛ لعظيم أهميته؛ ولأن كثيراً من الناس يخطئ في تحديد وتقدير ماهية الكرامة، التي ينبغي أن يقوم بها ابتداءً ويغضب لها انتهاءً؛ فإننا نجد أن أقواماً يغضبون غضباً شديداً في جملة من المواقف، ويكون الدافع لهم على ذلك؛ أن كرامتهم قد جُرّحت وانتهكت، ولا بد أن يعملوا على الانتصار لها، ورد اعتبارهم عندها، مع أن بعض هذه المواقف تكون خاطئة آثمة؛ وذلك عندما يغضب على من يقول له: اتق الله تعالى، في منكر قد وقع فيه، أو أنكر عليه عملياً، في سوء عمل قد وقع فيه وزُين له، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

والأدلة في تقرير معنى الكرامة الحقيقي كثيرة، ولكنني سأذكر آية

جامعة في هذا الصدد؛ ألا وهي قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

فقد قررت الآية اختلاف الناس من جهة خلقهم، ومن ناحية حالهم الاجتماعية، ثم حسمت الآية موضوع الكرامة، وأنها إنما تكون للمتقين، فهم أولى الناس وأحقهم بها.

فابحث، أيها الإنسان، عن كرامتك في التقوى، وانظر كم فيك من التقوى، لتعلم كم عندك من الكرامة، ثم اسع في تكثيرها، والقيام بها، والانتصار لها، والله الهادي إلى سواء السبيل.

جاء في صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعرى قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ، أَوْ تَمْلَأُ، مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حَبَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ؛ فَمُعْتَقٌ أَوْ مَوْيِقٌ».

دُورٌ ومؤسسات لتعميم الهوى، وتخرج أفواج العاملين به؛ والمقصود بها تلك الجامعات والكليات والمعاهد والمدارس؛ التي تعلّم الناس الأهواء المحرمة، أو تلك التي تعلمهم العلوم الضارة، أو

التي تعلمهم العلوم النافعة وعلى رأسها علوم الشرعية، ولكن ليمكروا بها بدين الله تعالى، ويفرقوا بها كلمة المسلمين وينشروا بينهم الإرجاف، وليُدَجِّنُوهُمْ للسلاطين والحكام المارقين، من طواغيت العالم الذين بدلوا دين الله، واتخذوه لهوًا ولعبًا، والعياذ بالله.

وهذه الدُّور والمؤسسات يرعاها الطواغيت، وينفقون عليها أموالًا طائلة، وربما أعطوا خريجيها رتبًا أُمِّيَّةً وعسكرية؛ بل وهناك كليات أُمِّيَّة، تدرس فيها العلوم الشرعية بالتأصيل والتفصيل، ليتخرج منها مُفْتُونَ مَفْتُونُونَ، يُفْتُونَ على حسب ما يطلب الطواغيت، وليجعلوهم حربًا على أهل العلم الربانيين، وعلى المجاهدين الصادقين، فيصدرون الفتاوى المُعَلَّبة، المفصلة على هوى الطواغيت ومزاجهم، والتي يَرْمُونَ فيها أهل العلم والجهاد بالعظائم، قاتلهم الله أنى يؤفكون! وعليهم من الله ما يستحقون، لا كثرهم الله.

الاستعمار باق لم يخرج:

وإنَّ من الخداع الكبير الذي يعيشه كثير من أهل الإسلام؛ اعتقادهم أنهم قد طَرَدُوا المستعمر، وأنهم قد نالوا حُرِّيَّتَهُم، وحرَّزُوا بلادهم وأوطانهم من الاستعمار.

ولا شك أن هذه كذبة كبيرة، وَهُمْ عَظِيم، تعيشه الشعوب والمجتمعات الإسلامية اليوم.

ألا فلنعلم أننا ما زلنا نَرزُحُ تحت نير الاحتلال والاستعمار، فإنَّ الكفار عندما خرجوا مِن بلادنا لم يخرجوا بكفرهم معهم؛ بل خرجوا بأبدانهم، وأبقوا فينا كفرهم المتمثل في تلك القوانين الجاهلية، والتشريعات الوثنية، التي يسمونها بالمواثيق الدولية، تلك المواثيق التي أُتخذت مِن طَرَفٍ وجانب واحد وهو المستعمر؛ فهو الذي وضعها وأملأها وسماها، ثم أمرنا باتباعها حذو القذة بالقذة، وأوجدَ لها سَدَنَةً يحمونها؛ وهم طواغيت الحكم، الذين يحكمون بلاد المسلمين بالكفر والشرك بالله تعالى، ويجري في ركا بهم علماء منافقون، ودعاة على أبواب جهنم، وعملاء ممن يُسمَوْنَ بالمتفقين والمفكرين، وما هم إلا ماسونيين أتباع للصهيونية العالمية.

فقام هؤلاء بتنفيذ الأوامر على أكمل ما يكون؛ بل وزيادة، فمازالوا ينفخون في تلك الأعلام التي تمثل الأوطان، وهي صنعة الأمم المستعمرة، ومازالوا يعظمون تلك القوانين والدساتير الجاهلية، حتى رَئى عليها الصغير، وهرم عليها الكبير، وصارت مقدساتٍ ووطنيات، يجب الذود عنها، وعدم السماح بالمساس بها مطلقاً، تحت أيِّ ظرف، وفي أي وقت مهما كان الأمر.

فاستراح المستعمر مِن القتال، وكثرة التَّرحال والتَّجوال في الأمصار؛ حيث صار يحكمنا عن بُعد عن طريق هؤلاء الحكام، وتلك الأحكام الوضعية والدساتير الجاهلية، التي تمثل حصان طِرْوادة، يمتطيه المستعمر الكافر في جميع البلدان، والويل كل الويل لمن تسوّل له نفسه

الخروج على هذه المنظومة الدولية الكفرية.

فصرنا، للأسف الشديد، نحارب ما يحاربه المستعمر، ونُفَقِّد ونُطَبِّق ما يُريده المستعمر، ولكن هذه المرّة عن قناعة تامة بأن هذه هي الوطنية الحقّة، وأنّ هذا هو الحب الحقيقي لتراب الأوطان، وأنّ هذا يُمثِّل حُرِّيَّتنا وعِزَّتنا، فصرنا مُسْتَعْمَرِينَ في لباس مُحتَلِّين، وصرنا نحارب كل مَنْ يحاول المساس بهذه المقدسات، فَتَنَكَّرْنَا لِدِينِنَا، وشريعة نبينا ﷺ، وللجهاد في سبيل الله، والله المستعان.

ألا فلنعلم أننا لن ننال حُرِّيَّتنا إلا عندما نعبد ربَّنَا، كما يريد ربُّنا تبارك وتعالى، ونطبق شريعة نبينا محمد ﷺ في جميع مَنَاحِي الحياة، في المنشط والمكره، والعسر واليسر، وعلى أثره علينا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

[فاطر: ٢٤].

فمن كمال رحمة الله جل وعلا بعباده؛ إرسال الرسل إليهم، فما أخلى الله جل وعلا أمة من نذير، بَيِّدَ أَنَّ كل هؤلاء النُّذُر، دعواهم واحدة، فهم يدعون إلى شيء واحد؛ لأن الذي أرسلهم واحد وهو الله رب العالمين، وهو الأمر

لهم وحده لا شريك له، وقد أعلّمنا تبارك وتعالى أنه إنما أرسلهم لشيء واحد، وبشيء واحد؛ ألا وهو تحقيق عبادة الله وحده لا شريك له؛ ليعلم العباد أهمية هذا الأمر وخطورته، وأن الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي؛ بل هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل، فأمر هذا شأنه يُخلق العباد لأجله، وتنزل الكتب، وترسل الرسل لبيان، لعمري إنه لأمر جسيم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فكيف يظن ظانٌّ، أن العبادة تنحصر في النطق بالشهادتين، أو في لون من ألوان العبادات، أو شعيرة من الشعائر؟ كلا والله؛ بل إن العبادة حقيقتها صرف الحياة كلها لله الواحد القهار، والدخول في السلم كافة، وهذا هو معنى «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»؛ فإنما هي منهج متكامل للحياة، فهي معك تؤدبك، على سرير نومك، ووقت جلوسك مع أهلِكَ، وفي بيعك وشرائك، كما أنها جاءت لَتُقَوِّمَكَ في صلاتك وصيامك، وزكّاتك وحجك، كما أنها معنا في بيوتنا وطرقنا، وفي كل أحوال حياتنا؛ إنه الأمر والنهي، الذي هو حقيقة العبادة.

فحريتنا الحقيقة وعزنا الحقيقي؛ هو في تطبيق معاني ولوازم ومقتضيات كلمة الحق التي ننطق بها، ولكن بقي علينا أن نطبقها ونعمل بها حق التطبيق، والعمل إنها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ف«لا إله إلا الله محمد رسول الله» في الاقتصاد والسياسة وعلاقات الدول، وفي كل ما نأتي ونذر، إنها كلمة تقرر وتبين أن الولاء والبراء؛ إنما هو في

الإيمان بالله تعالى وحده، لا شريك له؛ فهي كلمة الحق التي جاءت لِتَهْدِمَ جميع الوثنيات والجاهليات، فهي حَرْبٌ عَلَى العلمانية، والديمقراطية، والليبرالية، والدولة المدنية، وهي تحارب القوانين والدساتير الجاهلية، وتُقرِّرُ أَنَّ الرب الذي نعبد بصلاتنا وزكاتنا؛ هو الذي نُقَرُّ بأنه هو الذي خلقنا ورزقنا، وهو نفسه الإله الذي يملكنا، وهو نفسه تبارك وتعالى الذي يحكمنا ويشرع لنا جل الله في علاه، وهذه أعظم قضية بُعثت بها الرسل، وقررها الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز وسنة نبيه ﷺ، وتأمل هذه المعاني في سورة من قصار السُّور، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣)﴾ [الناس: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾

[الأعراف: ٥٤].

المعيار الرباني لتقييم الإنسان:

واعلم، رحمك الله، أنما قيمة العبد في دينه، ومعرفته بربه، ودينه، وكتابه، ونبيه ﷺ؛ لا بشيء آخر البتة؛ فلا تغترَّ، ولا يخدعك الهوى والشيطان.

ولنتأمل في هذه الأدلة؛ لنعي ذلك حقيقة الواعي، ونُوقِن به حق اليقين:

قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعُلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَأَمْحَؤُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَنٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنْ لَكُمْ لَأَمْحَكُمُونَ (٣٩) سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا

بَشْرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ [القلم: ٣٥ - ٤١].

وقال ﷺ: ﴿أَمَّ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ﴿٢٨﴾ [ص: ٢٨].

وقال ﷺ: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ﴾ ﴿٦٤﴾

[ص: ٦٢ - ٦٤].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [الباقية: ٢١].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

وفي «صحيح البخاري» عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «مَا رَأَيْتُ فِي هَذَا؟»، فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خُطِبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشْفَعَ، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا رَأَيْتُ فِي هَذَا؟»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خُطِبَ

أَلَا يُنَكِّحْ، وَإِنْ شَفَعَ أَلَا يُسَفِّعْ، وَإِنْ قَالَ أَلَا يُسَمِّعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا».

والهوى فنون وأنواع، عباد الله؛ فمقل ومستكثر، فليفتش كل واحدٍ منا في داخله نفسه، عن هذا الهوى الذي يخالطه.

كرة القدم؛ الهوى الشيطاني، والمعشوق المعظم والكبير اليوم:

وهناك هوى لا بد أن نذكره: ألا وهو هوى «الجلد المنفوخ» الذي صار عند البعض كعجل بني إسرائيل «يتبعه كل مسلوخ»؛ ألا وهو كرة القدم، فهذا هوى كبير في حياة كثيرٍ من العباد اليوم، أُنْفِقَتْ لأجله المليارات، وأنشئت لأجله كثيرٌ من الملاعب، وفرغت لأجله كثير من الساحات والمساحات، حتى أصبح لزاماً أن من أساسيات تخطيط المدن والقرى؛ إيجادَ وتوفيرَ مواقعٍ لهذه اللعبة المشبوهة.

أموال لو أنفق ربعها فقط لَفَتَحَ فلسطين، واسترداد بيت المقدس من أيدي اليهود الغاصبين، على أيدي عباد الله الصادقين المجاهدين؛ لوقع ذلك وحصل بإذن الله جل وعلا، لكنه يُنْفَقُ اليوم وبسخاء على كرة القدم.

حتى أصبح الناس يُقَوِّمُونَ بِعُقُولِهِم التي في أقدامهم، والعياذ بالله؛ فَتُشْتَرَى الأقدام بالملايين، ويُفَرَّغُ الشبابُ أوقَاتَهُمْ لحضور هذه المهرجانات والأولمبيّات، والمباريات المحلية والعالمية، والإقليمية

والقارية، حتى لا يكاد يخلو يوم من أيام العام من مباراة هنا أو هناك، حتى تعلقت القلوب بهذه اللعبة وعشقها أكثر الناس إلا من رحمهم الله؛ بل وأصبح عشاقها يوالون فيها ويعادون؛ فَحَلَّتْ مكان عقيدة الولاء للمؤمنين، والبراء من الكافرين؛ فقادت العباد إلى حب اليهود، والنصارى، والمجوس، والشيوعيين، والذين أشركوا، والعياذ بالله.

ولقد أخبرني شاهد عيان: أن بعض المسلمين في إحدى الدول التي تُدْعَى بدولة التوحيد؛ حملوا أحد اللاعبين المعروفين على أكتافهم، وهو يلبس الصليب يلمع على صدره، وَحَمَلْتُهُ يجوبون به الملعب هنا وهناك، نعوذ بالله من الخذلان، نعم حملوه والصليب على صدره ظاهراً بيئاً، إكراماً له ألا يمشي على الأرض؛ فهذا هوئى عظيم، فالكرة اليوم، عند بعض الناس؛ طاغوت يُعبد من دون الله بِبَرَكَاتِ اليوم؛ نسأل الله العافية والسلامة.

بل وأصبح لاعبو كرة القدم هم قادة الركب، والقدرات الذين ترفع إليهم الأبصار، وتعلقت بهم الآمال، وهم المقدمون على مَنْ سواهم، حتى صارت النفوس متعلقة بتحصيل هذا المقام، والمكانة العالية في هذه المجتمعات، التي جهلت كثيراً من حدود ما أنزل الله على نبيه تبارك وتعالى؛ فترى كثيراً من الشباب يتمنون أن لو كانوا من مشاهير كرة القدم؛ فإنه سبيل سريع إلى الثراء والمكانة الاجتماعية، عبر اللهو واللعب.

ويحدثني أحد اللاعبين المشهورين، ممن تاب الله تعالى عليه من ممارسة هذه اللعبة المشبوهة، عن كثير من الممارسات الشركية؛ من سحر، وشعوذة، ودجل، وكهانة، وعرافة، واستعمال للجن في مجريات المباريات، ناهيك عن التلاعب في الصلوات، إن لم يكن تركاً لها، وهناك شرب للخمور، وهناك الفواحش وعمل قوم لوط، وعند الانتصار المزعوم؛ يلبي النادي للاعب كل ما يتمنى، ولو كان زناً؛ بل حتى عمل قوم لوط متاح مبذول هناك، نعوذ بالله من الجاهلية وعملها، وانظروا في أحوال العباد اليوم، كيف هم مع كرة القدم؟؛ لنبصر ونستبصر في هذه الحقيقة، نسأل الله العافية والسلامة.

ولنعلم أنَّ دولة اليهود الغاصبة، لا يكاد يُعرَفُ لها منتخب اليوم، إلا منتخب هزيل أوجدوه مؤخراً، لذر الرماد في العيون.

إنَّ دولة اليهود الغاصبة، ليس لديها وقت للعب بكرة القدم؛ لأنها تلعب بالعباد، فهي تتلاعب بأعراض الناس، وأموالهم، وعقولهم، وأفكارهم، ومقدراتهم، قد استَحَمَرُوا العالم، كلما نَفَقَ حمار وهلك، ركبوها آخر، فكل مَنْ سِوَاهُمْ أُمَيُّونَ، يقولون فيهم ما ذكره الله تعالى في كتابه عنهم: ﴿وَمَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِيَدِنَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ

ثُمَّ قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ [آل عمران: ٧٥ - ٧٧].

أما نحن فنلعب بالكرة، نعم نحن تفرغنا للكرة، وهم تفرغوا لنا، نسأل الله العافية والسلامة، فمتى يعي الشباب دورهم المنوط بهم؟ ومتى نعي ما يريد بنا أعداؤنا؟ ومتى يعي الشباب، أن هذه الكرة صيغت في بلاد الغرب الكافر، ونقلت إلينا لكي تزيف عقائدنا، وتجتالنا عن فطرنا، وتجعل همنا الأكبر في المنتخب الفلاني، واللاعب العلاني؛ بل قد تقاطع الأصحاب والأحباب، بسبب ما يسمى بالتشجيع والمشجعين.

وهناك تقع بلايا من مضاربات، ربما وصل إلى سفك الدماء، والعياذ بالله من هذه الأهواء المضلة.

وفي ذلك تُعقد ولاءات وبراءات؛ فربما سأل أحدهم الآخر ماذا تشجع؟ فإذا قال: أشجع كذا؛ خاصمه وأنكره؛ بل لربما صنفه عدوًّا له، والعياذ بالله.

وآخر يرتدي ثوبًا هو عبارة عن علم الفريق الذي يشجعه؛ بل وكم مات في مدرجات كرة القدم من هؤلاء المفتونين؟ وكم من إنسان ترى في وجهه ألوان الطيف كلها؛ فتارة يتسم، وتارة يقطب عن جبينه، وتارة يقعد، وتارة يقوم، وتارة يبكي حتى تشفق عليه، وتارة يضحك حتى يخر إلى قفاه، وهو مشدود متابع لهذا الخبث الشيطاني، الذي يعد اليوم من أخطر

جبايل إبليس وشباكه، التي نصبها للعباد.

أهذه حال تليق بمن قال الله تعالى لهم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]؟

ناهيك عما يقع بعد المباريات، في حالتي الانتصار أو الهزيمة، من الإزعاج، والاعتداء على العباد، وممتلكاتهم، وإظهار جملة من الأحوال العجيبة المنكرة؛ من حركات وصفير وصياح ونحو ذلك؛ فيا لله العجب!، أيليق هذا بالمسلم السوي المكرم؟ أيقع منه مثل هذا؟

وأعجب ما سمعت فيما يتعلق بهذا الخبث: أن أقوامًا عمدوا إلى هذه الفظائع، وأرادوا أن يلبسوها سربال الإسلام بصور شتى؛ فمن باحث عن الفتاوى المَعْلَقَةِ المَغْفَلَةِ، التي لا يستبصر فيها أصحابها في واقع هذه اللعبة، وأبعادها الخطيرة الجسيمة على العباد والبلاد، وفتوى أخرى حسب الطلب إرضاء لعلية القوم، وأصحاب الهوى، وأصحاب «الأجندة» والأصابع الخفية، من المنافقين، والعلمانيين، والماسونيين، وأشباههم، لا كثرهم الله، وعليهم من الله ما يستحقون.

وآخرون يقولون بملء أفواههم الكاذبة الأثمة: «إنهم يريدون نصر الإسلام والمسلمين باللهو واللعب»؛ فمن قائل: رفعنا علم البلاد الإسلامية في

أراضي الكفر، وآخر إذا سجل هدفاً خَرَّ لله ساجداً؛ يقول: شكراً لله تعالى، وآخر يقول: حققنا نصراً للإسلام بهزيمة الفريق الفلاني الكافر.

ونُدَّكُرُ هؤلاء بواقع الفأر الذي يراوغ عن المواجهة للخصم؛ أنه: «يحكي انتفاخاً صولة الأسد».

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورديا سعد الإبل

والعرب تقول لمن كانت هذه حالته: «أخطأت استك الحفرة».

وقال ابن رشيق القيرواني:

مما يُزْهَدُني في أرضٍ أنْ دَلِسِ سَماعٌ مَقْتَدِرٌ فيها ومُعْتَصِدِ

ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضعِها كَالِهَرٍ يحكي انتفاخاً صَوْلَةَ الأسدِ

والمآسي من هذا النوع كثيرة جداً، في زمن الانبطاح، وتزييف الحقائق، والمكر الكُبَّار الذي يراد بالإسلام والمسلمين، والذي يسارع فيه، وللأسف الشديد، بعض الإسلاميين، الذين أقل ما يقوله عنهم أعداؤهم: إنهم «من المغفلين النافعين»، عياداً بالله من الخذلان.

وإن الناظر في هذا الزخم الإعلامي، وهذه الجهود العالمية المبذولة للترويج لهذه اللعبة، وشغل العالم؛ بل والشباب المسلم خاصة؛ بها؛ لا يكاد يتوقف لحظة في أن وراء الأكمة ما وراءها، من الكيد الصليبي اليهودي الماسوني لشباب المسلمين.

والأمر كما قال النبي ﷺ، كما في حديث حذيفة المتفق على صحته، في سؤال حذيفة عن الخير والشر، وفيه: قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا».

وفي رواية لمسلم: قُلْتُ: هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرُّ خَيْرٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: كَيْفَ؟ قَالَ: «يَكُونُ بَعْدِي أُمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهَدَايَ، وَلَا يَسْتَنْوَنَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ، قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ».

فأصابع الماسونية العالمية وبصماتها؛ واضحة المعالم في واقع هذه اللعبة، وما يراد بها ومنها.

وعلينا أن نعلم أن هناك حدًّا من الصدق لا بد أن نتعامل معه حتى لا نخدع أنفسنا، عباد الله، وحتى لا يخدعنا أعداؤنا، وحلفاؤهم من الداخل والخارج، فالأمر كما قيل: «لَسْتُ بِالْحَبِّ وَلَا الْحَبُّ يَخْدَعُنِي».

وباختصار فاليهود يلعبون بنا، ونحن نلعب بالكرة.

الهوى المستعلن به أشد وأخطر:

إن الهوى المذموم وإن كان شرًّا كله؛ إلا أن بعضه أشدُّ مِنْ بعض كما تقدم، ولكني هنا أنبه على أمر عظيم القدر، جليل المنفعة، شديد الخطر؛ ألا وهو الفرق بين الهوى الذي يستخفي به العبد، ويسعى في الاستتار به، وهو

حريص على ألا يؤذي الآخرين به، وألا يأتروه عنه، وألا يتأثروا به، فهو خائف وجَل برجاء أن يتوب الله تعالى عليه، وهذه ولا شك علامة وجود بقية باقية في قلبه، من الحياء والاستحياء، والخوف من الله جل وعلا، والتعلق برحمته وهو أرحم الراحمين؛ وبين ذلك الذي يجاهر بمعاصيه ويستعلن بها، فهو لا يستحيي لا من الله تعالى ولا من خلقه؛ بل ويسعى في نشر باطله، وتكثير سواد العاملين به؛ فهو فاتن مفتون، والعياذ بالله من الخذلان.

فإن هذا الصنف من حَمَلَةِ الهوى المذموم مُتَوَعَّدُونَ بألا يعافيههم الله تعالى، ولا يهديهم سبيلاً، عياداً بالله، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد، لاسيما إذا كان هذا الهوى من الفواحش والشرك بالله جل وعلا، نسأل الله تعالى العفو والعافية.

وإذا قيل له: اتق الله؛ أرغى وأزبد، وطغى وزمجر وبغى، فويل له، ويل له! من ماجنٍ خبيث، ذاك من أشباه اليهود الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال تعالى في أمثالهم من المنافقين الخبيثاء: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [٢٠٥] وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادُّ ﴿٢٠٦﴾

[البقرة: ٢٠٥، ٢٠٦].

وإليك هذا الحديث النبوي الشريف، الذي يؤكد فيه النبي ﷺ على

هذا المعنى؛ بالتفريق بين المستعلن بفجوره وردائله، والمستخفي بمعاصيه؛ ففي «الصحيحين»، واللفظ للبخاري، من طريق سالم بن عبد الله، قال: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمَجَانَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ؛ فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ!».

ولفظ مسلم: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَاةٌ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْإِجْهَارِ أَنْ يَعْمَلَ الْعَبْدُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ قَدْ سَتَرَهُ رَبُّهُ، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، قَدْ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، فَيَبْيُتُ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ».

فلنحرص، عباد الله تعالى، إذا ابتلينا بشيء من هذه القاذورات والأوساخ؛ ألا نستعلن بها، وألا نؤذي بها أحداً، وأن نسأل الله تعالى العافية منها، ونسأله التوبة، والمغفرة، والستر في الدارين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، ولنتشبه بحال المتقين، لعل الله أن يوفقنا فيجعلنا منهم، أو يحشرنا معهم، في زمريهم، بمحببتنا لهم، وحرصنا على التشبه والاقتراء بهم، الذين قال تعالى في وصفهم، ومسارعهم إلى رضوان الله ورحمته: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٢) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْعَافِيَةِ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٢) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

ذَكِّرُوا اللَّهَ فَأَسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَعْفُرْ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا
عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتٌ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾

[آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ
مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ ، ثم ذكر بعدها إخوان الشياطين الماجنين المفتونين، فقال
تعالى: ﴿وَلِإِخْوَانِهِمْ يَمُدُّهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠ - ٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ
يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾
وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
قَالَ إِنِّي تُبْتُ أَلَنْتَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّاءٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧، ١٨].

واعلم، رحمك الله، أن صقل القلب بالتوبة، والمدافعة للسيئات
بالعمل الصالح؛ هي عملية بناء وهدم مستمرة؛ فلا تياس ولا تسأم؛ بل كن
عاملاً أبداً بذلك؛ تدافع السيئات بالتوبة النصوح والاستغفار، والإكثار من
العمل الصالح، وإلا فتذكر قول الشاعر:

متى يبلغ النبيان يوماً تاماًه إذا كنت تبني وغيرك يهدم

إياكم والمُحَقَّرَات:

اعلم، رحمك الله تعالى، أن المحقرات هي تلك المعاصي، التي يستهين بها بعض العباد، اتباعاً لأهوائهم، مع ورود الوعيد عليها، والنهي الشديد عنها أو الزجر، والله تعالى يقول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

ومن أمثلة ذلك، على اختلاف مراتبها ودرجاتها في التحريم: الكذب، والغيبة، والنميمة، والعقوق، والتبرج والسفور، وعصيان النساء لأزواجهن في غير معصية الله، وسماع الغناء، ومشاهدة الأفلام والمسلسلات، وتضييع الأوقات مع المباريات، وشرب الدخان، وسَفُّ الصعود أو السعوط، والخلوة بالنساء، وسفر المرأة بغير محرم مع وجود محارمها، وحلق اللحية، والإسبال للرجال.

وإدخال الأبناء المدارس والجامعات، التي فسدت قداواتها، ومناهجها، وبيئتها؛ فهي تعج بالمنكرات، والتبرج والسفور، والاختلاط؛ بل وفيها جميع ما يخطر بالبال؛ من الرذائل، والقبايح، والفواحش، ابتداء من

الشرك الأكبر، ومروراً بالنفاق والزندقة، وتعريضاً على الكبائر والموبقات، وانتهاء بالصغائر، والعياذ بالله من مثل هذه المستنقعات الآسنة، التي عشن الشيطان فيها وفرخ، ورتع فيها وانتفس، ونحو ذلك مما لا يعاب به كثير من العباد ذكوراً وإناثاً؛ بل لربما عدوه خيراً، والعياذ بالله من طمس البصائر.

جاء في «صحيح البخاري»: «باب مَا يَتَّقَى مِنْ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ عَنْ غِيلَانَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدْقُ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، إِنْ كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ الْمُؤَبَّاتِ»، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُهْلِكَاتِ انتهى.

فلنحذر، عباد الله تعالى، من أن نجعل مقياس المحقِّق والمُعْظَم إلى أهوائنا، أو عاداتنا وتقاليدنا، أو ما نشأنا عليه، أو ما يفعله أكثر العباد؛ فإن هذا كله ليس بشيء؛ بل هو إلى الضلال أقرب؛ بل علينا جميعاً أن نرجع إلى الشرع؛ لتتعلم ما هو الذنب العظيم، وما هو الذي هو دون ذلك حتى نصل إلى اللطم، ولنتذكر دائماً وأبداً أن الله تعالى أعلم وأجل، وأنا مازلنا جهلاء، نتعلم لنعمل؛ ليس لنا أَنْ نَفْتَتَّ عَلَى علم الكتاب، والسنة، وسبيل المؤمنين؛ بل علينا أن نعرف مقاديرنا وحقيقة أنفسنا، وجهلها، وظلمها، وقلة حيلتها.

قلت: وإليك هذا الحديث الدال على هذه المعاني: جاء بسند جيد في «مصنف ابن أبي شيبة»، و«مسند أحمد» والسياق له، من طريق عَوْفِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ الطُّفَيْلِ: أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّكَ

وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ بِكَرَّكَ طَالِيًا»، وفي لفظ «مُصَنَّفِ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ»: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّا كَ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ؛ فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِيًا».

ومن جميل ما قاله أبو العتاهية:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ: خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ: عَلَيَّ رَقِيبٌ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ
لَهُوْنَا لَعَمْرُ اللَّهِ حَتَّى تَتَابَعَتْ ذُنُوبٌ عَلَى آثَارِهِنَّ ذُنُوبٌ

وقال ابن المعتز:

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التَّقْصِي
وَاصْنَعْ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْضِ الشَّ شَوْكَ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

فائدة:

الله تعالى لا ينسى، وسينسى أقوامًا فكن على حذر.

معنى: ﴿الْيَوْمَ نَسْكَوُ﴾: إن المتأمل في كتاب الله تعالى؛ يجد أن الله تعالى نفى عن نفسه، تبارك وتعالى، النسيان، وفي آية أخرى أنه سينسى أقوامًا مخصوصين، ولا تعارض بين هذه الآيات؛ فالقرآن نزل بلسان عربي مبين، وفي لغة العرب يأتي النسيان بعدة معان، دل الكتاب العزيز على معنيين منها:

- فيأتي بمعنى الذهول عن الأمر أو غيابه.

- ويأتي بمعنى الإعراض والتَّرك وعدم المبالاة.

أما في حق الله تبارك وتعالى فالله تعالى لا ينسى أبداً، النسيان الذي هو بمعنى الذهول عن الأمر، أو غيابه عنه تبارك وتعالى؛ فهذا النوع من النسيان، الله تعالى منزّه عنه تبارك وتعالى، وهو النسيان المنفي عن الله تعالى في قوله ﷻ: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ﴿٦٤﴾ [مريم: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ ﴿٥٢﴾

[طه: ٥٢].

ولكنه تبارك وتعالى أثبت أنه سينسى أقواماً، والنسيان هنا هو بمعنى أن يعرض الله تبارك وتعالى عن العبد، ويتركه في عذابه، ولا يعبأ به ولا يُبالِيه بالةً، عيادا بالله من سخط الله وغضبه وأليم عقابه، ونعوذ به تبارك وتعالى من الخذلان، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ [التوبة: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرٍ ﴿٣٤﴾

ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَدُونَ ﴿٣٥﴾ [الجاثية: ٣٣ - ٣٥]، والله أعلم.

وفي «صحيح البخاري» عَنْ مُرْدَاسِ بْنِ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلُ فَلَا أَوَّلَ، وَيَبْقَى حِفَالَةُ الشَّعِيرِ أَوْ التَّمْرِ، لَا يَبَالِيَهُمُ اللَّهُ بِآلَةٍ».

جاء في «تفسير ابن كثير»: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَخُ﴾ ؛ أي: نُعَامِلُكُمْ معاملتنا للناسي لكم في نار جهنم ﴿كَأَنِّي سَتَرْتُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ؛ أي: فلم تعملوا له؛ لأنكم لم تصدقوا به، ﴿وَمَا وَنَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَّصِيرٍ﴾ ﴿٣٥﴾.

وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوِّجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخِّرْ لك الحَيْلَ والإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ؟ فيقول: بلى، يا رب، فيقول: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاتِيٌّ؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني»^(١).

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا﴾ ؛ أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء؛ لأنكم اتخذتم حجب الله عليكم سخرًا، تسخرون وتستعزفون بها، ﴿وَغَرَّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ ؛ أي: خدعتكم فاطمأنتم إليها، فأصبحت من الخاسرين؛ ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ ؛ أي: من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَدُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ ؛ أي:

(١) أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا يطلب منهم العُتْبَى؛ بل يُعَذَّبُونَ بغير حساب ولا عِتَاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب» انتهى.

الهوى وتخريب الفطرة:

اعلم، رحمك الله: أن الله تعالى قد فطر الناس على محبة الخير والهدى، والعمل به، والركون إليه، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ﴿مُذِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِيَنَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣٠-٣٢].

وفي «الصحيحين» عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجَّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبُهَيْمَةِ تُنْتَجُجُ الْبُهَيْمَةُ، هَلْ تَرَى فِيهَا جَذْعَاء؟».

ولنعلم يقيناً أن الهوى المذموم يعمل بخلاف ذلك تماماً، وإن الشيطان ليستعمله أشد استعمال في ذلك؛ وبذلك تتخرب الفطر، ويعم الفساد في الأرض، ويظهر في البر والبحر، وهذا مؤذِنٌ بسخط الله وغضبه، ورفع بركته عن هذا حاله؛ ليحل عليه غضب الله جلا وعلا، عياداً به ﷻ من سخطه وغضبه، وأليم عقابه، وقد قال تعالى: ﴿كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ

وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ [طه: ٨١، ٨٢].

التحسين والتقبيح شرعي لا عقلي محض، وإنما العقل فيه تبع، وإياكم والرأي:

قال تعالى: ﴿نَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ﴿١١﴾

[النساء: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْكَافِرُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٧١﴾ [المؤمنون: ٧١].

وفي «صحيح البخاري» من طريق الأعمش، قال: «سألت أبا وإيل: شهدت صفين؟، قال: نعم، فسمعت سهل بن حنيف يقول: اتهموا رأيكم، رأيي يوم أبي جندل، ولو أستطيع أن أردد أمر النبي ﷺ لرددته، وما وضعنا أسيفنا على عواتقنا لأمر يقطعنا؛ إلا أسهلنا بنا إلى أمر نعرفه، غير أمرنا هذا».

وجاء في «مسند الدارمي» بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحدث رأياً ليس في كتاب الله، ولم يمض به سنة من رسول الله ﷺ؛ لم يدر على ما هو منه إذا لقي الله عز وجل».

وفي «مصنف ابن أبي شيبة»، و«مسند الدارمي» بسند صحيح، من طريق عبيد الله بن أبي يزيد قال: «كان ابن عباس إذا سُئِلَ عن الأمر، وكان

فالحذرَ الحذرَ من إعمال الرأي والعقول، مع وجود المنقول والمأثور؛ فإن ذلك هو عين اتباع الهوى المذموم.

فَإِذَا تَعَارَضَ نَصٌ لَفْظٍ وَارِدٍ	وَالْعَقْلُ حَتَّى لَيْسَ يَلْتَقِيَانِ
فَالْعَقْلُ إِمَّا فَاسِدٌ وَيَظُنُّهُ الرَّائِي	صَاحِبِيحَا وَهُوَ ذُو بُطْلَانٍ
أَوْ أَنَّ ذَاكَ النَّصَّ لَيْسَ بِثَابِتٍ	مَا قَالَهُ الْمَعْصُومُ بِالْبُرْهَانِ
وَنُصُوصُهُ لَيْسَتْ تُعَارِضُ بَعْضُهَا	بَعْضًا فَسَلِّ عَنْهَا عَلِيمَ زَمَانٍ
وَإِذَا ظَنَنْتَ تَعَارُضًا فِيهَا فَذَا	مِنْ آفَةِ الْأَفْهَامِ وَالْأَذْهَانِ
أَوْ أَنْ يَكُونِ الْبَعْضُ لَيْسَ بِثَابِتٍ	مَا قَالَهُ الْمَبْعُوثُ بِالْقُرْآنِ

وقال الله تعالى في شأن المؤمنين الصادقين، الذين يجعلون عقولهم تابعة للمنقول عن الله والرسول، ويفرحون بذلك أشد الفرح، ويعترفون بقصور عقولهم، ويعتقدون العصمة والكمال في كلام الله والرسول، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَهُمْ الِّكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبُ

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَ هُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ [الرعد: ٣٦، ٣٧].

الهموى يقيم سلطان الشيطان، ويُجَنِّدُ لَهُ الْآتِبَاعَ:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا ءَايَةً مَكَاتٍ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ٩٩ - ١٠٢].

وقال ﷺ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقْنَلُونِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْنَلُونَ فِي سَبِيلِ الْأَطْلَاحُوتِ فَقْنَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ٤١ - ٤٤].

وقال تعالى: ﴿الْكُفْرُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأَنْثَى ﴿١١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿١٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿١٣﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿١٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١١ - ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَظْمِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمْعَشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُزِدُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفْلُونَ ﴿١٣١﴾﴾

[الأنعام: ١٢٨ - ١٣١].

ماذا يقدم الهوى، وماذا يقدم الهدى؟ (بين حي على الفلاح، وحي على الطلاح):

اعلم، رحمك الله تعالى: أن كلاً من الصفتين؛ أعني صفقة الهدى وصفقة الهوى؛ تقدمان لأتباعهما أُمُورًا، وإليك هذه الآيات، على سبيل المثال لا الحصر فيما يقدمه الهدى والهوى لأتباع كل منهما، فإنه كثير في الكتاب والسنة:

أما ما يقدمه الهدى لأتباعه:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلَا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ

﴿١٦٦﴾ لَكُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأنعام: ١٦٦، ١٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

الرَّحْمَنُ دَارًا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٢٠﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ

قَدَرًا ﴿٢﴾﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ بَنَىٰ لِلَّهِ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾

[الطلاق: ٥].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَنْفُوا اللَّهَ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا

وَيَكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

[الأنفال: ٢٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا

ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإمامُ العادلُ، وشابٌّ نشأ في عبادة ربه، ورجلٌ قلبه معلقٌ في

الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالَهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينَهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهُ خَالِيًا فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ» متفق عليه.

أما ما يقدمه الهوى لأتباعه؛ فإليك هذه الآيات:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝﴾ (٣٣) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكُنَّا كَرَةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿٣٧﴾

[البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝﴾ (العنكبوت: ٢٥).

وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۝﴾ (٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حَكَمَهُ بِلِغَةِ فَمَا تُغْنِ النَّذْرُ ﴿٥﴾ [القمر: ٣ - ٥].

وفي آيات قرآن الله ﷻ بين الصفقتين، وبين حال الفريقين:

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝﴾ (هود: ٢٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ ۚ وَلَأَمَّهُ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۚ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۚ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۚ وَيَسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ۚ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٤-٦].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۚ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦١﴾ ۖ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنَّ عَاصِمٍ ۖ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قُطْعًا مِّنْ آتِلٍ مُّظْلِمًا ۖ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَتِيمٍ مِّن زَيْدٍ لَهُ سَوْءُ عَمَلٍ ؕ وَأَتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾ [محمد: ١٤].

وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۚ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْرَهُمْ آذَا ﴿٨٣﴾﴾

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا ﴿٨٥﴾
وَسَوْفُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ
عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴿مریم: ٨٣ - ٨٧﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْنَا أَهْطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا
يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن
ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنْ سَعَيْتُمْ لَشِقَى ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَى ﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحَقِّ
﴿٦﴾ فَسَنَسِرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ يَخِلُّ وَاسْتَفْتَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴿٩﴾ فَسَنَسِرُهُ
لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يَنْفَعُهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾﴾ [الليل: ٤ - ١١].

وقد ضرب الله تعالى مثلاً لأتباع الهوى بمثل السوء: الكلب
والحمار؛ فاربأ بنفسك، واتق ربك، واعمل بهداه، واترك هواك المُردي.

العقوبة بخفاء الحق:

واعلم، رحمك الله، أن من أشد المخاطر والعقوبات لأتباع الهوى؛
أن صاحب الهوى المتعصب له، ربما يعاقب بخفاء الهدى والحق عليه،
وهذا حال كثير من أصحاب الأهواء، الذين يجادلون بالباطل، والعياذ بالله،

جزاء وفاقا، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِّيزٍ﴾ ﴿١١﴾ [هود: ٩١].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ﴿١٦﴾ [محمد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌّ يُجْعَلُونَ أَصْغِعُهم فِي ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٠﴾ [البقرة: ١٧ - ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَأَلْأَعْمَىٰ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٩٨﴾ [الأعراف: ١٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ [يونس: ٤٤، ٤٥].

وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْعَثُ لَهَا مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُهُ تُخْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٠ - ٢٥].

المحور السابع

علاج الهوى ودواؤه

قد عرفنا، عباد الله، خطورة الهوى وفداحته، وعظيم ضرره على العباد والبلاد؛ بل على الدين قبل الدنيا، وفي الحياة قبل الممات؛ فما هو علاج هذا الهوى عباد الله؟

الجواب، عباد الله: أن علاج الهوى مختصر ميسر، وهو متاح لكل أحد، فبإمكان كل واحد منا أن يتعاطى دواءه، ليتعافى من بلائه؛ فينجو من عَطْبِهِ وهلاكه وبواره.

إن علاج الهوى، بعد توفيق الله تعالى وإعانتة، يتمثل وبكل يسر في مخالفته، واتباع الهدى القويم الذي بعث الله تعالى به سيد المرسلين؛ إذ ليس هناك علاج له غير ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»: «فالرسول يحصل الفرق بين السعداء والأشقياء، وبين الحق والباطل، والهدى والضلال، والفرق بين أولياء الله وأعدائه» اهـ.

إذًا؛ العلاج في أن تخالف هواك، وتتبع هدى الله الذي أنزله بعلمه.

قال القرطبي في «تفسيره»: «قال أحمد بن أبي الحواري: مررت

براهب فوجدته نحيفاً، فقلت له: أنت عليل. قال: نعم، قلت: مذ كم؟ قال: مذ عرفت نفسي، قلت: فتداوى؟ قال: قد أعياني الدواء، وقد عزمت على الكي، قلت: وما الكي؟ قال: مخالفة الهوى».

وقال سهل بن عبد الله التستري: هواك دأؤك، فإن خالفته فدَواؤك.

وقال وهب: إذا شككت في أمرين، ولم تدر خيرهما؛ فانظر أبعدهما من هواك فأته. اهـ.

ولهذا قال ابن دريد، رحمه الله تعالى:

إِذَا مَا دَعَتَكَ النَّفْسُ يَوْمًا لِلشَّهْوَةِ وَكَانَ إِلَيْهَا لِلْخِلَافِ طَرِيقُ
فَدَعَهَا وَخَالَفَ مَا هَوَيْتَ فَإِنَّهَا هَوَاكَ عَدُوٌّ وَالْخِلَافُ صَدِيقُ
فالنجاة في مخالفة الهوى؛ ولهذا قال سهل بن عبد الله التستري:
مفتاح الجنة في مخالفة الهوى، قيل له: من أين ذلك؟ قال: في كتاب الله
جل وعلا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ
الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] انتهى.

فمفتاح الجنة إزاء؛ في مخالفة هذا الهوى المضل؛ وذلك بتركه واتباع الهدى، والإتيان بأسباب الفلاح والرشد.

فإن أردت الخلاص؛ فخالف هواك على طول الخط؛ تكن من الناجين بإذن الله ﷻ، فإن لم تفعل، فهذه هي البلية والرزية.

قال عبد الله بن المبارك:

ومن البلاء وللبلاء علامة ألا يرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها والحر يشبع تارة ويجوع

وقال أبو تمام رحمه الله تعالى:

وعبادة الأهواء في تطويجها بالدين فوق عبادة الأصنام
فالله الله في مخالفة الهوى؛ فإن النجاة إنما تكون يوم أن تخالف هذا
الهوى؛ فتكون من المفلحين بإذن الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾
وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآتَى الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ
﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

[النازعات: ٣٤ - ٤١].

وهنا لا بد أن نتذكر ونذكر خصلة أخرى مهمة للغاية؛ ألا وهي
معاملة العدو بما يستحقه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ
عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]، وسيأتي لاحقاً
إن شاء الله تعالى مزيد بيان لأعداء الإنسان الخمسة.

فتبين بهذا أن سبيل النجاة في أمرين بعد توفيق الله تعالى وسداده:

- ١- مخالفة الهوى. ٢- معاملة العدو بما يستحقه.

طرق الوقاية:

١- صدق الالتجاء إلى الله تعالى؛ فالصدق يهدي إلى البر، ويكون جنة للعبد ووقاية بإذن الله عز وجل، كما في «الصحيحين» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صَدِيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا».

ولهذا حث الله تعالى عباده المؤمنين على الصدق وأمرهم به، كما

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩)

[التوبة: ١١٩].

فالصدق مع الله هو باب السعادة للعبد في الدارين، وبين الله تعالى أنه نجاة لهم يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (المائدة: ١١٩)؛ لأجل ذلك وغيره حث الله تعالى عليه عباده

فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩)

[التوبة: ١١٩].

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» في كلامه على حديث: «مَنْ حَسَنَ إِسْلَامَهُ تَرَكَهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(١): «ومعنى هذا الحديث: أَنَّ مِنْ حَسَنِ إِسْلَامِهِ تَرَكَهُ مَا لَا يَعْنِيهِ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، واقتصر على ما يعنيه من الأقوال والأفعال، ومعنى يعنيه: أَنَّ تَتَعَلَّقُ عَنَانِيَّتُهُ بِهِ، ويكونُ مِنْ مَقْصِدِهِ وَمَطْلُوبِهِ، والعناية: شِدَّةُ الْإِهْتِمَامِ بِالشَّيْءِ، يقال: عَنَاهُ يَعْنِيهِ: إِذَا اهْتَمَّ بِهِ وَطَلَبَهُ، وليس المراد أَنَّهُ يَتْرَكُ مَا لَا عَنَايَةَ لَهُ بِهِ وَلَا إِرَادَةَ؛ بِحَكْمِ الْهُدَى وَطَلَبِ النَّفْسِ؛ بَلْ بِحَكْمِ الشَّرْعِ وَالْإِسْلَامِ؛ وَلِهَذَا جَعَلَهُ مِنْ حَسَنِ الْإِسْلَامِ، فَإِذَا حَسُنَ إِسْلَامُ الْمَرْءِ؛ تَرَكَ مَا لَا يَعْنِيهِ فِي الْإِسْلَامِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ» اهـ.

٢- الحرص على الإخلاص لله تعالى في جميع الأعمال، ومتابعة الرسول ﷺ على كل حال، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ [النور: ٥٤ - ٥٦].

(١) هذا الحديث، الراجح أنه لا يصح إلا مراسلاً، من رواية علي بن حسين عن النبي ﷺ مراسلاً، كما حكم بذلك الأئمة من السلف في زمن الرواية، منهم الإمام أحمد، ويحيى بن معين، والبخاري، وغيرهم.

وقال تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (٣٩) [النساء: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا﴾ (٦٦) وَإِذَا لَا تَنبِيئَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٩)

[النساء: ٦٦ - ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَآدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٦) [المائدة: ٦٥، ٦٦].

٣- طلب العلم الشرعي، والحرص الشديد عليه، ومحبته ومحبة أهله، واستشعار الافتقار إليه، وعدم ادعاء الكمال فيه؛ فتتعلق على العبد مسالك من العلم، لو اتقى الله تعالى لهداه بها، فَرَبَّ عبد مُّقِيمٍ على هَوَى، وهو يحسبه هدى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٦) [يوسف: ٦٦]؛ ففي العلم وتحصيله وقاية عظيمة من الهوى وأسبابه، وتبصير بمواقع الخطر منه ومن مَزَلِقِهِ، ومداخل الشيطان به؛ إذ هو جُنْدٌ من جنوده.

٤- الحرص على بث العلم الشرعي ونشره؛ فكلما كثر العلم الشرعي تضايق على الهوى مسالكه وسبله، ولا يقولن عبد: إنَّ نشر العلم إنما هو خاص بفلان وفلان من أهل العلم، لِيَقْعُدَ هو عن تبليغ العلم، مع أنه هو من أهل العلم؛ بل عليه أن يشارك إخوانه من أهل العلم في التبليغ والدعوة؛ فالعلم رَحْمٌ بَيْنَ أَهْلِهِ، وكلما كثر الناشرون للعلم، حصل للأمة خير عظيم.

ولهذا أخذ الله تعالى على أهل العلم البلاغ وعدم التلبس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُعَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٧٧)

[آل عمران: ١٨٧].

وهَدَدَهُمْ ﷺ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَهُدًى مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوْا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

[البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ

اللَّهُ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

[البقرة: ١٧٤ - ١٧٦].

وجاء في كتاب «الزهد» للإمام أحمد بن محمد بن حنبل، من طريق شيبان: «أنه سمع الحسن يقول لأحد بني الشخير: حَدِّثْنَا يَا غلام، فقال: إِنَّا لم نبلغ هذا يا أبا سعيد، فقال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَيُّنَا بَلَغَ هَذَا، وَدَّ الشَّيْطَانُ لَوْ تَمَكَّنَ مِنْ هَذِهِ، وَاللَّهِ لَوْ لَا مَا أَعْقَدَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ لَمْ نَنْطِقْ».

وليس شرطاً في نشر العلم أن تكون عالماً؛ بل كل مسلم قادر على أن يشارك في نشر هذا العلم، إما بكتاب أو بشرط أو مطوية، أو حتى كلمة حتى يعلمها، أو دلالة عليه وعلى أهله، والحث عليه وعلى طلبه، أو إعانة بماله على ذلك، أو توظيفاً لمنصبه لخدمة العلم وأهله ونشره، وهكذا، ولو فَتَشَ العبد نفسه ذكراً كان أو أنثى؛ لم يَعدَم وسيلة صالحة يعين بها على بث العلم، ويكون بذلك من ناشريه.

وتأمل كيف قسم النبي ﷺ الأمة بناء على وجود هذا العلم، وطلبه وبثه، ورفع الرأس به من عدمه، كما في «الصحيحين» عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا؛ فَكَانَ مِنْهَا نَفْيَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبٌ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرَبُوا وَسَقُوا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ فِيْعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ

كَلَّا؛ فَذَلِكَ مَثَلٌ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعِلِمَ وَعَلِمَ، وَمَثَلٌ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدًى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

وجاء في مصنف ابن أبي شيبة بسند جيد: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ، يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اغْدُ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا، وَلَا تَعْدُ بَيْنَ ذَلِكَ».

وفيه بسند قوي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ، يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَا يُؤَلِّدُ عَالِمًا، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالْتَّعَلُّمِ».

وجاء في الإبانة الكبرى «لابن بطة» من طريق حُمَيْدٍ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كُنْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا، أَوْ مُسْتَمِعًا، أَوْ مُحِبًّا، وَلَا تَكُنِ الْخَامِسَةَ فَتَهْلِكَ»، قَالَ: فَقُلْتُ لِلْحَسَنِ: مِنَ الْخَامِسَةِ؟ قَالَ: «الْمُبْتَدِعُ» انتهى. قال أبو زرعة: الحسن عن أبي الدرداء مرسل. اهـ.

هـ- كثرة ذكر الله تعالى، وعلى رأس ذلك القرآن العظيم؛ فإنه الحياة والروح، والنور، والهدى القويم، وهو من أعظم أسباب الرفعة ومحبة الله تعالى، كما في «صحيح مسلم» من طريق عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ: أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْمَنَافِ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنُ أَبِزَى، قَالَ: وَمَنْ ابْنُ أَبِزَى؟ قَالَ: مَوْلَى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلَى؟، قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا

الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخِرِينَ».

ثم ما صح عن النبي ﷺ من الأذكار، كل بحسب مكانه وزمانه؛ فإنها نعم الوقاية والحصانة، روى الترمذي في «سننه» من طريق زيد بن سلام، أن أبا سلام حَدَّثَهُ أَنَّ الْحَارِثَ الْأَشْعَرِيَّ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ؛ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُنْطَى بِهَا، فَقَالَ عِيسَى: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا؛ فِيمَا أَنْ تَأْمُرَهُمْ، وَإِنَّمَا أَنَا أَمُرُهُمْ، فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخَسَفَ بِي، أَوْ أُعَذَّبَ.

فَجَمَعَ النَّاسُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَأَمْتَلَا الْمَسْجِدَ وَقَعَدُوا عَلَى الشَّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ؛ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَمُرُكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ.

أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصٍ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي، وَهَذَا عَمَلِي، فاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ؛ فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُودِّئِي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟

وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لَوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ، مَا لَمْ يَلْتَفِتْ.

وَأَمَرَكُمْ بِالصِّيَامِ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عَصَابَةٍ، مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا

مِسْكٌ؛ فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ.

وَأَمَرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ، فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ.

وَأَمَرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ؛ كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَأَنَا أَمَرُكُمْ بِخَمْسٍ، اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالْهِجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُنَى جَهَنَّمَ»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ قَالَ: «وَأِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ؛ الَّذِي سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ»، قَالَ الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ».

وفي «الصحيحين»، واللفظ للبخاري، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ؛ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»، وفي لفظ مسلم: «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ؛ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ».

مع الحرص على سورة البقرة، وآل عمران، والمعوذتين، كما في «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ».

وفي «صحيح مسلم» من طريق مُعَاوِيَةَ (بُعْثِي: ابْنُ سَلَامٍ) عَنْ زَيْدٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلَامٍ يَقُولُ: حَدَّثَنِي أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا عَيَاتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ؛ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ»، قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَّغْنِي أَنَّ الْبَطْلَةَ السَّحَرَةُ.

٦- تدبر القرآن العظيم؛ فإنه أبلغ شيء في هداية القلوب والمحافظة عليها من أمراضها وعللها، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

وقال ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤).

قال ابن القيم في «النونية»:

فتدبر القرآن إن رُمِتَ الهدى فالعلم تحت تدبر القرآن

وقال ﷺ في «بدائع الفوائد»: «فما أشدّها من حسرة! وأعظمها من

غَبْنَةً! عَلَى مَنْ أَفْنَى أَوْقَاتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهِمْ حَقَاقِقُ الْقُرْآنِ، وَلَا بِأَشْرَ قَلْبِهِ أَسْرَارُهُ وَمَعَانِيهِ، فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَالْعَنَاءُ بِالْقُرْآنِ ثَبَاتٌ لِلْقَلْبِ وَحَيَاةٌ لِلْعَبْدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِذِكْرِكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾ ﴿هُود: ١٢٠﴾

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ﴿٣٢﴾ [الفرقان: ٣٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّا كَلَّمْنَا بِأَلْسِنَةٍ أَلْفَاظٍ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥٢﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٥٣﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

٧- الحرص على تعليم الأبناء الدين، وإقام الصلاة، والحرص الشديد على فعل النوافل في البيوت؛ فإن ذلك من أعظم أسباب دفع الغفلة، والتذكير بالله تعالى، ومدافعة الشياطين؛ ولهذا حرص الشارع عليه وأكد عليه، كما في «الصحيحين» عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اتَّخَذَ حُجْرَةً، قَالَ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: مِنْ حَصِيرٍ، فِي رَمَضَانَ فَصَلَّى فِيهَا لَيْلِي، فَصَلَّى بِصَلَاتِهِ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا عَلِمَ بِهِمْ جَعَلَ يَقْعُدُ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «قَدْ عَرَفْتُ الَّذِي رَأَيْتُمْ مِنْ صَنِيعِكُمْ، فَصَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ؛

فَإِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ صَلَاةَ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ»، لفظ البخاري.

وفي لفظ مسلم: «فَعَلَيْكُمْ بِالصَّلَاةِ فِي بُيُوتِكُمْ؛ فَإِنَّ خَيْرَ صَلَاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ».

وفي «الصحيحين» عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْعَلُوا فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ صَلَاتِكُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا».

وتأمل كيف أن النبي ﷺ جعل صلاة النوافل في البيوت؛ أفضل من الصلاة في مسجده، مع أن الصلاة في مسجده، تعدل ألف صلاة فيما سواه إلا مسجد الكعبة، وهذا يدل على أن صلاة النوافل في البيوت أعظم أجراً، وهذا إذا كان في المدينة؛ فكيف بغيرها؟، وهو عام حتى بمكة، إلا أن الراجح أن التضعيف بمكة يشمل كل الحرم المكاني، فإن في إقام الصلاة عوناً عظيماً على حياة القلوب، والبعد عن الفحشاء والمنكر وعن اتباع الهوى المذموم، كما قال تعالى: ﴿ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ولكنَّ هناك فرقاً كبيراً بين إقامتها ومطلق أدائها؛ ولهذا ربما ضعف تأثيرها على بعض العباد، ممن لا يفيها حقها؛ فلا يتم نهيها له عن الفحشاء والمنكر، وكلُّ بحسبه، وقد قال النبي ﷺ: «وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»، رواه البخاري في «صحيحه» من حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما الذين ينقرونها نقر الغراب؛ فلا طمأنينة ولا خشوع؛ فهؤلاء
 حَكَّم النبي ﷺ عليهم بأنهم لم يصلوا، كما في «الصحيحين» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ،
 فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، ازْجِعْ
 فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فَرَجَعَ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ، فَقَالَ: «وَعَلَيْكَ
 السَّلَامُ، فَارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ، أَوْ فِي الَّتِي بَعْدَهَا:
 عَلَّمَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاسْبِغِ الْوُضُوءَ، ثُمَّ
 اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ
 رَاكِعًا، ثُمَّ اِرْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ اِرْفَعْ
 حَتَّى تَطْمِئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ اِرْفَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ
 جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا».

وفي الحديث الصحيح الذي رواه مالك في «موطئه» وأبو داود في
 «سننه»، والنسائي في «المعجمي»، من طريق ابنِ مُحَرَّرٍ؛ أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي
 كِنَانَةَ يُدْعَى الْمُخَدَجِيَّ، سَمِعَ رَجُلًا بِالشَّامِ يُدْعَى أَبَا مُحَمَّدٍ يَقُولُ: إِنَّ الْوِتْرَ
 وَاجِبٌ، قَالَ الْمُخَدَجِيُّ فَرَحْتُ إِلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ
 عُبَادَةُ: كَذَبَ أَبُو مُحَمَّدٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ
 كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ، لَمْ يُضَيَّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ؛
 كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ

عَهْدُ؛ إِنْ شَاءَ عَذَّبُهُ، وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ».

وإننا نرى مثل هذا الإخلال اليوم، عند عدد ليس بالقليل من المصلين، وربما تراه من بعض نساءك في بيتك أو في مسجد حيّك، والله المستعان، وهذا في الفرائض، أما النوافل فحدث ولا حرج عن كثير من العباد؛ ينقرونها نقر الغراب، حتى في التراويح في رمضان؛ بل وتتنافس بعض المساجد أيهم يفرغ منها قبل الآخر، وجمع من الناس يرتادون تلك المساجد، طلباً للتخلص من القيام بحقها ومستحقها؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله، ونعوذ بالله من الخذلان، حتى في رمضان يحدث هذا! فאלله المستعان.

٩- الحرص على صلاة الجماعة، وانتظارها في بيوت الله، حيث ينادى بها؛ فإن صلاة الجماعة مما تحيا بها القلوب، وهي مما يدفع به الضلال، كما في «صحيح مسلم» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ عَدَاً مُسْلِماً؛ فَلْيَحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنْنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ.

وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمُدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ؛ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيزْرَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحِطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا يَخْلَفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النَّفَاقِ،

وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يَهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟»، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَى إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ؛ فَذَلِكُمُ الرَّبَاطُ».

١٠- الحرص على قيام الليل، ولو بأقل القليل، ولو بركعتين فصاعداً؛ فإن قيام الليل أنس الصالحين، ونعيم الأبرار المتقين، وبه يتعرض العبد للرحمات والخيرات، والبركات التي تنزل من رب الأرض والسموات، وقد جعلها النبي ﷺ أفضل الصلاة بعد المكتوبة، كما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه قال: سئل: أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ؟ وَأَيُّ الصَّيَامِ أَفْضَلُ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ؟ فَقَالَ: «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ: الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، وَأَفْضَلُ الصَّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ: صِيَامُ شَهْرِ اللَّهِ الْمُحَرَّمِ»، كما في «مسند أحمد» وغيره.

وهو عند الترمذي وصححه من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ بن جبل قال: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ، وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ».

ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تَطْفِئُ
الْحَظِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، قَالَ: ثُمَّ تَلَا
﴿ نَتَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ (١٧) ﴿
[السجدة: ١٦، ١٧]﴾ ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ
سَنَامِهِ؟» قُلْتُ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ
الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ».

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكُ كُلُّهُ؟» قُلْتُ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ:
فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا!»، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ
بِمَا تَنْكَلِمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَىٰ
وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»، قَالَ أَبُو عِيسَى
الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

١١- الحرص على ملء الأوقات بما يعود نفعاً على العبد في دينه أو
دنياه، مما أحله الله.

١٢- عدم استكثار العمل، وعدم التكاسل والملل؛ فإنما تقدم
لنفسك، وتنفعها، وتمهد لها، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ، مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ ﴾ (٤٣) ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ
صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴾ (٤٤) ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤٥) ﴿ [الروم: ٤٣ - ٤٥].

قال بعضهم: «إذا ظفر إبليس من ابن آدم بإحدى ثلاث خصال؛ قال: لا أطلب غيرها: إعجابه بنفسه، واستكثاره عمله، ونسيانه ذنوبه».

١٣- تذكُرْ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَدْعُو إِلَى حَزْبِهِ، لَا يَفْتَرِ، وَلَا يَكِلُ، وَلَا يَمَلُّ؛ فَلَا تَنْسَ عداوته، واعمل بوصية الله تعالى لعباده؛ إذ هداهم إلى الطريقة المثلى لمحاربة هذا العدو اللدود، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَضُكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۝٦٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦٦﴾ [فاطر: ٥، ٦].

وانظر إلى هذا الأثر العجيب، الذي يرويه الصحابي الجليل عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَلَتَانِ لَا يُحْصِيهِمَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ»، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ؛ يُسَبِّحُ أَحَدُكُمْ فِي ذُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُ عَشْرًا، وَيَكْبِّرُ عَشْرًا؛ فَهِيَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ فِي اللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٌ فِي الْمِيزَانِ»، وَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْقِدُهُنَّ بِيَدِهِ: «وَإِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ أَوْ مَضَجَعِهِ، سَبَّحَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمَدَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَهِيَ مِائَةٌ عَلَى اللِّسَانِ، وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ»، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَأَيُّكُمْ يَعْمَلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَلْفَيْنِ وَخَمْسُمِائَةِ سَبْعِينَ؟»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ لَا نُحْصِيهِمَا، فَقَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، وَيَأْتِيهِ عِنْدَ مَنَامِهِ فَيُنِيمُهُ»، وَفِي

لفظ: «فَلَا يَزَالُ يُتَوَمُّهُ حَتَّى يَنَامَ».

وفي «الأدب المفرد» للبخاري، بسند لا بأس به، من طريق أبي الأحوص قال: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ (يعني: ابن مسعود): «التَّوَمُّ عِنْدَ الذَّكْرِ مِنَ الشَّيْطَانِ، إِنْ شِئْتُمْ فَجَرِّبُوا، إِذَا أَخَذَ أَحَدُكُمْ مَضْجَعَهُ وَارَادَ أَنْ يَنَامَ فَلْيَذْكُرِ اللَّهَ بِحَمْدِهِ».

١٤- كثرة الدعاء والإلحاح على الله تعالى بالثبات، والنجاة والفلاح، والرشاد والسداد والتوفيق، لاسيما في أوقات الإجابة، وسيأتي مزيد كلام عن هذا الأمر الجليل إن شاء الله.

جاء في «مصنف ابن أبي شيبة» بسند جيد عن عبد الله بن مسعود أنه كان يدعو: «اللَّهُمَّ أَلْبِسْنَا لِبَاسَ التَّقْوَى، وَأَلْزِمْنَا كَلِمَةَ التَّقْوَى، وَاجْعَلْنَا مِنْ أُولِي النُّهَى، وَأَمْتِنَا حِينَ تَرْضَى، وَأَدْخِلْنَا جَنَّةَ الْمَأْوَى، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَرِّ وَاتَّقَى، وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، وَاجْعَلْنَا مِنْ تَائِسِرِهِ لِلْيُسْرَى، وَتُجِبُّهُ الْعُسْرَى، وَاجْعَلْنَا مِنْ يَتَذَكَّرُ فِتْنَتَهُ الذِّكْرَى، اللَّهُمَّ اجْعَلْ سَعِينَا مَشْكُورًا وَذَنْبَنَا مَغْفُورًا، وَلَقِّنَا نَصْرَةً وَسُرُورًا، وَاجْعَلْ لَنَا أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَحَرِيرًا».

فطلب العون من أعظم ما يستعين به العبد على القيام لله تعالى بحقه، والاستقامة على شريعة نبيه، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإن للنفس إقبالا وإدبارا.

وما أجمل ما قال الشاعر:

أَغْلِبَ النَّفْسَ فِي سِرِّي وَفِي عَلَنِي فَأَغْلِبَ النَّفْسَ أَحْيَانًا وَتَغْلِبْنِي
لَوْلَا مَعُونَةُ رَبِّي لِاشْرِيكَ لَهُ لَمَّا نَجَوْتُ مِنَ الْإِثَامِ وَالْفِتَنِ

وقال الآخر:

وَلَوْلَمْ يَكُنْ مِنَ اللَّهِ عَوْنٌ لِلْفَتَى فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

١٥- البعد عن الأسباب التي تفسد القلوب وتظلمها، أو تضعف نورها وبصيرتها ثم تطمسها؛ حتى تكون القلوب بيقظة على الدوام، حذرة من مداخل الهوى والشيطان.

١٦- كثرة الاستغفار والتوبة؛ فيها تُجلى القلوب وتتنهر، وتكون أحرى وأقرب إلى نبذ الهوى، وقبول الهدى، إذا تهيأت أسبابه، كما في «مسند أحمد»، و«سنن الترمذي»، وغيرهما، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءٌ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سَقَلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُو قَلْبُهُ؛ وَهُوَ الرَّأْيُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» [المطففين: ١٤]، قَالَ الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

مَا أَصْرَرَ مَنْ نَدِمَ وَتَابَ وَإِنْ عَاوَدَ الذَّنْبَ:

اعلم، رحمك الله تعالى، أن الوقوع في المعصية التي أوقعك فيه الهوى؛ ليس هو نهاية المطاف؛ بل هناك باب اسمه باب التوبة؛ وهو باب جعله الله تعالى للتائبين الصادقين، يدخلون منه إليه، ولن ينغلق حتى تطلع الشمس من مغربها.

ولكن العبد إذا أتى بالتوبة في غير أوانها فلن تقبل منه؛ وذلك عندما تأتي الآيات التي لا تنفع معها التوبة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ [١٥٨] [الأنعام: ١٥٨].

أما من أذنب فاستغفر، وتاب توبة نصوحًا؛ وهي التي لا إصرار معها؛ بل معها المبادرة إلى طلب العفو والمغفرة من الله تعالى؛ فإن الله تعالى يتوب عليه، ويغفر له بإذنه تبارك وتعالى، وإن تكرر منه الذنب؛ ما دام أنه في كل مرة يتوب توبة نصوحًا، ثم يغلبه الهوى والشيطان ونفسه الأمارة بالسوء على الذنب فيعاوده، ولكنه سرعان ما يعود كَرًّا على الشيطان والهوى ونفسه الأمارة بالسوء بتوبة نصوح، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ يُبْرَأْ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١٣٥] أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ ﴿١١٥﴾ [طه: ١١٥].

وفي «صحيح البخاري» من طريق إسحاق بن عبد الله قال: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي عَمْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، وَرَبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ، وَرَبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ، فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ، أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ: أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرَبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ، أَوْ أَذْنَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ».

جاء في «الآداب الشرعية» لابن مفلح:

خَفِيَ اللَّهُ وَارِجُهُ لِكُلِّ عَظِيمَةٍ وَلَا تَطِغِ النَّفْسُ اللَّجُوجَ فَتَنَدَمَا
وَكُنْ بَيْنَ هَاتَيْنِ مِنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَا وَأَبَشِرْ بِعَفْوِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مُسْلِمًا
فَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَامًا
وَقَالَ آخَرُ:

وَإِنِّي لَا رَجُوَ اللَّهَ حَتَّى كَانَمَا أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللَّهُ صَانِعُ.

وَقَالَ مَنَّورُ الْفَقِيه:

قَطَعْتُ رَجَائِي مِنْ بَنِي آدَمَ طُرًّا فَأَصْبَحْتُ مِنْ رِقِّ الرَّجَاءِ لَهُمْ حُرًّا
وَعَدَلْتُ يَا سَيِّ بَيْنَهُمْ فَأَجَلُّهُمْ إِذَا ذَكَرُوا قَدْرًا كَادَنْتَهُمْ قَدْرًا
غَنَى عَنْهُمْ بِاللَّهِ لَا مَتَطَاوِلًا عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا قَائِلًا هُجْرًا
وَكَيْفَ يَعِيبُ النَّاسُ بِالْمَنْعِ مُؤْمِنٌ يَرَى النِّفْعَ مِمَّنْ يَمْلِكُ النِّفْعَ وَالضَّرَّاءَ
عَلَيْهِ اتِّكَالِي فِي الشَّدَائِدِ كُلِّهَا وَحَسْبِي بِهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ لِي دُخْرًا

وَأَنشَدَ بَعْضُهُمْ وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ يُوسُفَ:

أَسِيرُ الْخَطَايَا عِنْدَ بَابِكَ وَاقِفُ عَلَى وَجَلٍ مِمَّا بِهِ أَنْتَ عَارِفُ
يَخَافُ دُنُوبًا لَمْ يَغِبْ عَنْكَ غَيْبُهَا وَيَرْجُوكَ فِيهَا فَهَوَاجٍ وَخَائِفُ
فَمَنْ ذَا الَّذِي يُرْجَى سِوَاكَ وَيَتَّقَى وَمَا لَكَ فِي فَضْلِ الْقَضَاءِ مُخَالِفُ
فِيَا سَيِّدِي لَا تُخْزِنِي فِي صَحِيفَتِي إِذَا نُشِرَتْ يَوْمَ الْحِسَابِ الصَّحَائِفُ
وَكُنْ مُؤْنِسِي فِي ظُلْمَةِ الْقَبْرِ عِنْدَمَا يَضَعُدُ دَوُو الْقُرْبَى وَيَجْفُو الْمُوَالِفُ
لَئِنْ ضَاقَ عَنِّي عَفْوُكَ الْوَاسِعُ الَّذِي أُرْجِي لِإِسْرَافِي فَإِنِّي لَتَالِفُ

١٧- الحرص على صحبة الصالحين، وتكثير سوادهم، وأن تجعلهم

من حولك.

١٨- القراءة في سير الصالحين في الكتاب، والسنة، وكلام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومن تبعهم من أئمة الهدى.

١٩- مراجعة النفس ومحاسبتها بين الفينة والأخرى.

٢٠- القراءة في الكتب التي تتكلم عن الهوى، وتحذر منه وتُنَفِّر عنه.

٢١- تدريب النفس على الفرح بالواعظين والناصحين والمذكرين بالله تعالى ولقائه؛ لكيلا ينغلق على العبد باب عظيم من أبواب الهدى والتوفيق، كما قال تعالى عن أقوام أهلكتهم ضيقهم ذَرْعًا بالناصحين: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحْتَسِبُونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

٢٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كنت واقعاً فيه، فلا تجمع بين معصيتين: اتباع الهوى، وترك إنكاره، واعلم أن هذا من الجهاد، وقد وعد الله تعالى من جاهد فيه أن يهديه سبيله تبارك وتعالى، كما سيأتي تقريره.

قال ابن رجب في «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف»: «وقيل للحسن: إن فلاناً لا يعط، ويقول: أخاف أن أقول ما لا أفعُل، فقال الحسن: وأينا يفعل ما يقول؟ ودَّ الشيطان أنه ظَفِرَ بهذا؛ فلم يأمر أحدٌ بمعروف، ولم ينه عن منكر.

وقال مالك عن ربيعة: قال سعيد بن جبير: لو كان المرء لا يأمر

بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر، حتى لا يكون فيه شيء؛ ما أمر أحد بمعروف، ولا ينهى عن منكر، قال مالك: وصدق، ومن ذا الذي ليس فيه شيء.

من ذا الذي ماساء قط ومن له الحسنى فقط

خطب عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوماً فقال في موعظته: إني لأقول هذه المقالة، وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندي، فأستغفر الله وأتوب إليه.

وكتب إلى بعض نوابه على بعض الأمصار كتاباً، يعظه فيه، وقال في آخره: وإني لأعظك بهذا، وإني لكثير الإسراف على نفسي، غير محكم لكثير من أمري، ولو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يُحكم نفسه؛ إذن لتواكل الخير، وإذن لُرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذن لاستحلت المحارم، وقُلّ الواعظون والساعون لله بالنصيحة في الأرض، والشيطان وأعوانه يودون ألا يأمر أحد بمعروف، ولا ينهى عن منكر، وإذا أمرهم أحد أو نهاهم، عابوه بما فيه، وبما ليس فيه، كما قيل:

وأعلّنت الفواحش في البوادي وصار الناس أعوان المريب

إذا ما عبثتم عابوا مقالي لَمّا في القوم من تلك العيوب

وودّوا لو كفّفنا فاستوتينا فصار الناس كالشيء المشوب

وكنا نستطب إذا مرضنا فصار هلاكنا بيد الطيب.

٢٣- الحذر الشديد من فتنة الدنيا وزخارفها وأموالها، والحرص على معاملة الله تعالى فيها بما أمر، وتذكير النفس دائماً بحقيقة الفلاح في ذلك؛ وهو ما أرشد إليه النبي ﷺ كما في «صحيح مسلم» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ».

وقد قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا طَغَى﴾ (٦) ﴿أَن رَّاهُ اسْتَغَى﴾ (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴿٨﴾ [العلق: ٦ - ٨]، فكم من عبد شغلته دنياه عن تحصيل مراتب الكمالات؛ بل عن الضروريات من العلم النافع، والعمل الصالح!

وهذه القناعة ينبغي أن تكون عامة في جميع شهوات الدنيا، وملاذها، وزخرفها، وزينتها.

واعتبر بما أدب به النبي ﷺ أمته، كما في «الصحيحين» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ لِإِنْسَانٍ أَدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابَ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ».

وفي «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ». قال أبو عيسى الترمذي: «هذا حديث صحيح».

٢٤- البعد عن النساء الأجنيات عنك، وهن غير محارمك، مهما

استطعت إلى ذلك سبيلاً؛ فقد قال النبي ﷺ، كما في «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ حَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَحْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»، والحذر من الخلوة بهن، والدخول عليهن والسفر بهن بغير محرم.

فقد بوب البخاري في «صحيحه» فقال: «بَابُ لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا ذُو مَحْرَمٍ، وَالِدُخُولُ عَلَى الْمُغَيَّبَةِ»، ثم ذكر حديث متفقاً عليه، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالِدُخُولَ عَلَى النِّسَاءِ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمُو؟ قَالَ: «الْحَمُو الْمَوْتُ» انتهى.

قلت: والحمو هو قريب الزوج، وَمَنْ يَوْمَنْ جَانِبِهِ مِنْ غَيْرِ الْمَحَارِمِ.

ثم ساق البخاري حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ»، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَةً، وَاكْتَسَبْتُ فِي عَزْوَةٍ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «ارْجِعْ فَحُجِّ مَعَ امْرَأَتِكَ»، متفق عليه.

وفي «الصحيحين» عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا تَرَكَتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ».

٢٥- الحذر من فتنه الأزواج والأولاد، فقد قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ

ءَامَنُوا إِنِّي مِنْ أَوْلِيكُمْ وَأُولَدَكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا
وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ
وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَأَنْفِقُوا لِلَّهِ مَا أَسْطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا
لِّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ [التغابن: ١٤ - ١٦].

وعلينا جميعاً العمل على أن نكون جميعاً من المشفقين من عذاب
الله تعالى؛ فإنهم أهل الفلاح والفوز، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
وَأَتَيْنَهُمُ الذِّكْرُ بِآيَاتِنَا إِذْ هُمْ يَدْعُرُوهُمْ وَإِذْ هُمْ يَقُولُونَ﴾ وَمَا أَلَنَّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ
بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَسْتَرْعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا
لَعْوَ فِيهَا وَلَا تَأْنِيهٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُوا مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾
وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾
فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ
إِنَّهُ هُوَ أَكْبَرُ الرَّحِيمِ ﴿٢٨﴾ [الطور: ٢١ - ٢٨].

٢٦- تذكير النفس بفضائل الهدى وردائل الهوى؛ لتعتبر وتتعظ؛
فتثبت وتستمسك.

٢٧- الاعتبار بأفعال الله تعالى بأصحاب الهوى المذموم فيما
حولك، وكيف تتوالى عليه والعقوبات والبلايا، ولا يتعظون ولا يعتبرون،
قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا
يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

ثم نسأل الله تعالى العافية والسلامة، ونحرص على الاستقامة،
ونشكر الله تعالى على الهداية والسلامة؛ فقد قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ
كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَلَّغَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤].

وقال ﷺ: ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ
عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٧] [الحجرات: ١٧].

٢٨- الإكثار من شكر الله تعالى، والاعتراف بفضلِهِ علينا؛ فقد تأذن
ﷺ بالمزيد لمن شكر والوعيد لمن نسي وتناسى وكفر، كما قال تعالى:
﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي
لَشَدِيدٌ﴾ [٧] وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيدٌ [٨]
أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ
مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ
فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ
مُرِيبٍ﴾ [٩] [إبراهيم: ٧-٩].

وقال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَآمَنْتُمْ وَكَانَ
اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [١٤٧] [النساء: ١٤٧].

وقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [١٣] [سبأ: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٢، ٤٣].

وفي «الصحيحين» عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُنْقَلُ التُّرَابُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى أَغْمَرَ بَطْنُهُ، أَوْ اغْبَرَّ بَطْنُهُ يَقُولُ: «وَاللَّهِ لَوْ لَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَانْزِلْ سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا فَيْتَنَا، إِنْ الْأَلَى قَدْ بَعَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فَيْتَنَةَ أَبِينَا»، وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ: «أَبِينَا أَبِينَا».

فتذكر دائماً قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تَعْلَمُونَ إِذَا مَسَّكُمْ الْأُصْرُ فَاَلَيْهِ تَجْشَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء: ٧٩].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

٢٩- تذكير النفس بقرب موتها، وقرب زوال الدنيا بحذاقها؛ ليصبر ويصابر، ويرابط على الهدى والتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ

رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ
أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٣﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِن ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ
وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٤﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٥﴾

[الرعد: ٢٢ - ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا
بِحَاثِنَاتِنَا يُوَفِّقُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ ﴿١٠﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شُرَذْلَ الْيَوْمِ
وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ، إلى أن قال تعالى:
﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿٢٢﴾ [الإنسان: ١٠ - ٢٢].

فإنما هي أيام قلائل، وعمّا قليلٍ عن هذه الدار نحن جميعاً راحلون،
فهناك الشقي وهناك السعيد، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من سعداء الدارين.

فالآخرة هي الحيوان الباقي وهي عَدُنَا الحقيقي، قال الله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ
الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ [الحشر: ١٨ - ٢٠].

وقال تعالى: ﴿بِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةً فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾

كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾
الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا
وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ
السَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
﴿٦٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَلِئِنْ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ
كَأُنُوزِلْتُمْ ﴿٦٤﴾ ﴿العنكبوت: ٥٦-٦٤﴾.

وفي «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» بسند صحيح عن الحسن
البصري، قال: «يَا بَنَ آدَمَ، عَمَلَكَ عَمَلَك! فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمُكَ وَدُمُكَ؛ فَاظْطُرْ
عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ تَلْقَىٰ عَمَلَك، إِنَّ لِأَهْلِ التَّقْوَىٰ عِلَامَاتٍ يُعْرِفُونَ بِهَا: صِدْقُ
الْحَدِيثِ، وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ، وَرَحْمَةُ الضَّعَفَاءِ، وَقِلَّةُ الْفَخْرِ
وَالخِيَلَاءِ، وَبَذْلُ الْمَعْرُوفِ، وَقِلَّةُ الْمُبَاهَاةِ لِلنَّاسِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَسَعَةُ
الْخُلُقِ مِمَّا يُقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ ﷻ».

يَا بَنَ آدَمَ، إِنَّكَ نَاطِرٌ إِلَىٰ عَمَلِكَ يُورَنُ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ فَلَا تَحْقِرَنَّ مِنَ
الْخَيْرِ شَيْئًا وَإِنْ هُوَ صِغَرٌ؛ فَإِنَّكَ إِذَا رَأَيْتَهُ سَرَّكَ مَكَانُهُ، وَلَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الشَّرِّ
شَيْئًا؛ فَإِنَّكَ إِذَا رَأَيْتَهُ سَاءَكَ مَكَانُهُ، فَرَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا كَسِبَ طَيِّبًا وَأَنْفَقَ قَصْدًا،

وَقَدَّمَ فَضْلاً لِيَوْمٍ فَقَرِهِ وَفَاقْتِهِ.

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ دَهَبَتِ الدُّنْيَا بِحَالَتِي مَالِهَا، وَبَقِيَتِ الْأَعْمَالُ فَلَا تَدُ فِي
أَعْنَاقِكُمْ، أَنْتُمْ تَسُوقُونَ النَّاسَ وَالسَّاعَةُ تَسُوقُكُمْ، وَقَدْ أَسْرَعَ بِخِيَارِكُمْ فَمَا
تَنْتَظِرُونَ؟ الْمُعَايِنَةُ، فَكَأَنَّ قَدِ، إِنَّهُ لَا كِتَابَ بَعْدَ كِتَابِكُمْ وَلَا نَبِيٍّ بَعْدَ نَبِيِّكُمْ.

يَا بَنَ آدَمَ، بَعِ دُنْيَاكَ بِأَخْرَتِكَ تَرْبِحُهُمَا جَمِيعًا، وَلَا تَبِيعَنَّ أَخْرَتَكَ
بِدُنْيَاكَ فَتُخْسِرَهُمَا جَمِيعًا» اهـ.

ومن جميل ما قاله أبو العتاهية:

نَأْتِي إِلَى الدُّنْيَا وَنَحْنُ سَوَاسِيَةٌ طِفْلُ الْمُلُوكِ هُنَا كَطِفْلِ الْحَاشِيَةِ
وَنَعَادِرُ الدُّنْيَا وَنَحْنُ كَمَا تَرَى مُتَشَابِهُونَ عَلَى قُبُورٍ حَافِيَةٍ
أَعْمَالُنَا تُعْلِي وَتَخْفِضُ شَأْنُنَا وَحِسَابُنَا بِالْحَقِّ يَوْمَ الْغَاشِيَةِ
حُورٌ وَأَنْهَارٌ تُصَوِّرُ عَلَيْنَا وَجَهَنَّمَ تُصَلِّي وَنَارٌ حَامِيَةٍ
فَاخْتَرْنَا لِنَفْسِكَ مَا تُحِبُّ وَتَبْتَغِي مَا دَامَ يَوْمُكَ وَاللَّيَالِي بَاقِيَةٍ
وَعَدًّا مَصِيرُكَ لَا تُرَاجِعْ بَعْدَهُ إِمَّا جَنَانَ الْخُلْدِ وَإِمَّا الْهََاوِيَةِ

وقد أحسن الشاعر إذ قال:

إِنِّي أَرَى عُمْرِي يَمُرُّ بِسُرْعَةٍ وَلَسَوْفَ يَأْتِي هَادِمُ اللَّذَاتِ

مَاذَا عَسَانِي إِنْ رَحَلْتُ مَقْصَرًا هَلَّا اعْتَبَرْتُ الْيَوْمَ قَبْلَ مَمَاتِي
 آهٍ مِنَ الدُّنْيَا فُتِنْتُ بِهَا وَقَدْ حَرَمْتُ فُؤَادِي لَذَّةَ الطَّاعَاتِ
 يَا رَبِّ هَذَا الْحَالُ عِنْدَكَ عِلْمُهُ بِدُلِّ بَعْفُوكَ يَا كَرِيمُ حَيَاتِي

فمن أراد النجاح في هذا العالم، والسعادة الحقيقية والحياة الطيبة؛
 فعليه أن يحقق عبادة الله جل وعلا، ثم تأتبه الدنيا الصالحة تبعًا، كما وعد
 الله جل وعلا، وهو مالك الأرزاق والخزائن.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ
 وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].
 وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ
 نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (١٣٢) [طه: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنْ
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (٢) ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا
 يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. والأدلة أكثر من أن تذكر.

وفرق كبير، بل وكبير جدًا، بين عطاء برضا؛ وهو من الرزق الحسن،
 نسأل الله من فضله العظيم، وبين عطاء يكون بسخط؛ وهو من الاستدراج
 نعوذ بالله منه!

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمُسْرِفَيْنِ فَيَسَّ الْقَرْيُنِ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذْهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾

[الزخرف: ٣٣ - ٤١].

وقال ﷺ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ، فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلِيهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّهُ هُوْلَاءَ وَهَوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢٢].

وهذا شرط الله تعالى في جميع الأمم من قبلنا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَآَذَلْنَا لَهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٥٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ

وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ يَا أَيُّهَا
الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ
النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى
تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَذَّكَّرَ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ [المائدة: ٦٥ - ٦٨].

٣٠- تذكير النفس بعظيم أجر المجاهدين، ومعية الله تعالى لهم كما
قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٦٦﴾
[العنكبوت: ٦٩]؛ ويكون الجهاد بأنواع الجهاد الثلاثة كما في الحديث
الصحيح، المُخْرَجُ فِي «الْمَجْتَبَى» للنسائي، و«مسند أحمد»، و«سنن أبي
داود»، وغيرهم؛ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ وَالْأَسْتَكْمُ».

وفي «سنن سعيد بن منصور» بسند جيد، قال سَعِيدُ بْنُ أَبِي هِلَالٍ: «إِنَّ
الْمُجَاهِدِينَ فِي اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: بَعْضُهُمْ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ: فَرَجُلٌ جَاهَدَ بِقَلْبِهِ؛ فَأَحَبُّ
فِي اللَّهِ وَأَبْغَضُ فِي اللَّهِ، وَرَجُلٌ جَاهَدَ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَأَحَبُّ لِلَّهِ وَأَبْغَضُ لِلَّهِ وَأَمَرٌ
بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ^(١)، وَقَاتَلَ الْمُشْرِكِينَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا
أَفْضَلُهُمْ»، وقد سُمِّيَ بعضهم جهاد الهوى والنفس والشيطان بالجهاد الأكبر،

(١) جاء في نسخة الأعظمي من «سنن سعيد بن منصور»: «ظني أنه سقط عقيب هذا:
«وَرَجُلٌ جَاهَدَ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَأَحَبُّ لِلَّهِ وَأَبْغَضُ لِلَّهِ وَأَمَرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَى عَنِ
الْمُنْكَرِ» حتى يتم عدد الثلاثة، ويستقيم قوله في آخره: «وَهَذَا أَفْضَلُهُمْ».

وقد ورد بذلك حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

ترك الجهاد وعدم الإنفاق عليه هلكة:

جاء في صحيح البخاري: «باب قوله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥)؛ التَّهْلُكَةُ وَالْهَلَاكُ وَاحِدٌ. حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا النَّضْرُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا وَائِلَ عَنْ حَدِيثَةٍ: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قَالَ نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ» انتهى.

قلت: وإن كثيرا من الناس لَيَفْهَمُ هذه الآية على غير وجهها؛ بل وصار بعضهم يظن أن التهلكة في الجهاد في سبيل الله، وهناك مُعَفَّلُونَ وآخرون مَفْتُونُونَ يُصَدِّقُونَ فتاواهم، بعدم الإنفاق على المجاهدين في سبيل الله، ويخدمون بذلك الطواغيت إن لم يكونوا مُتَوَاطِّئِينَ معهم؛ فهم من جُنْدِهِمْ يُنْفِقُونَ عليهم، وَيُخَرِّجُونَهُمْ مِنْ كُليَّاتِهِمْ ومُعَاهِدِهِمْ، التي أُثْبِتَتْ لِإِزْصَادِ لِمَنْ حَارَبَ الله ورسوله.

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» في شرح هذا الخبر: «ثم ذكر المصنف حديث حذيفة في هذه الآية، قال: «نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ»، أي في ترك النفقة في سبيل الله ﷻ، وهذا الذي قاله حذيفة، جاء مفسراً في حديث أبي أيوب، الذي أخرجه مسلم، والنسائي، وأبو داود، والترمذي، وابن حبان، والحاكم؛ من طريق أسلم بن عمران قال: كنا بالقسطنطينية فخرج صف

عظيم من الروم، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ، حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، ثُمَّ رَجَعَ مُقْبِلًا، فَصَاحَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُؤَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعَشَرَ الْأَنْصَارِ، إِنَّا لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ دِينَهُ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ؛ قُلْنَا بَيْنَنَا سِرًّا: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ صَاعَتْ، فَلَوْ أَنَّا أَقْمَنَّا فِيهَا وَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ؛ فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةَ الَّتِي أَرَدْنَاهَا»، وَصَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ نَحْوَ ذَلِكَ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ» انْتَهَى.

وهذا ما يقع اليوم عند الأكثرين فإنهم يَرَوْنَ أَنَّ الْجِهَادَ تَهْلُكَةٌ، وَإِنَّمَا التَّهْلُكَةُ حَقِيقَةٌ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَرْكِ الْإِنْفَاقِ عَلَى الْجِهَادِ وَالْمُجَاهِدِينَ.

عقوبة الإخلاق إلى الأرض وإيثار الدَّعَةِ والسكون:

قال الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله:

«لَا تَكُنِ الْقِيَادَةَ لِأَهْلِ الشَّرِّ، إِلَّا إِذَا تَخَلَّى عَنْهَا أَهْلُ الْخَيْرِ، وَرَضُوا مِنْ إِيْمَانِهِمْ بِإِيْمَانٍ صَوْرِي، أَوْ إِيْمَانٍ نَاقِصٍ لَا يُلْحَقُهُمْ بِهِذِهِ الْخَيْرِيَّةُ، وَإِنَّمَا يُعَاقِبُهُمْ بِتَسْلِيْطِ أَهْلِ الشَّرِّ عَلَيْهِمْ، فَيَحْكُمُونَهُمْ بِالْحُكْمِ الدِّيْنِيِّ الْمُرَخَّصِ لِأَعْرَاضِهِمْ، وَالْمُهْدَرِ لِكِرَامَتِهِمْ وَالْمُصَادِرِ لِأَمْوَالِهِمْ» اهـ.

قلت: صدق، رَحِمَهُ اللَّهُ، فَكَثِيرٌ مِنْهُ الْيَوْمَ يَرْزَحُ تَحْتَ حُكْمِ الْعِلْمَانِيَّةِ الْحُمْرَاءِ، الَّتِي تُقْصِي الدِّينَ تَمَامًا عَنْ الْحُكْمِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْاِقْتِصَادِ وَالْاجْتِمَاعِيَّاتِ، أَوْ تَحْتَ حُكْمِ الْعِلْمَانِيَّةِ الْمَتَسَرِّبَةِ بِالْديمِقْرَاطِيَّةِ، الَّتِي

تسمى بالدولة المدنية، التي تستصحب المزاج العام بشرط ألا يكون الدين مهيمناً، ولا الشريعة الإسلامية مصدرًا وحيداً للنظم والقوانين، ونحن في كل هذا نرزح تحت حكم الطاغوت الجاهلي الكافر.

وإنما النصر بإقامة الجهاد في سبيل الله بأنواعه الثلاثة لتقيم الكتاب الهادي مع السيف الحامي، والدعم المادي، فلن تأتي شرعية الله إلا بهذا، ومن توهم أنها تأتي بسبيل المفاوضات أو الديمقراطية، أو تقديم التنازلات عن الأصول والمسلمات؛ فهو واهم وإنما هو تضييعنا للدين والدنيا معاً.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۖ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَبُطِّلَ الْبَاطِلُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾

[سورة الأنفال: ٧-٨].

فالذين يودون نصرًا لا جهاد فيه ولا ابتلاء؛ فهم واهمون؛ فقد منعه الله تعالى خير خلقه من هذه الأمة بعد نبينا ﷺ، فَأَتَى لَنَا بِهِ: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۖ﴾.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ

تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فَتَنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ [سورة الأنفال: ٢٤-٢٥].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَى بَحْرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمْنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصنف: ١٠-١٤].

وقال جل في علاه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

٣١- تذكير النفس بأن هذه هي سبيل الذين أنعم الله عليهم؛ ليزداد في الهدى رغبة، وله طلباً، وعليه حرصاً وثباتاً؛ فلا يقبل عنها عوضاً، ولا يشتري بها ثمناً قليلاً، وإن الدنيا كلها من الثمن القليل؛ فهذه السبيل سبيل مسلوكة من قَبْلنا من قَبْلِ الأنبياء والمرسلين، وعباد الله الصالحين، وهي سبيل مُزَكَّاة مباركة صالحة خيرة، لا يزهد فيها ولا يفرط فيها عاقل، ولا

يبيعها بعرض فان، ونزوة من الهوى والشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ تَبِيعُ وَإِنَّكَ تَسْعِيثُ ⑤ أَهْدَانَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦﴾ [الفاتحة: ٥-٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ⑧﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

٣٢- عدم الاغترار بما يُمدُّ الله تعالى به بعض أصحاب الهوى المذموم؛ من زخرف الحياة الدنيا ومتاعها الفاني، وما هم فيه من العافية، وسلامة الأبدان، وحسن المنظر؛ فإنما هو استدراج ومكر من الله تعالى بهم، أو ابتلاء لهم؛ لينظر كيف يعملون، واعلم أن العاقبة للثقوى وللمتقين، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ⑨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ⑩ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَايِكُمْ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ⑪ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ⑫ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ⑬ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ⑭﴾

[الإسراء: ١٨ - ٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَهْرَاقِمْهُمْ رَحِمْتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِيَّةً ۚ
 وَرَحِمْتُ رِبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا
 لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾
 وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَلَّوْنَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعٌ
 لِّلْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِصٌ
 لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ
 ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَلَفَّسُ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَكِن
 يَنْفَعُكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَتُكْرَفُونَ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَن تَسْمِعَ الصَّمَّةَ
 أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ [الزخرف: ٣٢ - ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلَك رِزْقًا نَحْنُ
 نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ﴿١٣٢﴾ [طه: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ
 لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وفي «صحيح البخاري» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:
 «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ».

٣٣- الحذر الشديد من العادات والتقاليد، وما كان عليه الآباء
 والأجداد؛ حتى تعرض على الكتاب والسنة؛ فما أقره الشرع أخذنا به، وما

نهي عنه تركناه، مهما كان الأمر، وما سكت عنه فقد قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿١١٩﴾ [الأعراف: ١٩٩].

٣٤- الحرص على الاستعاذة بالله تعالى من الشيطان الرجيم؛ فإنه تبارك وتعالى نعم المولى ونعم النصير، وهو ربنا وربُّه، والقادر على كل شيء جل الله في علاه، فبه نعتصم، وإليه نلتجئ، وبه نستعيز، وعليه نتوكل، لاسيما عند هجمات الشيطان التي يوسوس بها بالشر؛ فإن وسواسه دائماً إيعاذٌ بالشر، وتكذيب بالحق، والعياذ بالله منه، ومن مكره وكيد، قال الله تعالى موصياً عباده بذلك: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ [الأعراف: ٢٠٠-٢٠٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ﴿١٨﴾

[النحل: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿يَبْنَىءَ آدَمَ لَا يَفْنَىٰ نَفْسُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهْمًا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ [الأعراف: ٢٧].

٣٥- الحرص على بذل الصدقات؛ فإنها نعم المعين على الثبات والنجاة؛ سواء النفقات العِلْمِيَّة الشرعية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (٢٤) [التكوير: ٢٤]، أو من الصدقات المالية، أو مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تعالى فَرَزَقَهُ علماً ومالاً؛ فَبَذَلَ وَأَنْفَقَ مِنْهُمَا؛ فذلك أعلاهما درجة، كما في «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ»، مختصر.

وفي «الصحيحين»، واللفظ للبخاري، عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطَ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيَعْلَمُهَا».

٣٦- تدريب النفس، وحملها على فعل الخيرات، والتنافس في المكرمات والمروءات؛ حتى يوفقها الله تعالى؛ فتصبح سجيّة وطبعاً لها، وتطمئن النفس بها، فتترقي في مراتب الكمالات، حتى تكون نفساً مطمئنة، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَأَدْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) [الفجر: ٢٧-٣٠].

٣٧- الحذر من طِبَاعِ النَّفْسِ السَّبْعِيَّةِ، والأخلاق المُرْدِيَةِ المُمَرِّضَةِ، لكبح جماحها، وإحسان التعامل معها؛ ليكون من الناجين، ولقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه العزيز، وَذَكَرَ بِهِ عِبَادَهُ نَصَحًا لَهُمْ، وَرَحْمَةً بِهِمْ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (٢٨) [النساء: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَفُورًا ﴿٩﴾ وَلَيْنَ أَذْقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضُرِّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٩ - ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾

[النحل: ٤]

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَكُوفًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَقِيًّا جَدًّا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [١٩] إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرْ أَمَامَهُ﴾ [٥] [القيامة: ٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [٧٢] [الأحزاب: ٧٢].

وقوله تعالى: ﴿بَنَيْنَاهَا لِلْإِنْسَانِ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [٦] [الذِّى خَلَقَكَ فَسَوْنَكَ فَعَدَلَكَ] ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

وروى عبد الرزاق في «مصنفه» أن عمر بن عبد العزيز قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ عَصِمَ مِنَ الْهَوَى، وَالْغَضَبِ، وَالطَّمَعِ»^(١). اهـ.

٣٨- التقليل من الترف لاسيما الغذاء؛ فإن اعتياد شيء من الجوع

(١) قلت: هو في «مصنف عبد الرزاق» من طريق معمر: «أن عمر بن عبد العزيز...»، ومعمر لم يدرك سماعاً من عمر بن عبد العزيز؛ حيث توفي عمر سنة (١٠١)، بينما ولد معمر سنة (٩٦).

وجاء في «مصنف عبد الرزاق» من طريق معمر عن قتادة وغيره: «أن عمر بن الخطاب قال: قد أفلح من عَصِمَ مِنَ الْهَوَى، وَالطَّمَعِ، وَالْغَضَبِ، وليس فيما دون الصدق من الحديث خير» اهـ.

قلت: وهذا مرسل أيضاً؛ فقتادة لم يدرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولكن المعنى صحيح، والله أعلم.

والكفاف؛ نافع للعبد أكثر من الشبع والرفاهية.

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: «وأما منافعُه بالنسبة إلى القلب وصلاحه؛ فإنَّ قلةَ الغذاء توجب رِقَّةَ القلب، وقوَّةَ الفهم، وانكسارَ النفس، وضعفَ الهوى والغضب، وكثرةُ الغذاء توجب ضدَّ ذلك.

قال الحسن: يابنَ آدم، كُلْ في ثلث بطنك، واشرب في ثلث، ودع ثُلثَ بطنك يتنفَّس لتتفكَّر.

وقال المروزي: جعل أبو عبد الله (يعني: أحمد) يُعظِّمُ أمرَ الجوع والفقر، فقلت له: يُؤْجر الرجل في ترك الشهوات؟ فقال: وكيف لا يُؤْجر وابنُ عمر يقول: ما شبعْتُ منذ أربعة أشهر؟، قلت لأبي عبد الله: يجد الرجلُ مِنْ قلبه رِقَّةً وهو يشبع؟ قال: ما أرى.

وروى المروزي عن أبي عبد الله قولَ ابن عمر هذا من وجوه، فروى بإسناده عن ابن سيرين، قال: قال رجل لابن عمر: ألا أجيئك بجوارش؟، قال: وأيُّ شيء هو، قال: شيءٌ يَهْضُمُ الطعامَ إذا أكلته، قال: ما شبعْتُ منذ أربعة أشهر، وليس ذاك أني لا أقدر عليه، ولكن أدركت أقوامًا يجوعون أكثرَ مما يشبعون».

وبإسناده عن نافع قال: جاء رجل بجوارش إلى ابن عمر، فقال: ما هذا، قال: جوارش: شيءٌ يَهْضُمُ به الطعامُ، قال: ما أصنع به؟ إنِّي ليأتي عليَّ

الشهر ما أشيع فيه من الطعام» اهـ.

قلت: وهذان أثران صحيحان عن عبد الله بن عمر؛ فقد رواهما الإمام أحمد، ووكيع، وأبو داود، في كتاب «الزهد» لهم، ورواه أبو بكر المروزي في كتابه «الورع»، وكذلك أبو نعيم في «الحلية».

٣٩- الحذر من التسويف في التوبة وإصلاح الحال مع الله تعالى؛ بل على العبد أن يسارع إلى التوبة النصوح، وعليه أن يحذر من أمانى الشيطان الكاذبة؛ فإنه الغرور عياداً بالله منه، وكما قال بعض السلف: «(سوف) جند من جند إبليس».

قال ابن مفلح في «الآداب الشرعية»: «وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ «بَهْجَةِ الْمَجَالِسِ»: قَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: كَثُرَةُ الْأَمَانِيِّ مِنْ غُرُورِ الشَّيْطَانِ. وَقَالَ يَزِيدُ عَلَى الْمُنْبَرِ: ثَلَاثٌ يَخْلِقْنَ الْعَقْلَ، وَفِيهَا ذَلِيلٌ عَلَى الضَّعْفِ: سُرْعَةُ الْجَوَابِ، وَطُولُ التَّمَنِّي، وَالِاسْتِغْرَافُ فِي الضَّحِكِ» اهـ.

٤٠- البراءة من الحول والقوة، والتواضع لله، ورد الفضل إليه؛ ليشكر الله له سعيه؛ فيثبت به القول الثابت في الدنيا والآخرة.

جاء في «الصحيحين» عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَجْهَرُونَ بِالتَّكْبِيرِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، ارْزِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ

مَعَكُمْ»، قَالَ: وَأَنَا خَلْفُهُ، وَأَنَا أَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَقَالَ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟» فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيُسَكُّ الْقَرَارَ ﴿٢٩﴾ [إبراهيم: ٢٧ - ٢٩].

٤١- الصبر وإطالة السجود؛ فإنه من أعظم أسباب الثبات على المكر والكيد، والفتن التي يرجف بها الأعداء، وتأمل في هذه الوصايا القرآنية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ التَّمَاثِيلِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

[الحجر: ٨٧ - ٩٩].

وفي «صحيح مسلم» عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَأَمَّا السُّجُودُ

فاجتهدوا في الدعاء؛ فَمَنْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ».

وفيه أيضا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ».

والصبر مفتاح للفرج، فعلى العبد أن يعتاد الصبر، وَيَوْطَنَ نفسه على إحسان الظن بالله تعالى، ويعود باللائمة عند البلاء على نفسه وما كسبت يدها.

قال ابن القيم في «طريق الهجرتين وباب السعادتين»: «الصبر، قال أبو العباس: وهو من منازل العوام أيضًا؛ لأن الصبر حبس النفس على مكروه، وعقل اللسان عن الشكوى، ومكابدة الغصص في تحمله، وانتظار الفرج عن عاقبته، وهذا في طريق الخاصة تجلد، ومناوأة وجرأة ومنازعة؛ فإن حاصله يرجع إلى كتمان الشكوى في تحمل الأذى بالبلوى، وتحقيقه الخروج عن الشكوى بالتلذذ بالبلوى، والاستبشار باختيار المولى».

وقيل: إنه على ثلاث مقامات مرتبة بعضها فوق بعض: فالأول: التصبر؛ وهو تحمل مشقة وتجرع غصة والثبات على ما يجري من الحكم، وهذا هو التصبر لله وهو صبر العوام، والثاني: الصبر؛ وهو نوع سهولة تخفف عن المبتلى بعض الثقل، وتسهل عليه صعوبة المراد؛ وهو الصبر لله، وهو نوع سهولة وهو صبر المريدين، والثالث: الاصطبار؛ وهو التلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار المولى، وهذا هو الصبر على الله؛ وهو صبر العارفين، والكلام على هذا من وجوه:

أحدها: أن يقال الصبر نصف الدين؛ فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، وقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»، فمنازل الإيمان كلها بين الصبر والشكر، والذي يوضح هذا:

الوجه الثاني: وهو أن العبد لا يخلو قط من أن يكون في نعمة أو بلية؛ فإن كان في نعمة ففرضها الشكر والصبر، وأما الشكر فهو قيدها وثباتها والكفيل بمزيدها، وأما الصبر فعن مباشرة الأسباب التي تسلبها، وعلى القيام بالأسباب التي تحفظها، فهو أحوج إلى الصبر فيها من حاجة المبتلى؛ ومن هنا يعلم سر مسألة الغني الشاكر والفقير الصابر، وأن كلاً منهما محتاج إلى الشكر والصبر، وأنه قد يكون صبرُ الغني أكمل من صبر الفقير، كما قد يكون شكر الفقير أكمل، فأفضلهما أعظمهما شكرًا وصبرًا، فإن فضل أحدهما في ذلك فضل صاحبه، فالشكر مستلزم للصبر، لا يتم إلا به، والصبر مستلزم للشكر لا يتم إلا به، فمتى ذهب الشكر ذهب الصبر، ومتى ذهب الصبر ذهب الشكر، وإن كان في بلية ففرضها الصبر والشكر أيضًا؛ أما الصبر فظاهر، وأما الشكر فللقيام بحق الله عليه في تلك البلية، فإن لله على العبد أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا، فعلم أنه لا انفكاك له عن الصبر ما دام سائرًا إلى الله.

الوجه الثالث: أن الصبر ثلاثة أقسام: إما صبر عن المعصية فلا يرتكبها، وإما صبر على الطاعة حتى يؤديها، وإما صبر على البلية فلا يشكو ربه فيها، وإن كان العبد لا بد له من واحد من هذه الثلاثة؛ فالصبر لازم له أبداً لا خروج له عنه البتة.

الوجه الرابع: أن الله سبحانه ذكر الصبر في كتابه في نحو تسعين موضعاً؛ فمرة أمر به، ومرة أثنى على أهله، ومرة أمر نبيه أن يشر به أهله، ومرة جعله شرطاً في حصول النصر والكفاية، ومرة أخبر أنه مع أهله، وأثنى به على صفوته من العالمين وهم أنبيأؤه ورسله؛ فقال عن نبيه أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿٤٤﴾، وقال لخاتم أنبيائه ورسله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ﴾، وقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، وقال يوسف الصديق وقد قال له إخوته: ﴿قَالُوا أَيْنَ نَكَ لَأَتَّيِبَنَّكَ يُوسُفُ﴾ ﴿٩٠﴾ قال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ [يوسف: ٩٠].

وهذا يدل على أن الصبر من أجل مقامات الإيمان، وأن أخص الناس بالله وأولاهم به؛ أشدهم قياماً وتحققاً به، وأن الخاصة أحوج إليه من العامة.

الوجه الخامس: أن الصبر سبب في حصول كل كمال، فأكمل الخلق أصبرهم، ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن إلا من ضعف صبره؛ فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات، فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة

ولكن لا ثبات له عليها؛ فهو ناقص، فإذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف، وحال كامل، ولهذا في دعاء النبي الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد»، ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فلو علم العبد الكنز الذي تحت هذه الأحرف الثلاثة؛ أعني اسم الصبر؛ لما تخلف عنه قال النبي ﷺ: «ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»، وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين غُشي عليه: «أدركناه بالصبر»، وفي مثل هذا قال قائل:

نَزَرَهُ فَوَادَكَ عَنْ سِوَانَا وَالْقَنَا فَجَنَابُنَا حِلٌّ لِكُلِّ مُنَزَرِهِ
وَالصَّبْرُ طَلَسُمٌ لِكَنْزٍ وَصَالِنَا مَن حَلَّ ذَا الطَّلَسُمِ فَازَ بِكَنْزِهِ

فالصبر طلسم على كنز السعادة، من حلّه ظفر بالكنز انتهى.

وقال في «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»: «قال الإمام أحمد

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعاً» انتهى.

وقال أيضاً في: «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»: «فصل: وزاد

بعضهم قسمًا ثالثًا من أقسام الصبر؛ وهو الصبر مع الله، وجعلوه أعلى أنواع الصبر، وقالوا: هو الوفاء، ولو سئل هذا عن حقيقة الصبر مع الله؛ لما أمكنه أن يفسره بغير الأنواع الثلاثة التي ذكرت وهي: الصبر على أقضيته، والصبر على أوامره، والصبر عن نواهيه، فإن زعم أن الصبر مع الله هو الثبات معه على أحكامه، يدور معها حيث دارت، فيكون دائماً مع الله لا مع نفسه؛ فهو

مع الله بالمحبة والموافقة، فهذا المعنى حق، ولكن مداره على الصبر على الأنواع المتقدمة، وإن زعم أن الصبر مع الله هو الجامع لأنواع الصبر؛ فهذا حق، ولكن جعله قسمًا رابعًا من أقسام الصبر؛ غير مستقيم.

واعلم أن حقيقة الصبر مع الله؛ هو ثبات القلب بالاستقامة معه؛ وهو ألا يروغ عنه روغان الثعالب هاهنا وهاهنا، فحقيقة هذا هو الاستقامة اليه، وعكوف القلب عليه، وزاد بعضهم قسمًا آخر من أقسامه، وسماه الصبر فيه، وهذا أيضًا غير خارج عن أقسام الصبر المذكورة، ولا يعقل من الصبر فيه معنى غير الصبر له، وهذا كما يقال: فعلت هذا في الله وله» انتهى.

لا تكن إسْفِنَجِيًّا، ولا تكوني إسْفِنَجِيَّةً:

إِنَّ مِنَ الخواص المَعْلُومَةِ لمادة الإسْفنج؛ أَنَّهُ يَتَشَرَّبُ ما يوضع فيه، فَإِنَّه قَابِلٌ لِكُلِّ مائعٍ يُغْمَسُ فيه، أو يوضع عليه؛ فَيَتَشَرَّبُهُ وَيَتَغَلَّغُلُ فيه.

وهذه الصفة موجودة بعينها في بعض العباد، مِنَ الذكور أو الإناث؛ فتجد مِنَ الناس مَنْ يَتَقَبَّلُ كُلَّ فِكْرَةٍ، وَيَتَشَرَّبُ كُلَّ فِتْنَةٍ، وَيَدُورُ مع كُلِّ ناعق، بلا بَيِّنَةٍ ولا بُرْهان، ولا تَدْقِيقٍ ولا إِحْسان ولا إِتقان، وَتَعْظُمُ البَلِيَّةُ إِنْ كان هذا تعاملُهُ مع دين الله تبارك وتعالى؛ فتراه مُطَوِّحًا بِدينه، يركب كل مَوْجَةٍ، ويستجيب لكل دعوة، فهو مُتَقَلِّبٌ مُتَلَوِّنٌ، في كل عام له إحداث في دينه؛ بل ربما تقلب أحيانًا على مدار الساعة واليوم الواحد، عيادًا بالله من الخذلان.

وهذا يُخْشَى عليه مِنَ النفاق، فكن من ذلك على حذر شديد، كيف لا وقد تشبه ببعض خصالهم، كما قال ابن القيم «في طريق الهجرتين وباب السعادتين»: «وَمِنْ صفاتهم كثرة التَّلَوُّنِ، وسرعة التَّقَلُّبِ، وعدم الثبات على حال واحد، بينا تراه على حال تعجبك من دين أو عبادة، أو هدى صالح أو صدق؛ إذا انقلب إلى ضد ذلك، كأنه لم يَعْرِفْ غَيْرَهُ، فهو أشد الناس تلوناً وتقلباً وتنقلاً، جيفة بالليل قطرب بالنهار.

ومن صفاتهم أنك إذا دعوتهم عند المنازعة، للتحاكم إلى القرآن والسنة؛ أبوا ذلك وأعرضوا عنه، ودعوك إلى التحاكم إلى طواغيتهم... إلى أن قال: وَمِنْ صفاتهم معارضة ما جاء به الرسول بعقول الرجال وآرائهم، ثم تقديمها على ما جاء به، فهم معرضون عنه، معارضون له، زاعمون أن الهدى في آراء الرجال وعقولهم، دون ما جاء به، فلو أعرضوا عنه وتعوضوا بغيره لكانوا منافقين، فكيف إذا جمعوا مع ذلك معارضته، وزعموا أنه لا يستفاد منه هدى؟

وَمِنْ صفاتهم كتمان الحق، والتلبيس على أهله، ورميهم له بأدوائهم، فيرمونهم إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ودعوا إلى الله ورسوله؛ بأنهم أهل فتن مفسدون في الأرض، وقد عَلِمَ اللهُ ورسوله والمؤمنون؛ بأنهم أهل الفتن المفسدون في الأرض، وإذا دعاهم وَرَثَةُ الرسول إلى كتاب الله وسنة رسوله خالصة غير مشوبة؛ رموهم بالبدع والضلال وإذا رأوهم زاهدين في

الدنيا، راغبين في الآخرة، متمسكين بطاعة الله ورسوله؛ رموهم بالزوكره^(١) والتليس والمحال، وإذا رأوا معهم حقاً ألبسوه لباس الباطل، وأخرجوه لضعفاء العقول في قالب شنيع لينفروهم عنه، وإذا كان معهم باطل ألبسوه لباس الحق، وأخرجوه في قالبه ليقبل منهم.

وجُمْلَةُ أَمْرِهِمْ أَنَّهُمْ فِي الْمُسْلِمِينَ كَالزَّعَلِ فِي النَّقُودِ، يُرَوِّجُ عَلَى أَكْثَرِ النَّاسِ لِعَدِمِ بَصِيرَتِهِمْ بِالنَّقْدِ، وَيَعْرِفُ حَالَهُ النَّاقِذُ الْبَصِيرُ مِنَ النَّاسِ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ، وَلَيْسَ عَلَى الْأَدْيَانِ أَضَرُّ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ النَّاسِ، وَإِنَّمَا تَفْسُدُ الْأَدْيَانُ مِنْ قِلَّتِهِمْ؛ وَلِهَذَا جَلَى اللَّهُ أَمْرَهُمْ فِي الْقُرْآنِ، وَأَوْضَحَ أَوْصَافَهُمْ، وَبَيَّنَّ أَحْوَالَهُمْ، وَكَرَّرَ ذِكْرَهُمْ؛ لَشِدَّةِ الْمُؤَنَّةِ عَلَى الْأُمَّةِ بِهِمْ، وَعَظَمِ الْبَلِيَّةِ عَلَيْهِمْ بِوُجُودِهِمْ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ، وَفَرَطِ حَاجَتِهِمْ إِلَى مَعْرِفَتِهِمْ، وَالتَّحَرُّزِ مِنْ مِشَابَهَتِهِمْ وَالْإِصْغَاءِ إِلَيْهِمْ.

فَكَمْ قَطَعُوا عَلَى السَّالِكِينَ إِلَى اللَّهِ طَرُقَ الْهَدْيِ، وَسَلَكُوا بِهِمْ سَبِيلَ الرَّدَى! وَعَدُّوهُمْ وَمَنَّوْهُمْ وَلَكِنْ وَعَدُّوهُمْ الْغُرُورَ، وَمَنَّوْهُمْ الْوَيْلَ وَالْثُبُورَ، فَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ وَلَكِنْ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ، وَسَلِيبٍ وَلَكِنْ لِّلْبَاسِ التَّقْوَى وَالْإِيمَانِ، وَأَسِيرٍ لَا يُرْجَى لَهُ الْخَلَاصُ، وَفَارٌّ مِنَ اللَّهِ لَا إِلَهَ، وَهِيَاهَاتِ وَلَا تَحِينَ مَنَاصُ! صُحْبَتُهُمْ تُوجِبُ الْعَارَ وَالشَّنَارَ، وَمَوَدَّتُهُمْ تُحِلُّ غَضَبَ الْجَبَّارِ، وَتُوجِبُ دُخُولَ النَّارِ، مَنْ عَلَّقَتْ بِهِ كَلَالِيْبُ كَلْبِهِمْ، وَمَخَالِيْبُ رَأْيِهِمْ؛ مَرَّقَتْ

(١) الزوكره: قال الشيخ محب الدين الخطيب في تحقيقه على «طريق الهجرتين»: «إظهار النسك وإبطان الفسق؛ نقله في التاج عن نفح الطيب».

منه ثياب الدِّين والإيمان، وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان؛ فهو يَسْحَبُ من الحرمان والشقاوة أذيالاً، ويمشي على عَقَبِيهِ الْقَهْقَرَى إذْباراً منه، وهو يحسب ذلك إقبالاً، فهم والله قُطَاع الطريق.

فيا أيها الرُّكْب المسافرون إلى منازل السُّعْدَاء، حذار منهم حذار، إذ هم الْجَزَّارُونَ، أَلَسْتُمْ شِفَار البلايا، ففرازاً منهم أيها الغنم فراراً؛ ومن البلية إنهم الأعداء حقاً، وليس لنا بُدٌّ من مصابحتهم، وخلطتهم أعظم الداء، وليس بُدٌّ في مخالطتهم، قد جُعِلُوا على أبواب جهنم دُعاة إليها، فَبُعْدًا لِلْمُسْتَجِيبِينَ، وَنَصَبُوا شِبَاكَهُمْ حوالِها على ما حُفَّتْ به من الشهوات، فويل للمُغْتَرِّين، نصبوا الشباك ومدُّوا الأشرار، وَأَذَنٌ مُؤَذِّنُهُمْ: يا شِياه الأنعام، حَيَّ على الهلاك، حَيَّ على التَّباب؛ فاستبقوا يُهْرَعُونَ إليهم، فَأَوْرَدُوهُمْ حِياضَ الْعَذَابِ، لا الموارد الْعَذَابِ، وسأموهم من الخسف والبلاء أعظم خُطة، وقالوا: ادْخُلُوا بابَ الْهُوانِ صاغِرِينَ، ولا تقولوا: حِطَّةٌ؛ فليس يَوْمَ حِطَّةٍ.

فواعجباً لِمَنْ نَجَا من شِراكيهم، لا مَنْ عَلِقَ، وَأَتَى يَنْجُو مَنْ غَلَبَتْ عليه شقاوته ولها خُلِقَ، فَحَقِيقٌ بأهل هذه الطَّبَقَةِ، أَنْ يَحِلُّوا بِالْمَحَلِّ الذي أحلهم الله من دار الهوان، وأن ينزلوا في أردأ منازل أهل العناد والكفران، وبحسب إيمان العبد ومعرفته، يكون خوفه أن يكون من أهل هذه الطبقة؛ ولهذا اشتد خوف سادة الأُمَّة وسابِقُوها على أنفسهم؛ أن يكونوا منهم،

فكان عمر بن الخطاب يقول: «يا حذيفة، ناشدتك الله، هل سمائي رسول الله مع القوم؟ فيقول: لا، ولا أُرَكِّي بَعْدُ أَحَدًا»؛ يعني لا أفتح علي هذا الباب في تزكية الناس، وليس معناه أنه لم يَرَأَ مِنَ النِّفَاقِ غَيْرُكَ، وقال ابن أبي مليكة: «أَذْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ» انتهى.

وتأمل في هاتين الحكمتين الرائعتين في هذين البيتين من الشعر:

وَإِذَا سَمِئْتُ مِنَ «الْوَجُودِ» لِبَرَهَةٍ فَاجْعَلِ مِنَ الْوَاوِ الْكُثْبَةَ سِينَا
وَإِذَا تَعَبْتُ مِنَ «الصُّعُودِ» لِقَمَةٍ فَاجْعَلِ مِنَ الْعَيْنِ الْبَيْسَةَ مِيمَا



المحور الثامن

كيفية التخلص من الهوى بعد استحكامه

كيف أتخلص من الهوى إذا ساكن قلبي؟

فقد عرفت كيف أعالج الهوى؛ بأن أخالفه، وأغلق الباب أمامه؛
لكن إذا دخل قلبي، كيف أتخلص منه؟

من المعلوم لدى الأكثرين: أن تغيير العوائد من أصعب الأمور،
وكثيرٌ من العباد تربى على كثير من الهوى، وتزيين الشيطان سوء الفعّال؛
فكيف يكون السبيل إلى التخلص من هذا الهوى؟

إن الجواب على هذا السؤال الكبير المُهم؛ يتمثل في القيام بستة أمور:

الأمر الأول: سؤال الله ﷻ المعونة:

وذلك بأن تسأل الله الذي خلقك ورزقك، أن يَمُنَّ عليك بالهداية،
وأن يأخذ بناصيتك إلى البر والتقوى، وأن يشرح صدرك للإسلام، وأن
يحبب الإيمان إلى قلبك، وأن يزينه لك، وأن يكرّه إليك الكفر والفسوق
والعصيان، وأن يجعلك من عباده الراشدين.

أخي المسلم: كم مرة سألنا الله ﷻ حطام الدنيا وملذاتها؟

لا شك أن الجواب، الذي لا يكاد يتردد فيه الأكثرون من العباد: أن هذه المسألة قد وقعت كثيرًا، ولا تزال تقع، كم مرة بكينا لأجل نجاح في مادة، أو حصول على وظيفة، أو عرض من أعراض هذه الفانية؟ إن ذلك كثير كثير.

حسنًا: فمتى بكينا لكي يهدينا الله ﷻ؟ متى تضرعنا لله تبارك وتعالى بصدق والتجاء، وارتمينا على بابه سبحانه، وانكسرنا بين يديه، وفزعنا إلى جنبه سبحانه، سائلين إياه الهداية والرشد؟

وقد أمرنا الله ﷻ بذلك؛ فقال كما في «صحيح مسلم» من طريق أبي إدريس الخولاني عن أبي ذرٍّ عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى؛ أنه قال: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً؛ فلا تظالموا، يا عبادي، كلُّكم ضالٌّ إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم...» الحديث.

«استهدوني»؛ أي: اطلبوا الهداية من مالکها، الذي لا يملكها أحد سواه، اطلبوها من الله ﷻ، وتعرضوا لها بفعل أسبابها، سلوه بصدق أن يخلصكم من هذه الأهواء المُردية المهلكة، وقد عرفتم خطورة الهوى، وأنه يورث سخط الله وغضبه، وأليم عقابه، ويدخل صاحبه النار، والعياذ بالله، ويعكر عليه صفو حياته.

الهدى لا يحرمك شيئاً نافعا:

اعلم، رحمك الله، أن جميع ما نهى الله تعالى عنه عباده؛ إنما نهاهم عنه لكونه ضارًّا بهم؛ إما في دنياهم، أو في آخراتهم، أو فيهما معًا، وقد قال

تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [١٤] ﴿[الملك: ١٤].

وقال ﷺ في مواضع من الذكر الحكيم: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٢١٦] ﴿[البقرة: ٢١٦].

واسمع إلى ما قاله الله تعالى فيما حرمه على عباده، وانظر لترى أنه ليس شيء منها إلا وهو كذلك: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [٨٣] ﴿[الأنعام: ٨٣].

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا مِّنْ طِبَئَاتٍ مَّا رَزَقْتَكُمْ وَأَسْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [١٧٣] ﴿[البقرة: ١٧٣] إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن أَضْطَرَّ غَيْرَ بَآغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٧٣، ١٧٤] ﴿[البقرة: ١٧٣، ١٧٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [٣٢] ﴿[البقرة: ٣٢] قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانٌ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٣٣] ﴿[الأعراف: ٣٢، ٣٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَن أَضْطَرَّ غَيْرَ بَآغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٤٥] ﴿[الأنعام: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [١٠] ﴿[البقرة: ٢١٦] إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ

وَالْبَعْضَاءُ فِي الْخَيْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿٩١﴾

[المائدة: ٩٠، ٩١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْنُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ مَا كَانَتْ خِطَاءً كَبِيرًا﴾ ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَجِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ. وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَكُمْ رَبُّكُمُ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ [الإسراء: ٣١ - ٤١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنُذِلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْنُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْنُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ. وَأَوْفُوا الْكَيْلَ

وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٣].

فما مُنِعْنَا مِن شَيْءٍ بُخْلًا بِهِ عَلَيْنَا، وَإِنَّمَا مُنِعْنَا دَفْعًا لَضَرَرِهِ عَنَا، وَاللَّهُ تَعَالَى أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا وَأَمَهَاتِنَا، كَمَا فِي «الصَّحِيحِينَ» عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيً، فَإِذَا امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ، قَدْ تَحَلَّبُ تُدْيِهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «اتْرُوْا هَٰذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ»، قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدُرُ عَلَى أَلَّا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَٰذِهِ يَوْلِدَهَا».

وإن من المصائب العظيمة: أن يظن بعض العباد أنه إذا استقام على الطريقة واهتدى؛ أن في ذلك حرماناً له من سعادته، والعياذ بالله؛ ولهذا بعض العباد لا يكاد يسأل الله الهداية، والعياذ بالله، وإن سألها إياها، فبلسانه فقط، لا بقلبه؛ لأنه يخاف من الهداية، يخاف من الالتزام؛ فهو يظن أنه إذا استقام على الشرع أن هذا ينغص عليه عيشه، والعياذ بالله، ويفسد عليه كثيراً من علاقاته ومعاملاته.

فنقول: نعم، هو كذلك، إن الهدى يُبعدك عن الهوى المذموم، ويخلصك من أسر الشيطان ومكره، وفي نفس الوقت هو يعوضك بدلاً عن

ذلك أن تعيش الحياة الطيبة، التي كتبها الله تعالى، وأرادها لعباده المؤمنين الأبرار المتقين، قال الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧) ﴿[النحل: ٩٥ - ٩٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا إِنَّا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٩٨) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٩٩) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٠) ﴿[يونس: ٦٢ - ٦٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٠١) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا دَشْتُمُوهَا أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (١٠٢) نَزَّلْنَا مِن عَفْوَ رَحِيمٍ﴾ (١٠٣) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٠٤) ﴿[فصلت: ٣٠ - ٣٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٠٥) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٠٦) ﴿

[الأحقاف: ١٣، ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (١٠٧) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٢٠﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فالله تعالى وَلِيُّهُمْ، والملائكة ظهير لهم، وتستغفر لهم، ولهم الحياة الطيبة، والمخرج الحسن من كل ورطة ومصيبة، ولهم حسن الخاتمة، والعاقبة الحميدة، نسأل الله من فضله العظيم.

وإن أبيت إلا اتباع الهوى؛ فستعيش الحياة الضنك، التي تقدم الحديث عنها من قبل.

واعلم أن من السبعة الذين يظلمهم الله تحت ظل عرشه، يوم لا ظل إلا ظله؛ «شاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال: إني أخاف الله»^(١).

إنها خيرات وبركات، وطاعات وقربات، في الاستقامة على شرع الله عَزَّوَجَلَّ؛ فلا تحرم نفسك منها، ولا تحجب نفسك عنها بهواك، والحذر الحذر كل الحذر أن يغرك الشيطان، وأن يستدرجك الهوى، وأن تستترك النفس الأمار بالسوء إلى ما لا تحمد عاقبته.

(١) متفق عليه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إني أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ» هذا لفظ البخاري.

إِذَا الدُّعَاءُ الدُّعَاءَ، عِبَادَ اللَّهِ، بِإِخْلَاصٍ وَنِيَّةٍ صَالِحَةٍ، وَحِرْصٍ وَيَقِينٍ، وَأَنْ نَكُونَ فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّادِقِينَ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ الدُّعَاءَ، حَتَّى تَوَعِدَ مِنْ لَا يَدْعُوهُ وَتَهْدِدُهُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وَذَلِكَ مِنْ رَحْمَتِهِ بِهِمْ؛ لَعَلَّمَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ الْهَلَاكَ مَعَ عَدَمِ الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ أَشَدَّ مَا يَكُونُ، وَأَحْوَجُ شَيْءٍ، إِلَى الدُّعَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [٧٤] أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرُبَةَ إِيمًا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا نَجِيَّةً وَسَلَامًا [٧٥] خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا [٧٦] قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا [٧٧] [الفرقان: ٧٤ - ٧٧].

وَفِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»، وَقَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿دَاخِرِينَ﴾ [٧٧] (١).

شرط الله تعالى في قبول الدعاء:

وعلينا بتحقيق شرط قبول الدعاء؛ من الاستقامة، وعدم اتباع سبيل الذين لا يعلمون، كما قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا

(١) أخرجه الأربعة، وأحمد، وغيرهم، وقال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

وَلَا تُتَعَاَنَ سَكِيلَ الَّذِيكَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ [يونس: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ﴿٨٩﴾ [البقرة: ٨٩].

مع الحرص على التوبة النصوح، وألا تكون كتوبة الكذابين، والعياذ بالله، الذين يصرون على الذنوب والمنكرات، ويقتصرون على الاستغفار بالاستتغفار، مع الإقامة على سوء وقبح فعالهم وخصالهم؛ كلا، عباد الله؛ بل علينا أن نرى الله تعالى من أنفسنا صدقاً، وأن نطبق شروط التوبة النصوح^(١)، حتى تكون النجاة بإذن الله ﷻ.

سبحان الله! ما أعجب هذا! الله تعالى يغضب إذا لم تسأله مع كمال غناه عنا، ما أرحمك يا الله! وما أكرمك وأعظمك!

قال الشافعي رحمه الله تعالى:

لَا تَسْأَلَنَّ بَيْنِي آدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الَّذِي أَبَوابُهُ لَا تُحْجَبُ
اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَه وَبَيْنِي آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

(١) وإليك شروطها الستة: أن تكون في زمن تقبل فيه التوبة، والإخلاص فيها لله تعالى، والإقلاع عن الذنب مباشرة في التو واللحظة؛ أي: عدم الإصرار، والندم على ما بدر، ومعاودة الله تعالى على عدم العودة، ورد المظالم والحقوق إلى أهلها.

الأمر الثاني: طلب العلم الشرعي الموروث عن النبي ﷺ:

فإن العلوم اليوم كثيرة، وما أكثر شهاداتها اليوم في أمة الإسلام! ومع ذلك ما أكثر الضلال والانحراف! وما أعظم الذل الذي أصابنا أمة الإسلام! والسبب أننا أخطأنا الطريق، وفقدنا البوصلة؛ يوم أن حسبنا أن عزنا وتقدمنا ونصرنا؛ هو في الإقبال على علوم الحياة الدنيا، وإهمال علم محمد ﷺ.

ألا فلنعلم جميعاً: أن النجاة لا تكون إلا في طلب العلم الشرعي، والحرص الشديد على نشره والعمل به، فهي نحن عندنا الملايين من الأطباء، والمهندسين، وفي سائر الفنون، ولكننا ما زلنا أضعف أمة، وأذل أمة؛ فدماؤنا رخيصة؛ بل هي أرخص الدماء، فحياتنا لا تساوي طلقة رصاص، وأعراضنا مهتوكة، وأموالنا مسروقة، ومقدّرات وخيرات بلادنا منهوبة؛ لماذا كل هذا، عباد الله، مع كثرة هذه العلوم الدنيوية، وكثرة شهاداتها فينا أمة الإسلام؟ الجواب: لأننا ابتعدنا عن العلم الشرعي.

وعلاقة ذلك بموضوعنا: أن أعظم ما يخلصك من الهوى هو طلب العلم الشرعي، والعمل به؛ فهناك الهدى، وبلا علم يكثر تخبطنا، وتنتشر المعاصي فينا؛ بل والكفریات والشركیات؛ وحينئذ نفقد معية الله تعالى، ويتسلط علينا أعداؤنا.

فكم من طاعة تركناها نظن أنها معصية؟، والعكس كذلك؛ كم من معصية ركبناها نظن أنها طاعة؟ وكم من سنة تركناها نظن أنها بدعة؟، والعكس كذلك كم

من بدعة ركبناها ظانين أنها سنة؟ وكم من هدى تركناه نظن أنه هوى؟ وكم من هوى عملنا به نظن أنه الهدى؟ كل هذا بسبب عدم معرفة حدود ما أنزل الله ﷻ، لناخذ على رسوله ﷺ؛ فالله الله في طلب العلم الشرعي الموروث عن النبي ﷺ، لناخذ ديننا من الكتاب والسنة، على طريق سلف الأمة الأخيار الأطهار رضي الله عنهم وأرضاهم، على فهم الصحابة الكرام البررة رضي الله عنهم.

الخيرية والكرامة، والفلاح والرشد، والمخرج من التيه والضلال:

ولنعلم أن من أكبر علامات الهوى في هذا الزمان: اختلاط الحابل بالنابل، واختلاف الأحوال؛ لاختلاف الأهواء، حتى أصبحنا نرى كثيراً من العباد اليوم في حيرة من أمرهم، وتراهم يتساءلون: أي منهج نتبع؟ وأي طريق نسلك؟ وأين هو الحق؟

وما ذلك إلا لأنهم يسمعون الكل يقولون: نحن على الحق، وكلهم يزعمون أنهم هم أهل النجاة فأين السبيل؟ وأين المخرج؟

إنها الأهواء، عباد الله، التي أخبر النبي ﷺ أنه ستكثر في آخر الزمان؛ فكل متبع ما يراه ويقرره ويدعي أنه الحق، وربما كان هو الهوى، والعياذ بالله، وترى كل حزبٍ وطائفة وجماعة بما لديهم فرحون.

جاء في الإبانة الكبرى لابن بطة من طريق الحسَن البصري، أَنَّ أَبِي بَنَ كَعْبٍ، قَالَ: «هَلَكَ أَهْلُ الْعُقْدَةِ، وَرَبُّ الْكَعْبَةِ هَلَكُوا، وَأَهْلَكُوا كَثِيرًا، وَاللَّهُ مَا

عَلَيْهِمْ أَسَى، وَلَكِنْ أَسَى عَلَى مَا يُهْلِكُونَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ». «يَعْنِي بِالْعُقْدَةِ: الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ عَلَى الْأَرَاءِ، وَالْأَهْوَاءِ، وَالْمُفَارِقِينَ لِلْجَمَاعَةِ» انتهى.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «جَامِعُ الْعُلُومِ وَالْحِكْمِ (٦٧): «وَإِذَا صَارَ مَلُوكُ النَّاسِ وَرِءُوسُهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، انْعَكَسَتْ سَائِرُ الْأَحْوَالِ، فَصُدِّقَ الْكَاذِبُ، وَكُذِّبَ الصَّادِقُ، وَاتُّمِنَ الْخَائِنُ، وَخَوَّنَ الْأَمِينُ، وَتَكَلَّمَ الْجَاهِلُ، وَسَكَتَ الْعَالِمُ، أَوْ عُدِمَ بِالْكَلِيَّةِ، كَمَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيُظْهَرَ الْجَهْلُ»، وَأَخْبَرَ: «أَنَّهُ يَقْبُضُ الْعِلْمُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ، اتَّخَذَ النَّاسُ رِءُوسًا جَهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَصِيرَ الْعِلْمُ جَهْلًا، وَالْجَهْلُ عِلْمًا، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ انْقِلَابِ الْحَقَائِقِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَانْعِكَاسِ الْأُمُورِ» اهـ.

فَأَيْنَ السَّبِيلُ؟ وَأَيْنَ الْمَخْرَجُ؟

الجواب: لَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْمَخْرَجَ، كَيْفَ لَا وَهُوَ الْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَهُوَ الَّذِي بَلَغَ الْبَلَاغَ الْمُبِينُ، وَهُوَ الَّذِي اسْتَقْصَى لِأُمَّتِهِ دَلَائِلَ الْهُدَى وَالْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ.

وإليك هذا الحديث العظيم القدر، الجليل المنفعة؛ حيث يشخص فيه النبي ﷺ الداء والدواء، ويدل أُمَّتَهُ عَلَى الْمَحْجَةِ الْبَيضاء، لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا

سواء، لا يزيغ عنها إلا هالك، نسأل الله العفو والعافية.

أخرج الترمذي وصححه، وأخرجه غيره، من طريق خالد بن معدان عن أبي عبد الرحمن السلمي عن العبراض بن سارية قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُودَّعٌ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ، فَعَلَيْهِ بُسْتِي وَسُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ»، قَالَ أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

عباد الله، تأملوا في قول رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ»؛ أي: سيري أوهاء كثيرة محدثة، وسيسمع آراء كثيرة مختلفة متباينة محدثة، ومع ذلك فالكل يزعم أنه على الحق.

ثم بين النبي ﷺ المخرج الصحيح، والسييل الصائبة التي يجب أن تسلك للتمييز بين كل ما يقال ويطرح، وتحديد الحق لِيَتَّبَعَ؛ فقال ﷺ: «فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بُسْتِي وَسُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ».

فالرسول ﷺ يرشدنا هنا إلى المخرج عند كثرة الأهواء، واختلاف الأمور واختلاطها.

إن المخرج إنما هو في الرجوع الصادق إلى الكتاب والسنة؛

المتمثل في التجرد للحق للاهتداء به؛ لا تعصباً لحزب، ولا لهوى، ولا لجماعة، ولا لطريقة، ولا لرأي، ولا استجابة للجموع وضغط الواقع، وقول الأكثر ومطالبهم؛ كلاً، عباد الله؛ ليس شيئاً من ذلك ألبتة؛ إنما هو في هذا المخرج الذي أمر به النبي ﷺ، ودل عليه أمته، لا مخرج لنا سواه.

ولكن بشرط:

أن يكون الاستدلال بالكتاب والسنة على فهم الصحابة رضي الله عنهم أصالةً، ثم من تبعهم بإحسان في القرون المفضلة، من سلف هذه الأمة الأخيار الأطهار الأبرار.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥).

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ نُوَلِّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّكُمْ رَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ [البقرة: ١٣٧ - ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَالسَّيْفُوكِ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهِجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٠).

هؤلاء هم علماء الأمة الكبار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين أحال عليهم الكتاب العزيز، والسنة الصحيحة المطهرة؛ فليس فوقهم علماء إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهم حجة على مَنْ بعدهم في فهم هذا الدين كله؛ أصوله وفروعه، وكل مَنْ بعدهم عالة عليهم فهمًا وعلمًا.

واعلم، رحمك الله: أن القول الذي يجتمعون عليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أو يتكلم به بعضهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولا يختلف عليهم الآخرون منهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُمَثِّلُ سبيل المؤمنين، وأن قولهم حجة قاطعة في فهم الدين، وأن الفهم الصائب لهذا الدين العظيم؛ هو ما كانوا عليه، ودانوا به؛ فقد بين الله تعالى أن للمؤمنين سبيلًا، وأمَرنا باتباعها، والتسليم لهم في ذلك، وهذه السبيل هي في مقابلة سبيل المجرمين.

واعلم، أرشدك الله لطاعته، أن الأمر المقطوع به في القرون المفضلة: أن قول الصحابي حجةٌ في فهم الدين، بالضابط المتقدم ذكره، وأن القول بعدم حجية أقوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما هو إلا لُوثَةٌ كلامية، اعتزالية بدعية، باطلة منكرة، وقد صرح الأئمة، في مواضع من كتبهم، بحجية قول الصحابي الذي لم يختلف عليه فيه؛ منهم الإمام الشافعي في كتابه «الرسالة».

السؤال الكبير الذي يفرض نفسه، في مثل هذه المقامات الكبار: أنخاف على الأمة من الزيغ والضلال، إن حَمَلْنَاهُمْ عَلَى أقوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في فهم الدين والعمل به، وفهم الأدلة وتنزيلها؟
خِبْنَا والله إِذْنٌ وَخَسِرْنَا! خِبْنَا والله إِذْنٌ وَخَسِرْنَا!

شهداء الله في أرضه:

واعلم، رحماني الله وإياك، أن الصحابة هم أصول الشهداء في أرض الله تعالى من هذه الأمة، كما في «الصحيحين» من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ».

فَلَنَرُقْ بِأَنْفُسِنَا، فَلَنَسْبِقِ الْقَوْمَ إِلَى فَضِيلَةٍ، وَلَنَنْبِزَهُمْ فِي فَهْمِ هَذَا الدِّينِ وَالْعَمَلِ بِهِ؛ فَمَا بَقِيَ إِلَّا أَنْ نَعْمَلَ بِمَا أَوْصَانَا بِهِ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ، قَالَ: فَجَلَسْنَا، فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا»، قُلْنَا: يَا

رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنَا: نَجْلِسُ حَتَّى تُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ، قَالَ: «أَحْسَنْتُمْ، أَوْ: أَصَبْتُمْ»، قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ؛ فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي؛ فَإِذَا ذَهَبَتْ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي؛ فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ».

وفي «الصحيحين» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ يَحِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينُهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ».

وسياقي مزيد بيان لذلك؛ لخطورة المسألة، ودخولها في جميع أمور الدين. واعلم، غفر الله لي ولك، أن أهل البدع لم يُعَوِّزْهُمْ الاستدلال على غالبِ بِدْعِهِمْ؛ فَأَنْتَ تراهِمُ يتكلمون بأدلة من الكتاب والسنة، ولكنهم أرادوا فهمًا على أهوائهم، وتنزيلاً على حسب ما يحلو لهم؛ وهنا يستبين لنا أهمية سبيل المؤمنين.

فالإسلام هو الدين الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهو ما تلقاه الأئمة عن الصحابة.

فالإسلام الشرائع، والسبيل هو بيان كيفية فهمها، وكيفية العمل بها وتنزيلها، وهنا يَنْخَرِمْ الهوى ويظهر الهدى، ويتميز الحق من الباطل، في الأقوال والآراء والاجتهادات.

فلا يَنْفَكَا أَبَدًا؛ وإلا كانت المشاقة والضلالة، عيادًا بالله منها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِيَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥)؛ فالآية ذكرت الهدى، ثم عطف بيان السبيل المتبعة فيه.

وإلا فإن لغة العرب واسعة، والمعاني متكاثرة لا تكاد تنحصر، وبعضها أضداد، وهنا يظهر سبيل المؤمنين؛ ليرد الناس إلى جادة الطريق، وسواء السبيل.

والمُشَاقَّةُ لهم تكون بفهم الدين على غير فهمهم، والتعامل معه ومع أدلته بغير طريقتهم، وهو هدي النبي ﷺ الذي ربي عليه أصحابه، وشهد لهم بالخيرية ثم لقرنين.

وأمرنا باتباعهم بإحسان، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْآخِرُونَ أُولَٰئِكَ الْمُؤَدَّبُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنَجْتَنِبُ غَمَّهُمْ وَلَنُفِثَنَّهُمْ وَلَنَجْوَئُهُمْ وَمُنَاصَرَتُهُمْ وَعَدَدُهُمْ وَأَعْدَاءُهُمْ جَمْعًا مَجْمُوعًا﴾ (التوبة: ١٠٠)؛ [التوبة: ١٠٠].

المطلوب اتباع الصحابة بإحسان لا بإساءة:

واتباعهم بإحسان أيضًا هو في عدم مشاقة سبيلهم، لا في طرح فهمهم للأدلة، ومقارعة عقولنا لعقولهم، واجتهاداتنا لاجتهاداتهم؛ إذ إن ذلك هو الاتباع بإساءة لا بإحسان، والمعنى أنه انتساب صوري إلى

سبيلهم، مع الإمعان في مشاققتهم في فهم الدين وتنزيله.

فما قبض الله نبيه حتى أنزل سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فما كان عندهم ديناً فهو عند الله الدين، وإلا فإنما هو اتباع الهوى، وترك الهدى الذي كانوا عليه، حتى قال الله تعالى عنهم في خمس مواضع من الذكر الحكيم: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

فالذي يريد أن يجعل فهم النصوص كل بحسب ما أذاه إليه اجتتهاده؛ هو مُشَاقٌّ لسبيل المؤمنين؛ بل وهذا من أعظم أسباب فساد الدين؛ بل والوقوع في الزندقة، وفتح بابها؛ ولهذا تجد أئمة هذا الدين في زمان السلف يردون إلى فهم الصحابة.

الأدلة على وجوب الاعتداد بفهم الصحابة وعلومهم:

وتأمل ما كان عليه المسلمون في فهم الدين، وتبين حقيقة ما ترمي به الأهواء على أفواه وقلوب البعض.

ففي «صحيح مسلم» من طريق يحيى بن يعمر، قال: «كان أول من قال في القدر بالبصرة مَعْبُدُ الْجُهَنِيِّ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري؛ حاجين أو مُعْتَمِرِينَ، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن

الخطاب داخلاً المسجد؛ فافتتته أنا وصاحبي؛ أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله...» الحديث.

هكذا علموا أن الدين ليس ليلاً يَحْطُبُ فيه كُلُّ حاطب؛ بل هو نهار نستبين فيه سبيل المؤمنين.

وكم من الأذكياء والحفاظ، خانهم ذكاؤهم وحفظهم لما أرادوا أن يفهموا النصوص على سبيل أنفسهم، لا على سبيل المؤمنين.

سبب ضلال الفرق بسبب التَّنَكُّرَ لِفَهْمِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

فهؤلاء القدرية لم ينقصهم النص، حتى نقول: إن الاحتجاج كان بمجرد ذكر أدلة القدر لهم، في خبر ابن عمر المتقدم؛ ولكن كان ينقصهم كيفية الإيمان بالقدر؛ فإن لفظة القدر مجملة ولها معان، وهذا ما أراده يحيى وصاحبه.

فليست المشكلة عند أهل البدع أنه ليس عندهم لفظ الدليل، ولكن مشكلتهم في فهم الدليل وطريقة التعامل والتنزيل.

ولاحِظْ، بارك الله فيك، كيف أنَّ يحيى بن يعمر، وحמיד بن عبد الرحمن الحميري، لم يفرِّقا بين أصحاب محمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ بل علموا أنهم مهما وجدوا أحداً منهم؛ فقد حصلوا على المطلوب، فكلهم عدول، وكلهم عامل بما كان عليه النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وما ربَّاهم عليه؛ ولهذا قالوا: «لو لقينا

أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ؛ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر».

هكذا كان السلف يعلمون علم اليقين؛ أن للمؤمنين سبيلاً وطريقةً في فهم هذا الدين العظيم، وأن هذه السبيل هي ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وهنا خبر آخر جليل القدر فتأملهُ، وانظر كيف أن أبا سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيَّنَّ؛ بل وَجَزَمَ أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الأحق بفهم الدين، وأنه لم يقل للسائل: عليك أن تفهم على اجتهدك، فنحن رجال وأنتم رجال.

ففي «صحيح مسلم» من طريق أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اعتكف رسول الله ﷺ العشر الأوسط من رمضان، يلتمس ليلة القدر قبل أن تبان له، فلما انقضى أمر بالبناء فقوَّض، ثم أُبَيِّنَتْ له أنها في العشر الأواخر، فأمر بالبناء فأعيد، ثم خرج على الناس، فقال: «يا أيها الناس، إنها كانت أُبَيِّنَتْ لي ليلة القدر، وإني خرجت لأخبركم بها، فجاء رجلان يَحْتَقِقَانِ معهما الشيطان؛ فتسيتها، فالتَمِسوها في العشر الأواخر من رمضان، التَمِسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»، قال: قلت: يا أبا سعيد، إنكم أعلم بالعدد منا، قال: أجل، نحن أحقُّ بذلك منكم، قال قلت: ما التاسعة والسابعة والخامسة؟ قال: «إذا مضت واحدة وعشرون؛ فالتى تليها ثنتين وعشرين وهي التاسعة، فإذا مضت ثلاث وعشرون، فالتى تليها السابعة، فإذا مضى خمس وعشرون فالتى تليها الخامسة».

فتبين بهذا أنه لا بد للعبد لفهم هذا الدين من أن يرجع إلى فهم

الصحابة رضي الله عنهم، وهذا متكاثر جداً من عمل التابعين والسلف وأقوالهم، وإلا إن لم نتمسك بمنهجهم هذا؛ وقعنا في الضلال والانحراف.

وهذا ما جرى مع جميع طوائف الضلال؛ حيث لم يحذروا من اتباع الأهواء والآراء، ولم يلتفتوا إلى سبيل المؤمنين، ومن هؤلاء الخوارج، الذين حذر النبي ﷺ منهم، وتأمل هذا الخبر: «يقراءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوزُ صلاتهم تراقبهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية»، وما ضل من ضل إلا من جهة عدم فهم الدليل، على طريقة الصحابة.

فما من عالم إلا وقد رضي عن عقله وفهمه، ولكن الشأن أن يعلم العالم أن فهم الصحابة فوقه، وهو المقصود، لا فهم نفسه، وإلا كان الكبر المُبْطِنُ، أو الإزراء المُبْطِنُ؛ فمن هذا الذي ارتضينا فهمه، وطرحنا معه فهم الصحابة؟

الاعتزال سنة شرعية، وطريقة مرضية:

وإنَّ مما يقرره أهل السنة والجماعة، أنهم إنما يأخذون دينهم من الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة.

وهذا من الأصول المتفق عليها بين أهل السنة والجماعة؛ فعلى كل من انتسب إلى هذا الأصل، أن يكون عاملاً به، مفتخراً بذلك، لا ينكل عنه ولا يتنصل منه، وعليه أن يكون معزلاً للباطل، عاملاً على إنكاره واستئصاله والتحذير منه.

وعليه ألا يتنكر للحق باعتبارات فاسدة وأعداء واهية، كمن يقول:

كيف خفي ذلك على العالم الفلاني؟، أو قولهم: وهل هذا العالم لم يحقق في هذه المسألة المتعلقة بأصل الدين والإيمان؟، ونحو ذلك من الأقوال؛ فإن هذا من مواقع الزلل والجهل، والمخالفة الصريحة لما يدين الله تعالى به من الاعتداد بالأصل المتقدم تقريره.

وإن مما ينبغي أن نتذكره دائماً، أنه ليس من حقنا أبداً أن نتخذ من الخلف سلفاً؛ لنعترض به، ونعارض أقوالاً وأحوالاً للسلف الصالح، أهل القرون الثلاثة المفضلة، فتأمل.

والمتأمل في الساحة الدعوية في هذا العصر؛ يجد أن أقوالاً انتحلوا ذلك؛ فاتخذوا من الخلف سلفاً، وجعلوا أقوالهم قاضية وحاكمة على كل حال، وإن خالفت أقوال السلف؛ بل وإجماعهم، فالله المستعان، ونعوذ به من العمى والخذلان.

كما أن من المتقرر لدى أهل العلم، أن العالم لا يسعه التقليد، وهو قادر على البحث والتنقيب عن الحق لإصابته، فكيف بمسائل العقيدة، فإن الأمر أعلى وأجل.

وإن قضية اجتناب الطاغوت، هي من القضايا التي كثرت معالجتها في الكتاب والسنة، تارة بالتحذير الصريح، وتارة بالثناء على مجتنب الطاغوت، وتارة بالحث على اجتنابه، وتارة بذكر نجاة من اجتنب

الطاغوت، وهلاك وبوار من لم يفعل.

كما أن المتأمل يجد أن الألفاظ قد تنوعت، وتنوعت العبارات والسياقات، في هذا الصدد كذلك، كل هذا إمعاناً في بيان خطورة هذا الشأن العظيم، والخطب الجلل.

فهناك الأمر بالترك، وهناك الأمر بالاعتزال، وهناك النهي عن الركون، وهناك الأمر بالبراءة، وهناك الحث على المنابذة؛ بل وجاء التصريح بالأمر بالمقاتلة، مع وجود الشوكة؛ لإزالة الطاغوت، حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وجميع هذه الألفاظ، قاضية وبكل صراحة ووضوح، أنه لا يحق لعبد، مهما بلغ من العلم والديانة والتقوى والورع؛ أن يكون مداخلًا للطاغوت، فضلاً عن أن يكون خادماً له؛ إذ كيف يتصور ذلك مع تحقيق المنابذة، والسعي في المقاتلة والإعداد لذلك، والقيام بالاعتزال التام والبراءة المعلنة؛ بل كيف يتأتى ذلك مع تحقيق معنى الترك والاجتناب وعدم الركون؟.

لا شك أن هذا من أبطل الباطل، ومن أقبح أنواع السعي الحثيث في الجمع بين المتناقضات؛ فإن الإيمان لا يكون دائماً إلا في حد في مقابلة الطاغوت على كل حال، فلا تقارب ولا ركون ولا مداخله؛ بل هو الاعتزال والاجتناب، والحرب المعلنة، والتحدي إن أمكن ذلك، والبراءة

من الطاغوت ومتعلقاته، فإنما هو الاجتناب للعابد والمعبود من دون الله تعالى، بكل ما تحمله هذه المعاني من الضرورات والإلزامات.

وقصص الأنبياء والصديقين واضحة المعالم في الكتاب والسنة، كلها دالة وقاضية بتقرير هذا المقام الكبير الخطير، فلا تجد نبياً، ولا رسولاً، ولا صديقاً، إلا وهو محقق لمعنى هذا الاجتناب، من خلال الاعتزال والترك، والبراءة والتحدي، والمحاربة إن أمكن ذلك، وغير ذلك من المعاني الكبار المتعلقة بهذا الأمر العظيم.

وإن أي مداخله للطاغوت، أو محاولة لإيجاد قواسم مشتركة معه، وإن كانت بدعوى تقليل الباطل أو الظلم، يصب مباشرة في باب التلبس في الدين، وعدم منابذة الطاغوت، فالحذر الحذر.

وإن من أعظم الأمور التي جَرَّتْ إلى تثبيت الطاغوت وبقائه، مداخلته وتولي المناصب له؛ إذ أن الواجب على المسلمين السعي في إزالته، فلما داخلوه وركنوا إليه؛ مسهم العذاب؛ حيث رَقَّتْ مسائل الشرع عندهم؛ بل تناسوا الطاغوت؛ بل وصاروا معذرين عنه؛ لأنهم والحالة هذه، إنما يعذرون عن أنفسهم وواقعهم المر الذي يعيشونه، ترى ذلك على حالهم ومقالهم، فمن قائل: أتريدنا أن نعتزل المجتمع؟، وآخر يقول: نريد الإصلاح، ومن قائل: هذا ولي أمرنا وتجب طاعته.... الخ.

أما علم هؤلاء أن الطاغوت هو عبارة عن مؤسسات وكيانات، يمرر

من خللالها الطاغوت حكمه الجاهلي بدستوره الكفري؟، وهو بحاجة ماسة إلى من يُكَمِّعُ له حاله، ويروج له، ويدخل هؤلاء معه تم له ما يريد.

والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه، أليس من القواعد المتفق عليها، عند هؤلاء الذين يزعمون مداخلة الطاغوت بدعوى الإصلاح وتقليل الشر، أخذهم بقاعدة: «أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأمرنا بتقديم خير الخيرين بتفويت أدناهما، وبدفع شر الشرين باحتمال أدناهما».

فنعول لهم ولغيرهم: أليس من المقطوع به، أن أعظم الشر على الإطلاق هو الكفر والشرك بالله تعالى، وهو الطاغوت المأمور باجتنابه والكفر به، والبراءة منه ومن أهله؟

فنسألهم، ما هي المفسدة التي هي أعظم من الطاغوت، التي قادتهم إلى الركون إلى الطاغوت ومداخلته؛ لتدفعوا الأعلى بالأدنى، ولا شك أنه وبهذا الاعتبار والتصور، أن الأدنى هنا هو الطاغوت، والأعلى هو ذلك الشيء الذي لأجله داخلوا الطاغوت محتملين إياه؛ لدفع ذلك الأعلى.

فنعود ونقول: ما هو هذا الأمر الذي هو أعظم من الطاغوت، حتى دفعتم الأعلى باحتمال الأدنى (الذي هو اجتناب الطاغوت في هذه الحالة)؟

إن المتأمل في واقع هذه المداخلات، يجد أن الأمور التي يذكرونها،

والتي بسببها داخلوا الطاغوت؛ كانت على كل حال أدنى بكثير من الطاغوت؛ بل وفي كثير من الأحيان إن لم يكن دائماً، تكون هذه المداخلة؛ لتقليل ضرر وقع على الناس في دنياهم، من مأكّل ومشرب وملبس، ووظائف، ونحو ذلك من أسباب المعاش.

ولا شك أن هذه الأشياء، لا يحل معها أبداً، بحال من الأحوال؛ مداخلة الطاغوت، المأمور باجتنابه ومحاربته، واعتزاله وتركه، والكفر به والبراءة منه ومن أهله؛ بل وعدم الركون إليه في قليل ولا كثير.

بل لا يحل أبداً مداخلته مهما كان الأمر؛ لأننا لم نؤمر بهذا فيما يتعلق بالطاغوت، كما هو بين من النصوص الصريحة، وتعامل الأنبياء والصديقين في محكم التنزيل.

ولكنها اللؤنة التي أخذت بعض القوم، في ترقيق مسائل التوحيد، والتي تولّى كبرها في هذا الزمان بعض الطوائف، والأحزاب المنتسبة إلى العمل الإسلامي والدعوة إلى الله؛ حيث يكون المعظم عند هؤلاء غالباً دنيا الناس لا دينهم.

ومن المقطوع به أن هذا التصور مخالف؛ بل ومصادم تماماً لدعوة الأنبياء والمرسلين؛ بل ومناهض على طول الخط لملة إبراهيم الخليل الحنيف ﷺ، الذي أمر الأنبياء من بعده أن يأخذوا بها، ويسيروا على

منوالها، وأن يتبعوها، لا يرغبون عنها، ولا يلتفتون إلى غيرها أبداً.

جماعة الإخوان المسلمين في ميزان اجتناب الطاغوت:

ومن أبرز هؤلاء، بعضٌ ليس بالقليل؛ بل هم كثيرٌ من المُتَمَنِّين إلى جماعة الإخوان المسلمين، حيث يرى هؤلاء أنَّ الشريعة ليست مُلْزِمةً على كل حال، ولكنها أمر مهم، ولكن إن كان تطبيقها سَيَجْرُ إلى زوال ملكهم، ووقوع فتن على الناس في دمائهم وأموالهم، ونحو ذلك من سوء ظنهم بالله تعالى، فيمكن تأخير الشريعة؛ بل وإلغاؤها، إلا من بعض أحكامها، من نكاح وطلاق ومواريث ونحو ذلك.

ولا إشكال عند هؤلاء من اعتماد الديمقراطية كحل وسط (زعموا) للخروج بالعباد والبلاد من الفتن.

وماذا كانت النتيجة؟ إنهم قد شَوَّهوا صورة الإسلام الناصعة، واعتقد فئام من عوام الناس أنَّ هذا المُقَدَّم هو دين محمد ﷺ؛ فراحوا يقولون: لا نريد الشريعة عياداً بالله من الكفر والزندقة، وفرح بذلك العلمانيون والشيوعيون، وغيرهم من أعداء الإسلام من الزنادقة والمحاربين لشريعة محمد عليه الصلاة والسلام، والله المستعان.

ومن باب الإنصاف ليس كلهم كذلك؛ ولهذا قلت: «كثير من المتتمين»؛ إذ فيهم من يطالب بتطبيق الشرع، ولكنهم وللأسف مخدوعون بشعارات أخرى زائفة خبيثة، ينبغي أن يقوموا عليها ويتبرءوا منها، كتجديد

الدين بحسب الوقائع، والاعتداد بالعقل وإن خالف النقل، والاحتجاج بوجود الخلاف، وأنه لا إنكار مع وجود الخلاف، والكل يسعه أن يأخذ بما يوافق واقعه، وتقديم الأمور التنظيمية على الأحكام الربانية، وهذه من الطوامم العظام؛ فإن جعل الولاء للتنظيم، ولو عارض شرع الله تعالى؛ هو داخل في عموم قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، كما أنهم يرفعون شعار «السياسة فقه الواقع»؛ فيجعلون من الواقع حجة ومناطاً للأحكام والتصورات والتعاملات، عياداً بالله من الخذلان.

أخبار عن الاعتزال والترك للباطل، واجتنابه والسعي في اجتثاثه:

وتأمل هذه الأخبار، ففي الصحيحين من طريق جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض فقلنا: حدثنا أصلحك الله بحديث، ينفع الله به، سمعته من رسول الله ﷺ فقال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا، أن بايعنا على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله قال: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان».

وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون

عليهم وَيُصَلُّونَ عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»، قالوا: قلنا: يا رسول الله، أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: «لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه وال، فرآه يأتي شيئاً من معصية الله؛ فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يداً من طاعة»؛ ومعنى «وَتُصَلُّونَ عليهم، وَيُصَلُّونَ عليكم»: أي الدعاء.

فهذان خبران يُبينان أن الخليفة متى ما ضيع الدين فلا حرمة له، وضياغ الدين يكون بمحاربة الإيمان ونشر ضده، ويكون بتعطيل شرائعه، والتي من أعلاها وأبرزها التشريع والصلاة، وإن من صور الشرك الأكبر المنتشرة الصارخة اليوم عند عامة الحكام؛ الحكم بالطاغوت من خلال القوانين الوضعية، والدساتير الجاهلية، والمواثيق الدولية والإقليمية الطاغوتية.

وقد جاء في صحيح مسلم عن أم سلمة: عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه يُستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلِم، ولكن من رضي وتابع»، قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال: «لا ما صلوا»؛ أي من كره بقلبه وأنكر بقلبه، قلت: قوله ﷺ: «ومن أنكر فقد سلِم»؛ أي فقد آمن من أن تعمه العقوبة إذا نزلت. والله أعلم.

وفي الصحيحين من طريق أبي إدريس الخولاني، أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر،

فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخن»، قلت: وما دخنه؟ قال: «قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة إلى أبواب جهنم، مَنْ أجابهم إليها قذفوه فيها»، قلت: يا رسول الله صفهم لنا؟ فقال: «هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تَلَزُمُ جماعة المسلمين وإمامهم»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعصَّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك».

فهذان خبران يدلان على وجوب اعتزال المنكر، حتى إذا كان الكفر البواح فإن أمكن إزالته بشوكة ضاربة تَعَيَّنَ ذلك، وإلا فعليه أن يسعى جاهداً في إعداد العُدَّة لذلك، فإن عجز أو تعذر عليه ذلك؛ فعلى العبد أن يستمر في الاعتزال بكل معانيه، حتى وإن بلغ الحال به إلى أن يخرج عن بلده فليفعل، عندما يخشى على دينه الفتن، كما سيأتي معنا في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

إذ هناك اعتزال بالمبادئ مع البقاء مخالطاً للناس، صابراً لله، وعلى أذاهم، مستمسكاً بالحق والهدى، لا يني ولا يتنازل قيد أنملة عنه ^(١)،

(١) أخرج أحمد والطيالسي والبخاري في «الأدب المفرد» وابن ماجه وابن أبي شيبة، واللفظ لأحمد، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، وَحَجَّاجٌ، قَالَا: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، سَمِعْتُ سَلِيمَانَ الْأَعْمَشَ،

وهناك اعتزال بالبدن فرارا بالدين، عندما لا تجدي المخالطة، ويخشى المرء على دينه في خاصة نفسه أو أهله.

وسياتي إن شاء الله تعالى مزيد تفصيل، في مسألة مداخلة الطاغوت بدعوى المصالح والمفاسد، وسنذكر هناك مزيداً من الأدلة والنقولات عن أهل العلم، في بيان المنع من ذلك.

الخيرية في العلم والهدى، لا في الجهل بالدين واتباع الهوى:

جاء في «مصنف ابن أبي شيبة» قال: حدثنا أبو الأحوص عن شبيب بن غرقدة عن المستظل بن حصين، قال: «خطبنا عمر بن الخطاب فقال: قَدْ عَلِمْتُ، وَرَبَّ الكعبة، متى تَهْلِكُ العرب»، فقام إليه رجل من المسلمين فقال: متى يهلكون يا أمير المؤمنين؟، قال: حِينَ يَسُوسَ أَمْرَهُمْ مَنْ لَمْ يُعَالِجْ أَمْرَ الجاهلية، ولم يَصْحَبِ الرَّسُولَ»، وأخرجه الحاكم في «المستدرک»، وابن الجعد في «مسنده»، وابن سعد في «الطبقات»، والمستظل وثقه ابن سعد، وذكره ابن حبان في «الثقات»،

= وَقَالَ حَجَّاجٌ: عَنِ الْأَعْمَشِ يُحَدِّثُ، عَنْ يَحْيَى بْنِ وَثَّابٍ، عَنْ شَيْخٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: وَأَرَاهُ ابْنَ عُمَرَ، قَالَ حَجَّاجٌ: قَالَ شُعْبَةُ: قَالَ سُلَيْمَانُ: وَهُوَ ابْنُ عُمَرَ يُحَدِّثُ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ؛ أَكْبَرُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»، قَالَ: حَجَّاجٌ: «خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ»، قلت: وسنده جيد، والصحابي هو عبد الله بن عمر، كما جزم به شعبة عن الأعمش، كما عند أحمد، وقد أخرجه الطيالسي وأحمد في مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنه، وصرح البخاري باسم ابن عمر رضي الله عنه بلا تردد فيه.

وروى عنه شبيب بن غرقدة، وهو ثقة.

أي: الذين لم يعرفوا حقيقة الجاهلية، وأحوالها وأطوارها وضلالها، وهم مع ذلك يجهلون دين الرسول ﷺ، أو قلت بضاعتهم منه، وإن كثرت علوم الدنيا عندهم؛ فإنها لن تغني عنهم شيئاً.

أولئك هم العلماء الربانيون الذين أحال الله تعالى عليهم، وأمر بسؤالهم، فهم ورثة الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ ﴿٤٤﴾

[النحل: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ [الأنبياء: ٧ - ١٠].

وهم الذين خاف النبي ﷺ فقدمهم، كما في «الصحيحين» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ أَنْتِزَاعًا، يَسْتَرْعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا؛ اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَمَتُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

قال البخاري في «صحيحه»: «باب قول النبي ﷺ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ يُقَاتِلُونَ»؛ وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ».

ثم ساق أحاديث منها عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ».

ومن طريق حميد قال: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ يَخْطُبُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللَّهُ، وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، أَوْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ».

والخبران متفقٌ عليهما، وفي الباب حديث جابر وثوبان عن الإمام مسلم.

يا سادة عندهم للمصطفى نَسَبٌ رَفِيقًا بِمَنْ عِنْدَهُمُ لِلْمُصْطَفَى حَسَبٌ أَهْلُ الْحَدِيثِ هُمْ أَهْلُ الرِّسَالِ فَإِنْ لَمْ يَصْحَبُوا أَنْفُسَهُ أَنْفَاسُهُ صَحَبُوا (١)

(١) قال بعض أهل العلم: «قد رواه أبو موسى المديني في كتابه اللطائف (رقم ٤٧) عن

أبي عامر النسوي من قوله بلفظ: «آل الرسول»، مع بيت قبله، وهو:

يا سادة عندهم للمصطفى نَسَبٌ رَفِيقًا بِمَنْ عِنْدَهُ لِلْمُصْطَفَى حَسَبٌ

ورواه ابن الديلمي في «ذيل تاريخ بغداد» (٢٠٤/٤) من طريق أبي سعد بن السمعي، لبعضهم، دون تسمية، باللفظ المنتشر: «أهل النبي»، انتهى.

وقال ابن الصلاح في «طبقات الفقهاء الشافعية»: «قال أبو سعد السمعي: أنشدنا أبو الحسن علي بن أبي بكر الضرير، وأخوه أبو بكر أحمد اليزيديان قالا: أنشدنا صاعد بن سيار الهروي قال: أنشدنا أحمد بن محمد بن إبراهيم بن عوانة الفقيه، أبو

المرجعية عند الاختلاف في فهم الأدلة:

فقبل الخوض في أي مسألة من مسائل الشرع، أو الدخول في نقاش، أو مناظرة مع مخالف لك؛ لابد ابتداءً أن تتحدّد المرجعية لفهم الأدلة، فإن لم تكن هذه المرجعية هي الصحابة ومن تبعهم بإحسان، وإلا كان ضياعاً للوقت، وإضراراً بالسلف؛ الخوض مع المخالف لك في هذا الأصل؛ بل هو طريق الزندقة والضلال عياداً بالله.

ولنحذر من سبيل المنافقين الذين قال الله تعالى في شأنهم: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ [البقرة: ١٣]، فما كان من المنافقين إلا أن احتقروا إيمان المؤمنين، وأنفؤوا عن سبيلهم، فلنكن على حذر شديد من التشبه بأعداء الله تعالى.

بيان معنيين مهمين:

واعلم، أرشدك الله، أن قوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»؛ يدل على أمرين مهمين:

= طالب الشفعوي القاضي قال: أنشدنا أبو عامر الحسن بن محمد القومسي لنفسه:
يا سادة عندهم للمصطفى نسب رفقا بمن عندهم للمصطفى
أهل الحديث هم أهل الرسول لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبوا
كأنه يخاطب العلوية لأهل الحديث، قلت: كذا قال: الشفعوي؛ وهو لحن،
والمعروف في النسبة إلى الشافعي رحمه الله: «الشافعي»، انتهى.

أحدهما: أنه لا أحد من العباد أكبر من الحق، الذي جاء به النبي ﷺ؛ فمهما عَظُمَ العبد علمًا وتقى وورعًا؛ قولًا وعملاً؛ فالواجب علينا أن نَرُدَّ خَطَاهُ إِذَا أخطأ، ولا نتعاضم ذلك أبدًا.

والثاني: أن أمرهم المذكور هنا؛ المقصود به سبيل المؤمنين، وهو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ والمعنى: أن السبيل أصبحت واضحة المعالم، مَنْشُورَةُ الأعلام، قد أحيطت بِسِيَاجٍ مَنِيْعٍ، لا يُقْبَلُ فيه تخليط ولا تلبس، وليس فيه شيء من ذلك البتة.

تنبيه مهم:

وإذا أردت أن تقف على طرف من خطورة هذه السبيل، وأهميتها في نفى الضلال، واستبانة الصراط المستقيم؛ فعليك أن تعلم أنه ما من سبيل إلى رد كلام أصحاب الأهواء، من الأشاعرة، والجهمية، والمرجئة، والمعتزلة، وأشباههم؛ إلا بمحاكمتهم إلى ما كان عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من فهم هذه النصوص التي يحتجون بها؛ إذ لغة العرب كما تقدم واسعة، وكلُّ يدعي الفهم والإدراك، فما من سبيل للرد عليهم إلا بالرجوع الصادق إلى عمل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وتعاملهم مع هذه المسائل الشرعية، وتلك الاستدلالات التي يذكرها المبطلون وتلاعبوا بها.

مَكْرَ الشَّيْطَانِ بِالْمَبْتَدِعِ؛ فتراه لا يكاد يتوب:

فائدة:

اعلم أن الله تعالى تفضل على عباده بقبول توبتهم، وأمرهم

باستغفاره، ووعدهم المغفرة؛ وهذا من أشد ما يكون على الشيطان؛ فإنه يسعى في إهلاك العباد بالذنوب؛ فإن قابل العباد ذنوبهم بالاستغفار والتوبة النصوح؛ كان ذلك مما يُضْنِي الشيطان ويهلكه؛ ولهذا فهو يسعى في تزيين القبائح والمعاصي، والبدع والضلالات؛ لأصحابها؛ حتى لا يستشعروا معصيتهم وضلالهم عندها؛ فلا يستغفرون الله، ولا يتوبون منها، وإذا ما دُعُوا إلى ذلك لَوَّأَ رءوسهم، كحال المنافقين، والعياذ بالله، عندها يَظْفَرُ الشيطان منهم بِمُرَادِهِ، وَيَنَالُهُمْ فِي مَقْتَلٍ، نسأل الله العافية والسلامة.

واعلم أن المبتدع له حظ وافر من هذا التزيين الشيطاني؛ ولهذا لا يكاد يقلع، ولا يتوب، ولا يستغفر، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أمثلة لفض النزاع بين خصمين:

- فإذا اختلفت مع فلان من الناس؛ فأعطيته الأدلة من الكتاب والسنة في مسألة ما، فأبى إلا أن يفهمها هو بقوله ورأيه هو، وربما رماك باتباع الهوى، فتقابله أنت بمثل ذلك، ثم ترميه باتباع الهوى فيقع الاختلاف، فما المخرج عندها؟

أقول: المخرج هو أن تقول له: دع رأيك ورأيي، وقولك وقولي، وهواك وهواي، ولنرجع جميعاً محتكِّمين متجَرِّدين إلى الكتاب والسنة، على فهم الصحابة رضي الله عنهم، هذا هو السبيل الوحيد لكي ينفض هذا النزاع، ويزول الإشكال، إن كنا حقاً صادقين نريد الحق، ومن أبى طريقة الصحابة

الكرام، ﷺ، وفهمهم؛ فهذا أعظم دليل على أنه إنما يريد اتباع الهوى؛ فلا حيلة حينئذ معه عياداً بالله من الضلال والخسران.

ونقول له: نُؤَلِّيكَ ما تَوَلَّيتَ، وتُتْلُو عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]؛ لعله أن يرعوي عن غيه، ويراجع أمره.

- وآخر عندما تقول له: الله تعالى يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وتقرّر له أن الرحمن بذاته قد استوى على عرشه جل وعلا؛ فيقول لك: لا أبداً، هذا خطأ؛ بل الله في كل مكان؛ فقل له: اسأل الله العافية والسلامة، ثم قل له: يا هذا، اتق الله فيما تقول؛ إذ كيف تقول: إن الله في كل مكان؟ هل الله معك في أماكن قضاء حاجتك؟ وهل هو معك وأنت على فراشك مع أهلِكَ؟ اتق الله جل وعلا، ونزه الله تعالى عن هذا الباطل؛ فإن هذا القول قول كفري، والعياذ بالله.

فيقول لك: أنت حشوي، أنت مشبه، أنت ممثل، أنت كذا أنت كذا، فتقول له: وأنت اتبعت الجهمية، وأنت من الأشاعرة، وأنت كذا وكذا.

فإذا وقع الاختلاف، فما المخرج إذا؟

مرة أخرى نقول: المخرج أن تقول: يا أخي، دع قولك وقولي، ورأيك ورأيي، وفهمك وفهمي، ولنحتكم إلى الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة،

وتعال لنراجع كتب أهل الإسلام، التي نقلت أقوال الصحابة والسلف الصالح في معنى الآيات، التي قرر الله تعالى فيها استواءه على عرشه، وهي سبعة مواضع في القرآن العظيم؛ لنجد المعنى الصحيح لهذه الآيات.

ثم قل له: هذه الآيات نزلت على مَنْ؟ أليس على الرسول ﷺ؟

ثم قل له: مَنْ أول مَنْ سمعها من الرسول ﷺ؟ أليس صحابته الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟

إذن؛ هَلَمْ لِنَنْظُرْ كيف فهموا هذه الآيات، ثم خذه إلى مراجع أهل الإسلام؛ ليجد أن الصحابة قد أجمعوا، والسلف الصالح من بعدهم، على أن معنى هذه الآيات: أن الرحمن جل في علاه قد استوى بذاته حقيقة، على عرشه تبارك وتعالى.

فجاء الكتاب والسنة على فهم الصحابة ومن تبعهم من السلف ليفض النزاع، ويُنهى الإشكال، ويتبين مَنْ يريد الهوى ممن يتبع الهدى.

- وثالث تجادله في مسألة من المسائل؛ فيأبى إلا قوله، فإلى مَنْ نحتكم، عباد الله؟ إلى الكتاب والسنة، بشرط أن يكون فهم الأدلة على فهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وفهم سلف الأمة.

- ورابع تقول له: يا هذا، ارحم نفسك، لا تضيع عملك؛ فإن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾؛ إذن أثبت الله

لهم العمل ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، فارحم نفسك، وإياك أن تبدد صالحاتك بالطواف حول القبور! وإياك أن تبدد حسناتك بالذبح لغير الله، والنذر لغير الله! إياك إياك أن تعتقد أن في الكون أقطابًا وأغوائًا يسيرون الكون مع الله، ويعلمون الغيب الذي لا تعلمه الملائكة المقربون، وأن تقول في فلان: إنه يرزق الولد، ويقضي الحاجات، ويفرج الكربات، ويغيث اللهفات، إياك إياك! فإن هذا من الشرك الأكبر، ومن اتخاذ الأنداد والشركاء مع الله جل وعلا، ومن فعل فقد وقع في الشرك الأكبر، ومن قامت عليه الحجة، فقد خرج من الإسلام جملة وتفصيلاً.

فيقول لك: كلا؛ بل أنت مخطئ؛ فإن هؤلاء هم وسيلتنا إلى الله، ألم تسمع إلى قول الله جل وعلا: ﴿وَاتَّبِعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]؛ إن الوسيلة هم هؤلاء الأولياء والصالحون والأنبياء والمرسلون؛ فنحن نتقرب إليهم بهذه القربات؛ من طواف، وذبح، ونذر.

فتقول له: يا هذا، هذا فهم خاطئ للآية، وإن هذا قلبٌ لحقائق الشرع، وهدم للتوحيد، وإقرار للشرك الأكبر، إن هذا اتباعٌ صريح للهوى، وقول على الله تعالى في كتابه بغير علم.

فيقول لك: أنت وهايي، أنت كذا وكذا.

فقل له مرة أخرى: يا هذا، دع قلبي وقولك، ودع رأيي ورأيك، ثم قل له: ألا ترضى بعقيدة الصحابة رضي الله عنهم؟ ألا ترضى أقوال المفسرين من

السلف الصالح؟ فإن قال: إنه يرضى بذلك؛ فقل له: إذن تعال لننظر ماذا قالوا في تفسير هذه الآية، لنجد أنهم لم يختلفوا أبداً؛ فإن معنى الوسيلة هنا هي القربى بالأعمال الصالحة.

فهذا مجاهد بن جبر، الذي استوقف ابن عباس حبر هذه الأمة على كل آية في القرآن؛ ففسرها له؛ فأخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنه آية آية، يقول فيها ما أخرجه الطبري في «تفسيره»: حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو حُدَيْفَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُبْلٌ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾: الْقُرْبَىٰ إِلَى اللَّهِ.

وقال ابن جرير الطبري، وهو إمام المفسرين، في تفسيره «جامع البيان في تفسير القرآن»: «الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣٥)؛ يَعْنِي جَلَّ ثَنَاهُ بِذَلِكَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا أَخْبَرَهُمْ، وَوَعَدَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ، وَأَوْعَدَ مِنَ الْعِقَابِ اتَّقُوا اللَّهَ؛ يَقُولُ: أَجِيبُوا اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاكُمْ؛ بِالطَّاعَةِ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَحَقَّقُوا إِيمَانَكُمْ وَتَصَدِّقْكُمْ رَبَّكُمْ وَنَبِيِّكُمْ؛ بِالصَّالِحِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ؛ يَقُولُ: وَاطْلُبُوا الْقُرْبَىٰ إِلَيْهِ بِالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ» انتهى. ثم نقل هذا عن أهل التفسير من السلف، ولم يختلفوا في ذلك مطلقاً.

وقال ابن كثير في «تفسيره»: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال سفيان

الثوري: حدثنا أبي، عن طلحة، عن عطاء، عن ابن عباس: أي: القربة، وكذا قال مجاهد، وعطاء، وأبو وائل، والحسن، وقتادة، وعبد الله بن كثير، والسدي، وابن زيد، وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه، وقرأ ابن زيد: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه اهـ.

وبهذا، عباد الله، يكون قد انفض النزاع، وفهمنا معنى الآية على الوجه الصحيح، وفي هذا كفاية وغنية لمن أراد الهدى، أما إذا كان يريد أن يتبع الهدى، فما الحيلة فيمن أضله الله على علم.

ولنتذكر ما تقدم تقريره على قول الله تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ لِمَنَّا أَمْثَلُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ [القصص: ٤٩، ٥٠]، وأنها هي العلامة الفارقة الفاضحة الفاصلة.

وكذلك في قول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَن اسْتَبْطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٣﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ [هود: ١٣، ١٤].

قال ابن القيم في «زاد المعاد في هدي خير العباد»: «فصل: ومنها: أنه

لا يجوزُ إبقاء مواضع الشُّرك والطواغيت، بعد القُدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً؛ فإنها شعائرُ الكفر والشُّرك، وهي أعظمُ المنكرات؛ فلا يجوز الإقرارُ عليها مع القُدرة البتَّة، وهذا حكمُ المشاهد التي بُنيت على القبور، التي اتُّخِذَتْ أوثاناً وطواغيت تُعبد من دون الله، والأحجار التي تُقصد للتعظيم والتبرك، والنذر والتقبيل، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القُدرة على إزالته، وكثير منها بمنزلة اللات والعُزَّى ومناة الثالثة الأخرى، أو أعظم شركاً عندها وبها، والله المستعان.

ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلق وترزق، وتُमित وتُحيي، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها؛ ما يفعلُه إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم، فاتبع هؤلاء سَنَن مَنْ كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القُدَّة بالقُدَّة، وأخذوا مأخذهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وغَلَبَ الشُّرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم، فصار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والسُّنَّة بدعة، والبدعة سُنَّة، ونشأ في ذلك الصغير، وهرم عليه الكبير، وطُمست الأعلام، واشتدت غربةُ الإسلام، وقَلَّ العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشتد البأس، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمَّدية بالحق قائمين، ولأهل الشُّرك والبدع مجاهدين إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين» اهـ.

ومن ذلك ما وقع من ضلال الخوارج، الذين تكلموا بالأدلة، ولكن فهموها خطأً بحسب أهوائهم، ومعتقداتهم وتصوراتهم الخاصة؛ فخرجوا على الصحابة بأسيا فهم؛ عياداً بالله.

وقد ظهرت نابتهم في زمان النبي ﷺ، كما في حادثة ذي الخويصرة، الذي اتهم النبي ﷺ في عدالته؛ لأن لديه مفهوماً خاصاً وتصوراً خاصاً بالعدالة ومعانيها؛ فضل وأصل، وقال النبي ﷺ في شأنه، وشأن نسله؛ ما جاء في «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري، رضى الله عنه، قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسَمًا؛ أَنَاهُ ذُو الْخُوَيْرِصَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اعْدِلْ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خَبَتْ وَخَسِرَتْ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلْ»، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ، فَقَالَ: «دَعُهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا، يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ، وَهُوَ قِدْحُهُ، فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُدْذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الْفَرْثُ وَالْدَّمَ، آيَتْهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَصْدِيهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبُضْعَةِ تَذَرْدُرُ، وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينٍ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتَمَسَ؛ فَأَتَيْتُ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى

نَعَتِ النَّبِيَّ ﷺ الَّذِي نَعَتُهُ.

وفي لفظ في «الصحيحين»، والسياق لمسلم، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ، وَفِي ثَوْبٍ بِلَالٍ فَضَةً، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْبِضُ مِنْهَا؛ يُعْطِي النَّاسَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اعْدِلْ، قَالَ: «وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلْ، لَقَدْ خَبَتْ وَخَسِرَتْ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلْ»، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَقْتُلْ هَذَا الْمُنَافِقَ، فَقَالَ: «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَتَى أَقْتُلُ أَصْحَابِي، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ».

وسيستمر شرهم إلى آخر الزمان؛ فقد قال النبي ﷺ في شأنهم، ما رواه البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدُثَاءُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيْمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

فهم يطلقون الأحكام بحسب أهوائهم، ويكفرون مخالفهم بالذنوب والكبائر؛ بل وبالطاعات، كما فعلوا مع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهم في كل هذا يزعمون أنهم هم الموحدون الخُلص، وأنهم أفهم الناس للدين، وما عداهم همج رَعاع، والله المستعان.

وكذلك هناك مَنْ تشبه بهم، وبعضهم من أهل العلم والتقدم فيه؛ حيث كفّروا بمكفّرات، ثم نزلوها على أعيان من هذه الأمة، مع أنهم لم يقيموا الحجة على أصحابها من أهل القبلة؛ بدعوى أنه لا عذر في الشرك الأكبر، في حين أنهم يعذرون في بعض المكفّرات، وفي شرك الأسماء والصفات، فما أعجب هذا الهدى، نسأل الله تعالى العافية والسلامة.

وقد جاءت الأدلة الصحيحة الصريحة في الكتاب والسنة، وعمل الصحابة رضي الله عنهم، وأئمة الهدى من بعدهم في القرون المفضلة؛ دالة على العذر بالجهل، والتأويل المعتمد في الأصول والفروع لأهل القبلة، وأنه لم يَنَازَع في ذلك إلا أهل البدع، كالمعتزلة وغيرهم، كما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

أخرج ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي عن يونس بن عبد الأعلى، قال: سمعت الشافعي يقول: «لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردّها، ومَنْ خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يُدرك بالعقل ولا الرؤية والفكر» اهـ.

وقال البخاري في «خلق أفعال العباد» (ج ١/ ص ٦٢): «وكل من لم يعرف الله بكلامه أنه غير مخلوق؛ فإنه يعلم، ويرد جهله إلى الكتاب والسنة، فمن أبي بعد العلم به كان معانداً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ يُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَقَوُّونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، ولقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ

مِنْ بَعْدِ مَا نَبَّيْنَاهُ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَّاهُ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ [النساء: ١١٥]؛ فأما ما احتج به الفريقان لمذهب أحمد،
ويدعيه كل لنفسه؛ فليس بثابت كثير من أخبارهم، وربما لم يفهموا دقة مذهبه؛
بل المعروف عن أحمد وأهل العلم أن كلام الله غير مخلوق، وما سواه
مخلوق، وأنهم كرهوا البحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة، وتجنبوا أهل
الكلام والخوض والتنازع إلا فيما جاء فيه العلم وبينه رسول الله ﷺ اهـ.

وقال أبو محمد بن حزم رَحِمَهُ اللهُ فِي «الفصل في الملل والأهواء
والنحل»: «مَنْ ادْعَى أَنْ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَدْعُ أَحَدًا يُسَلِّمُ، حَتَّى يُوَفِّقَهُ عَلَى هَذِهِ
الْمَعَانِي؛ كَانَ قَدْ كَذَبَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَالَ مَا يَدْرِي
أَنَّهُ فِيهِ كَاذِبٌ، وَادْعَى أَنْ جَمِيعَ الصَّحَابَةِ رَضُوا بِتَوَاطُعِهِمْ تَوَاطُعًا عَلَى كِتْمَانِ ذَلِكَ مِنْ
فَعْلِهِ ﷺ، وَهَذَا الْمَحَالُّ مَمْتَنِعٌ فِي الطَّبِيعَةِ، ثُمَّ فِيهِ نَسْبَةُ الْكُفْرِ إِلَيْهِمْ؛ إِذْ
كَتَمُوا مَا لَا يَتِمُّ إِسْلَامُ أَحَدٍ إِلَّا بِهِ، وَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ ﷺ لَمْ يَدْعُ قَطُّ أَحَدًا^(١) إِلَى
شَيْءٍ مِنْ هَذَا، لَكِنَّهُ مُودِعٌ فِي الْقُرْآنِ، وَفِي كَلَامِهِ ﷺ؛ قِيلَ لَهُ: صَدَقْتَ» اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»: «وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ
يُكْفِّرَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ أَخْطَأَ وَغَلِطَ؛ حَتَّى تُقَامَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ وَتُبَيَّنَ لَهُ
الْمَحَجَّةُ، وَمَنْ ثَبَتَ إِسْلَامَهُ بِبَيِّنٍ لَمْ يَزَلْ ذَلِكَ عَنْهُ بِالشَّكِّ؛ بَلْ لَا يَزُولُ إِلَّا
بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَإِزَالَةِ الشُّبْهَةِ». اهـ.

(١) لعلها: أحدًا.

ولا فرق عند السلف بين الأصول والفروع، في إمكانية وقوع الجهل والتأويل المعتبر فيها:

فالتوحيد كله ابتداءً من تعريفه، مروراً بلوازمه ومقتضياته، وانتهاءً إلى نواقضه؛ كله سماعي، وكذلك الشرك والكفر والنفاق بأنواعه؛ فهذا عام في فروع الدين وأصوله.

وتأمل ما قاله اللالكائي في كتابه، الذي نقل فيه ما يعتقد به أهل السنة وأجمعوا عليه؛ حيث قال في كتابه «اعتقاد أهل السنة»: «باب جماع توحيد الله ﷻ وصفاته وأسمائه، وأنه حي قادر، عالم سميع بصير، متكلم مرید باق.

سياق ما يدل من كتاب الله ﷻ، وما روي عن رسول الله ﷺ؛ على أن وجوب معرفة الله تعالى وصفاته بالسمع لا بالعقل:

قال الله تعالى يخاطب نبيه ﷺ بلفظ خاص والمراد به العام: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تبارك وتعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٠٦] [الأنعام: ١٠٦]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [٥٥] [الأنبياء: ٢٥]؛ فأخبر الله نبيه ﷺ في هذه الآية؛ أن بالسمع والوحي عرف الأنبياء قبله التوحيد، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبا: ٥٠].

وقد استدلل إبراهيم بأفعاله المحكمة المتقنة على وحدانيته؛ بطلوع

الشمس وغروبها وظهور القمر، وغيبته وظهور الكواكب وأفولها، ثم قال: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٧٧﴾ [الأنعام: ٧٧]؛ فعلم أن الهداية وقعت بالسمع، وكذلك وجوب معرفة الرسل بالسمع.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا أَلَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ آلَئِنْ لَمْ يَأْتِيَ الْآخِرُ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ﴿١٥﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَعَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾

[النساء: ١٦٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمُ مُّصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ لَفَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ [القصص: ٤٤ - ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمُ بَيِّنَةٌ مَا فِي

أَصْحَفِ الْأُولَى ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴿طه: ١٣٣، ١٣٤﴾؛ فدل على أن معرفة الله والرسول بالسمع كما أخبر الله ﷻ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة اهـ.

وقال البغوي في «تفسيره»: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ﴿١٥﴾ إقامة للحجة وقطعاً للعذر، وفيه دليل على أن ما وَجَبَ وَجَبَ بالسمع لا بالعقل اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»: «وَهَكَذَا الْأَقْوَالُ الَّتِي يَكْفُرُ فَأَتْلُهَا؛ قَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ لَمْ تَبْلُغْهُ النُّصُوصُ الْمُوجِبَةُ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ، وَقَدْ تَكُونُ عِنْدَهُ وَلَمْ تَثْبُتْ عِنْدَهُ، أَوْ لَمْ يَتِمَّكَ مِنْ فَهْمِهَا، وَقَدْ يَكُونُ قَدْ عَرَضَتْ لَهُ شُبُهَاتٌ يَعْذَرُ اللَّهُ بِهَا؛ فَمَنْ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مُحْتَهِدًا فِي طَلَبِ الْحَقِّ وَأَخْطَأَ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ خَطَأَهُ كَاتِبًا مَا كَانَ؛ سَوَاءٌ كَانَ فِي الْمَسَائِلِ النَّظَرِيَّةِ أَوْ الْعَمَلِيَّةِ؛ هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ، وَجَمَاهِيرُ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ، وَمَا قَسَمُوا الْمَسَائِلَ إِلَى مَسَائِلِ أَصُولٍ يَكْفُرُ بِإِنْكَارِهَا، وَمَسَائِلِ فُرُوعٍ لَا يَكْفُرُ بِإِنْكَارِهَا.

فَأَمَّا التَّفْرِيقُ بَيْنَ نَوْعٍ وَتَسْمِيَةِ مَسَائِلِ الْأَصُولِ، وَبَيْنَ نَوْعٍ آخَرَ وَتَسْمِيَةِ مَسَائِلِ الْفُرُوعِ؛ فَهَذَا الْفَرْقُ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ؛ لَا عَنِ الصَّحَابَةِ، وَلَا عَنِ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا أُمَّةِ الْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا هُوَ مَا خُوِذَ عَنِ الْمُعْتَرِلَةِ وَأُمَّتِهِمْ مِنْ أَهْلِ

الْبِدْعِ، وَعَنْهُمْ تَلَقَّاهُ مَنْ ذَكَرَهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ فِي كُتُبِهِمْ، وَهُوَ تَفْرِيقُ مُتَنَاقِضٍ.
فَإِنَّهُ يُقَالُ لِمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ التَّوَعُّينِ: مَا حَدُّ مَسَائِلِ الْأُصُولِ الَّتِي يَكْفُرُ
الْمُخْطِئُ فِيهَا؟ وَمَا الْفَاصِلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَسَائِلِ الْفُرُوعِ؟
فَإِنْ قَالَ: مَسَائِلِ الْأُصُولِ هِيَ مَسَائِلُ الْإِعْتِقَادِ، وَمَسَائِلِ الْفُرُوعِ هِيَ
مَسَائِلُ الْعَمَلِ.

قِيلَ لَهُ: فَتَنَازَعَ النَّاسُ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ هَلْ رَأَى رَبَّهُ أَمْ لَا؟ وَفِي أَنَّ
عُثْمَانَ أَفْضَلُ مِنْ عَلِيٍّ أَمْ عَلِيٌّ أَفْضَلُ؟ وَفِي كَثِيرٍ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ،
وَتَصْحِيحِ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ؛ هِيَ مِنَ الْمَسَائِلِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ؛ وَلَا كُفَرَ
فِيهَا بِالْإِتِّفَاقِ، وَوُجُوبِ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّيَامِ، وَالْحَجِّ، وَتَحْرِيمِ
الْفَوَاحِشِ وَالْخَمَرِ؛ هِيَ مَسَائِلُ عَمَلِيَّةٌ، وَالْمُنْكَرُ لَهَا يَكْفُرُ بِالْإِتِّفَاقِ.
وَإِنْ قَالَ: الْأُصُولُ: هِيَ الْمَسَائِلُ الْقَطْعِيَّةُ.

قِيلَ: لَا؛ كَثِيرٌ مِنَ مَسَائِلِ الْعَمَلِ قَطْعِيَّةٌ، وَكَثِيرٌ مِنَ مَسَائِلِ الْعِلْمِ لَيْسَتْ
قَطْعِيَّةً، وَكَوْنُ الْمَسْأَلَةِ قَطْعِيَّةً أَوْ ظَنِّيَّةً هُوَ مِنَ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ، وَقَدْ تَكُونُ الْمَسْأَلَةُ
عِنْدَ رَجُلٍ قَطْعِيَّةً لِظُهُورِ الدَّلِيلِ الْقَاطِعِ لَهُ؛ كَمَنْ سَمِعَ النَّصَّ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ وَتَيَقَّنَ
مُرَادَهُ مِنْهُ، وَعِنْدَ رَجُلٍ لَا تَكُونُ ظَنِّيَّةً فَضْلاً عَنْ أَنْ تَكُونَ قَطْعِيَّةً؛ لِعَدَمِ بُلُوغِ النَّصِّ
إِلَيْهِ، أَوْ لِعَدَمِ ثُبُوتِهِ عِنْدَهُ، أَوْ لِعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنَ الْعِلْمِ بِدَلَالَتِهِ...».

إِلَى أَنْ قَالَ: «وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا أَنَّ مَذَاهِبَ الْأَيْمَةِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى هَذَا
التَّفْصِيلِ بَيْنَ النَّوَحِ وَالْعَيْنِ؛ وَلِهَذَا حَكَى طَائِفَةٌ عَنْهُمْ الْخِلَافَ فِي ذَلِكَ، وَلَمْ

يَفْهَمُوا غَوَرَ قَوْلِهِمْ؛ فَطَائِفَةٌ تَحْكِي عَنْ أَحْمَدَ فِي تَكْفِيرِ أَهْلِ الْبِدْعِ رَوَاتَيْنِ مُطْلَقًا، حَتَّى تَجْعَلَ الْخِلَافَ فِي تَكْفِيرِ الْمُرْجِيَّةِ وَالشَّيْعَةِ الْمُفْضَلَةِ لِعَلِّيٍّ، وَرُبَّمَا رَجَّحَتْ التَّكْفِيرَ وَالتَّخْلِيدَ فِي النَّارِ.

وَلَيْسَ هَذَا مَذْهَبَ أَحْمَدَ وَلَا غَيْرِهِ مِنْ أَيْمَةِ الْإِسْلَامِ؛ بَلْ لَا يَخْتَلِفُ قَوْلُهُ أَنَّهُ لَا يُكْفَرُ الْمُرْجِيَّةَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ بِلَا عَمَلٍ، وَلَا يُكْفَرُ مَنْ يُفْضَلُ عَلِيًّا عَلَى عُثْمَانَ؛ بَلْ نُصُوصُهُ صَرِيحَةٌ بِالْإِمْتِنَاعِ مِنْ تَكْفِيرِ الْخَوَارِجِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَإِنَّمَا كَانَ يُكْفَرُ الْجَهْمِيَّةُ الْمُنْكَرِينَ لِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ؛ لِأَنَّ مُنَاقَصَةَ أَقْوَالِهِمْ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ، وَلَئِنْ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ تَعْطِيلُ الْخَالِقِ، وَكَانَ قَدْ ابْتُلِيَ بِهِمْ حَتَّى عَرَفَ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ، وَأَنَّهُ يَدُورُ عَلَى التَّعْطِيلِ، وَتَكْفِيرُ الْجَهْمِيَّةِ مَشْهُورٌ عَنِ السَّلَفِ وَالْأَيْمَةِ، لَكِنْ مَا كَانَ يُكْفَرُ أَعْيَانُهُمْ؛ فَإِنَّ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الْقَوْلِ أَعْظَمُ مِنَ الَّذِي يَقُولُ بِهِ، وَالَّذِي يُعَاقِبُ مُخَالَفَةَ أَعْظَمُ مِنَ الَّذِي يَدْعُو فَقَطْ، وَالَّذِي يُكْفَرُ مُخَالَفَةُ أَعْظَمُ مِنَ الَّذِي يُعَاقِبُهُ.

وَمَعَ هَذَا فَالَّذِينَ كَانُوا مِنْ وُلاَةِ الْأُمُورِ يَقُولُونَ بِقَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ: إِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرَى فِي الْآخِرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ، وَيَمْتَحِنُونَهُمْ، وَيُعَاقِبُونَهُمْ إِذَا لَمْ يُجِيبُوهُمْ، وَيُكْفَرُونَ مَنْ لَمْ يُجِيبْهُمْ؛ حَتَّى أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَمْسَكُوا الْأَسِيرَ لَمْ يُطْلِقُوهُ حَتَّى يَقَرَّ بِقَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ: إِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَا يُؤْلَوْنَ مَتَوَلِّيًّا، وَلَا يُعْطَوْنَ رِزْقًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ إِلَّا لِمَنْ يَقُولُ ذَلِكَ؛ وَمَعَ هَذَا فَالْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى تَرَحَّمَ

عَلَيْهِمْ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ؛ لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُمْ لِمَنْ يُبَيِّنُ^(١) لَهُمْ أَنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ لِلرَّسُولِ، وَلَا جَاحِدُونَ لِمَا جَاءَ بِهِ، وَلَكِنْ تَأَوَّلُوا فَأْخَطُّوا، وَقَلَّدُوا مَنْ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ الشَّافِعِيُّ لَمَّا قَالَ لِحَفْصِ الْفَرْدِ، حِينَ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ؛ كَفَرَتْ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، بَيَّنَّ لَهُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ كُفْرٌ، وَلَمْ يَحْكَمْ بِرَدِّهِ حَفْصَ بِمَجَرَّدِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ الْحُجَّةُ الَّتِي يَكْفُرُ بِهَا، وَلَوْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ مُرْتَدٌّ لَسَعَى فِي قَتْلِهِ، وَقَدْ صَرَّحَ فِي كُتُبِهِ بِقَبُولِ شَهَادَةِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالصَّلَاةِ خَلْفَهُمْ.

وَكَذَلِكَ قَالَ مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ؛ فِي الْقَدَرِيِّ: إِنَّ جَحْدَ عِلْمِ اللَّهِ كَفَرٌ، وَلَفْظُ بَعْضِهِمْ: نَاطَرُوا الْقَدَرِيَّةَ بِالْعِلْمِ، فَإِنْ أَقَرُّوا بِهِ خُصِمُوا، وَإِنْ جَحَدُوهُ كَفَرُوا.

وَسُئِلَ أَحْمَدُ عَنِ الْقَدَرِيِّ: هَلْ يَكْفُرُ؟ فَقَالَ: إِنَّ جَحْدَ الْعِلْمِ كَفَرٌ؛ وَحِينَئِذٍ فَجَاحِدُ الْعِلْمِ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْجَهْمِيَّةِ اهـ.

وقال ابن حزم في «المحلى»: «وَالْعَجَبُ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَوْ كَانَ إِجْمَاعًا لَكَفَرَ أَبُو حَنِيفَةَ، وَزُفَرٌ؛ فَقُلْنَا: عُدْرًا بِجَهْلِهِمَا، كَمَا يُعَدُّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَخْطَأَ فِيهِ، وَبَدَّلَهُ وَزَادَ وَنَقَصَ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ عَلَى صَوَابٍ، وَأَمَّا مَنْ قَامَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ، وَتَمَادَى مُعَانِدًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَهُوَ كَافِرٌ بِلَا شَكٍّ اهـ.

وقال أيضًا: «الخمير حرام بنص القرآن، وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإجماع الأمة؛ فمن استحلبها ممن سمع النص في ذلك،

(١) لعل الصواب: لم يتبين.

وعلم بالإجماع؛ فهو كافر مرتد حلال الدم والمال» اهـ.

وقال في «الفصل في الملل والأهواء والنحل»: «فَصَحَّ بما قلنا: أن كل من كان على غير الإسلام، وقد بلغه أمر الإسلام؛ فهو كافر، وَمَنْ تَأَوَّلَ من أهل الإسلام فأخطأ، فإن كان لم تقم عليه الحجة، ولا تبين له الحق؛ فهو معذور مأجور أجراً واحداً؛ لطلبه الحق وقصده إليه مغفور له خطؤه؛ إذ لم يعتمد له لقول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وإن كان مصيباً فله أجران: أجر لإصابته، وأجر آخر لطلبه إياه.

وإن كان قد قامت الحجة عليه، وتبين له الحق، فعند الحق غير معارض له تعالى، ولا لرسوله ﷺ؛ فهو فاسق لجراءته على الله تعالى، بإصراره على الأمر الحرام.

فإن عَدَّ عن الحق معارضاً لله تعالى ولرسوله ﷺ؛ فهو كافر مرتد حلال الدم والمال؛ لا فرق في هذه الأحكام بين الخطأ في الاعتقاد، في أي شيء كان من الشريعة، وبين الخطأ في الفتيا في أي شيء كان، على ما بينا قبل.

قال أبو محمد: ونحن نختصر هاهنا إن شاء الله تعالى، ونوضح كل ما أطلنا فيه: قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [١٥] [الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿لَا نُنذِرُكُمْ بِهِ، وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

[النساء: ٦٥].

فهذه الآيات فيها بيان جميع هذا الباب؛ فصح أنه لا يكفر أحد حتى يبلغه أمر النبي ﷺ؛ فإن بلغه فلم يؤمن به؛ فهو كافر.

فإن آمن به ثم اعتقد ما شاء الله أن يعتقده، في نحلة أو فتيا، أو عمل ما شاء الله تعالى أن يعمل، دون أن يبلغه في ذلك عن النبي ﷺ حكم بخلاف ما اعتقدوا، قال: أو عمل؛ فلا شيء عليه أصلاً حتى يبلغه.

فإن بلغه وصح عنده، فإن خالفه مجتهداً فيما لم يُبين له وجه الحق في ذلك؛ فهو مخطئ معذور مأجور مرة واحدة، كما قال ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر»، وكل معتقد أو قائل أو عامل فهو حاكم في ذلك الشيء.

وإن خالفه بعمله معانداً للحق معتقداً بخلاف ما عمل به؛ فهو مؤمن فاسق. وإن خالفه معانداً بقوله أو قلبه؛ فهو كافر مشرك، سواء ذلك في المعتقدات والفتيا؛ للنصوص التي أوردنا، وهو قول إسحاق بن راهويه وغيره، وبه نقول، وبالله تعالى التوفيق اهـ.

وإن من أخبث ما سمعت في هذا الزمان: أن أقواماً يُكفِّرون السلف الصالح كالشافعي وغيره؛ لكونهم قالوا بِحُجَّةِ الإجماع والقياس؛ فزعم هؤلاء الضُّلَّال المنحرفون أن هذا من التشريع من دون الله تعالى، وأنه كفر

أكبر يجب تنزيله على الأعيان بأسمائهم، وأنه لا كبير على الكفر، وإن كان من كان؛ بل قال بعضهم: حَدَّثَنَا الصَّحَابَةُ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وَلَا لَكَفَرْنَاهُمْ.

وقد سمعتُ أَنَّ أحدهم فَسَّقَ وَضَلَّلَ الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكفى بها جريرةً وجريمةً ووصمة عار لهذا المفتون الضال، وليت شعري! لعلمهم إن طال بهم الزمان أن يكفروا حتى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تَشَبُّهًا بِأَسْلَافِهِمْ؛ بل لربما اتهموا النبي ﷺ، كما فعل كبيرهم الذي علمهم، عيادًا بالله من الخذلان.

والسؤال الذي يطرح نفسه: أليس الإجماع من الدين، وأليس القياس من الدين؟

الجواب: بلى ورب الكعبة، إنهما لمن صميم الدين، ومن هدي سيد المرسلين، وهو منطوق ومفهوم آيات في كتاب الله العظيم، وليس هذا محلَّ بسط ذلك، ولكن راجع له شرحي لكتاب «الرسالة» للإمام الشافعي الْمُطَّلَبِي رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ولكن هذه جمل يسيرة تدل على غيرها: أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا الصَّيِّدَ ءَاتَيْنَاكُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ ءَمْرِهُ ؕ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ؕ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: ٩٥].

سبحان الله! انظروا، عباد الله، إن الله تعالى في هذه الآية يُجِلُّ على قياس ذَوِي العدل من أمة محمد ﷺ؛ لِيَقْيِسُوا ما سَمَّاهُ العلماء بقياس الشَّبه؛ فينظروا أشبه الدواب من الأنعام فيجعلونه جَزَاءً لِلصَّيْدِ، الذي صادَهُ الْمُحَرِّمُ، كَفَّارَةً عَمَّا أَنْتَهَكَ مِنْ حُرْمَةِ الإِحْرَامِ، وكذلك أحال عليهم في تقدير طعام المسكين، وكذلك فيما يوازيه من الصيام.

بل وكل الأمثلة في القرآن الكريم هي أنواع من القياس، قد اسْتُعْمِلَتْ في كتاب الله تعالى، وتكلم الله تعالى بها، ومعناه: فلا تفعلوا مثلها، أو لا تكونوا مثلهم، أو إن كان هذا لا يليق بأحدكم؛ فَلَأَنْ لا يليق بالله تعالى من باب أولى، وهكذا في معاني الأمثلة في كتاب الله تعالى.

وكذلك جاءت أحاديث صحاح في أنواع من القياس، وقد قَاسَ الصحابة رضي الله عنهم، وقاسَت الأمة في قرونها المفضلة من بعدهم.

وقل مثل هذا في الإجماع الْمُنْضَبِطِ الْمُعْتَبَرِ، ولولا أن يطول المقام لذكرت أدلة ذلك، إلا أَنَّهُ وبعد هذا كله، ما زال حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام؛ يكفِّرون من يقول بحجية القياس والإجماع.

ولهذا قلت: لربما إن طال بهم الزمان، أن يكفروا النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم عياداً بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! وإن كنت لا أتمنى ذلك لهم؛ بل أرجو من الله تعالى أن يهديهم سواء السبيل، وأن يردهم إليه رَدًّا جميلاً، وأن يثبتنا على الهدى حتى نلقاه به، إنه ولي ذلك والقادر عليه، قال

تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكَمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ﴾ ﴿١٦٤﴾ [الأعراف: ١٦٤].

ولنعلم، عباد الله، أنه لم ينكر أحد من السلف القياس المنضبط، ولا الإجماع الصحيح؛ حتى ظهر المدعو بـ«إبراهيم النِّظَام» فأنكر ذلك، وكان معترلياً ضالاً خبيثاً منحرفاً، حتى تكلم بكلام الزنادقة، عياداً بالله، حتى إنه نفى إعجاز القرآن في نَظْمِهِ وسَيَاقِهِ، وأنكر النِّظَامَ ما جاء من الأخبار في معجزات نبينا ﷺ؛ كانشقاق القمر، وتسبيح الحصى في يده، وتُبُوع الماء بين أصابعه، وحنين الجذع، وكل هذا من الزنادقة، والعياذ بالله.

ثم تأثر به من بعد ذلك من تأثر، ممن اغتر ببعض أقواله؛ ومنها إنكاره للإجماع والقياس، والله المستعان، وهكذا هي البدع خَطَافَةٌ فَتَانَةٌ، نسأل الله العافية والسلامة.

* وكذلك نقول في الذين انتحلوا طريق الديمقراطية والأحزاب البرلمانية، زعموا لنصرة الإسلام، مع أنهم يقررون أنها سبيل الكفار، فهؤلاء أيضاً ندعوهم إلى الكتاب والسنة على سبيل الصحابة رضي الله عنهم، والسلف الصالح في القرون المفضلة من بعدهم؛ لنرى هل لهذا التقرير والتصور مكان أو محل أو وجود عندهم؟ أم أن الأمر هو بضد ذلك تماماً.

إذ قد علمهم الكتاب العزيز، والسنة المطهرة؛ أن الكفر بالطاغوت فريضة، لا يُتَصَوَّرُ الإيمان بدونها، وأنه لا يمكن أن يأمر الله تعالى عباده

بالكفر ليأتوا بالإسلام؛ إذ قد صار الكفر بهذا الاعتبار طبيياً وترياقاً لعلاج مشاكل الأمة، والإتيان بالشرعية لها، عياداً بالله من الخذلان، وليس هذا محل بسط ذلك ومناقشته، ولكنها الإشارة، وإليك الإحالة على كتابي: «الديمقراطية والإسلام ضدان لا يجتمعان».

- وآخرون أهواؤهم مع محاربة جهاد الدفع، والوقوف في خندق الطواغيت ضد المجاهدين في سبيل الله، ويكذبون على الله تعالى؛ حيث ينزلون أدلة جهاد الطلب على جهاد الدفع، فيشترطون وجود الإمام وإذنه، وكل هذا ضلال وباطل محض، ينكشف لأول وهلة عندما يُعرضُ القوم على الكتاب والسنة، وعلى سبيل المؤمنين.

وكذلك الذين يحتجون بالإجماع غير الصحيح، والقياس غير المنضبط؛ فإن السلف كما أنهم أثبتوا الإجماع الصحيح والقياس الصحيح، أيضاً نفوا ما هو بضد ذلك، ولمَّا لم يفهم أقوام طريقة السلف؛ ظن بعضهم أن السلف ينفون وجود الإجماع، والقياس؛ على كل حال، ومن كل وجه، وهذا باطل وضلال.

- وآخرون ينزلون حديث النبي ﷺ، لما سئل عن منابذة الحكام والخروج عليهم، قال النبي ﷺ: «لا ما صلوا»؛ فقالوا بهذا الخبر وتمسكوا به، وتركوا باقي الأحاديث الصحاح التي تفسر هذا الخبر، وتبين معناه على أكمل ما يكون.

لقد دلت النصوص الصريحة، على أن الحاكم الذي تجب له السمع والطاعة، ويحرم الخروج عليه؛ هو الذي لا يأتي الكفر البواح، ويقودنا بكتاب الله، ويقم فينا دين الله تعالى، كما في «الصحيحين» عن عبادة بن الصامت قال: دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعَنَا، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا، أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَلَّا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ قَالَ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ».

وفي «صحيح مسلم» من طريق يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: سَمِعْتُ جَدَّتِي تُحَدِّثُ أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ يَقُولُ: «وَلَوْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا».

وفي «صحيح البخاري» عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ، لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إِلَّا كَبَهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ، مَا أَقَامُوا الدِّينَ»، فإذا تركوا إقامة الدين نزع الله ملكهم، وبطلت بيعتهم، إلا أن يراجعوا أمر ربهم، بإقامة دينه تبارك وتعالى.

وفي «صحيح مسلم» عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خِيَارُ أُمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أُمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُنَازِدُهُمْ بِالسَّيْفِ فَقَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَايَتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاتَّكِرُوا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ».

قلت: وإقام الصلاة هو معنى إقامة الدين، المتمثل في اجتناب الكفر بالله تعالى، وتطبيق شرع الله تعالى فينا، فهو يقودنا به، وإلا فلو أقام الصلاة؛ بل ولو صلى بنفسه بالناس، وهو مقيم على العمل بالكفر البواح، ويقودنا بالكفر بالله تعالى، المتمثل في القوانين الوضعية، والدساتير الجاهلية؛ فإن صلاته لن تغني عنه شيئاً، وإنه لمن المنافقين الكفار الخُلص، فقد صلى المنافقون خلف سيد الناس ﷺ، ومع ذلك قضى الله تعالى فيهم بأنهم كفار، كما قال تعالى:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: ١-٣].

وأخبر تبارك وتعالى عنهم بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

وقال الله تعالى: ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُرْسِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١، ٣٢]؛ فبين الله تبارك وتعالى أن المقصود هو وجود الأمرين معاً: إقامة الصلاة، وانتفاء الشرك والكفر، وتفريق الدين والتلاعب به.

فإن أقام الحاكم الصلاة، ولم يُقِمِ التوحيد؛ بل أقام الكفر، وفرق الدين وتلاعب به؛ تبديلاً وتحريفًا وتعطيلًا وتحليلًا وتحريمًا بهواه؛ فلن تغني عنه صلاته شيئًا، وإنه لمن صناديد الكفر، ومن أكابر مجرميها، والعياذ بالله.

وكذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [٨٢]؛ فاشترط الله تعالى في الاهتداء والأمن الجمع بين الإيمان وعدم كبسه؛ أي: خلطه وتلطixه بالشرك أو الكفر الأكبر، وهو الظلم المراد في هذه الآية.

ففي «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «لما نزلت: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾؛ قال أصحاب رسول الله ﷺ: أينما لم يظلم؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [١٣]». «.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]؛ فاشترط الله تعالى في شكر سعي العبد؛ أن يحقق الإيمان، ويستمسك به، ويعمل به، ويجتنب نواقضه.

وهنا مثال بسيط لتقريب الأمر للأفهام، وتبيينه للأنام:

فلو أن حاكمًا وضع قانونًا أحل فيه الزنا، أو شرب الخمر، أو قال: الله ثالث ثلاثة، أو ساس مملكته بالسحر الكفري، أو أتى بقانون يجعل فيه الذكر كالأنثى في الموارث، أو ألغى عِدَّةَ النساء، وأحل نكاحهن في العدة، سواء كانت مطلقة أو متوفى عنها زوجها، أو أصدر قانونًا جعل فيه حق الطلاق

للنساء، وليس للرجال، أو أجاز نكاح المحارم، أو أباح بقوانينه نكاح النساء للنساء، والرجال للرجال، أو نحو ذلك من الكفريات، وهو مع ذلك يبيّن المساجد، وقيم الصلوات؛ بل لربما يؤم الناس فيها؛ فهل يكون بذلك مسلمًا؟ كلا، والله وبالله وتالله ما هو بمسلم، ما هو بمسلم ما هو بمسلم، وإن صلى وصام وحج كل عام.

جاء في كتاب «الإقناع في مسائل الإجماع»: «واتفقوا أنه مذمات بالتصريح وانقطع الوحي، وكمل الدين واستقر؛ لا يحل لأحد أن يزيد في الدين شيئًا من رأيه بغير استدلال منه، ولا أن ينقص منه شيئًا، ولا أن يبدل شيئًا مكان شيء، ولا أن يحدث شريعة وأن من فعل ذلك كافر» اهـ.

فلتنبه لهذا المقام الخطير الوخيم؛ فكم ضلّت فيه أفهام، وزلت فيه أقدام، وانتحلّه مُعَذَّرَةُ الطواغيت والحكام سُلَّمًا وسبيلًا؛ لأسلمة طواغيت الحكم، المشرّعين من دون الله تعالى، خابوا وخسروا، ولا كثر الله سوادهم وأمثالهم.

روى ابن أبي شيبة في «مصنفه» والطبري وابن أبي حاتم وسعيد بن منصور في تفاسيرهم، بسند صحيح، كلهم من طريق عن مصعب بن سعد قال: قال علي عليه السلام كَلِمَاتُ أَصَابَ فِيهِنَّ: «حَقُّ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَأَنْ يُؤَدِّيَ الْأَمَانَةَ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْمَعُوا وَيُطِيعُوا وَيَجِيبُوا إِذَا دُعُوا»^(١).

(١) بحث نفيس، رد فيه الباحث على شبهة ألقيت من بعض الشيوخ، في مسألة الخروج على

= الحكام المبدّلين والمتلاعبين بالشرع، والمرتكبين للكفر البواح الصراح؛ حيث منع بعض أهل العلم من المعاصرين من الخروج على الحكام وإن ارتكبوا المكفّرات، وزعموا أن بيعتهم باقية؛ فكتب الباحث عن حقيقة هؤلاء الحكام، وبين بالتّقولات الكثيرة عن أهل العلم ممن سبقوا؛ حكم العلماء في أمثال هؤلاء الحكام المشركين المرتدين.

فقال: «هؤلاء المجرمين الذين لم يكتفوا بتعطيل شرع الله، وإلزام الناس بالتحاكم إلى قوانين وثنية؛ فراحوا يتكلمون بالدعاة إلى الله، ما بين قتل وتشريد وتعذيب، وإحالة إلى مجازر وحشية يسمونها بالمحاكم العسكرية، وليس لهم من هدف في ذلك إلا القضاء على كل دعوة لإقامة شرع الله، وتحكيم كتابه في الأرض؛ العلماء قاطبة على أن الحاكم إذا ارتد سقطت طاعته، ووجب الخروج عليه؛ وعلى ذلك فنحن مطالبون شرعاً بإزالة منكر هذا الحاكم؛ أي: كفره، فإن لم يندفع منكره إلا بقتاله والخروج عليه بالسيف؛ وجب ذلك.

قال القرافي في «الذخيرة» (٣/٣٨٧) عند تعداده لأسباب الجهاد: «السبب الأول: وهو معتبر في أصل وجوبه، ويتجه أن يكون إزالة منكر الكفر؛ فإنه أعظم المنكرات، ومن علم منكرًا وقدر على إزالته وجب عليه إزالته...» اهـ.

وأما مخالفة الشيخ لإجماع أهل العلم من السلف الصالح ومن بعدهم؛ فإني أنقل هنا بعض النقول الدالة على ذلك:

أ- فقد نقل الحافظ في «الفتح» (٣/١٢٤) عن ابن التين قوله: «وقد أجمعوا أنه (أي: الخليفة) إذا دعا إلى كفر أو بدعة أنه يقيم عليه، واختلفوا إذا غصب الأموال وسفك الدماء وانتهك؛ هل يقيم عليه أو لا»، قال ابن حجر: «وما ادعاه من الإجماع على القيام فيما إذا دعا الخليفة إلى البدعة؛ مردود؛ إلا إن حمل على بدعة تؤدي إلى صريح الكفر...».

ب- وقال الحافظ أيضًا في «الفتح» (٣/١٣٢): «... وملخصه: أنه ينزل بالكفر إجماعاً؛ فيجب على كل مسلم القيام في ذلك؛ فمن قوي على ذلك فله الثواب، ومن داهن فعله الإثم، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض».

ج- وجاء في «الفتح» أيضًا (٣/١١): «... وعن بعضهم: لا يجوز عقد الولاية لفاسق

= ابتداء؛ فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً؛ فاختلفوا في جواز الخروج عليه، والصحيح المنع إلا أن يكفر فيجب الخروج عليه.

د- ونقل النووي في «شرح مسلم» (١٢/ ٢٢٩) عن القاضي عياض: «فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع أو بدعة؛ خرج عن حكم الولاية، وسقطت طاعته، ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه، ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام وخلع الكافر، ولا يجب في المبتدع إلا إذا ظنوا القدرة عليه...».

هـ- وقال الإمام ابن كثير بعدما ذكر الياسق الذي وضعه جنكيز خان: «فصارت في بنه شرعاً متبعاً، يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله؛ فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير»، «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٦٨).

و- وقال الشوكاني بعد كلام له في كفر من يتحاكم إلى غير شرع الله: «... وهؤلاء جهادهم واجب، وقتالهم متعين، حتى يقبلوا أحكام الإسلام، ويدعونا لها، ويحكموا بينهم بالشريعة المطهرة، ويخرجوا من جميع ما هم فيه من الطواغيت الشيطانية...»، «الدواء العاجل في دفع العدو الصائل» (ص ٢٥).

ز- وقال ابن عبد البر في «الكافي» (٨/ ٤٦٣): «... وسأل العمري العابد، وهو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، سأل مالك بن أنس فقال: يا أبا عبد الله، أيسعنا التخلف عن قتال من خرج عن أحكام الله ﷻ وحكم بغيرها؟ فقال مالك: الأمر في ذلك إلى الكثرة والقلّة.

وقال أبو عمر: جواب مالك هذا وإن كان في جهاد غير المشركين؛ فإنه يشمل المشركين، ويجمع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ كأنه يقول: من علم أنه إذا بارز العدو قتلوه، ولم ينل منهم شيئاً؛ جاز له الانصراف عنهم إلى فئة من المسلمين بما يحاوله فيه...».

فهذه النصوص القاطعة من أقوال أهل العلم، والحاكية للإجماع على أنه يُخرج على الحاكم إذا كفر؛ تبين خطأ الشيخ الألباني فيما ذهب إليه من عدم مشروعية الخروج على الحاكم الكافر.

= كما أن المتأمل في صيغة السؤال الموجه للإمام مالك رحمته الله؛ يجد أن السائل لا يسأل عن جواز قتال مَنْ يحكم بغير ما أنزل الله، وإنما يسأل عن جواز التخلف عن قتالهم؛ فإذا علمنا أن السائل هو عبد الله بن عبد العزيز العمري، العالم الزاهد الثقة، الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر، كما في «تهذيب التهذيب» (٣/١٩٦-١٩٧)، أقول: إذا علمنا ذلك؛ علمنا لم كان السؤال بهذه الصيغة؛ فالعمري العابد رحمته الله قد استقر في ذهنه، أن قتال مَنْ لم يحكم بما أنزل الله مشروع؛ بل واجب، ولكنه يسأل هل من رخصة تسوِّغ التخلف عن هذا القتال؟، وكان رد الإمام مالك رحمته الله دقيقاً أيضاً؛ فإنه أرجع الأمر للقلة والكثرة؛ أي: للقدرة؛ أي: من كان عنده قدرة لم يسعه التخلف، ومن كان غير قادر فلا شيء عليه إن هو انصرف عن القتال.

كما أن في تفسير الإمام ابن عبد البر لكلام إمام دار الهجرة رحمته الله؛ لفظة طيبة؛ وهي قوله: «جازه الانصراف»، ولم يقل: وجب عليه الانصراف؛ فمما يدل على أن القدرة ليست شرطاً في صحة القتال؛ بل هي شرط في وجوبه؛ فمن لم يكن قادراً على الجهاد، فلا شيء عليه إن هو تكلف الجهاد، فجاهد، حتى لو علم أنه لن يحقق النصر على العدو، ما دام في ذلك مصلحة شرعية؛ ككسر قلوب الكفار، أو تجرئة قلوب أهل الإيمان، أو غير ذلك.

أما ما استدل به الشيخ، من أن حال المسلمين تحت حكم هؤلاء الحكام؛ يشبه حال النبي ﷺ في العصر المكي، وأن الرسول ﷺ لم يقاتل أولئك الكفار في مكة؛ فإن المرء ليعجب منه أشد العجب؛ إذ كيف للشيخ وهو من هو علماً وتحققاً؛ أن يقع في مثل هذا الاستدلال العجيب؛ إذ لاشك أن الشيخ يعلم أن دين الله قد كمل، وأن نعمته قد تمت، وأنه قد كان في العهد المكي أحكام نسخت في العهد المدني؛ منها: أن الجهاد كان ممنوعاً في العصر المكي، ثم فُرض في العهد المدني، ونحن مطالبون بأمر النبي ﷺ؛ فما مات عليه النبي ﷺ هو الدين إلى يوم الدين، وليس لأحد أن يعطل حكماً ثبت عن النبي ﷺ بدعوى أننا في حال يشبه العصر المكي؛ وإلا لصح أن يقول قائل: لا نزكي ولا نصوم لأننا في حال يشبه العهد المكي، وإنما فرضت الزكاة والصيام في العهد المدني.

بل إننا نضيف إلى ما سبق، أنه بافتراض أن هناك شبهة في تكفير هؤلاء الحكام،

= الذين شرعوا للناس ما لم يأذن به الله؛ فإن ذلك لا ينبغي أن يكون مانعاً من قتالهم؛ ذلك أنهم ممتنعون عن تطبيق أحكام الله، وقد وقع الإجماع على أن كل طائفة ذات شوكة، امتنعت عن شيء من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة؛ فإنه يجب قتالها، حتى لو كانت مقرة بتلك الشرائع، غير جاحدة لها، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع عدة من «الفتاوى».

ومن ذلك قوله رحمته الله حين سئل عن قتال التتار: «كل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة، من هؤلاء القوم وغيرهم؛ فإنه يجب قتالهم، حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين، وملتزمين بعض شرائعه، كما قاتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه والصحابه رضي الله عنهم مانعي الزكاة، وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم، بعد سابقة مناظرة عمر لأبي بكر رضي الله عنه؛ فاتفق الصحابة رضي الله عنهم على القتال على حقوق الإسلام عملاً بالكتاب والسنة.

وكذلك ثبت عنه رحمته الله من عشرة أوجه الحديث عن الخوارج، وأخبر أنهم شر الخلق والخلقية مع قوله: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم»؛ فعلم أن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه؛ ليس بمسقط للقتال؛ فالقتال واجب حتى يكون الدين كله لله، وحتى لا تكون فتنة؛ فمتى كان الدين لغير الله فالقتال واجب.

فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات، أو الصيام أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء والأموال، والخمر والميسر، أو عن نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو ضرب الجزية على أهل الكتاب، وغير ذلك من واجبات الدين ومحرماته، التي لا عذر لأحد في جحودها وتركها، التي يكفر الجاحد لوجوبها؛ فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها، وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء»، «مجموع الفتاوى» (٢٨/٥٠٢-٥٠٣).

وقال رحمته الله: «والدين هو الطاعة؛ فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله؛ وجب القتال حتى يكون الدين كله لله»، «مجموع الفتاوى» (٢٨/٥٤٤).

وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام، قد نص عليه غيره من العلماء:

ومصعب قد سمع من علي بن أبي طالب عليه السلام، كما قرره البخاري في «التاريخ الكبير»، ومسلم في «الكنى»، وهو ظاهر صنيع أبي حاتم الرازي كما في

= فقد قال النووي في شرح حديث أبي هريرة، الذي فيه مناظرة عمر لأبي بكر رضي الله عنهما: «فيه وجوب قتال مانعي الزكاة أو الصلاة، أو غيرهما من واجبات الإسلام، قليلاً كان أو كثيراً؛ لقوله رضي الله عنه: لو منعوني عقلاً أو عناقاً...»، [شرح صحيح مسلم] (٢/٢٩٢).

وقال القاضي أبو بكر بن العربي في «أحكام القرآن» (٢/٥٩٦)، عند حديثه عن آية الحرابة في سورة المائدة: «فإن قيل: كيف يقال: إن هذه الآية تناولت المسلمين وقد قال: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وتلك صفة الكفار؟

قلنا: الحرابة تكون بالاعتقاد الفاسد، وقد تكون بالمعصية فيجائز بمثلها، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢١٩].
فإن قيل: ذلك فيمن يستحل الربا.

قلنا: نعم وفيمن فعله؛ فقد اتفقت الأمة على أن من يفعل المعصية؛ يحارب، كما لو اتفق أهل بلد على العمل بالربا، وعلى ترك الجمعة والجماعة». وقال ابن قدامة في الكافي (١/١٢٧): «الأذان مشروع للصلوات الخمس دون غيرها، وهو من فرائض الكفاية؛ لأنه من شعائر الإسلام الظاهرة كالجهاد؛ فإن اتفق أهل بلد على تركه قوتلوا عليه».

وقال ابن خويزمنداد: «ولو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحللاً؛ كانوا مرتدين، والحكم فيهم كالحكم في أهل الردة، وإن لم يكن ذلك منهم استحللاً؛ جاز للإمام محاربتهم؛ ألا ترى أن الله تعالى قد أذن في ذلك فقال: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾»، انظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٣/٣٦٤).

وقال ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» (ص ٧٣): «... فإذا دخل في الإسلام؛ فإن أقام الصلاة وآتى الزكاة وقام بشرائع الإسلام؛ فله ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين، وإن أخل بشيء من هذه الأركان، فإن كانوا جماعة لهم منعة قوتلوا...»، انتهى.

«العلل»، وهو الصواب؛ خلافاً لابن المديني، ومن علم حجةً على من لم يعلم، والله أعلم.

قال ابن حزم في «الفصل في الملل والأهواء والنحل»: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]؛ فنص تعالى على أن من الكلام ما هو كفر.

وقال تعالى: ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: ١٤٠]؛ فنص تعالى أن من الكلام في آيات الله تعالى ما هو كفر بعينه مسموع.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [٦٥] لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]؛ فنص تعالى على أن الاستهزاء بالله تعالى أو بآياته أو برسول من رسله؛ كفر فخرج عن الإيمان، ولم يقل تعالى في ذلك: إني علمت أن في قلوبكم كفراً؛ بل جعلهم كفاراً بنفس الاستهزاء، ومن ادعى غير هذا فقد قَوَّلَ الله تعالى ما لم يَقُلْ، وكَذَّبَ على الله تعالى.

وقال ﷺ: ﴿إِنَّمَا السَّيِّئُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الْذَّيْبُ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُبْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [٣٧] [التوبة: ٣٧].

قال أبو محمد: وبحكم اللغة التي بها نزل القرآن، أن الزيادة في الشيء لا تكون البتة إلا منه لا من غيره؛ فَصَحَّ أن النسيء كفر وهو عمل من الأعمال، وهو تحليل ما حرم الله تعالى؛ فمن أحل ما حرم الله تعالى، وهو عالم بأن الله تعالى حرمه؛ فهو كافر بذلك الفعل نفسه، وكل من حرم ما أحل الله تعالى، فقد أحل ما حرم الله ﷻ؛ لأن الله تعالى حرم على الناس أن يحرموا ما أحل الله» انتهى.

- وآخرون أهواؤهم اقتضت تسمية المجاهدين وبعض أهل العلم بالخوارج؛ لتكفيرهم الحكام الحاكمين بالطاغوت، الذين يشرعون الطاغوت ويعملون به، ويطبعون المصحف ويهملونه، ويتكبرون لتعاليمه وتشريعاته.

ويقفون في خندق واحد مع هؤلاء الطواغيت، ضدَّ كل من ينادي بإقامة شرع الله تعالى، وخلع الحكام المعاندين، الذين يُصِرُّون ويأبون أيَّما تأبَّ، على أن يقودوا أمة الإسلام بالشرع المطهر؛ بل ويحشدون الثناء العاطر على هؤلاء الطواغيت، ويُضَفُّونَ عليهم الشَّرْعِيَّةَ، ويشهدون لهم بالبيعة، في حين أنهم يكيلون التُّهْمَ، ويُصَدِّرُونَ الفتاوى المارقة، التي يتخذها الطاغوت سُلْماً، لقتل وسجن وتعذيب المصلحين في الأرض، المطالبين بإقامة حق الله تعالى في أرضه وعباده.

وهؤلاء الذين يُفتنون بهذا الباطل، ويناصرون الطاغوت؛ فيهم شبه كبير، إن لم يكونوا منهم، من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

أَوْثُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ [النساء: ٥١-٥٤].

فهم يوظفون الدين لخدمة الطاغوت، والحرب على المجاهدين، والمطالبين بالشريعة الإسلامية؛ فهواه مع المجادلة عن الطواغيت، وكَيِّ أعناق الأدلة وكلام أهل العلم، للتعذير عن جند الشيطان.

- وآخرون ممن يسمون أنفسهم برؤاد العمل الإسلامي السياسي؛ يسعون في تطبيق الشريعة الدولية لا الشريعة الربانية، ويرون فيها الخلاص والمخرج في هذا الزمان؛ من خلال الديمقراطية، وكفالة الحريات، وإقامة الدولة المدنية والتعددية السياسية في الحكم، واعتبار خيار الشعوب والوطنيات فيصلاً، في تحديد خط سير البلاد ومن يحكم العباد؛ فلا فرق عندهم بين مؤمن وكافر، وموحد وملحد، وذكر وأنثى، والمصيبة الكبرى أنهم يحسبون أنهم على شيء، وما علم هؤلاء أن هذا من الإلحاد في دين الله تعالى، وأنه من الكفر والشرك الأكبر؛ عياداً بالله من الحور بعد الكور، ومن الغواية بعد الرشيد^(١).

(١) راجع كتابي «الديمقراطية والإسلام ضدان لا يجتمعان»، وكتابي «إسعاف السئول»؛

فقد ذكرت الأدلة الشرعية، وبينت سبيل المؤمنين؛ وهو ما كان عليه النبي ﷺ

ولنعلم جميعاً: أن الحب الحقيقي للوطن؛ هو السعي في تطبيق الشريعة الإسلامية فيه، وقيادته وسياسته به، وإلا فإنما هو التعصب المذموم.

التصويت على الصلاة والصيام والحج:

سؤال نظرحه على دعاة الديمقراطية:

أتقبلون التصويت على هذه العبادات، من صلاة وصيام وزكاة وحج، وغير ذلك من العبادات والمعاملات؟

فننظر في رأي الأغلبية؛ فنغير أوقات الصلوات، وموسم الحج، وميعاد الصيام، وهكذا للزكاة والبيع والشراء، وغير ذلك من مسائل الدين، في أصول الشريعة وفروعها.

لا شك أن هذا من الكفر الصراح، ومن الردة البواح، نسأل الله العافية والسلامة.

إذ الكل يقطع بأن تحديد ذلك وضبطه هو حق محض لله تبارك وتعالى، على ما أنزله على نبيه ﷺ.

وهنا نقول: فأَي فرق بَيْنَ التصويت على هذه العبادات، وَبَيْنَ التصويت على حق الله تعالى في حكم عباده بشريعته، التي أنزلها بعلمه جل الله في علاه؟

= وأصحابه الكرام ﷺ، ومن تبعهم بإحسان.

التصويت على بيتك، وزوجتك، وولدك، ومالك، وغير ذلك من ممتلكاتك:

هل يقبل أحد من المسلمين أن يُجرى استفتاء للشعب على هذه الممتلكات الخاصة به، التي يُعدها حقاً له، لا يقبل فيها أدنى منازع؟
فإن صوّت الشعب على نزع زوجته منه نُزعت، وإن قالت الأغلبية بِسَلْبِهِ سَيَّارَتَهُ وَبَيْتَهُ، فليكن ذلك؛ إذ هو رأي الأغلبية، ولا بد من المصير إلى رأيهم واختيارهم.

لا شك أنه لن يقبل بذلك، ولو حصل هذا؛ لمألاً الدنيا ضجيجاً وصراخاً، ورفضاً تاماً لذلك مطلقاً، ولا يقبل أدنى مساومة في ذلك.

والسؤال الكبير:

إذن فكيف رضيتُم هذا لله تعالى في حقه جل الله في علاه؟، أليس هو تبارك وتعالى ملك الناس، أليس هو القائل: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ٥٧﴾ [الأنعام: ٥٧]، أليس هو الذي له الخلق والأمر؟

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذْ أَسْمَعُ ضِرَىٰ ٢٢﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ٢٣﴾ [النجم: ٢٢، ٢٣].

إنهم يُريدون حقوقهم، ويمنعون الله تعالى حقه، وإذا قيل لهم: إن لا إله

إلا الله منهج للحياة كلها بلا استثناء؛ لَوُوا رءوسهم، وكرهوا ذلك، عياداً بالله، واتبعوا ما أسخط الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]؛ بل ويسعون في مُعاداة ومُحاربة من يُطالب بالشريعة الغراء، مهيمنة على جميع مناحي الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَادِيهِمْ ءَايَتُنَا بِإِنِّي بَيْنَ يَدَيْكَ كَافِرٌ فِي وَجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادِرُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثَارُ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

مقولة خبيثة: لا يهمني من يحكمني:

نعم قد سمعناها من بعض الثوار، وسمعها غيرنا في بلاد شتى؛ وذلك لِظَنِّ هؤلاء أنه لن يؤثر على المسلم في إسلامه من الذي يحكمه؛ ما دام أنه هو في نفسه يصلي ويصوم، وهذا من جراء الجهل ببعض حقائق العبودية، وأصل أصيل من أصول الإسلام، ألا وهي مسألة لمن الحكم؟ ومن له حق التشريع؟ ومن الذي يحكم المسلمين؟ وبم يحكمهم؟

والله تعالى يقول في محكم التنزيل: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، والسبيل هنا هو الحجة، فالله تعالى قضى بأن العاقبة للمتقين، وأن كلمته أبداً هي العليا، وأنه لا يرضى لعباده الكفر،

وأمر المؤمنين بالمُقاتلة حتى يكون الدين كله لله، ولن يجعل الله للكفار على المؤمنين حجة في ذلك؛ بل سَيُنْزِلُ الله وَعْدَهُ، وسيصدق جُنْدَهُ، وسيمكن لهم في أرضه، ويُري أعداءهم منهم ما كانوا يحذروا، ومن ذلك أنه لا يرضى تبارك وتعالى في شريعته ولاية لمشرك على موحد، ولا لكافر على مسلم، ولا لمنافق على المتقين.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ^{٦٥} فَإِن نَنَزَعْنَاهُ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا^{٦٦}﴾ [النساء: ٥٩]، إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا^{٦٧}﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا^{٦٨}﴾ [النساء: ٦٥، ٦٦، ٦٧].

فقوله تعالى: ﴿وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ^{٦٥}﴾ ؛ أي من المسلمين، لا من المشركين ولا الكافرين ولا المنافقين المرتدين، فهذه الآيات صريحة الدلالة في أنه لم يأذن الشرع أبداً أن يلي أمر المسلمين أحدٌ من الكافرين، أو المرتدّين أبداً، وأن أولياء الأمور إنما هم علماء المسلمين والأمراء من أهل الإسلام، كما جاء في جامع البيان «تفسير الطبري»: «قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي؛ قول من قال: هو خطابٌ من الله ولاةٌ أمور المسلمين، بأداء الأمانة

إِلَى مَنْ وَلَّوْا أَمْرَهُ فِي فَيْئِهِمْ وَحَقُوقِهِمْ، وَمَا اتُّمِّنُوا عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ، بِالْعَدْلِ بَيْنَهُمْ فِي الْقَضِيَّةِ، وَالْقَسَمِ بَيْنَهُمْ بِالسَّوِيَّةِ.

يدل على ذلك ما وَعَظَ بِهِ الرَّعِيَّةُ فِي: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، فَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِمْ، وَأَوْصَى الرَّاعِي بِالرَّعِيَّةِ، وَأَوْصَى الرَّعِيَّةَ بِالطَّاعَةِ، كَمَا: حَدَّثَنِي يُونُسُ قَالَ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، قَالَ: قَالَ أَبِي: هُمْ السُّلَاطِينُ، وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [سورة آل عمران: ٣٦]، وَإِنَّمَا نَقُولُ: هُمْ الْعُلَمَاءُ الَّذِي يُطِيفُونَ عَلَى السُّلْطَانِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ أَمَرَهُمْ فَبَدَأَ بِهِمْ، بِالْوَلَاةِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾؟ وَ«الْأَمَانَاتُ» هِيَ الْفِيءُ الَّذِي اسْتَأْمَنَهُمْ عَلَىٰ جَمْعِهِ وَقَسَمَهُ، وَالصَّدَقَاتُ الَّتِي اسْتَأْمَنَهُمْ عَلَىٰ جَمْعِهَا وَقَسَمَهَا: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ الْآيَةُ كُلُّهَا؛ فَأَمَرَ بِهَذَا الْوَلَاةِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا نَحْنُ فَقَالَ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

بل وقد نهى الشرع عن اتخاذ هؤلاء الكفرة والمرتدين، بِطَانَةً أَوْ أَصْدِقَاءَ وَأَصْفِيَاءَ وَأَخْلَاءَ، فَكَيْفَ بِمَنْ اتَّخَذَ مِنْهُمْ زُرَّاءَ وَمُسْتَشَارِينَ وَنَحْوَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبْرًا وَلَا وُدًّا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَتَأْتُمْ أَوْلَاءَ حُبُّهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ

وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقَاكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ
الْفِغْطِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ سَوَّاهُمْ
وَلِنْ تُصَبِّحُكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ نَصِرُوا وَتَفَقُّوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ [آل عمران: ١١٨ - ١٢٠].

جاء في جامع البيان «تفسير الطبري»: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوْا مَا عَنِتُّمْ﴾ ، قال أبو جعفر: يعني بذلك تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به نبيهم من عند ربهم: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ ، يقول: لا تتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ ، يقول: من دون أهل دينكم وملئكم؛ يعني من غير المؤمنين.

وإنما جعل «البطانة» مثلاً لخليل الرجل، فشبهه بما ولي بطنه من ثيابه، لحلوله منه، في إطلاعه على أسرار، وما يطويه عن أباغده، وكثير من أقاربه؛ محل ما ولي جسده من ثيابه.

فنهى الله المؤمنين به أن يتخذوا من الكفار به أخلاء وأصفياء، ثم عرّفهم ما هم عليه لهم مُنْطَوُونَ مِنَ الغش والخيانة، وَبَغِيهِمْ إياهم الغوائل، فحذرهم بذلك منهم ومن مخالّتهم، فقال تعالى ذكره: ﴿يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ ؛ يعني لا يستطيعونكم شراً، مِنْ «أَلَوْتُ أَلَوُا»، يقال: «ما أَلَا فلان كذا»، أي: ما استطاع، كما قال الشاعر:

جَهْرَاءَ لَا تَأَلَوْ، إِذَا هِيَ أَظْهَرَتْ بَصَرًا، وَلَا مِنْ عَيْلَةٍ تُغْنِينِي

يعني: لا تستطيع عند الظهر إبطارًا.

وإنما يعني جل ذكره بقوله: ﴿لَا يَأَلُونَكُمُ خَبَالًا﴾، البطانة التي نهى المؤمنين عن اتخاذها من دونهم، فقال: إن هذه البطانة لا تترككم طاقتها خبالًا؛ أي لا تدعُ جهدها فيما أوزركم الخبال.

وأصل «الخبل» و«الخبال»، الفساد، ثم يستعمل في معان كثيرة، يدل على ذلك الخبر عن النبي ﷺ: «من أصيب بخبل أو جراح»^(١).

وأما قوله: ﴿وَدُّوْا مَا عَنِتُّمْ﴾؛ فإنه يعني: ودوا عنتكم، يقول: يَتَمَتَّوْنَ لَكُمْ الْعَنَتَ وَالشَّرَّ فِي دِينِكُمْ، وما يسوءكم ولا يسركم.

(١) قلت: هو هذا اللفظ ضعيف لا يصح، كما في: «مصنف ابن أبي شيبة»: الرَّجُلُ يُصَابُ بِخَبَلٍ، أَوْ دَمٍ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ الْأَحْمَرُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ قُضَيْلٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي الْعَوَّجَاءِ، عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخَزَاعِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أُصِيبَ بِدَمٍ، أَوْ خَبَلٍ، وَالْخَبَلُ: الْجُرْحُ، فَهُوَ بِالْخِيَارِ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ، فَإِنْ أَرَادَ الرَّابِعَةَ فَحُدُّوا عَلَى يَدَيْهِ: أَنْ يُقْتَلَ، أَوْ يَمُوتَ، أَوْ يَأْخُذَ الدِّيَةَ؛ فَمَنْ فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعَادَ، فَلَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»، ورواه الإمام الطبري في تهذيب الآثار، والطحاوي في شرح معاني الآثار من طريق ابنِ أَبِي الْعَوَّجَاءِ، وهو سفيان بن أبي العوجاء السلمي، أبو ليلى الحجازي.

قال الحافظ المزي في تهذيب الكمال: «قال البخاري: في حديثه نظر»، وقال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب: «وقال أبو حاتم: ليس بالمشهور» انتهى.

ولكن جاء الصحيحين والفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث طويل قال النبي ﷺ: «وَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَفْدَى، وَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ».

وذكر أن هذه الآية نزلت في قوم من المسلمين كانوا يخالطوهم حلفائهم^(١) من اليهود وأهل النفاق منهم، ويصافونهم المودة بالأسباب التي كانت بينهم في جاهليتهم قَبْلَ الإسلام، فنهاهم الله عن ذلك، وأن يستنصحوهم في شيء من أمورهم» انتهى.

ومما يزيد الأمر وضوحاً وبياناً وبرهاناً؛ أَنَّ النبي ﷺ أَمَرَ بِخَلْعِ الحاكم المُصِرِّ عَلَى الحكم بالطاغوت، المبدل لشرع الله تعالى، والمتلاعب بدين الله تعالى، والذي ينبغي في الإسلام سنة الجاهلية، فلا يتزع عن ذلك ويقبل النصح، وإن استلزم الأمر مقاتلته ومحاربته، وعند المسلمين شوكة وقدرة على ذلك؛ فليقاتلوه وليحاربوه وليتزعوه بقوة السلاح والعتاد؛ لاستنقاذ العباد والبلاد من هذا الطاغوت، ومن أن يحكمهم بالكفر والزندقة.

كما في «الصحيحين» عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعَنَا، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: «أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَلَّا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ».

وفي «صحيح مسلم» عن عوف بن مالك: عن رسول الله ﷺ قال: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»، قيل: يا

(١) لعل الصواب: يخالطون حلفاءهم.

رسول الله، أفلا تنابذهم بالسيف؟ فقال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولا تكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعة».

وقد تقدم معنا بيان أن إقام الصلاة هنا هو بمعنى إقامة الدين، المتمثل في اجتناب الكفر بالله تعالى، وتطبيق شرع الله تعالى فينا، فهو يقودنا به لا بغيره أبداً.

القرآن يستنطق العباد:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْحَكِيمِينَ﴾ [التين: ٨].

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِدَّتِهِ. هَلْ نَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [٤٨] وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠].

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا بُرِيدٌ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [٤٩] أَفَحَكَمَ الْجَاهِلِيَّةُ بَعْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ

مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُؤْقِنُونَ ﴿٥٠﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

عجباً لأقوام يقرأون هذه الأسئلة الربانية، التي يستنطق فيها عباده، سائلاً إياهم هذه الأسئلة الحاسمة القاطعة، التي تقوم بها الحجة على كل من قرأها ووعاها.

أما العلمانيون والديمقراطيون والشيوعيون وأشباههم؛ فعندهم قوانين ونُظُم ودساتير البشر أحكم وأعدل وأعلم، عياذاً بالله من الزندقة والرَّذَّة والكفر الصراح.

بل وَيَرَوْنَ أَنَّ الحق للعباد في ذلك، أن يضعوا دساتيرهم وقوانينهم ونُظُمَهم، التي تتماشى مع مجتمعاتهم وعاداتهم، وتقاليدهم وحياتهم والمجتمع الدولي، وأنه ليس من حق أحد أن يُقدِّم الشريعة الإسلامية كنظام عام للحياة، ومصدر وحيِّد مُنفرد للنُظُم والقوانين والدساتير، ويصرحون بهذا جهاراً نهائراً، قاتلهم الله أني يؤفكون؛ بل وَيَرَوْنَ أَنَّ الشريعة الإسلامية تُعطلُّ عَجَلَةَ الحياة، وتُؤخِّرُ عن رَكْبِ التقدم والحضارة والرقى، وتُخدِّرُ الشعوب عن النهوض للحاق بذلك الركب، ألا لعنة الله على الظالمين؛ بل وَيَرَوْنَ أَنَّ تطبيق الشريعة الإسلامية سيكون سبباً للفتن والقلاقل، وزعزعة الأمن والاختراب والشحناء والبغضاء، قاتلهم الله أني يؤفكون.

وإن كثيراً من الناس لربما أجاب بأن الله تعالى هو أحكم الحاكمين، وأنه أعلم بما يشاء، وأنه لا سمي له ولا نظير، وأنه حكمه هو الأحسن، وأنه

لم يأذن لأحد أن يشرع لخلقه من دونه تبارك وتعالى، وأنه الله تبارك وتعالى لا يحيف على خلقه جل الله في علاه؛ فقد حرم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرماً، فلا يظلم ربنا تبارك وتعالى أحداً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

ومع هذا كله تجد العالم اليوم ينازع الله تعالى حقه، في حكم خلقه بشريعته، التي أوحى بها إلى نبيه ﷺ؛ وسيندم العالم أيما ندامة، فإن الله تعالى يملئ ولا ينسى تبارك وتعالى، وإن أخذته أليم شديد، كما قال تعالى: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

وقال تعالى: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيئًا﴾ [١٠١] وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [١٠٢]

[هود: ١١٩، ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ [٧٦]

حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ [المؤمنون: ٧٦، ٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِيَّ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفَةٍ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ وَاحِدٍ مِّنْكُمْ أَجْرَهُ بِمَا عَمِلَ مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ كَثِيرٌ مِّنْكُمْ أَهْلُ خَلٍّ إِنَّهُمْ يَخْلَوْنَ فِي أَصْحَابِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿٤٦﴾ [سبا: ٤٤ - ٤٦].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُدْثِرُهُمْ وَمَا كَانَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦٢﴾ [غافر: ٦١، ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿١١٣﴾ [النحل: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٤﴾ [الحشر: ٤].

وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُثَلِّمُ لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٠٢﴾ [هود: ١٠٢].

البيمية الخرقاء:

ما للبيمية الخرقاء في بلدي محمرة العين من سُكَّرٍ ومن رَمَدٍ؟
 تُجَرِّجُ الخطوَ تبدي قُبْحَ سَوَاتِنِهَا منبوذة توهم الأغمارَ بالرَّفَدِ
 من بعد أن سقطت في عقرِ موطنِها فرث من الذُّعُرِ لا تلوي على أحدٍ
 تَجْتَرُّ فِكْرًا سَقِيمًا لا قبولَ له في موطنِ الدِّينِ والأخلاقِ والرَّشَدِ
 لا للشُّيُوعِيَةِ الحمراءِ شائِهَةٌ ولا لعلمنيةٍ تغتالُ مُعْتَقَدِي
 وُقِيَتْ شَرَّ يسارِ الغيِّ من وطنٍ يا موطنَ الشَّرَفِ المغروسِ في الحَلَدِ
 ولن تضيعَ وفيك القائمونَ به ولن يفتَّ دعاةُ السُّوءِ في الجَلَدِ
 فلا لتعظيمِ لينينٍ وزمرتهِ والماركسيةِ ذاتِ النفثِ في العُقَدِ
 قومٌ يرونَ ابتداءَ الخلقِ من صُدْفٍ وينكرونَ وجودَ الواحدِ الأحدِ
 تعلقوا سفسطاتٍ وهي باطلَةٌ كما تعلق طافي الغصنِ بالزَّبَدِ
 بادتْ بموطنِها الأصليِ واندثرت وأخفقت في اجتلابِ الأمنِ والرغدِ
 جدارُ برلينَ لَمَّا خَرَّ أَقْبَرُهَا لكنها خرجتْ في ثوبِ مُضْطَهَدِ
 أجالتِ الطرفَ في الأنحاءِ صاغرةً تريدُ مأوًى ولو ناءٍ من البلدِ

حريّةٌ وعدالةٌ زعموا كمنّي دَسُّ زُعَافِ السِّمِّ فِي الشَّهَدِ
 وللشعاراتِ أغراضٌ تُرادُّ بها كما يَراُدُّ بِلَوُغِ الْمَتَنِ بِالسَّيْنَدِ
 مَنْ شَاءَ فَلْيَسْتَقِمَّ بِالذِّينِ ذَاكَ لَهُ وَمَنْ أَرَادَ وَرُودَ الْكُفْرِ فَلْيَإِزِدِ
 كذاكَ لِلْبَنَتِ حَقٌّ فِي تَصَرُّفِهَا بِلا رَقِيبٍ وَلَا وَالٍ وَلَا رَصَدِ
 فلا أَبٌ يُسْتَحَى مِنْ نُورِ شَيْئَتِهِ وَلَا أَخٌ يَسْتَطِيعُ الْكَفَّ عَنْ وَعْدِ
 تَفْسُخٍ وَشَذُودٍ وَانْفِصَامٍ غُرَى وَلَا يَخَافُ مُرِيدَ الْفِسْقِ مِنْ أَحَدِ
 لا تعجبوا إن أرادوا فَتَحَ أُنْدِيَةِ لِلْعُرَى وَالْمَثَلِ وَالْإِتْجَارِ بِالْجَسَدِ
 مِنْ أَيْنَ جَاءُوا لَنَا لَا أُمَهَاتَ لَهُمْ فَلَيْتَهَا قَطُّ لَمْ تُنْكَحْ وَلَمْ تَلِدِ
 وقاك مولاك يا سودانُ مِنْ نَفَرٍ يَسْعُونَ سَعْيَ خَبِيثِ السُّوسِ فِي الْعَمَدِ
 شُدُّوا عَلَى دِينِكُمْ أَرْكَانَ دَوْلَتِكُمْ كَمَا تُشَدُّ حِبَالُ الْبَيْتِ بِالْوَتَدِ
 ولن يَضِيرَ نَقَاءَ الدِّينِ شَرِذْمَةٌ قَدْ اسْتَغْلَوْهُ فِي عَهْدٍ مِنَ النُّكْدِ
 دَارُ الْمَرْوَةِ وَالْإِيمَانِ مَوْطِنُنَا وَشُرْعَةُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا إِلَى الْأَبَدِ

لا يكون صلاح الإسلام بركوب الكفران:

ولنعلم أنه لا يجوز بحال للحاكم أن يركب الكفر، تحت أي مسمّى
 مما يدعونه مصلحة، ولا مكان للإكراه هنا؛ إذ الحاكم لا مندوحة له؛ فإما

أن يحكم بالشرع وإما أن يتنحى؛ فليس هو كآحاد الناس؛ فإنه إنما أوتي الملك ليقيم حق الله تعالى، ويحكم بشريعة النبي ﷺ، لا خيار له سوى ذلك؛ فهو يمثل الأمة التي يحكمها، فهو قطعاً لا يدخل لا في باب الإكراه، فضلاً عن باب الضرورة؛ أن يحكم بالكفر أو يركن إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَلِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِنَفْتَرِيَ عَلَيْكَ غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً ۝٧٣ وَلَوْلَا أَنْ نُبْنِيَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ۝٧٤ إِذَا لَا دَفْنُوكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ۝٧٥﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۝٢٧ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٢٨ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَنْ لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ ۝٢٩﴾ [محمد: ٢٥ - ٢٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٣﴾ وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَسْكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ [هود: ١١٣، ١١٢].

ومن جميل ما قرأته لأحد المشايخ: «إِذَا وَجَدْتَ مَنْ يُقَاتِلُ كُفْرَ الاستبداد، وَيُطَالِبُ بِكُفْرِ الديمقراطية؛ فاعلم أنه مغفلٌ يجهل حقيقة الإسلام وحقيقة الديمقراطية؛ كالذي اختارَ شُرْبَ الخمر، على الزنى بالمرأة وقتل الغلام؛ فَشَرِبَهَا؛ فَزَنَى بالمرأة وقتل الغلام» انتهى.

ويقول فضيلة الشيخ أخي الحبيب عمر بن عبد الله الهاشمي: «لا يمكن أن يجعل الله تعالى الكفر الذي أرسل الرسل لمحْوَهِ؛ وَسَيَلَةً لِلتَّمَكِينِ لِدِينِهِ وإظهار شريعته: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طيب ولا يقبل إلا طيباً».

وكيف يُصَوِّرُ أَنْ يَشْرَعَ اللهُ لعباده فعل الكفر لمصلحة أو مفسدة وهو القائل: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]؛ فالله تعالى لا يرضى بالكفر بحال من الأحوال، ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

وإنما عَدَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُكْرَهَ لِأَنَّهُ مُلْجَأٌ لَا حِيلَةَ لَهُ، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]؛ فلم يَسْتَشِنْ سبحانه إلا المكره فقط؛ فأين المصلحة المزعومة من ذلك؟ بل أُمِرْنَا بالقتال الذي تَذْهَبُ النَّفُوسُ فِيهِ لِذَرْءِ الكفر وَمَحْوَهِ، فكيف تكون المصلحة في فعله؟ بل الكفر أعظم المفاسد، ولا مفسدة أكبر

منه، كما أنَّ التوحيد أعظم المصالح، ولا مصلحة أكبر منه، وكل مصلحة ومفسدة تعارضهما؛ فهي ساقطة فاسدة الاعتبار» انتهى.

نقولات عن أهل العلم، تبين أنه لا يجوز ركوب الكفر بدعوى المصلحة:

إن بعض الناس قد أساء فهم القاعدة الفقهية التي تقول: «درء أعلى المفسدين بركوب أدناهما، وتحصيل أعلى المصلحتين بتفويت أدناهما»، أو بعبارة أخرى: «أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأمرنا بتقديم خير الخيرين بتفويت أدناهما، وبدفع شر الشرين باحتمال أدناهما».

وأكثر ما يحتجون به من كلام أهل العلم؛ بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية، بمثل قوله، رحمه الله تعالى، في كتابه «الاستقامة»: «وعلى هذا استقرت الشريعة بترجيح خير الخيرين، ودفع شر الشرين، وترجيح الراجح من الخير والشر المجتمعين» اهـ.

وقال في «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»: «وَالرُّسُلُ بُعِثُوا بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا، وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا، وَتَقْدِيمِ خَيْرِ الْخَيْرَيْنِ عَلَى أَذْنَاهُمَا حَسَبَ الْإِمْكَانِ، وَدَفْعِ شَرِّ الشَّرَّيْنِ بِخَيْرِهِمَا؛ فَهَدُمَ صَوَامِعَ النَّصَارَى وَبَيَعَهُمْ فُسَادًا، إِذَا هَدَمَهَا الْمَجُوسُ وَالْمُشْرِكُونَ، وَأَمَّا إِذَا هَدَمَهَا الْمُسْلِمُونَ وَجَعَلُوا أَمَاكِنَهَا مَسَاجِدَ، يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا؛ فَهَذَا خَيْرٌ وَصَالِحٌ» اهـ.

وقال في «درء تعارض العقل والنقل»: «فتقتضي الحكمة ترجيح خير الخيرين بتفويت أدناهما، ودفع شر الشرين بالتزام أدناهما» اهـ.

وقال في «منهاج السنة النبوية»: «فإن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين؛ حتى يقدم عند التزاحم خير الخيرين، ويدفع شر الشرين، ومعلوم أن شر الكفار والمُرْتَدِّين وَالْخَوَارِجِ؛ أَعْظَمُ مِنْ شَرِّ الظَّالِمِ» اهـ.

وقال في «مجموع الفتاوى»: «وَالْوَرَعُ تَرْجِيحُ خَيْرِ الْخَيْرَيْنِ بِتَفْوِيتِ أَدْنَاهُمَا، وَدَفْعِ شَرِّ الشَّرَّيْنِ وَإِنْ حَصَلَ أَدْنَاهُمَا» اهـ، وفي مواضع من كتبه رحمه الله تعالى.

والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه: أنا نقول لهم ولغيرهم: أليس من المقطوع به أن أعظم الشر على الإطلاق هو الكفر والشرك بالله تعالى، وهو الطاغوت المأمور باجتنابه، والكفر به والبراءة منه ومن أهله؟

وأن أعظم المصالح التي يجب تحصيلها على الإطلاق هي مصلحة إقامة التوحيد، والعمل به وتطبيقه وتنزيله في العباد والبلاد، إذ هو حق الله تعالى على العباد؟

فنسألهم: ما هي المفسدة التي هي أعظم من الطاغوت، التي قادتكم إلى الركون إلى الطاغوت ومداخلته؛ لتدفعوا الأعلى بالأدنى؟، ولا شك أنه وبهذا الاعتبار والتصور؛ أن الأدنى هنا هو الطاغوت، والأعلى هو ذلك

الشيء الذي لأجله داخلوا الطاغوت محتملين إياه؛ لدفع ذلك الأعلى.

فنعود ونقول: ما هو هذا الأمر الذي هو أعظم من الطاغوت، حتى دفعتم الأعلى باحتمال الأدنى (الذي هو اجتناب الطاغوت في هذه الحالة)؟

وبما أنهم يحتجون بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى؛
فهأنا أنقل من صريح كلامه في هذا المقام، الذي يقرر فيه أنه لا مصلحة في
ركوب الشرك مطلقاً، وأنه لا يؤذن به أصلاً:

قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى»: «الْمُحَرَّمَاتِ قِسْمَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَا يَقْطَعُ بَأَنَّ الشَّرْعَ لَمْ يُبَحِّ مِنْهُ شَيْئًا لَا لِضُرُورَةٍ وَلَا لِغَيْرِ
ضُرُورَةٍ؛ كَالشِّرْكِ، وَالْفَوَاحِشِ، وَالْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَالظُّلْمَ الْمُخْضِ؛
وَهِيَ الْأَرْبَعَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَّنَ إِلَّا أَنَا وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى
اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ (٣٢)﴾ [الأعراف: ٣٣]. فَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ مُحَرَّمَةٌ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ،
وَبِتَحْرِيمِهَا بَعَثَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ، وَلَمْ يُبَحِّ مِنْهَا شَيْئًا قَطُّ وَلَا فِي حَالٍ مِنْ
الْأَحْوَالِ؛ وَلِهَذَا أُنْزِلَتْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْمَكِّيَّةِ» اهـ.

وقال في «إقامة الدليل على إبطال التحليل»: «ثُمَّ إِنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَ
الْمُسْلِمِينَ، أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْأَمْرُ وَلَا الْإِذْنُ، فِي التَّكَلُّمِ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ لِعَرَضٍ مِنَ
الْأَغْرَاضِ؛ بَلْ مَنْ تَكَلَّمَ بِهَا فَهُوَ كَافِرٌ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُكْرَهًا، فَيَتَكَلَّمَ بِلِسَانِهِ،
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» اهـ.

وقال في «مجموع الفتاوى»: «وهذا لا يجيء في الأنواع الأربعة؛ فإنَّ الشُّركَ، والقَوْلَ عَلَى اللَّهِ بِلا عِلْمٍ، والفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَالظُّلْمَ؛ لَا يَكُونُ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ أُبِيحَ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ؛ فَلَيْسَ مِنَ الْأَرْبَعَةِ، وَكَذَلِكَ إِتْلَافُ الْمَالِ يُبَاحُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ، وَكَذَلِكَ الصَّبْرُ عَلَى الْمَجَاعَةِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ فَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، وَالْعَدْلُ؛ وَاجِبٌ مُطْلَقًا فِي كُلِّ حَالٍ وَفِي كُلِّ شَرْعٍ؛ فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَيَدْعُوهُ مُخْلِصًا لَهُ، لَا يَسْقُطُ هَذَا عَنْهُ بِحَالٍ» اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في «مجموع الفتاوى»: «وَمَا هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ حَالٍ؛ لَا يُبَاحُ مِنْهُ شَيْءٌ؛ وَهُوَ الْفَوَاحِشُ، وَالظُّلْمُ، وَالشُّرْكُ، والقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلا عِلْمٍ» اهـ.

وقال في «مجموع الفتاوى»: «وَالْمُسْلِمُونَ وَإِنْ تَنَازَعُوا فِي جَوَازِ التَّدَاوِي بِالْمُحَرَّمَاتِ، كَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ؛ فَلَا يَتَنَازَعُونَ فِي أَنَّ الْكُفَرَ وَالشُّرْكَ، لَا يَجُوزُ التَّدَاوِي بِهِ بِحَالٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ فِي كُلِّ حَالٍ، وَلَيْسَ هَذَا كَالْتَكَلُّمِ بِهِ عِنْدَ الْإِكْرَاهِ» اهـ.

- وآخرون أهواؤهم في نفي الصفات عن الله تعالى كالجهمية، وبعضهم نفاهوا إلا سبعة كالأشاعرة، ثم تفرعت منهما طوائف وجماعات، كلها ضالة منحرفة في هذا الباب، وليسوا من أهل السنة؛ بل هم من أهل الأهواء والبدعة.

وهنا نُذَكِّرُ نَفَاةَ الإجماع، بأنه لا سبيل إلى الرَّدِّ على هؤلاء المبطلين في صفات الله تعالى؛ إلا بما أجمع عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والسلف الصالح من بعدهم؛ من أن صفات الله تعالى يجب إثباتها حقيقة لا مجازاً، وأنها تحمل معاني يجب إثباتها، وإنما نفوِّض في كيفيتها، لا في إثبات حقيقتها ومعانيها، وبمثل هذا الإجماع احتج السلف على الأشاعرة والجهمية، وإلا فَلَغَةُ العرب واسعة، وَيَسَعُّ المَبْطَلُ أن يتحایل لِيَحْمِلَ معاني آيات الصفات، على معان وَرَدَتْ في لغة العرب

- وآخرون اتبعوا أهواءهم؛ حيث اتخذوا من الخلف سلفاً، واتبعوهم في مخالفة السلف، وكأنهم جعلوهم حجة على السلف.

- وآخرون تحكموا بأهوائهم في باب معاني الألفاظ؛ فضيقوا واسِعَهَا، وآخرون وسعوا دائرتها، وآخرون حملوها على خلاف ما استُعْمِلَتْ فيه، وآخرون طردوا المعنى في كل استعمالات اللفظ حيث ورد، دون اعتبار للسياق الذي وردت فيه، ودون رجوع لفهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وفهم السلف من بعدهم، وهذا قد أورث فساداً عريضاً، وشقاقاً وفرقة عظيمة، وهذا نتاج اتباع الأهواء، والعياذ بالله.

فمن ذلك: معنى الإيمان المنجي، كما فعلت المرجئة والجهمية ومن تأثر بهم، وكذلك معنى السُّنَّة وما وقع فيه من التلاعب والاضطراب، كما فعلته بعض المبتدعة والفقهاء، ودعاة الوسطية المزعمون، وكذلك تحديد معنى القاضي، والحاكم، وعلاقة كل منهما بالتشريعات الجاهلية، كما وقع فيه بعض من لم

يتصور حقيقة عمل القضاة اليوم، مع هذه التشريعات الجاهلية.

وَإِذَا كَانَ مَنْ يَتَحَاكَمُ إِلَى الطَّاغُوتِ مَخْتَارًا مَرِيدًا؛ يَكْفُرُ وَيُخْرِجُ عَنِ الْمِلَّةِ؛ فَكَيْفَ بِالْحَاكِمِ بِهِ! وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٤، ٦٥].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ يَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرِيذُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۝٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

وقد بيَّنتُ ذلك في كتابي «التشريع»، ونقلتُ عن السلف أن القاضي حاكم ولا بد، وأن كفر التشريع يجري عليه قطعاً، كما يجري على واضع الشرع الجاهلي؛ من أمير، أو سلطان، أو دستور، أو برلمان، ونحو ذلك، وكذلك معنى الطاعة والاتباع المُكفَّر، وأنه يكون عملاً جوارحياً؛ فمتى ما وقع؛ فقد وقع الكفر، والعياذ بالله.

قال ابن حزم في «المحلى»: «وَصَحَّ الإِجْمَاعُ بِأَنَّ دِينَ الإِسْلَامَ نَسَخَ كُلَّ دِينٍ كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ مَنْ التَزَمَ مَا جَاءَتْ بِهِ التَّوْرَةُ أَوْ الإِنْجِيلُ، وَلَمْ يَتَّبِعْ

الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ كَافِرٌ مُشْرِكٌ، غَيْرٌ مَقْبُولٍ مِنْهُ، فَإِذَا ذَلِكَ كَذَلِكَ فَقَدْ أَبْطَلَ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ شَرْيْعَةٍ، كَانَتْ فِي التَّوْرَةِ، وَالْإِنْجِيلِ، وَسَائِرِ الْمِلَلِ، وَأَفْتَرَضَ عَلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ؛ فَلَا حَرَامَ إِلَّا مَا حُرِّمَ فِيهِ، وَلَا حَلَالَ إِلَّا مَا حُلِّلَ فِيهِ، وَلَا فَرَضَ إِلَّا مَا فُرِضَ فِيهِ، وَمَنْ قَالَ فِي شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ خِلَافَ هَذَا؛ فَهُوَ كَافِرٌ بِلَا خِلَافٍ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ اهـ.

وإن اشتراط الاستحلال القلبي هنا لتنزيل الحكم؛ باطل قطعاً؛ بل هو من فساد التصور لحقيقة الطاعة والاتباع، الذي يقع به العبد في الكفر والشرك الأكبر، ومن الجهل بحقيقة التشريع.

كما قال الشيخ الشنقيطي في «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»: «وَمِنْ هَذِي الْقُرْآنِ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ؛ بَيَانُهُ أَنَّهُ كُلُّ مَنْ اتَّبَعَ تَشْرِيعًا غَيْرَ التَّشْرِيعِ، الَّذِي جَاءَ بِهِ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؛ فَاتَّبَاعُهُ لِذَلِكَ التَّشْرِيعِ الْمُخَالَفِ كُفْرٌ بَوَاحٍ، مُخْرِجٌ عَنِ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَلَمَّا قَالَ الْكُفَّارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: الشَّأُ تَصْبِحُ مَيْتَةً مَنْ قَتَلَهَا؟، فَقَالَ لَهُمْ: «اللَّهُ قَتَلَهَا»، فَقَالُوا لَهُ: مَا ذَبَحْتُمْ بِأَيْدِيهِمْ حَلَالَ، وَمَا ذَبَحَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ الْكَرِيمَةِ، تَقُولُونَ: إِنَّهُ حَرَامٌ! فَانْتُمْ إِذَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ؟؛ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجْدِلُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿٦﴾ [١٩: ١٠٠]...».

إلى أن قال: «فَهُوَ قَسَمٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، أَقَسَمَ بِهِ عَلَى أَنْ مَنْ اتَّبَعَ

الشَّيْطَانُ فِي تَحْلِيلِ الْمَيْتَةِ؛ أَنَّهُ مُشْرِكٌ، وَهَذَا الشُّرْكُ مُخْرِجٌ عَنِ الْمِلَّةِ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَسَيُؤَيِّخُ اللَّهُ مَرْتَبَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَزَالُ تَطَاغَىٰ عَلَىٰ مَا يَكْفُرُ بِكُمْ يَوْمَ الْبَرَاءَةِ أَنْ لَا تَبْغَىٰ، أَنْ يَكُونَ لَكُمْ عُدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٦٠) ﴿٣٦: ٦٠﴾؛ لِأَنَّ طَاعَتَهُ فِي تَشْرِيعِهِ الْمُخَالَفَ لِلْوَحْيِ هِيَ عِبَادَتُهُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا نَنْتَهِزُ عَنْهُمْ وَهُمْ يُدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ (١٧) ﴿١٧: ١٧﴾؛ أَيُّ: مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا شَيْطَانًا، وَذَلِكَ بِاتِّبَاعِهِمْ تَشْرِيعَهُ. وَقَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَّاؤُهُمْ...﴾ (٦) ﴿١٣٧: ٦﴾؛ فَسَمَّاهُمْ شُرَكَاءَ لِأَنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَالَ عَنْ خَلِيلِهِ: ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ...﴾ (١٩) ﴿٤٤: ١٩﴾؛ أَيُّ: بِطَاعَتِهِ فِي الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي.

وَلَمَّا سَأَلَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّخِذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرَهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا...﴾ (٩) ﴿٣١: ٩﴾؛ بَيَّنَّ لَهُ أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَتَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ، وَالْآيَاتُ بِمِثْلِ هَذَا كَثِيرَةٌ. وَالْعَجَبُ مِمَّنْ يُحَكِّمُ غَيْرَ تَشْرِيعِ اللَّهِ ثُمَّ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٦٠) ﴿٦٠: ٦٠﴾.

وَقَالَ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٤٤: ٥].
 وَقَالَ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ
 مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الْمُمْتَرِينَ﴾ [١١٤: ٦] انتهى.

وقال أيضًا رحمه الله تعالى في «أضواء البيان في إيضاح القرآن
 بالقرآن»: «وَلَمَّا كَانَ التَّشْرِيعُ وَجَمِيعُ الْأَحْكَامِ، شَرْعِيَّةً كَانَتْ أَوْ كَوْنِيَّةً
 قَدَرِيَّةً؛ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ؛ كَانَ كُلُّ مَنْ
 اتَّبَعَ تَشْرِيعًا غَيْرَ تَشْرِيعِ اللَّهِ، قَدْ اتَّخَذَ ذَلِكَ الْمُشْرِعَ رَبًّا، وَأَشْرَكَهُ مَعَ اللَّهِ.

وَالْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ، وَقَدْ قَدَّمْنَاهَا مِرَارًا، وَسَنُعِيدُ مِنْهَا مَا فِيهِ
 كِفَايَةٌ؛ فَمِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ مِنْ أَوْضَحِهِ وَأَصْرَحِهِ؛ أَنَّهُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَعَتْ مُنَاطَرَةٌ
 بَيْنَ حِزْبِ الرَّحْمَنِ وَحِزْبِ الشَّيْطَانِ، فِي حُكْمٍ مِنْ أَحْكَامِ التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ،
 وَحِزْبُ الرَّحْمَنِ يَتَّبِعُونَ تَشْرِيعَ الرَّحْمَنِ فِي وَحْيِهِ وَفِي تَحْرِيمِهِ، وَحِزْبُ الشَّيْطَانِ
 يَتَّبِعُونَ وَحْيَ الشَّيْطَانِ فِي تَحْلِيلِهِ، وَقَدْ حَكَّمَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا، وَأَفْتَى فِيمَا تَنَازَعُوا فِيهِ فَتَوَى
 سَمَآوِيَّةً قُرْآنِيَّةً، تَتْلَى فِي سُورَةِ «الْأَنْعَامِ» انتهى.

والله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [٢٣: ٢٣] فَاصْدِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا
 تَطْعُ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْكُفُّوْا ﴿٢٤﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤]، والإثم والكفر هنا يشمل نوع الفعل
 والفاعل؛ أي لا تطع أفعالاً آثمة ولا كافرة، ولا تطع من يأمر بالإثم ولا بالكفر، وهذه
 المغايرة بين الآثم والكافر؛ دليل واضح على التفريق بينهما في الحكم والمرتبة.

فبين الله تبارك وتعالى أنَّ هناك طاعة في الإثم، وأنَّ هناك طاعة في الكفر، فالطاعة في الإثم إثم، كما أن الطاعة في الكفر كفر، فلا سواء بينهما.

وقل مثل ذلك في معنى الإقرار، والتقديم، والجحود، والإلزام؛ ففي كل ذلك قد انتحل أقوامٌ قواعدَ ما أنزل الله بها من سلطان، في تحديد معانيها وتحجيرها وتحجيمها وتعريفها، تبعاً لما يعتقدونه ويقررونه، فيطوعونها لمراداتهم بلا بينة، ولا برهان من كتاب الله، ولا سنة نبيه ﷺ، ولا عمل الصحابة والسلف، ولا لغة العرب؛ فوقعوا في فساد التصور، الذي قادهم إليه الهوى، فأورثهم مجانية الحق والهدى؛ فضلوا عنه وأضلوا، وقد بينت ذلك، والله الحمد، وأفيًا في كتابي «فتنة العصر التشريع».

ونقول لكل هؤلاء وغيرهم ممن اختلفوا: هَلُمُّوا جميعاً إلى الكتاب والسنة، على سبيل الصحابة رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان من السلف الصالحين. وقل مثل هذا في جميع ما يتنازع الناس فيه اليوم، فالخطئة واحدة، ولا سبيل موصلة إلى الحق والهدى سواها.

ولهذا، عباد الله: لو أن الناس اتفقوا على هذه المرجعية والتي هي الكتاب والسنة، على فهم سلف الأمة الصحابة رضي الله عنهم، ثم التابعين، وتجردوا لذلك بحق وحقيقة والتزموها؛ لزال كثير من الإشكالات الماثلة اليوم، ولقلَّ الخلاف، ولاجتمعت الكلمة، ولاعتصمنا بحبل الله جميعاً، ولكن هنا من يابون إلا تقديم أقوال مشايخهم، وأقوال من يعتدُّون بهم؛

على الكتاب والسنة، وفهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وتعظم الفتنة اليوم، عندما يكون لهؤلاء ألقاب براقة «دكتور - بروفيسور»، إلى غير ذلك من الألقاب؛ فهنا تعظم الفتنة بأمثال هؤلاء، والعياذ بالله، ويتبعهم بعض الناس على الضلالة، نسأل الله العافية والسلامة.

وأعود لأقول: إنه لزاماً علينا جميعاً أن نعتد بفهوم الصحابة وعلومهم، وأن نجعلهم مرجعيتنا الأولى في فهم الكتاب والسنة؛ فهم أقل الناس تكلفاً، وأبعد الناس عن الهوى، وأتقى الناس قلوباً، وأبرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، فمن كان مقتدياً فليقتد بهؤلاء الأبرار الكرام الأخيار.

وإذا وجدنا أقوال أيٍّ أحد ممن بعدهم كائناً من كان يخالفهم، ويخالف الهدى الذي كانوا عليه، في فهم هذا الدين أصولاً وفروعاً؛ فلنلفظ قوله ولا نتبعه، وهكذا لم يزل الأئمة يقولون بهذا، ويحثون أتباعهم عليه؛ فهؤلاء الأئمة الأربعة: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، رحمهم الله؛ كلهم يأمرون الناس باتباع الهدى، المتمثل في اتباع الكتاب والسنة، على فهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

واسمع جميل ما قاله أحدهم، في أبيات جميلة له ^(١) يقول:

وَقَوْلُ أَعْلَامِ الْهُدَى: لَا يُعْمَلُ بِقَوْلِنَا بَدُونِ نَصٍّ يُقْبَلُ

(١) هذه القصيدة عُثِرَ على مخطوطتها وهي تسمى: «رسالة الهدى في اتباع النبي المقتدى

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي من نظم الشيخ محمد سعيد بن محمد أمين صفر المدني الحنفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١١١٤ - ١١٩٤)، وقد ذكر بعضهم أنه قد شرعها بعض علماء اليمن.

فيه دليلُ الأخذِ بالحديثِ وذاك في القديم والحديثِ
 قال أبو حنيفة الإمام: لا يتبعني لمن له إسلامٌ
 أخذُ بأقوالِي حتَّى تُعرَضَا على الكتابِ والحديثِ المُرتَضَى
 ومالكُ إمامُ دارِ الهجرة قال وقد أشار نحوَ الحجرة:
 كلُّ كلامٍ منه ذو قبُولٍ ومنه مردودٌ سوى الرسولِ
 والشَّافعيُّ قال: إن رأيتُم قولي مُخالفٌ لِمَا رويتمُ
 من الحديثِ فاضربوا الجدارَ بقولي المُخالفِ الأخبارَ
 وأحمدُ قال لهم: لا تكتبُوا ما قلته بل أصلَ ذلك اطلُّوا
 فاسمَعْ مقالاتِ الهداةِ الأربعة واعملْ بها فإنَّ فيها مَنفَعَةً
 لقَمْعِهَا كُلُّ ذِي نَعْصَبٍ والمُنْصِفُونَ يَكْتَفُونَ بالنَّبِيِّ

(عليه الصلاة والسلام)

وهذه الأبيات دالة على ضرورة التجرد للحق، والإخلاص لله تعالى في طلبه، بعيداً عن أيِّ تعصب مذموم، لا لجماعة، ولا حزب، ولا شيخ، ولا لحظ نفس، ولا أهل، ولا مال، ولا سلطان، ولا عشيرة، ولا قبيلة، ولا أي شيء أبداً دون الحق؛ بل هو السعي الجاد في إصابة الحق والقول به، والصبر عليه والدعوة إليه، ولو على النفس والأقربين، كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدِينَ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللّٰهُ أَوَّلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىَّ إِنْ تَعَدَلُوا وَإِنْ تَلُوتُمْ أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ ٱللّٰهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

فالمنصف الذي يريد أن يتبع الحق، ويخالف الهوى، ويتبع الهدى؛ سيركن إلى فهم الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، ويثبت على ذلك، ولن يعدل بهم من دونهم.

جاء في كتاب «شرف أصحاب الحديث» للخطيب البغدادي بإسناده: «عن أبي حاتم الرازي، قال: نشر العلم حياته، والبلاغ عن رسول الله ﷺ رحمة يعتصم به كل مؤمن، ويكون حجة على كل مصر به وملحد.

وقال الأوزاعي: إذا ظهرت البدع فلم ينكرها أهل العلم صارت سنة» اهـ.

وجاء في كتاب «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي: أنا محمد بن أحمد بن يعقوب، أنا محمد بن نعيم الضبي، أخبرني محمد بن يوسف بن ریحان، قال: حدثني أبي، قال: سمعت أبا عبد الله محمد بن إسماعيل (يعني: البخاري) يقول: «أَفْضَلُ الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ أَحْيَا سُنَّةَ مَنْ سَنَّ الرَّسُولُ ﷺ قَدْ أُمِيتَتْ، فَاصْبِرُوا يَا أَصْحَابَ السُّنَنِ، رَحِمَكُمُ اللَّهُ؛ فَإِنَّكُمْ أَقَلُّ النَّاسِ» اهـ.

ولهذا تجد الذين يريدون أن يتبعوا أهواءهم؛ لا يركنون كثيرا إلى

أقوال الصحابة، وبهذا ينكشف صاحب الهوى ممن يريد الهدى.

ولهذا ترون الآن في الصحف أقوالاً عجيبة، وفهوماً غريبة، وآيات تؤوّل على غير وجهها، ومعاني غريبة نسمعها لأول مرة، ويحدثونا بما لا يعرف أسلافنا، وللأسف الشديد، كما تقدم، يغتر كثير من العباد بالشعارات والأسماء اللامعة، والعياذ بالله.

ولهذا لا تجد في كلامهم أثرًا لصحابي، لماذا؟ لأنه معتدّ بفهمه، معتدّ بقوله، ولا يعوّل على هؤلاء كثيرًا، لماذا؟ لأنه الدكتور فلان؛ لأنه البروفسور فلان؛ لأنه الشيخ الفلاني؛ لأنه صاحب الطريقة الفلانية، ودعوى: «حدثني قلبي عن ربي»؛ فهو بمعزلٍ عن الكتاب والسنة وفهم الصحابة؛ ففي ظنه أنه قد ارتقى على هؤلاء، وبدأ يأخذ من الله مباشرة، والعياذ بالله؛ ولهذا تجد في كلامهم العجائب، وإذا أتيتهم بالدليل من الكتاب والسنة لوأعناقهم، وضربوا الله ورسوله الأمثال.

جاء في «فتح الباري» للحافظ ابن حجر: «وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال: أنا لا آخذ عن الموتى، وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت، وكذا قال آخر: أنا آخذ عن قلبي عن ربي؛ وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع، نسأل الله الهداية والتوفيق.

وقال غيره: من استدل بقصة الخضر، على أن الولي يجوز أن يطلع من خفايا الأمور على ما يخالف الشريعة، ويجوز له فعله؛ فقد ضل، وليس ما تمسك

به صحيحًا؛ فإن الذي فعله الخضر ليس في شيء منه ما يناقض الشرع» اهـ.

وقال ابن حزم في «المحلى»: «مَسْأَلَةٌ: وَمَنْ قَالَ: إِنَّ فِي شَيْءٍ مِنَ الْإِسْلَامِ بَاطِلًا غَيْرَ الظَّاهِرِ الَّذِي يَعْرِفُهُ الْأَسْوَدُ وَالْأَحْمَرُ؛ فَهُوَ كَافِرٌ يُقْتَلُ وَلَا بُدَّ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [١٢] ﴿[المائدة: ٩٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٤]؛ فَمَنْ خَالَفَ هَذَا فَقَدْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ» اهـ.

قال أبو حاتم بن حبان في «صحيحه» بعد أن أخرج حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، الذي تقدم ذكره: «فِي قَوْلِهِ ﷺ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي»، عِنْدَ ذِكْرِهِ الْإِخْتِلَافَ الَّذِي يَكُونُ فِي أُمَّتِهِ؛ بَيَانٌ وَاضِحٌ أَنَّ مَنْ وَاظَبَ عَلَى السُّنَنِ؛ قَالَ بِهَا، وَلَمْ يُعَرِّجْ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأَرَاءِ، مِنَ الْفِرَاقِ النَّاجِيَةِ فِي الْقِيَامَةِ؛ جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِمَنَّةٍ» انتهى.

الحق واحد لا يتعدد:

اعلم، رحمك الله، أن الحق واحد لا يتعدد، وما جاء متنوعًا في الشرع فهو الحق بتنوعه، كأنواع صلاة الخوف، وكصلاة بعض الصحابة في بني قريظة، وبعضهم قبل ذلك، وصوبهم النبي ﷺ، وكأمر النبي ﷺ بكسر الآنية، لما رأى النبي ﷺ نيرانًا تُوقَدُ يَوْمَ خَيْبَرَ قَالَ: «عَلَامٌ تُوقَدُ هَذِهِ النَّيِّرَانُ؟»، قَالُوا: عَلَى الْحُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ، قَالَ: «اكْسِرُوهَا وَأَهْرِقُوهَا»، قَالُوا: أَلَا نُهْرِيقُهَا وَنَغْسِلُهَا، قَالَ: «اغْسِلُوهَا»، ونحو ذلك مما جاء في الأحاديث الصحاح، ومما دل عليه الشرع، وأذن به.

فلنقل مثل ذلك في كل ما اختلف فيه الناس من أمر الدين، وذلك على اختلاف المسائل، والجماعات، والطرق، والأحزاب، وجميع أهل العلم، والأمة جمعاء.

تنبيه مهم جداً:

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: «ولمَّا كَثُرَ اختلافُ النَّاسِ في مسائل الدِّين، وكَثُرَ تَفَرُّقُهُمْ، كَثُرَ بِسَبَبِ ذَلِكَ تَبَاغُضُهُمْ وتَلَاغُنُهُمْ، وكلُّ منهُم يُظهِرُ أَنَّهُ يُبْغِضُ اللَّهَ، وقد يكونُ في نفس الأمرِ معذورًا، وقد لا يكون معذورًا؛ بل يكون متَّبِعًا لهوَاه، مقصِّرًا في البحثِ عن معرفة ما يُبْغِضُ عليه؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْبُغْضِ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَقَعُ لمُخَالَفةِ متَّبوع، يظُنُّ أَنَّهُ لا يقولُ إِلَّا الْحَقَّ.

وهذا الظَّنُّ خطأ قطعاً، وإن أُريدَ أَنَّهُ لا يقولُ إِلَّا الْحَقَّ فيما خُولِفَ فيه، فهذا الظَّنُّ قد يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، وقد يكون الحامل على الميل مجرد الهوى، أو الإلف، أو العادة، وكلُّ هذا يقدح في أن يكون هذا البغض لله؛ فالواجب على المؤمن أن ينصح نفسه، ويتحرَّرَ في هذا غاية التحرُّز، وما أشكل منه؛ فلا يُدْخِلُ نفسه فيه، خشيةً أن يقع فيما نَهَى عنه مِنَ الْبُغْضِ الْمُحَرَّم.

وها هنا أمرٌ خفيٌّ ينبغي التَّفَطُّنُ له، وهو أن كثيراً من أئمة الدِّين قد يقولون قولاً مرجوحاً، ويكون مجتهداً فيه، مأجوراً على اجتتهاده فيه، موضوعاً عنه خطؤه فيه، ولا يكون المتصِّرُ لمقالته تلك بمنزلة في هذه الدرجة؛ لأنَّه قد لا يتصرَّرُ لهذا

القولِ إِلَّا لكونِ متبوعه قد قاله؛ بحيث أنه لو قاله غيره من أئمة الدين؛ لما قبله ولا انتصر له، ولا والى من وافقه، ولا عادى من خالفه.

وهو مع هذا يظن أنه إنما انتصر للحق بمنزلة متبوعه، وليس كذلك؛ فإن متبوعه إنما كان قصده الانتصار للحق، وإن أخطأ في اجتهاده، وأمّا هذا التابع، فقد شاب انتصاره لما يظنه الحق إرادة علو متبوعه، وظهور كلمته، وألاً يُنسب إلى الخطأ، وهذه دسيّة تقدح في قصد الانتصار للحق، فافهم هذا؛ فإنه فهم عظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم» اهـ.

الأمر الثالث: العمل بهذا العلم:

قال الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [٢] كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴿ [الصف: ٢، ٣].

وفي «صحيح مسلم»: تفرّق الناس عن أبي هريرة: فقال له تأتي أهل الشام: أيها الشيخ، حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، قال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأَتَى بِهِ، فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ؛ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَتَى بِهِ، فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ؛ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأَتَى بِهِ، فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُتَّقَى فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

قال الناظم:

وعالمٌ بعلمه لم يعملن مُعَذَّبٌ من قبل عباد الوثن

وانظروا، عباد الله، إلى حال هذا الرجل الذي كان في زمان موسى ﷺ واسمه بلعم بن باعوراء، ويقال: بلعام بن باعوراء، الذي آناه الله علماً، حتى وصل به إلى درجة أن علم اسم الله الأعظم، فيما ذكره المفسرون، كابن كثير وغيره، ومع هذا لما لم يعمل بعلمه ضربه الله تعالى مثلاً لكل من كان كحاله، والعياذ بالله، فقال الله ﷻ عنه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا

فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
وَأَنفُسِهِمْ كَانُوا يَظْلُمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٰ وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا وَلِيَّكَ هُمْ
أَلْخَسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٨].

ولنتأمل قوله تعالى في هذه الآيات: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ
أَخَذَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَكُذِّبَتْهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ
تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾؛ نسأل الله العافية والسلامة.

والله عَزَّوَجَلَّ يقول في كتابه العزيز: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَحَ اللَّهُ
عَلَىٰ عَمْرٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ
يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة: ٥].

وجاء في «صفة الصفوة»: «وعن معاوية بن صالح عن أبي الدرداء
قال: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله، فإن كان عمله تبعاً لهواه فيومه
يوم سوء، وإن كان هواه تبعاً لعمله فيومه يوم صالح»^(١) انتهى.
فلينظر كل واحد منا إلى أيامه التي يعيشها؛ ما حاله فيها مع هواه،

(١) وأخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس»، وابن الجوزي في «ذم الهوى»، وفيه
فرج بن فضالة، وفيه ضعف، ووثقه أحمد في روايته عن الشاميين، وقد روي هذا
الأثر عن معاوية بن صالح، وهو حمصي شامي، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكيف هو عمله مع علمه.

وجاء في «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» عن سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ: «لَيْسَ الْعَالِمُ الَّذِي يَعْرِفُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ إِنَّمَا الْعَالِمُ الَّذِي يَعْرِفُ الْخَيْرَ فَيَتَّبِعُهُ، وَيَعْرِفُ الشَّرَّ فَيَجْتَنِبُهُ»^(١) اهـ.

الأمر الرابع: التعرف على أعداء الإنسان:

اعلم، رحمك الله، أن أعداءنا في هذه الدنيا خمسة، وأن العلاقة بينهم حميمة وطيدة، والذي يديرهم ويوقدهم؛ الهوى والشيطان، وقد جمعتهم هذه الآيات:

إِنِّي بُلِيتُ بِخَمْسَةٍ يَرْمِينَنِي بِالْبَلِّ لَا أَرْجُو لَهُنَّ فِكَاكًا
إِبْلِيسُ وَالذَّنْبُ وَنَفْسِي وَالْهَوَى وَأَخُو الضَّلَالَةِ قَصْدُهُ إِغْوَاكَ
يَا رَبِّ سَاعِدْنِي بِعَفْوِ إِنْنِي أَصَبَحْتُ لَا أَرْجُو لَهُنَّ سِوَاكَ

(١) قلت: ولكن رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» هكذا: «حَدَّثَنَا أَحْمَدُ، نَا يُوسُفُ بْنُ الضَّحَّاكِ، نَا هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ؛ قَالَ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ بِعَبَادَانَ يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ شَرَفًا قَطُّ إِلَّا وَإِلَى جَانِبِهِ حَقٌّ مُضَيِّعٌ، قَالَ: قَالَ سُفْيَانُ: قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: لَيْسَ الْعَاقِلُ الَّذِي يَعْرِفُ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ، وَلَكِنْ الْعَاقِلُ الَّذِي يَعْرِفُ خَيْرَ الشَّرِّينَ، قَالَ سُفْيَانُ: قَالَ زَيْدٌ: لَيْسَ الْعَاقِلُ الَّذِي يَحْتَالُ لِلْأَمْرِ إِذَا وَقَعَ فِيهِ، وَلَكِنْ الْعَاقِلُ الَّذِي يَحْتَالُ لِلْأَمْرِ أَنْ لَا يَقَعَ فِيهِ» اهـ.

الأمر الخامس: اختيار الرفيق:

قال الله جل وعلا عن موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) هَؤُلَاءِ أَهْلِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ تُسْحِكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتُذَكِّرَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴿طه: ٢٩ - ٣٥﴾.

فالصاحب صاحب، والرفيق قبل الطريق:

عَنِ الْمَرءِ لَا تَسْلُ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَتَعَدِّي إِذَا كَانَ ذَا شَرٍّ فَجَبَّتْهُ سُرْعَةٌ وَإِنْ كَانَ ذَا خَيْرٍ فَقَارِنُهُ تَهْتَدِي فَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ تَخْتَارَ لَكَ رَفَقَةً صَالِحَةً؛ يَذْكُرُونَكَ إِذَا نَسِيتَ، وَيَعْلَمُونَكَ إِذَا جَهَلْتَ، وَيَأْخُذُونَ بِيَدِكَ إِذَا زَلَلْتَ، وَيَقْوُمُونَكَ إِذَا اعْوَجَجْتَ؛ فَإِنْ هَذِهِ الرَفَقَةُ الصَّالِحَةُ سَتَكُونُ، بِإِذْنِ اللَّهِ ﷻ مِنْ أَعْظَمِ الْعَوْنِ لَكَ عَلَى مِجَانِبَةِ الْهَوَى، وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَى الْهَدْيِ، وَلَتَعْلَمَ أَنْ مِنْ أَعْدَاءِ الْإِنْسَانِ مِنْ بَنِي آدَمَ؛ مَنْ هُوَ أَشَدُّ بَأْسًا عَلَيْنَا مِنَ الشَّيْطَانِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، حَتَّى قَالَ أَحَدُهُمْ:

صَفَّقُ إِبْلِيسُ لَهَا مُنْذَهُشًا وَبَاعَهُمْ فُنُونَهُ

وقال: ما عاد لي دَوْرٌ هُنَا دَوْرِي أَنَا أَنْتُمْ سَتَلْعَبُونَهُ

وقال آخر:

وَكُنْتُ أَمْرًا مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ فَارْتَقَى بِي الدَّهْرُ حَتَّى صَارَ إِبْلِيسُ مِنْ جُنْدِي

فَإِنْ يَمُتْ قَبْلِي كُنْتُ أَحْسَنُ بَعْدَهُ طَرَائِقَ فِسْقٍ لَيْسَ يُحْسِنُهَا بَعْدِي

واعلم، رحمك الله تعالى، أن للبيئة تأثيراً على تصوراتنا، سواء من العلماء أو من العامة؛ فلا بد من التدقيق وحسن الاختيار، والانتقاء والسؤال والتفتيش؛ فإنه إسلامك وإيمانك وهو رأس مالك.

وتأمل هذه الكلام النفس لابن تيمية، لترى فيه أثر من حولك عليك، كما تأثر هؤلاء بمن حولهم، قال رحمه الله تعالى في «منهاج السنة النبوية»: «ولكن ابن سينا نشأ بين المتكلمين النفاة للصفات، وابن رشد نشأ بين الكلائية، وأبو البركات نشأ ببغداد بين علماء السنة والحديث؛ فكان كل من هؤلاء يُعده عن الحق؛ بحسب بعده عن معرفة آثار الرسل، وقربه من الحق بحسب قربه من ذلك» انتهى.

فالحذرَ الحذرَ، عباد الله! ولننظر في أصحابنا وأخلائنا، ولننتقهِم انتقاءً، ولنختَرهم بكل دقة؛ ولهذا قال قائلهم:

وَمَنْ يَكُنِ الْغُرَابُ لَهُ دَلِيلًا يَمُرُّ بِهِ عَلَى جَيْفِ الْكِلَابِ

فالغراب عادةً ما تراه حول الجيف؛ فهذا الذي اتخذ غراباً من بني آدم دليلاً، إلى أين سيقوده؟ سيقوده حتماً إلى جيف الكلاب وطرائق الضلال، وأما من اتخذ صاحباً صالحاً دليلاً؛ قاده إلى الخيرات والطاعات والقربات، نسأل الله من فضله العظيم.

قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

يَعْبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ [الزخرف: ٦٧ - ٦٩].

تعرف على قرينك، بمعرفة هواك؛ لتحذره، واذكر حديث القرين:

إن الأدلة الشرعية بينت بصريح المقال؛ أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وأن لكل عبد قريناً من الجن، وبناء على ذلك فيجب علينا أن نتعرف على واقع هذا القرين من خلال ما يأمر به؛ فإن وجدته يأمرك بالفحشاء والمنكر، فعليك أن تحذر منه غاية الحذر، وأن تستعين بالله تعالى عليه كل الاستعانة، وأن تحرص على مخالفته دائماً، وألا تترك إياه أبداً؛ لا في قليل ولا في كثير، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

جاء في «صحيح مسلم» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ»، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَأَيَّايَ؛ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ».

الأمر السادس والأخير: ترك ضرب الأمثال لله والرسول:

اعلم، أرشدك الله لطاعته، أن من أعظم ما يُعينك على التَّخلص من الهوى: أن تجتنب ضرب الأمثال لله والرسول، ولكن ما معنى أن يضرب العبد الأمثال لله والرسول؟

الجواب: أن ضرب الأمثال المقصود به؛ هو كل قولٍ أو فعلٍ يعتذر

به العبد عن قبول الحق والانقياد له، هذا هو معنى ضرب الأمثال لله والرسول؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

وقال ﷻ مبيِّناً خطورة ضرب هذه الأمثال، وأنها قد أورثت أقواماً أن صاروا إلى الضلالة والغواية، عوضاً عن الهداية والرشد، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۖ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوْ عَلَى أَذُنٍ مُرْتَهِنٍ نُّفُورًا﴾ [٤٦] نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا [٤٧] أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا [٤٨] [الإسراء: ٤٥ - ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [٧] أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا [٨] أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا [٩]

[الفرقان: ٧ - ٩].

نعم، هكذا تكررت هذه الآية في موضعين من الذكر الحكيم: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [٤٨]، وفي الموضعين كانت بياناً لحالهم مع قبول الحق، وأنهم أعرضوا عنه بمثل هذه الأقوال

الساقطة، والادعاءات الباطلة، مراوغة وتحايلاً، وتنصلاً، وتعالياً عن قبول الحق والهدى، والانقياد لأمر الله جل وعلا ولرسوله ﷺ، إمعاناً منهم في اتباع أهوائهم، ليبقوا معها قد ركنوا إليها، وسكنت أنفسهم إليها؛ فَحَقَّتْ عليهم كلمة الله تعالى: ﴿فَضْلُوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (٤٨) .

فيايك، عبد الله، أن تضرب الأمثال للاعتذار عن قبول الهدى؛ بل بادر إلى الامتثال، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله جل وعلا، ويفوت عليك الفرصة التي يسرها الله جل وعلا؛ فإن الفرصة قد لا تتكرر، وإنَّ الْمُهْلَةَ قد تنقطع؛ فدَعَكَ من ضرب الأمثال لله ورسوله، وسارع إلى الجنة وسابق إليها، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان، قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (١٢) .

[الواقعة: ١٠ - ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ مِنَ الْمُهَجَّرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٠) [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ

يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهَ وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَعْمَرُ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

ولا يغرنك هواك بالحياة الدنيا، فتنقطع عن جنة الله ورضوانه، فقد قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَنَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُمْ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ ﴿١٣٥﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٣٦﴾ [الحديد: ٢٠، ٢١].

وقال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمِنَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهم يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٣٦﴾ [الشورى: ٣٦].

أمثلة من الواقع على معنى ضرب الأمثلة بالباطل:

رجل تقول له: لماذا لا تصلي الصبح مع المسلمين في جماعتهم في مساجدهم؟

فيقول لك: أنا عملي شاق، وآتي إلى البيت متأخراً، وعندي مشاكل، وعندي هموم، وعندي غموم، وكذا وكذا، ونحو ذلك من ضرب الأمثال لله

والرسول؛ لكيلا يستجيب للحق، إنه يضرب الأمثال لكي يعتذر عن اتباع الحق والهدى.

وامرأة تقول لها: لِمَ لا تصلين؟

فتقول لك: أنا مشغولة بعمل المنزل، وتربية الأولاد، وإعداد الطعام، وأكون متعبة مرهقة؛ فأنا لا أستطيع القيام للصلاة، إنها هي كذلك تضرب الأمثال للاعتذار عن الانقياد للهدى، اتباعاً للهوى.

وحاكم تقول له: لم لا تطبق شرع الله جل وعلا في عباد الله وخلقه؟

فيقول لك (على سبيل المثال): إن السودان دولة مترامية الأطراف، متعددة الأعراف، كثيرة الديانات؛ فلا يصلح معها الإسلام الآن، ولو طبقنا الشرع هكذا مباشرة لجاءتنا أمريكا، ولجاءت بريطانيا، والأمم المتحدة، وكذا وكذا، ولأزالوا مثلكننا، وفعلوا بنا وفعلوا بنا.

والله جل وعلا يقول في كتابه العزيز مبيناً أن هذا من ضرب الأمثال لترك اتباع الهدى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعُ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُخَطِّفُ مِنْ أَتْرَفِنَا أُولَٰئِكَ نُمَكِّنُ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِكَ بَطَرَتْ مَعِيشَتُهُمَا فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمَا لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمَا إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٧، ٥٨].

نعم؛ هكذا رد الله تعالى عليهم هذا المثال الخبيث، الذي يراد من

ورائه البقاء مع الحكم بالطاغوت، واتباع الأهواء تحت هذه الدعوى، وبرفع مثل هذا الشعار؛ فبين الله تعالى لهم أن الأمر بيده، وإليه وحده لا شريك له؛ فهو الذي بيده أن يُؤمّن من يشاء، ويخوّف من يشاء، وهو الذي بيده الملك؛ يذل من يشاء، ويعز من يشاء، وينصر من يشاء، ويخذل ويغلب من يشاء، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مَعَن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦١) **﴿٦٢﴾** تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ **﴿٦٣﴾** لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ^ط وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَسْقُوا مِنْهُم مَّنْعَةً ^ط وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ^ط وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ **﴿٦٤﴾** [آل عمران: ٢٦ - ٢٨].

والمعنى: أن ضرب هذه الأمثلة لن تُجدي عنكم شيئاً؛ فلا هي بالتي ستجلب لكم نصراً، ولا هي بالتي ستهزم لكم عدواً؛ بل النصر كله، والعز كله، والأمن كله، وبقاء الملك واستقراره؛ كل ذلك هو عند الله جل وعلا، والله تعالى لا يؤتیه إلا لمن اتبع الهدى.

والعجيب في الأمر: أن هذه الحقيقة قد فقهها هرقل، فقال لما جاء كتاب النبي ﷺ، يدعوهُ إلى الإيمان والاستسلام والانقياد إلى الهدى، كما «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله عنه، في القصة التي رواها له أبو سفيان بعد إسلامه رضي الله عنه، قال ابن عباس: حَدَّثَنِي أَبُو سُفْيَانَ مِّنْ فِيهِ إِلَيَّ فِي: قَالَ: انْطَلَقْتُ

فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ: فَبَيْنَمَا أَنَا بِالسَّامِ إِذْ جِيَءَ بِكِتَابٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هِرْقُلَ، قَالَ: وَكَانَ دَحِيَّةُ الْكَلْبِيِّ جَاءَ بِهِ، فَدَفَعَهُ إِلَيَّ عَظِيمُ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَى إِلَى هِرْقُلَ، قَالَ: فَقَالَ هِرْقُلُ: هَلْ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَدُعِيتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَدَخَلْنَا عَلَى هِرْقُلَ فَأَجْلَسْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا، فَأَجْلَسُونِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَجْلَسُوا أَصْحَابِي خَلْفِي.

ثُمَّ دَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَأِلْتُ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِنْ كَذَّبَنِي فَكَذَّبُوهُ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَإِيمُ اللَّهِ، لَوْلَا أَنْ يُؤْثِرُوا عَلَيَّ الْكَذِبَ لَكَذَّبْتُ، ثُمَّ قَالَ: لِتَرْجُمَانِهِ، سَلُهُ: كَيْفَ حَسَبُهُ فَيَكُمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: هُوَ فِينَا دُو حَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: أَتَيْتَعُهُ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلْ ضَعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: هَلْ يَزِيدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخَطَةٌ لَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: تَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سَجَالًا؛ يُصِيبُ مِنَّا وَنُصِيبُ مِنْهُ، قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ لَا نَدْرِي مَا هُوَ صَانِعٌ فِيهَا، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَمْكَنَنِي مِنْ كَلِمَةٍ أُدْخِلَ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا

الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا.

ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِيهِ: قُلْ لَهُ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ حَسْبِهِ فَيَكْفِيكُمْ، فَرَعَمْتَ أَنَّهُ فَيَكْفِيكُمْ ذُو حَسْبٍ؛ وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابٍ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ، فَرَعَمْتَ أَنْ لَا؛ فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ، قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مَلِكُ آبَائِهِ، وَسَأَلْتُكَ عَنْ أَتْبَاعِهِ أَضَعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشَرَّافُهُمْ، فَقُلْتُ: بَلْ ضَعَفَاؤُهُمْ؛ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنتُمْ تَتَهَمُّونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَرَعَمْتَ أَنْ لَا؛ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخَطَةٌ لَهُ، فَرَعَمْتَ أَنْ لَا؛ وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بِشَاشَةَ الْقُلُوبِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ، فَرَعَمْتَ أَنَّهُمْ يُزِيدُونَ؛ وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ فَرَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَاتَلْتُمُوهُ، فَتَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سَجَالًا؛ يَنَالُ مِنْكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ؛ وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَرَعَمْتَ أَنَّهُ لَا يَغْدِرُ؛ وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، فَرَعَمْتَ أَنْ لَا؛ فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ، قُلْتُ: رَجُلٌ أَتَيْتُمْ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ.

قَالَ: ثُمَّ قَالَ: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ: بِأَمْرِنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّلَاةِ وَالْعَفَافِ.

قَالَ: إِنْ يَكُ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقًّا، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ،

وَلَمْ أَكُ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ، وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمْتُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ، وَلَيَبْلُغَنَّ مُلْكُهُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ.

قَالَ: ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَهُ، فَإِذَا فِيهِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْتَ تَسْلِمًا، وَأَسْلِمْتَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، وَ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿شَاهِدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤].

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ؛ اِرْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ عِنْدَهُ وَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَأَمَرَ بِنَا فَأَخْرَجَنَا، قَالَ: فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ خَرَجْنَا: لَقَدْ أَمَرَ أَمْرٌ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ لَيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ، فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سَيُظْهِرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَدَعَا هِرَقْلَ عَظَمَاءَ الرُّومِ فَجَمَعَهُمْ فِي دَارٍ لَهُ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرَّشْدِ آخِرَ الْأَبَدِ، وَأَنْ يَتَّبِعَ لَكُمْ مُلْكُكُمْ، قَالَ: فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَقَالَ: عَلَيَّ بِهِمْ، فَدَعَا بِهِمْ فَقَالَ: إِنِّي إِنَّمَا اخْتَبَرْتُ شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ مِنْكُمْ الَّذِي أَحْبَبْتُ؛ فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، «صحيح البخاري» (٣٥/٦).

وفي رواية: «فَإِذِنْ هِرَقْلَ لِعَظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسَكْرَةٍ لَهُ بِحِمَصَ، ثُمَّ أَمَرَ

بَابُهَا فَعُلِّقْتُ، ثُمَّ أَطْلَعْتُ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ، وَأَنْ يَثْبِتَ مُلْكُكُمْ فَتَبَايَعُوا هَذَا النَّبِيَّ؛ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفَرَتُهُمْ، وَأَيْسَ مِنَ الْإِيمَانِ؛ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي أَنَا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ؛ فَسَجَدُوا لَهُ، وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلٍ.

هرقل يوبخ البراغماتية:

عَلَجَ الرُّومَ قَيْصَرَهُمْ أَفْقَهُ مِنْ مَنَافِقِي زَمَانِنَا.

قَيْصَرُ الرُّومِ يَقُولُ - بَعْدَ أَنْ جَاءَهُ كِتَابُ النَّبِيِّ ﷺ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ - لِقَوْمِهِ وَأَكَابِرَ مَمْلَكَتِهِ:

كَمَا تَقْدَمُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ قَالَ: [فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمَصٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَعُلِّقَتْ، ثُمَّ أَطْلَعَ فَقَالَ:

يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ، وَأَنْ يَثْبِتَ مُلْكُكُمْ، فَتَبَايَعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟].

وَالدَّعَاءُ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ جَلَدَتْنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا - كَمَا وَصَفَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ - يَرَوْنَ الْفَلَاحَ وَالرُّشْدَ بَعِيدًا عَنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَشَرِيعَةِ الرَّحْمَنِ وَهَدْيِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

حَيْثُ طَلَعَ عَلَيْنَا كَبِيرُهُمْ وَهُوَ مُبِيرُهُمْ لِيَقُولَ بِأَنْ زَمَنَ الْأَيْدُلُوجِيَّاتِ

قد وُلِّيَ وجاء زمن البراغمية، والمقصود من الأيدولوجيات أي الدين والشرائع الإسلامية، والمقصود من البراغمية النفعية والدوران مع المصلحة حيث كانت وإن خالفت الدين الإسلامي وصادمته، وهي طريقة يهودية معروفة (الغاية تبرر الوسيلة).

نعم، إن هرقل بعد أن علم الحق وأيقن به؛ عاد على عَقَبَيْهِ فاتبع هواه، فأيس من الإيمان، والعياذ بالله، لعلمه يقيناً أنه لا يجتمع الإيمان مع الحكم بالطاغوت أبداً، وأقوام من بني جلدتنا، ينتسبون إلى دين محمد ﷺ؛ يريدون أن يعتذروا عن قبول الهدى، ويريدون أن يبقوا مسلمين لله جل وعلا وهم يحكمون بالطاغوت، يسوسون به العباد والبلاد، هيهات هيهات! فإن الله جل وعلا يقول في محكم تنزيله: ﴿ أَكْفَرْتُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ٤٣ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ٤٤ سُبْحَنَ الْجَمْعِ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ٤٥ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ٤٦ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ٤٨ ﴾ [القمر: ٤٣ - ٤٨].

ألا يعقل هؤلاء؟ ألا يعتبرون؟ ولكن لا حيلة، فقد قال الله تعالى: ﴿فَالْهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ٧٨﴾ [النساء: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُمْ رَبُّ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٤١﴾ [المائدة: ٤١].

إنها نفس المقولة التي قِيلَتْ مِنْ قَبْلُ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى، وهي اليوم تعاد بحذافيرها من أهل الجاهلية اليوم، المنتسبين إلى الإسلام زورًا وبهتانًا، ويأبى الله إلا أن يفضحهم، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ولكل قوم وارث، إنهم يكررون ويرددون نفس مقولة أسلافهم، عيادًا بالله من الخذلان، ومن الحور بعد الكور.

وعلينا أن نعلم يقينًا أَنَّ كفر أهل الكتاب بكتابتهم؛ كان بتحريفهم له وتلاعبهم به واتباعهم لما تتلوه الشياطين؛ وكذلك نحن إن فعلنا مثل فعلهم، كفرنا ككفرهم.

وآخر تقول له: يا هذا، لماذا لا تترك معصية الله ﷻ؟ لماذا لا تترك الأغاني والأفلام والمسلسلات؟ فيعتذر لك بحجج واهية، وأقوال باطلة، لكي يعتذر عن الهدى، وليتبع الهوى، والعياذ بالله.

وآخر يقول: لا أتصور حياتي بدون تلفاز، لا أتصور الحياة بدون أفلام ومسلسلات، كيف أعيش بدون الأغاني؟ نسأل الله العافية والسلامة.

وآخر تقول له: لماذا لا ترفع ثوبك عن كعبيك، ألم تعلم أن إسبال الإزار محرم على الرجال، وهو كبيرة من كبائر الذنوب؟ كما في «صحيح مسلم» عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا

يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: حَابُوا وَحَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمَتَّانُ، وَالْمُنْفِقُ سَلَعَتُهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ».

فتقول له: ألا ترى أن النبي ﷺ قد ذكر المسبيل إزاره في مقدمتهم؛ فاتق الله تعالى وأقلع عن الإسبال.

فيقول لك: يا أخي، أنا قد اعتدت على ذلك، ثم هكذا اشتريته، أو يقول لك: ما عندي وقت لأقصره، أو أخشى أن يشنع الناس عليّ، إن فعلت ذلك، أو يقول لك: أكثر الناس يصنعون ذلك، ألم يبق إلا أنا؟

أو يقول لك، وهو كثير اليوم: إن المسألة فيها خلاف، فأنا لا أجره خيلاء، كما كان الصديق يفعل، فتقول له: إن الصديق ﷺ كان يسترخي منه، فهو لم يسبله ابتداء، ولكن إذا استرخى منه تعاوده بالرفع مباشرة، وبادر إلى ذلك لأول وهلة، فقال له النبي ﷺ ما قال.

وإليك سياق الخبر كما في «صحيح البخاري» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ أَحَدَ شِقْيَى ثَوْبِي يَسْتَرَحِي، إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكَ لَسْتَ تَصْنَعُ ذَلِكَ خِيَلَاءَ»، وفي لفظ: «لَسْتَ مِمَّنْ يَصْنَعُهُ خِيَلَاءَ»، وفي لفظ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ إِزَارِي يَسْقُطُ مِنْ أَحَدِ شِقْيَيْهِ، قَالَ ﷺ: «إِنَّكَ لَسْتَ مِنْهُمْ»، ولاحظ أن الذي يسترخي هو

جزء من إزاره، وليس كله، ومع ذلك هو يتعاهده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إن المتأمل في هذه النصوص يعلم يقيناً أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إزاره فوق الكعبين، وإنما كان نزوله إلى ما أسفل الكعبين بسبب استرخائه منه، ولكنه مع ذلك يتعاهده، فاتضح من صنيع وسؤال أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أمور:

الأمر الأول: أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الخبر؛ لم يكن مسبلاً أصلاً.

الأمر الثاني: أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يحرص على رفعه كلما استرخى.

الأمر الثالث: خوفه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من استرخاء إزاره.

الأمر الرابع: أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يكن من هديه إسبال الإزار أصلاً، وما حصل منه كان عرضاً؛ فبادر إلى رفعه.

ولهذه الأمور كلها اندفع عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصفُ الخيلاء؛ لكونه لم يَعتدِ الإسبال أصلاً؛ ولخوفه منه؛ ولكونه يحرص على عدم حصول الإسبال منه، وما وقع اتفاقاً لا عمداً بادر إلى رفعه.

أبعدَ هذا كله يستدل أحد بهذا الخبر، على جواز إسبال الإزار إذا لم يكن معه خيلاء؟ مع أن الحديث لا يصلح الاحتجاج به في هذا المقام؛ لخروجه عن دائرة المسألة أصلاً؟

إذن من أراد أن يحتج بهذه النصوص فليقيدها بما ورد فيها، فيقال: من اشترى ثوباً أو إزاراً فوق الكعبين، ثم اتسع عليه، أو تفلَّت منه لسبب أو لآخر،

فأخذ يسترخي منه، وهو يتعاهده بالرفع والمتابعة، وهو في ذلك مشفق خائف وجَل؛ فإن هذا لا يضره ما حصل منه من إسبال عارض والحالة هذه.

أما أن يعتمد العبد شراء الثوب مسبلاً، ويتعمد البحث على السراويل والبنطال، الذي يتجاوز الكعيبين، ولا يقوم برفعه ولا يكفه، وإذا أمر بترك الإسبال ورفع الإزار قال: هذا لا يليق بي وبمنظري؛ لأنه سيكون بشعاً بذلك، أبعد هذا كله نقول له: أنت كحال أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟، ثم نستدل بالنصوص السابقة؛ لنجوز لأمثال هؤلاء هذا المنكر العظيم الفظيع؛ هذا باطل ولا شك.

وهذا الفهم للنصوص بهذه الصورة فيه نظر، وإن قال به من قال؛ فإن فهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وتعاملهم، أَجَلُّ عندنا من كل تعامل وفهم، وبهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فصل الخطاب، وفض النزاع.

ثم يقال: إن مجرد جعل الإزار تحت الكعيبين، وتعمد ذلك؛ هو من المَخِيلَة؛ والمخيلة من الكبر، والكبر بطل الحق؛ أي: التعالي عليه، وهذا حال مَنْ تعمَّد الإسبال، فهو يعلم أن هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ترك الإسبال، ويسمع النصوص الواردة بالوعيد الشديد على المسبلين، وأنهم على خطر عظيم، ومع ذلك لا يكثرث ولا يبالى؛ بل هو ماض في حاله.

وعند التدقيق معه والإنكار عليه، يحيل على أقوال بعض أهل العلم، ويترك الأدلة الصريحة، وفهم الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وتعاملهم، لا شيء إلا لأنه إما جاهل بأقوالهم وتعاملهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وإما تقليداً لمن قال

بذلك من أهل العلم، وإما غير مكترث بذلك أصلاً، اتباعاً لهواه واستجابة لنفسه الأمانة بالسوء، أو رضوخاً لضغط واقعه، وتبريراً لما عليه هو وغيره، وكل ذلك من خطوات الشيطان، أعاذنا الله وإياكم منه.

وقد بين النبي ﷺ أن الإِسْبال من المَخيلة، وأن الله تعالى ييغض ذلك، كما في «مسند الإمام أحمد» بسند جيد، من طريق عقيل بن طلحة ثنا أبو جُرَيْجٍ الهُجَيْمِيُّ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنا قوم من أهل البادية، فَعَلَّمْنَا شَيْئًا يَنْفَعُنَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ، قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تُفَرِّغَ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وتَسِيلُ الإِزار فإنه من الخيلاء، والخيلاء لا يحبها الله ﷻ، وإنِ امرؤُ سَبِكَ بما يعلم فيك، فلا تُسَبِّهْ بما تعلم فيه؛ فإن أجره لك، ووباله على من قاله»، وأخرجه النسائي في «الكبرى»، وأبو داود، وابن حبان في «صحيحه»، والبخاري في «الأدب المفرد»، وأبو داود الطيالسي في «مسنده»، وعبد الرزاق في «مصنفه»، وغيرهم، وأخرجه ابن أبي شيبة لكن مختصراً.

ثم يقال: إن النبي ﷺ لما كان يتابع أصحابه ﷺ في هذه المسألة، التي استهان بها كثير من الناس؛ كان يأمر أصحابه ﷺ برفع الإزار، دون استئصال منهم عن نواياهم، وما تُكِنُّهُ صدورهم؛ لأن الخيلاء من أعمال القلوب، فلم يكن يستفصل منهم هل أنت تجرُّه خيلاء أم لا؟، والقاعدة تقول: «ترك الاستفصال مع وجود الاحتمال، ينزل منزلة العموم من المقال»؛ فتعين القول

بالعموم، وأنه لا فرق في الأمر بترك الإسبال، بين صاحب الخيلاء وغيره؛ أعني: من جهة نهى الجميع عن الإسبال، فمن قام بقلبه وصف الخيلاء؛ تعرض لعقوبة عظيمة، ومن لا فله عقوبة ووعد أدنى من ذلك.

وإليك الدليل الدال على هذا المعنى؛ ففي «صحيح الإمام مسلم» عن ابن عمر قال: مررت على رسول الله ﷺ وفي إزاري استرخاء، فقال: «يا عبد الله، ارفع إزارك»، فرفعته، ثم قال: «زد» فزدت، فما زلت أتحراها بعد، فقال بعض القوم: إلى أين؟ فقال: أنصاف الساقين.

وإليك بعض النصوص التي تدل على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا ينكرون ويناصحون من أسبل دون استئصال عن النوايا؛ لأنهم فهموا العموم من تعامل النبي ﷺ مع من وقع في الإسبال؛ بل ومن حديثه العام ﷺ عن الإسبال.

ففي «صحيح البخاري» في قصة مقتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من طريق عمرو بن ميمون وفيه: «وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك، من صحبة رسول الله ﷺ، وقدم في الإسلام، ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، قال: وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا علي الغلام، قال: ابن أخي، ارفع ثوبك؛ فإنه أنقى لثوبك، وأتقى لربك...».

وفي «صحيح مسلم» عن ابن عمر: أنه رأى رجلاً يجر إزاره، فقال:

ممن أنت؟ فانتسب له، فإذا رجل من بني ليث، فعرفه ابن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ بأذني هاتين يقول: «من جر إزاره لا يريد بذلك إلا المَخِيلَةَ، فإن الله لا ينظر إليه يوم القيامة».

وكما في «مصنف ابن أبي شيبة»، و«مسند أحمد والحميدي»، و«صحيح ابن حبان»، و«سنن النسائي»، وابن ماجه»، والترمذي واللفظ له، من طريق أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن مسلم بن نذير عن حذيفة قال: أخذ رسول الله ﷺ بعضلة ساقِي أو ساقه، فقال: «هذا موضع الإزار، فإن أبيتَ فأسفلَ، فإن أبيت فلا حق للإزار في الكعبين»، قال أبو عيسى الترمذي في «سننه»: «هذا حديث حسن صحيح».

ثم يقال أيضًا: إن تنوع الوعيد في حق المُسْبِلين؛ مما يدل على تنوع أحوالهم مع الإسبال، ففي «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار».

وفي «الصحيحين» واللفظ للبخاري، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ الحديث المتقدم ذكره؛ فعلمنا من ذلك التغاير قطعاً، فُتحمل الأحاديث المفيدة أن ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار؛ على أن هذا هو أدنى عذاب لمن وقع في الإسبال، أو على من جره من دون قصد الخيلاء، وإن كنا قد بينا أن

الإسبال يقارنه الخيلاء ولا بد، لكنه ما نواه بقلبه.

بينما تحمل الأحاديث الوارد فيها الوعيد الأشد والأغلظ، على من اقترن بإسباله وصف الخيلاء، فقصده ذلك وأراد به بقلبه بطراً وكبراً؛ ومما يؤكد هذا الفهم حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِزْرَةُ الْمُسْلِمِ إِلَى نَصْفِ السَّاقِ، وَلَا حَرَجَ أَوْ لَا جَنَاحَ، فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكُعْبَيْنِ، مَا كَانَ أَسْفَلَ مِنَ الْكُعْبَيْنِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَمَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطْراً لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ»، أخرجه أبو داود بإسناد صحيح.

وتأمل في هذا الكلام النفيس القيم الذي رد به الإمام الذهبي على أصحاب هذه الدعوى بفعل الصديق رضي الله عنه:

قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» في كلام نفيس له في ترجمة الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أخبرنا إسحاق الأسدي، أخبرنا ابن خليل، أخبرنا اللبان، أخبرنا أبو علي الحداد، أخبرنا أبو نعيم الحافظ، حدثنا أحمد بن جعفر، أخبرنا عبد الله بن أحمد، حدثنا أبو كامل، حدثنا أبو عوانة، عن هلال بن خباب، عن قرعة، قال: «رأيت على ابن عمر ثياباً خشنة أو جشبة، فقلت له: إني قد أتيتك بِتَوْبٍ لَيْتَ مِمَّا يُصْنَعُ بِخِرَاسَانَ، وَتَقَرَّ عَيْنَايَ أَنْ أَرَاهُ عَلَيْكَ، قَالَ: أَرْنِيهِ، فَلَكَمَسَهُ، وَقَالَ: أَحَرِيرٌ هَذَا؟ قُلْتُ: لَا، إِنَّهُ مِنْ قَطْنٍ، قَالَ: إني أخاف أن ألبسه، أخاف أكون مختالاً فخوراً، والله لا يحب كل مختال فخور».

قلت: كل لباس أوجد في المرء خيلاء وفخراً، فتركّه متعين، ولو كان

من غير ذهب ولا حرير؛ فإننا نرى الشاب يلبس الفرجية الصوف بفرو من أثمان أربعمائة درهم ونحوها، والكبر والخيلاء على مشيته ظاهر، فإن نصحته ولُمّته برفق؛ كابر وقال: ما فيَّ خيلاء ولا فخر، وهذا السيد ابن عمر يخاف ذلك على نفسه.

وكذلك ترى الفقيه المُتُرف، إذا ليم في تفصيل فرجية تحت كعبه، وقيل له: قد قال النبي ﷺ: «ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار»؛ يقول: إنما قال هذا فيمن جر إزاره خيلاء، وأنا لا أفعل خيلاء؛ فتراه يكابر، ويُرِي نَفْسَهُ الْحَمَقَاءَ، ويعمد إلى نص مستقل عام فيخصه بحديث آخر مستقل بمعنى الخيلاء، ويتخص بقول الصديق: إنه يا رسول الله يسترخي إزاري، فقال: «لست يا أبا بكر ممن يفعله خيلاء»، فقلنا: أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يكن يشد إزاره مسدولاً على كعبه أولاً؛ بل كان يشده فوق الكعب، ثم فيما بعد يسترخي.

وقد قال ﷺ: «إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه، لا جناح عليه فيما بين ذلك وبين الكعبين»، ومثل هذا في النهي لمن فصل سراويل مغطياً لكعابه.

ومنه طول الأكمام زائداً، وتطويل العُدْبَةِ، وكل هذا من خيلاء كامن في النفوس، وقد يعذر الواحد منهم بالجهل، والعالم لا عذر له في تركه الإنكار على الجهلة اهـ.

وكل هذا من جرّاء ضرب الأمثال لله والرسول، والعياذ بالله.

والعجيب أن بعض الجماعات والطرق والأحزاب؛ اتخذت من الإسبال شعارًا ودثارًا، فهو سيماهم بعامتهم إلا ما شاء الله؛ بل ويتقصده الواحد منهم؛ إذ هو دال على انتسابه لهم، وأنه ما زال باقياً على العهد معهم، فهو من دعاة الوسطية زعموا، وهو ممن لا يشدد في مثل هذه المسائل؛ فهو ليس بحنبلي ولا وهابي، هكذا زعموا.

وكل هذا من مخادعة النفس، واتباع الهوى والشيطان؛ فإن النهي عن الإسبال ليس حنبلياً، ولا وهابياً، ولا سعودياً، كما يقال اليوم؛ بل إنما هو من مشكاة محمد ﷺ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا رِجَالًا مِّنْكُمْ فَخُذُوهُ وَمَانِعْهُمْ عَنْهُ فَانْهَوهُمْ وَأْتَفَوْا اللَّهَ إِنَّا اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر: ٧]. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝٥٤﴾

[النور: ٥٤].

وهو من سبيل المؤمنين الذين هم الصحابة أصاله، ثم من تبعهم بإحسان، تلك السبيل التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ [النساء: ١١٥].

وآخر تقول له: يا هذا، لم لا تُعفي لحيتك؟، ألا تعلم أن الأدلة دلت على أن إعفاء اللحية واجب، وأن خلقها من التشبه باليهود والمشركين والمجوس،

ولست سُنَّةً مستحبة كما يظنه البعض، كما في «الصحيحين» واللفظ للبخاري عَنِ ابْنِ عَمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْهَكُوا الشَّوَارِبَ، وَأَعْفُوا اللَّحَى»، وفي لفظ «صحيح مسلم»: «أَحْفُوا الشَّوَارِبَ، وَأَعْفُوا اللَّحَى»، وفي لفظ له: «خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ؛ أَحْفُوا الشَّوَارِبَ، وَأَوْفُوا اللَّحَى».

وفي «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «جُرُّوا الشَّوَارِبَ وَأَرْخُوا اللَّحَى، خَالِفُوا الْمَجُوسَ».

وفي «مسند أحمد» من طريق عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَلَاءِ بْنِ زُبَيْرٍ، حَدَّثَنِي الْقَاسِمُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ يَقُولُ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَشِيحَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ بِيضٍ لِحَاهُمْ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، حَمِّرُوا وَصَفِّرُوا، وَخَالِفُوا أَهْلَ الْكِتَابِ»، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَتَسَرَّوْنَ وَلَا يَأْتِرُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَسَرَّوْا وَاتَّرِزُوا، وَخَالِفُوا أَهْلَ الْكِتَابِ»، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَتَخَفُّونَ وَلَا يَتَتَعَلُّونَ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَتَخَفُّوا وَانْتَعَلُوا، وَخَالِفُوا أَهْلَ الْكِتَابِ»، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَقْصُونَ عَثَانِيَهُمْ، وَيُوقِرُونَ سِبَالَهُمْ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قُصُوا سِبَالَكُمْ، وَوَقِّرُوا عَثَانِيَتَكُمْ، وَخَالِفُوا أَهْلَ الْكِتَابِ»^(١).

(١) قلت: وسنده صحيح، والقاسم إذا روى عنه ثقة فحديثه الأصل فيه الاستقامة، والراوي عنه هنا قد وثقه جمهور السلف، ولم يأت بما يُنكر عليه هنا؛ فإن هذا المعنى؛ أي: مخالفة أهل الكتاب والاستقصاء في ذلك؛ محفوظ متواتر عن النبي ﷺ، كما في «صحيح مسلم» عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاصَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ

وقد قال ابن حزم في كتابه «مراتب الإجماع»: «وَاتَّفَقُوا أَنْ حَلَقَ جَمِيعَ اللَّحْيَةِ مِثْلَةَ لَا تَجُوزُ»، فحلقتها محرمٌ لا يجوز.

فيقول لك: أنا يا أخي لم أعتد على إعفائها، وآخر يقول لك: أنا إن أعفيتها تخرج لي بعض الحبوب والبثورات في وجهي، ويحصل لي نوع حساسية، وآخر يقول لك: شكلي سوف يتغير، وقد اعتاد الناس على شكلي هكذا، وثالث يقول: بعد أن أتزوج سوف أعفي لحيتي، والآخر لا يريد أن يعفيها حتى لا ينسب إلى طائفة معينة، أو حتى لا ينسب إلى الاستقامة والالتزام، أو التشدد، ونحو ذلك من المعاني القبيحة، والعياذ بالله، وآخر يقول: كذا، وهذا وذاك يقول، وهكذا يضربون الأمثال لله والرسول.

وأخرى تقول لها: دعي عنك هذا التبرج والسفور، واتقي الله في كثرة الخروج والدخول؛ فتبدأ مباشرة في ضرب الأمثال، تنصلاً وتخلصاً من اتباع الهدى، وتحايلاً منها لتبقى مع الهوى، والله المستعان.

وقد بين الله جل وعلا أن من تبرج الجاهلية الأولى: كثرة خروج النساء مع اتخاذهن الزينة والطيب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ أَجْهَلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ

= يُؤَاكِلُونَهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَسَلُّوْنَكَ عَنِ الْمَجِيْضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعَزِّلُوْا النِّسَاءَ فِي الْمَجِيْضِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ»، فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يَرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ... الحديث.

وَرَسُولُهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وهي السَّلَفُ من النساء، الخَرَّاجَةُ والوَلَاجَةُ،

(١) جاء في «مصنف عبد الرزاق الصنعاني» عن ابن جُرَيْج، عَنْ عَطَاءٍ قَالَ: «كَانَ يُنْهَى أَنْ تَطْيَبَ الْمَرْأَةُ، وَتَزَيَّنَ ثُمَّ تَخْرُجُ، قُلْتُ: وَالنَّائِجُ؟ قَالَ: وَالنَّائِجُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، قَالَ لَهُ آخَرُ: وَتَبَرُّجُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ تَخْرُجُ كَذَلِكَ، فَيُسْأَلُ عَنْهَا مَنْ هِيَ؟».

وفي القراءة السبعية ﴿وَقَرْنَ﴾ هكذا بالكسر من الوقار؛ فالمرأة المسلمة مأمورة بالقرار في بيتها، وأن توفق شرع ربها، حتى تكون ذات قرار ووقار.

جاء في «مصنف ابن أبي شيبة»: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ قَالَ حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيِّ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ: «أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ، وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ، فَلَمَّا فَرَعُوا أَعَادُوا الصَّخْرَةَ عَلَى الْبُئْرِ، وَلَا يُطِيقُ رَفْعَهَا إِلَّا عَشْرَةُ رَجَالٍ، فَإِذَا هُوَ بَاثِرَاتِنِ تَذَوِّدَانِ، قَالَ: مَا خَطْبُكُمَا فَحَدَّثْتَاهُ فَأَتَى الْحَجَرَ فَرَفَعَهُ، ثُمَّ لَمْ يَسْتَقِ إِلَّا ذَنْوَبًا وَاحِدًا حَتَّى رُوِيَتِ الْغَنَمُ، وَرَجَعَتِ الْمَرْأَتَانِ إِلَى أَبِيهِمَا فَحَدَّثْتَاهُ، وَتَوَلَّى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الظِّلِّ، فَقَالَ: «رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ». قَالَ: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ وَاضِعَةً ثَوْبَهَا عَلَى وَجْهِهَا، ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، قَالَ لَهَا: امْشِي خَلْفِي وَصِنِّي لِي الطَّرِيقَ؛ فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تُصِيبَ الرِّيحُ ثَوْبَكَ فَيَصِفَ لِي جَسَدَكَ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى أَبِيهَا قَصَّ عَلَيْهِ، قَالَتْ إِحْدَاهُمَا: ﴿يَتَأْتِيَ اسْتَعْجِرُهُ﴾ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَعْجَرَتْ أَلْفَوُيُّ الْأَمِينُ، قَالَ: يَا بَنِيَّ مَا عَلِمْتُكُمَا بِأَمَانَتِي وَفُؤَيْتِي؟ قَالَتْ: أَمَّا فُؤُوتُهُ فَرَفَعَهُ الْحَجَرَ، وَلَا يُطِيقُهُ إِلَّا عَشْرَةٌ، وَأَمَّا أَمَانَتُهُ، فَقَالَ لِي: امْشِي خَلْفِي وَصِنِّي لِي الطَّرِيقَ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تُصِيبَ الرِّيحُ ثَوْبَكَ فَيَصِفَ جَسَدَكَ، فَقَالَ عُمَرُ: فَأَقْبَلْتُ إِلَيْهِ لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ مِنَ النِّسَاءِ، لَا خَرَّاجَةٍ وَلَا وَلَاجَةٍ، وَاضِعَةً ثَوْبَهَا عَلَى وَجْهِهَا اهـ.

قلت: فتأمل كيف وصف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حياءَها بتغطيتها لوجْهِها.

المتبرجة، وقد حذر النبي ﷺ من ذلك، كما في «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُبِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَخْرُجْنَ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا».

فتنة التلون والتلبيس، وتكلم الروبضة، وضياح الأمانة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٥٨﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾

[النساء: ٥٨، ٥٩].

وفي «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِي فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟، فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ؛ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ لَمْ يَسْمَعْ حَتَّىٰ إِذَا قَضَىٰ حَدِيثَهُ قَالَ: «أَيْنَ، أَرَاهُ، السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟» قَالَ: هَآئِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَاَنْتَظِرِ السَّاعَةَ»، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وَسَدَ الْأَمْرُ إِلَىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ، فَاَنْتَظِرِ السَّاعَةَ».

وفي «الصحيحين» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

يَقُولُ: «إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمَائَةِ، لَا تَكَادُ تَحْدُ فِيهَا رَاحِلَةٌ».

وفي «الصحيحين» عن حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ، رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أُنْتَظِرُ الْآخَرَ، حَدَّثَنَا: «أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ»، وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا: قَالَ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظُلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ، فَيَبْقَى فِيهَا أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْمَجْلِ؛ كَجَمْرِ دَخَرَجْتُهُ عَلَى رِجْلِكَ فَتَنْفَطِرُ؛ فَتَرَاهُ مُتَبَرِّجًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، وَيُضْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ؛ فَيَقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا! وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَغْلَهُ! وَمَا أَظْرَفَهُ! وَمَا أَجْلَدَهُ! وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ»، وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَلَا أَبَالِي أَكُفُّكُمْ بَايَعْتُ: لَيْتَن كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهَ عَلَيَّ الْإِسْلَامُ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهَ عَلَيَّ سَاعِيهِ، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا.

وجاء في كتاب «الإبانة الكبرى» للإمام الحافظ ابن بطّة: «حدثني أبو صالح محمد بن أحمد بن ثابت، قال: ثنا أبو العباس محمد بن يونس، قال: ثنا إبراهيم بن نصر، قال: سمعت الفضيل بن عياض، يقول: كيف بك إذا بقيت إلى زمان، شاهدت فيه ناسًا لا يفرقون بين الحق والباطل، ولا بين المؤمن والكافر، ولا بين الأمين والخائن، ولا بين الجاهل والعالم، ولا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا؟

قال الشيخ: فإننا لله وإنا إليه راجعون! فإننا قد بلغنا ذلك، وسمعناه، وعلمنا أكثره، وشاهدناه؛ فلو أن رجلاً ممن وهب الله له عقلاً صحيحاً، وبصراً نافذاً؛ فأمعن نظره وردد فكره، وتأمل أمر الإسلام وأهله، وسلك بأهله الطريق الأقصد، والسييل الأرشد؛ لتبين له أن الأكثر والأعم الأشهر من الناس قد نكصوا على أعقابهم، وارتدوا على أدماعهم؛ فحدوا عن المحجة، وانقلبوا عن صحيح الحجة، ولقد أضحى كثير من الناس يستحسنون ما كانوا يستقبحون، ويستحلون ما كانوا يحرمون، ويعرفون ما كانوا ينكرون، وما هذه رحمكم الله أخلاق المسلمين، ولا أفعال من كانوا على بصيرة في هذا الدين، ولا من أهل الإيمان به واليقين» انتهى.

قال الشاعر المجاهد سامر القيرواني التونسي، تقبله الله:

عَكِسَتْ مَفَاهِيمُ الْعُقُولِ وَكَلَّمَا طَالَ الزَّمَانُ رَأَيْتُ مَا لَا يُفْهَمُ
وَتَبَعَثَتْ لُغَةُ الْفَصَاحَةِ بَيْنَنَا وَغَدَا اللِّسَانُ بَضَادِنَا يَتَلَعَثُ

وقال أيضاً:

اللهُ أَكْبَرُ عِنْدَ مَغْرِبِ شَمْسِهِ الْبَدْرُ يَبْزُغُ فِي الظَّلَامِ بِهَيَا
اللهُ أَكْبَرُ حِينَ يُسْفِرُ فَجْرُهُ وَالنَّاسُ تَهْرَعُ بِالْدُعَاءِ بُكْيَا
اللهُ أَكْبَرُ لَا شَرِيكَ لِحُكْمِهِ بَعَثَ الْحَبِيبَ مُبَشِّرًا وَنَبِيًّا

الله أكبر والجُمُوعُ تَوَافَدَت لِقَتَالِ أَهْلِ الْكُفْرِ صُبْحَ عَشِيًّا
الله أكبر لَا أَبَا لِأَبِيهِمْ الله أكبر لَا نَهَابَ شَقِيًّا

وقال أيضًا:

رُحْمَاكَ رَبِّي فَالْتَفُوسُ تَمَازَيَرَتْ وَغَدَا السَّفِيهُ بِكُلِّ رِبْعٍ يَرْتَعُ
بِالْأَمْسِ يُنْشِدُ هَمَّتِي بِعَقِيدَتِي وَالْيَوْمَ صَرَحَ عَقِيدَتِي لَا يَنْفَعُ
وَيَرَى الْمَصَالِحَ فِي مَمَالِكِ حُكْمِهِ وَنَرَى الْمَفَاسِدَ غُنُوءَةً لَا تُدْفَعُ
وَيُرِيدُ مِنْ أَهْلِ الْمَبَادِي طَاعَةً اللهُ؛ لَا بَلَّ لِلَّذِي لَا يَشْبَعُ

عندما يشتد الحال ويستحكم الهوى عيادًا بالله؛ فعلى المرء أن يفرَّ بِدِينِهِ:

كما جاء في «صحيح البخاري»: بَابُ: مِنَ الدِّينِ الْفِرَارُ مِنَ الْفِتَنِ،
حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ، يَتَّبِعُ بِهَا
شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ؛ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ».

وفي «صحيح مسلم» عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيًّا
وَسَيَعُودُ غَرِيًّا كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرُزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ، كَمَا تَأْرُزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا».

يأرز: أي: ينضم ويجتمع.

وفيه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَأْرُزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرُزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا».

ومن الموقوف الجيد: ما رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده»: حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ ثنا سعيد بن أبي أيوب حدثني أبو هانئ حدثني شُفْيَى عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْأَعَاجِمِ، مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ رِزْقٍ جَعَلُوهُ فِي الْحَيَوَانِ، يَعُدُّونَ الصَّدَقَةَ مَغْرَمًا، وَالْجِهَادَ ضَرَارًا»، وروي مرفوعًا ولا يصح.

قال الإمام أحمد كما في كتاب «الآداب الشرعية» لابن مفلح: «عَلَيْكُمْ بِالسُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ وَمَا يَنْفَعُكُمْ، وَإِيَّاكُمْ وَالْخَوَصَّ وَالْمِرَاءَ؛ فَإِنَّهُ لَا يُفْلِحُ مَنْ أَحَبَّ الْكَلَامَ».

وَقَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: لَا تُجَالِسَهُمْ وَلَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ.

وَقَالَ أَيْضًا وَذَكَرَ أَهْلَ الْبِدْعِ فَقَالَ: لَا أُحِبُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُجَالِسَهُمْ، وَلَا يُخَالِطَهُمْ وَلَا يَأْتِسَ بِهِمْ، وَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ الْكَلَامَ، لَمْ يَكُنْ آخِرَ أَمْرِهِ إِلَّا إِلَى بِدْعَةٍ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ لَا يَدْعُو إِلَى خَيْرٍ، عَلَيْكُمْ بِالسُّنَنِ وَالْفَقْهِ الَّذِي تَتَّبِعُونَ بِهِ، وَدَعُوا الْجِدَالَ وَكَلَامَ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْمِرَاءِ، أَذْرَكْنَا النَّاسَ وَمَا يَعْرِفُونَ هَذَا وَيُجَانِبُونَ أَهْلَ الْكَلَامِ».

وفي «الصحيحين» عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ»، قَالَ عِمْرَانُ: لَا أَدْرِي أَذْكَرَ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ، وَلَا يُؤْتَمِنُونَ وَيَشْهَدُونَ، وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ وَيَنْدَرُونَ، وَلَا يَفُونَ وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ».

وفي «صحيح مسلم» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِثُونَ وَأَصْحَابٌ، يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ؛ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ؛ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ».

والمخرج أبداً في الاستمساك، وسؤال الله الثبات وعدم التبديل:

جاء في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «أَلَا لَيْدَادَنَ رَجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُدَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ؛ أَنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ! فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَلُوا بَعْدَكَ؛ فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا!».

وفيه عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «إِنِّي لَكُمْ فَرَطٌ عَلَى الْحَوْضِ؛ فَإِذَا يَ لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ فَيَذُبُّ عَنِّي كَمَا يُذْبُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ؛ فَأَقُولُ: فِيمَ هَذَا؟ فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ؛ فَأَقُولُ: سُحْقًا!»، وهذا المعنى محفوظ في «الصحيحين» من طرق.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ النَّاسِ، كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ؛ جَعَلَ الْفَرَّاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا؛ فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَعْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا؛ فَأَنَا أَخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا».

فالرجال حقًا هم المستمسكون كما قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ۚ لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٢٣، ٢٤].

جاء في كتاب «نصرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم»: «قال أنس بن مالك رضي الله عنه: لو أن رجلاً أدرك السلف الأول، ثم بُعث اليوم ما عرف من الإسلام شيئاً، قال: ووضع يده على خدّه ثم قال: إلا هذه الصلاة».

ثم قال: «أما والله على ذلك لمن عاش في النُّكر، ولم يدرك ذلك السلف الصالح، فرأى مبتدعاً يدعو إلى بدعته، ورأى صاحب دنيا يدعو إلى دنياه؛ فعصمه الله من ذلك، وجعل قلبه يحنُّ إلى ذلك السلف الصالح، يسأل عن سُبُلِهِمْ، وَيَقْتَصُّ آثارَهُمْ، وَيَتَّبِعُ سَبِيلَهُمْ، لِيَعْوِضَ أَجْرًا عَظِيمًا، وكذلك فكونوا إن شاء الله».

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: السُّنَّةُ، والذي لا إله إلا هو، بين الغالي والجاني؛ فاصبروا عليها، رحمكم الله؛ فإنَّ أهل السُّنَّةِ كانوا أقلَّ النَّاسِ فيما مضى، وهم أقلُّ النَّاسِ فيما بقي: الَّذِينَ لم يذهبوا مع أهل

الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سبهم حتى لقوا ربهم، فكَذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَكُونُوا» انتهى.

ديننا عزنا، فإذا استحيينا من إظهاره أَذَلَّنَا اللَّهُ تَعَالَى:

إِنْ مِنْ أَعْظَمَ مَا يُرْضِي اللَّهَ تَعَالَى عَنَا؛ أَنْ نَسْتَشْعِرَ الْعِزَّةَ وَالْكَرَامَةَ، وَنَحْنُ نَعْمَلُ بِهَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ، وَنَسْتَمْسِكُ بِهَذَا الْهَدْيِ الْقَوِيمِ، فَرَحِينُ بِمَا آتَانَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ، وَأَنْ نَعْلَمَ يَقِينًا أَنَّ الشَّرَفَ لَنَا بِذَلِكَ، وَأَنَّ الْفَضْلَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّ دِينَنَا هُوَ الْعِزَّةُ الْكَرَامَةُ الْمَطْلُوقَةُ، وَإِنَّمَا تَحْصُلُ الْعِزَّةُ لَنَا بِهِ بِقَدْرِ عَمَلِنَا بِهِ وَرَفَعِ الرَّأْسِ عَالِيًا بِهِ.

قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُنَبِّئُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾ وَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ

اللَّهُ شُرَكَاءُ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

[يونس: ٦٤ - ٦٦].

وقال تعالى عن المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضُ مِنَّا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨﴾ [المنافقون: ٨]

وقال سبحانه: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنَعُوا عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

وعلينا أن نتذكر أن أمثال هؤلاء المنافقين يكثر في آخر الزمان، ولكن ومع كثرة هؤلاء، إياك والهزيمة النفسية في دينك! فإنهم يعملون عليك بالإرهاب الفكري، والضغط النفسي، والرضوخ للواقع، ونحو ذلك من إرجافات المنافقين وأعدائهم؛ إياك إياك أن تستحي من طاعتك لربك، مهما كانت مرتبتها من الدين! سواء كانت من المستحبات أو الواجبات أو الفرائض؛ بل عليك أن تظهرها وتفتخر بها، وتفرح وترضى وتعتز؛ فكفى أنها من الدين الذي ارتضاه الله، وأوحى به، وأرسل به رسوله، وأمر به، وأتم نعمته على خلقه.

وهي سبيل المؤمنين من الصحابة والتابعين والأئمة المهديين؛ فهي سبيل المنعم عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين؛ فاتبعوها بلا أدنى تردد ولا وجل ولا خجل، ولا توارى ولا ضعف وضعة، قال

تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِيئًا ۖ﴾ (٦٦) وَإِذَا لَا تَنِيئَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ [النساء: ٦٦ - ٧٠].

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ۖ﴾ [المائدة: ٣].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ۚ﴾ (٣٥) وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابِ ۚ﴾ (٣٦) وَكَذَٰلِكَ أُنزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَٰكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ [الرعد: ٣٥ - ٣٧].

فكيف بمن يستحيي من ذكر الدين في الجامعات، والمظاهرات، والسياسة، والاقتصاد، والمفاوضات، والمواثيق، والمجالس العامة! ولا غرو ولا عجب إذ هذه الأماكن اليوم هي دُورُ فساد وباطل، ومستنقعات آسنة قد عَشَّشَ الشيطان فيها وفرخ، وتربى أكثر من فيها على الذل والصغار، واستشعار

النقص في دينها؛ فهم يستحيون منه، ومن كان كذلك؛ فالدين لا يتشرف به أن يكون مُمثلاً له، حاملاً اسمه؛ في حين أنه يتنكر له ويخجل من الانتساب إليه، ويتوارى بتعاليمه وقيمِهِ ومبادئه، والله المستعان.

وتأمل في هذا الكلام النفيس للإمام الشافعي، ذكره في كتابه «الرسالة»، يبيِّن فيه وجوب عدم التردد في اتباع الوحي، وترك ما يخالفه، بكل صراحة، وعدم استحياء كائناً من كان؛ فقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أخبرنا من لا أتهم عن ابن أبي ذئب عن مخلد بن خفاف قال: ابتعتُ غلاماً فاستغللته، ثم ظهرتُ منه على عيب؛ فخاصمت فيه إلى عمر بن عبد العزيز فقضى لي برِّده وقضى عليَّ برد غلته؛ فأتيت عروة فأخبرته، فقال: أروح عليه العشيَّة فأخبره: أن عائشة أخبرتني أن رسول الله قضى في مثل هذا: أن الخراج بالضمان؛ فعجلت إلى عمر فأخبرته ما أخبرني عروة عن عائشة عن النبي؛ فقال عمر: فما أيسر علي قضاء قضيتك، الله يعلم أني لم أرْده فيه إلا الحق، فبلغتني فيه سنة رسول الله، فأرْدتُ قضاء عمر، وأنفدُ سنَّة رسول الله، فراح إليه عروة، فقضى لي أن آخذ الخراج من الذي قضى به عليَّ له.

أخبرني من لا أتهم من أهل المدينة عن ابن أبي ذئب قال: قضى سعد بن إبراهيم على رجل بقضية برأي ربيعة بن أبي عبد الرحمن، فأخبرته عن النبي بخلاف ما قضى به، فقال سعد لربيعة: هذا بن أبي ذئب، وهو عندي ثقة، يخبرني عن النبي بخلاف ما قضيت به؛ فقال له ربيعة: قد

اجتهدت ومضى حكمك، فقال سعد: واعجباً أنفذ قضاء سعد بن أم سعد، وأرد قضاء رسول الله! بل أرد قضاء سعد بن أم سعد، وأنفذ قضاء رسول الله؛ فدعا سعد بكتاب القضية فشقه، وقضى للمقضي عليه.

قال الشافعي: أخبرني أبو حنيفة بن سماك بن الفضل الشهابي قال: حدثني ابن أبي ذئب عن المقبري عن بن شريح الكعبي: أن النبي قال عام الفتح: «من قُتل له قتيل فهو بخير النظرين: إن أحب أخذ العقل، وإن أحب فله القود»، قال أبو حنيفة: فقلت لابن أبي ذئب: أتأخذ بهذا يا أبا الحارث؟ فضرب صدري وصاح عليّ صياحاً كثيراً، ونال مني، وقال: أحدثك عن رسول الله وتقول: تأخذ به؟ نعم آخذ به؛ وذلك الفرض عليّ وعلى مَنْ سمعه، إن الله اختار محمداً من الناس فهداهم به وعلى يديه، واختار لهم ما اختار له وعلى لسانه؛ فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين؛ لا مخرج لمسلم من ذلك، قال: وما سكت حتى تمنيت أن يسكت.

قال: وفي تثبيت خبر الواحد أحاديث يكفي بعض هذا منها، ولم يزل سبيل سلفنا والقرون بعدهم إلى مَنْ شاهدنا هذا السبيل، وكذلك حكى لنا عمن حكى لنا عنه من أهل العلم بالبلدان اهـ.

عموم البلوى ليست عذراً شرعياً لركوب الحرام:

اعلم رحمك الله، أن عموم البلوى ليست عذراً شرعياً؛ بل الأصل إنكار المنكر، وتحقيق الكفر بالطاغوت، والذي من مراتبه اعتزاله وبغضه،

والنَّائِي عنه، والتحذير منه والتنفير عنه، والسعي في استئصاله واجتنائه.

أما عموم البلوى، فإنها إنما تُذكر لرفع الملام، عن الاستقصاء في تتبع هذه المنكرات، لكثرتها حتى تُعْجَزَ العبد، فعموم البلوى لا للتعاطي مع المنكر وترقيقه؛ بل لإعذار العبد أحياناً عندما تغلبه، أو لوجود عذر معتبر شرعاً يحول بينه وبين الاستقصاء، بأن يُضَيِّعَ ما هو أهم من ذلك بميزان الشرع، فيفعل ما يمكنه، ويعذر فيما ليس في وسعه وإمكانه.

فعموم البلوى، إنما تذكر في باب النهي عن المنكر لا في ركوبه^(١).

(١) مقال مهم كتبه على صفحتي في الفيس بوك والتليجرام، بعنوان:

«عموم البلوى بين الارتكاس والانتكاس»:

لم تكن عموم البلوى يوماً ما عذراً شرعياً، لركوب منكر أو قبوله وتمريه؛ فعموم البلوى ليست عذراً شرعياً بهذا الاعتبار؛ بل الأصل إنكار المنكر، والذي من مراتبه اعتزاله وهجرانه، وبغضه والتحذير منه والتنفير عنه، وعدم الأنس به وعدم الترويج له، والسعي الجاد في إزالته بالوسائل المشروعة.

وهو وإن غض الطرف عنه فترة، فإنه لا لكونه رضي به أو شرَّعه؛ بل لكونه مغلوباً عليه، أو أن هناك ما هو مقدم عليه شرعاً، وأقول: شرعاً لا هوئياً ورأياً، ومع هذا كله فالموقف واحد من هذا المنكر أو ذاك؛ إذ هو معتزل له وهاجر إياه، ومبغض له ومحذر منه، ونافر عنه غير آنس به، ولا مروج له؛ بل هو ساع سعيًا جاداً في إزالته، بالوسائل المشروعة، متى ما تمكن فعل.

فعموم البلوى إذن إنما تذكر لرفع الملام عن الاستقصاء، لكثرة ذلك المنكر وفشوه في زمن ما أو حالة ما؛ هذا معنى عموم البلوى؛ فعموم البلوى لا علاقة لها بالتعاطي مع المنكر وترقيقه مطلقاً.

= وعموم البلوى إنما تذكر في باب النهي عن المنكر، لا في ركوبه ومدخلته. فالعبد يسعى في الإنكار، فإن غلب عليه في باب ما، لكثرة ذلك المنكر؛ فهو ينكر منه ما تيسر، فهنا تأتي عموم البلوى لرفع الملام عنه، لظهور شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب كل برأيه، مع التزامه بموقفه الشرعي تجاه هذا المنكر أو ذاك، كما تقدم؛ فهو ليس عضواً فيه ولا متعاطياً له ولا معه؛ بل هو معتزل صابر لا يطيع أثماً أو كفوراً. وأقبح ما سمعت من الاعتذار بعموم البلوى، بالمفهوم المنكوس المرتكس؛ تلك الدعوى التي انتحلها بعضهم لركوب الكفر، والتعاطي مع الديمقراطية والعلمانية الكافرة الفاجرة، بدعوى عموم البلوى، ومن ذلك ولا شك تريق مسائل من الشرك والكفر الأكبر، والذنب الذي لا يغفر؛ كشرك الأسماء والصفات، وشرك الجهمية، وغلاة الإرجاء، وشرك القبور والأولياء والصالحين، وكل هذا بدعوى عموم البلوى. فهو غطاء ودثار، وشعار وسعار، لهؤلاء المفتونين، حتى صارت عموم البلوى ديناً تُرفَّق لأجله المنكرات؛ بل وتركب فيه ولأجله الموبقات، ولا تريد تمرير منكر دق أو عظم؛ إلا ساع لك فعل ذلك في هذا الدين الجديد. وقد عالجت الأدلة هذه المعضلة، وهذه الشبهة الشائكة، علاجاً شافياً متكرراً متكاثراً، لكثرة الهلكى في ذلك.

◆ إنها مسألة ضغط الواقع وفعل الأكثر، فهي العبارة المختصرة الكاشفة لمعنى عموم البلوى.

◆ وهل عموم البلوى إلا هذه؟ وهنا يتوجب علينا مباشرة التوجه التام والسريع إلى الكتاب والسنة؛ للنظر في ماذا قال الله تعالى ورسوله ﷺ في هذه المقامات الكبار؛ لتجد أنه ما من نبي ولا رسول إلا وقابلته هذه المعضلة، وألقيت بين يديه من قبل الجاهلية هذه الشبهة. ماذا عن دين الآباء والأجداد، وماذا عن الموروثات والعادات، وماذا عن التقاليد و«السلوم» والأعراف، وماذا عن ضغط الواقع وفعل الأكثر من الناس؟ فماذا كان جوابهم وكيف كان تعاملهم معها عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم؟

=

= إنه الثبات على الحق، والدعوة إلى الهدى، مع صبر ومصابرة ومراطة؛ فلم يدهنوا الباطل ولم يرققوه، ولم يكسروا الحق ولو يطوعوه، ولم يجعلوه عرضة للاختيارات وأنصاف الحلول.

لقد علموا يقيناً أنَّ الأرض لله، وأن الدين عند الله الإسلام، وإنما أمروا بالبلاغ المبين رحمة للعالمين، ثم بعدها ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة. وتأمل في هذه الآيات، لترى كيف قص الله تعالى علينا من نبأ ما قد سلف، من أحوال عموم البلوى، وكيف كان العلاج والمخرج، الذي يحبه الله ويرضاه، ولا يقبل من عباده سواه؛ إذ لا محل للأراء والأهواء مع وحي السماء:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِفُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ [سورة المائدة].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِن عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ ﴿١٠٢﴾ [سورة الأعراف].

وقال ﷺ: ﴿وَلَن تُطِيعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَنْتَعِبُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّهُمْ إِلَّا بَخْرَصُونَ﴾ ﴿١٣١﴾ [سورة الأنعام].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَنبَغُهُمْ مِّن بَيْن أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرُهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [سورة الأعراف].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧٣﴾ [سورة يوسف].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ ﴿١٦١﴾ [سورة يوسف].

وقال تعالى: ﴿وَرَأَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَسْرِعُونَ فِي الْأَثَرِ وَالْعُدُونِ وَأَكْثِلُهُمُ الشُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ [سورة المائدة].

وقال تعالى: ﴿كَرِهَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْمَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿٨﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا أَخَذُوهُمْ أُولَاءَ وَلَكِن كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ [سورة المائدة].

التنادي بأسماء الدين والإيمان:

وقد كان الرجال الذين هم حقاً الرجال (النبي ﷺ، وأصحابه الكرام ﷺ، ومن تبعهم بإحسان) يتنادون بأسماء الدين والإيمان، ومناقب التقى والإحسان؛ فهذا بدري، وذاك من أصحاب الشجرة، والآخر من أهل بيعة الرضوان، وهذا من المهاجرين، وذاك من الأنصار، وفيهم صاحب النعلين والوساد، وكاتم السر، وحواري رسول الله ﷺ، ومؤذن النبي ﷺ، وهناك خادم النبي ﷺ، وهذا أمين هذه الأمة، وهناك في الأفق العالي الصديق، وهذا

= وقال تعالى: ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٧٠) [سورة الأعراف: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٨٧) [سورة هود: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٧) [سورة البقرة: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٢) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (٢١) [سورة الأعراف: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أَمْرٍ وَإِنَّا عَلَىٰ أَثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمْرٍ وَإِنَّا عَلَىٰ أَثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ (٢٣) قُلْ أَوَلَوْ جِئْتَكُمْ بِآهْدَىٰ وَمِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٢٤) [سورة الزخرف: ٢٤].

ومثل هذا كثير جداً، والله أعلم.

الفاروق، وذلك ذو النورين، ورابعهم هو من النبي ﷺ بمنزلة هارون من موسى، يحبُّ الله ورسوله ويحبُّه الله ورسوله، وذلك مستجاب الدعوة، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، وفيهم العشرة المبشرون بالجنة، وفيهم سيدة نساء الجنة، وفيهم من أقرأها الله تعالى السلام، وفيهم من أقرأها جبريل السلام، وهكذا كانت الألقاب والأوسمة والنياشين.

وأما اليوم، فإن كثيرًا من الناس يستحي من أن يُنسب إلى الدين، حتى صار عدم التدين هو شعار المتحضرين المثقفين؛ بل حتى صار الواحد من المؤمنين في بعض البلدان يُعَيَّرُ بإيمانه، واستمساكه بهدي المصطفى ﷺ وصحبه الكرام رضي الله عنهم.

بل حتى على مستوى جمع من أهل العلم اليوم؛ فإنك تراهم يفضلون أن ينادوا بالدكتور والبروفيسور، ولا أن ينادى أحدهم بالعالم أو الشيخ، أو المحدث أو الحافظ أو المقرئ، والله المستعان.

فالحذر كل الحذر من التنكر للحقائق والمعاني والمسميات الشرعية! والحذر كل الحذر من قلبها وتزويرها، وتسميتها بما يسميه المبطلون، الذين يرون الاستمساك تشددًا، والاستقامة تنطعًا، والأمر والنهي تسلطًا وتدخلاً، وكتبًا للحريات! ويرون التوحيد فتنة والتحذير من البدع والخرافات، بل والشركيات؛ بغضًا للنبي ﷺ ولأوليائه والصالحين كما يزعمون، ويرون الحجاب والنقاب، والعفاف والطهر وترك الاختلاط؛

عقدة وسوء نية وخُبث طوية، ويرون الجهاد فتنة وشرًّا وبلاء، ويجعلون الثناء والإطراء لضد ذلك على طول الخط.

مصطلحات تحتاج إلى ضبط وتحريم وعرض:

لا بد من التنبيه، إلى أن كثيراً من المصطلحات، قد اعترها التلاعب والشوب والتليس، وكل ذلك تحت شعار كلمة حق أريد لها باطل؛ فالحرية والمساواة والعدالة، والتطرف والتشدد، والإرهاب والتكفير، والفتنة، وغيرها من المصطلحات والمسميات، التي يدعى إليها، أو ينفر ويحذر منها؛ كلها تحتاج إلى ضبط وتحريم؛ وذلك بعرضها على نصوص الكتاب والسنة، وأن يتم فهمها والتعامل معها على وفق سبيل المؤمنين؛ وهو ما كان عليه النبي ﷺ؛ حتى لا يخدعنا العدو، ويستعملنا من حيث لا نشعر؛ فإذا بنا نَفَاجاً بأننا إنما نحارب ديننا، أو ننهي عن شيء أمر به ديننا، أو نأمر بأمر يخالف ديننا، وهذا يقع كثيراً للأسف الشديد؛ وذلك من جراء كثرة الجهل بدين الله تعالى، ومعانيه ومبانيه العظام؛ حيث ينسب إلى الدين ما ليس منه، وينفى عنه ما هو منه، ولكن له ضوابطه وشروطه ولوازمه ومقتضياته.

ومن هذه المصطلحات: مصطلح الغلو: وهو مصطلح شرعي؛ ومع وجود الاختلاف الكثير الذي أخبر به النبي ﷺ، وبين المخرج منه؛ فإنه قد اعتراه ما اعتري غيره من المسميات الشرعية، التي تجاذبتها الطوائف والجماعات وبعض الأفراد؛ وبالتالي فلا بد من ضبطه بميزان العدل، الذي

كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهو المخرج الذي وصفه النبي ﷺ أدق وصف في أحاديث صحاح، أَخْبَثُهَا تَعُودُ إِلَى أَنَّ فَهْمَ هَذَا الدِّينِ وَضَبْطَ مَعَانِيهِ؛ لَا بَدَّ أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَى سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ أَصَالَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ الْكَرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثُمَّ مِنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ؛ وَهِيَ تَمَثِّلُ الْمَرْجِعِيَّةَ الْفَاصِلَةَ فِي جَمِيعِ مَسَائِلِ النَّزَاعِ، فِي فَهْمِ الْأَدْلَةِ، وَطَرَائِقِ الْاسْتِدْلَالِ وَالتَّنْزِيلِ.

وَأَنْتِ إِذَا تَأَمَّلْتِ وَجَدْتِ نَوْعًا مِنَ الْخَلْطِ، الَّذِي وَقَعَ عِنْدَ الْبَعْضِ، فِي قِضِيَّةِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ النَّوْعِ وَالْعَيْنِ فِي بَابِ التَّنْزِيلِ هَذَا مِنْ نَاحِيَّةٍ، وَمِنْ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى وَقَعَ خَلْطٌ بَيْنَ قِضِيَّةِ اعْتِبَارِ الْفَضْلِ وَالسَّبْقِ لِأَهْلِ التَّقَدُّمِ، وَبَيْنَ نَوْعِ الْخَطَأِ الَّذِي وَقَعَ وَالْخَلَلِ الَّذِي حَصَلَ، وَكَمَا أَنَّ التَّخْلِيْطَ فِي الْأَوَّلَى أَوْرَثَ خِلَافًا مَنِهْجِيًّا وَتَعَامُلِيًّا، عِنْدَ بَعْضِ الطَّوَائِفِ وَالْجَمَاعَاتِ وَالْأَفْرَادِ؛ فَإِنَّ الْآخَرَ قَدْ أَوْرَثَ فُسَادًا عَرِيضًا كَذَلِكَ لَا يَقِلُّ عَنْ سَابِقِهِ

وَكَلَّا قَصْدِي طَرَفَ الْأُمُورِ دَمِيمٌ

فَمِنْ الْأَوَّلِ نَشَأَ غُلُوٌّ فِي التَّكْفِيرِ، دُونَ اعْتِبَارِ لِسَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الْآخَرُ أَوْرَثَ غُلُوًّا فِي مَنَعَ الْكَلَامِ وَالتَّجْرِيمِ لِنَوْعِ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْآثِمَةِ؛ بَلْ وَالْكَفَرِيَّةِ، الَّتِي رُبَّمَا وَقَعَ فِيهَا بَعْضُ أَهْلِ الْفَضْلِ، وَهُمْ مُتَفَاوِتُونَ بِاعْتِبَارِ حَقِيقَةِ حَالِهِمْ، وَنَظَرِ الْآخَرِينَ إِلَيْهِمْ.

فَتَجِدُ مَنْ غَلَا حَتَّى مَنَعَ مِنَ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ التَّجَاوُزَاتِ، الَّتِي مِنْهَا

العقدي؛ بدعوى وجود السابقة والفضل؛ وهذا خلل وفساد في تصوّر سبيل المؤمنين في ذلك، وربما وقع هذا من جرّاء العاطفة نحو شخص معين، أو حزب أو جماعة، وإحسان الظن بهم، أو من جرّاء متلازمة فاسدة وقعت عند صاحب هذا الغلو؛ ألا وهي أن لازم الكلام في نوع الأخطاء؛ يلزم منه تنزيله على العين المقترفة له مباشرة، وأنه إسقاط له وبتر له عن خط جهاد الأمة العام، دون اعتبار لضوابط سبيل المؤمنين في هذا.

وهذا الغلو ينتج عنه سكوت عن الباطل؛ مما يترتب عليه ترويح ورواج له، لاسيما عندما يقع الثناء من هذا الغالي على ذلك الواقع في الخطيئة، دون تعريج منه على نوع الخطأ الذي وقع فيه، ثم ربما ازداد غلواً ليرمي بالغلو من سعى في بيان نوع ذلك الخطأ، الذي وقع فيه ذلك الفرد أو الجماعة والحزب، لاسيما، كما تقدم، عندما يأتي المدح المحض دون ذكر للطامة التي وقعت، فيبادر هذا الغالي إلى رمي هذا المحتسب لبيان نوع هذه الطامة؛ بالغلو؛ لوجود هذه المتلازمة الفاسدة في تصوره.

وحقيقة: إن المتأمل ليجد أن الظاهر أن أحد أهم المعايير، في تقييم الغلو وتحديد أهله؛ مسألة العذر بالجهل، ومسألة عدم التفريق بين النوع والعين بشقيها، وعدم التفريق بين ضوابط قيادة هذه الأمة، واستصلاح مجموعها للقيام بالأمر معها؛ فالاستصلاح شيء وتقديم القيادة لذوي العُجَر والبُجَر أمر آخر، ولا تلازم بين الاستصلاح وبين القيادة من جهة:

إما السكوت على العوار وإلا فلا انتصار.

ولنعلم أن الغلو كما يكون بالزيادة والإفراط، يكون بالنقص والجفاء والتفريط.

ومن ذلك: النهي عن ذكر الأسماء عند التكلم عَمَّنْ وَقَعَ مِنْهُ خَلَلٌ عَظِيمٌ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وله أتباع وحضور، وهو مِمَّنْ تُرْفَعُ إِلَيْهِ الْأَبْصَارُ، وَيُغْتَرُّ بِهِ وَيُقْتَدَى بِهِ، وَيَدَّعِي هَؤُلَاءِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الشَّرِيعَةِ تَسْمِيَاتٌ؛ وَلَكِنْ هُنَاكَ نَقْدٌ لِلْمَوَاقِفِ وَالْمَسَائِلِ دُونَ التَّعَرُّضِ لِلتَّسْمِيَةِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ كَذَلِكَ.

ولا شك أن هذا خطأ وباطل بهذا الإطلاق؛ فالأدلة صريحة في ذكر الأسماء سواء في الكتاب أو السنة الصحيحة، والميزان في ذلك أنه إذا لم تتحقق المصلحة الشرعية إلا بالتسمية فلا بد من التسمية؛ ومن ذلك ما تقدم ممن يُقْتَدَى بِهِ فِي الْخَطَأِ وَيُتَّبَعُ فِيهِ.

ولنعلم أنه ليس بيننا وبين من ننقده خصومة شخصية؛ وإنما هو الانتصار للحق وبيانه، ولكنها العقيدة والنُصْحُ فِي الدِّينِ.

وعلينا أن نعلم أن بيان الأخطاء العقدية، لا علاقة له بحياة ولا موت، كما في الحديث الذي أخرجه مسلم في «صحيحه» عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الَّذِينَ النَّصِيحَةُ قُلْنَا: لِمَنْ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلَا أُمَّةٍ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»، فَكُلُّ مَنْ نَحْتَاجُ إِلَى ذِكْرِ اسْمِهِ لِلتَّحْذِيرِ مِنْ

ضلالة وقعت منه؛ فإن المشروع تسميته، وما لا حاجة لذكره فلا نذكره، ولكن نبين نوع الخطأ والمسألة، التي وقعت فيها المخالفة.

فالنهي على وجه العموم والإطلاق غير صحيح مطلقاً؛ بل ابتداء من النبي ﷺ ومروراً بالصحابة رضي الله عنهم و انتهاء بأئمة أهل السنة؛ كلهم محفوظ عنهم ذكر المُعَيَّن باسمه ووصفه بقصد التحذير؛ فلتتق الله ولنحذر من القول على الله بغير علم.

وإليك بعض الأدلة على ذلك:

ففي «الصحيحين» عن عائشة: «أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ: «يَسُّ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَيَسُّ ابْنِ الْعَشِيرَةِ» فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ: كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ، مَتَى عَاهَدْتَنِي فَحَاشَا، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ».

وفي «صحيح البخاري» عن عائشة قالت: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَظُنُّ فُلَانًا وَفُلَانًا يَعْرِفَانِ مِنْ دِينِنَا شَيْئًا».

وفي «الصحيحين» من طريق سعيد بن جبير: «أَنَّ نَوْفًا الْبَكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى لَيْسَ بِمُوسَى بْنِ إِسْرَائِيلَ، إِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرُ، فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ...» الحديث، ثم ساق الحديث عن النبي ﷺ في قصة موسى والخضر عليه السلام.

وفي «صحيح مسلم» من طريق يحيى بن يعمر، قال: «كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني؛ فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر؛ فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلًا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله؛ فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ؛ فقلت: أبا عبد الرحمن، إنه قد ظهر قِبَلنا ناس يقرءون القرآن، ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا، فأنفقه؛ ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر...» ثم ساق حديث جبريل المشهور.

وهذا الأمر عن السلف أكثر من أن يُحصر وأشهر من أن يُذكر؛ فما زال علماء السلف يحذرون من أهل البدع بأعيانهم وأسمائهم، كلما احتاجوا إلى ذلك؛ بل وربما لعنوه؛ بل وكان بعض السلف يسجد لله شكرًا، إذا بلغه موت أحد هؤلاء المبتدعة.

أما كتب الجرح والتعديل؛ فهذا البحر الذي لا ساحل له؛ حيث يذكرون الرواة بأعيانهم، ويتكلمون فيهم، ويجرحون من يستحق الجرح بما فيه، وربما رموه بالكذب والزندقة، ونحو ذلك من الجرح الشديد.

والمقصود: في هذا كله النصح والبيان، والتحذير من عدم الاغترار بما وقع من الضلال.

صاحب الوجهين مع الأدلة:

وإن من العباد من وصفهم الله ﷻ هؤلاء بقوله: ﴿وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين﴾ [النور: ٤٩]؛ أي إذا كان الحق في صالحهم، ومتماشياً مع أهوائهم، وهو يوافق مراداتهم وشهواتهم؛ بادروا إليه وقبلوه، وإن لم يتماشى الحق مع أهوائهم ولم يوافق مراداتهم؛ فلبوا له ظهر المجن، وتنكروا له، ورّموا قائله بالعظائم.

ولهذا ترى بعض الناس، إذا سمع الدليل والفتوى قال: هذا متشدد، هذا متنطع، هذا كذا، وهذا كذا، لماذا؟ لأنه وجد الفتوى مخالفة لهواه، ثم إذا سمع من نفس هذا الشيخ فتوى أخرى توافق هواه؛ قال: هذا هو العلم وهكذا يكون العلماء، وهذا هو الفقه بعينه، وهذا فقه الواقع، لماذا؟ لأن الفتوى وافقت هواه، ولهذا هو كل يوم يتتبع رخصة من الرخص.

وقد قال السلف: «من تتبع الرخص تزندق»؛ أي: صار متلوناً فدينه يميل مع هواه حيث مال، لا إرادة له في إصابة الحق، بقدر ما أنه يريد إصابة هواه، وموافقة حاله، والعياذ بالله.

ومثل هذا المتتبع للرخص المخالفة للكتاب والسنة، آخذاً بزلات

العلماء؛ قد اجتمع فيه الشر كله؛ لأنه متبع للهوى، ليس بمتبع للهدى، والله
عَزَّوَجَلَّ يقول في محكم التنزيل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ ﴿٣٦﴾
[الأحزاب: ٣٦].

فهذا إنما يجعل الفتوى تبعاً لهواه، فهو يسأل مَنْ يُفْتِيهِ بما يهواه، لا
بالهدى الذي أنزله الله تعالى، فهو يبحث عن الهوى، لا عن الهدى والعياذ
بالله، وإن احتج بأشياخ من هنا أو هناك، فإنما يريد ما وافقوه فيه مما يهواه،
لا لمعنى آخر، وإن خالفوه في غير ما يهواه طرحهم وبحث عن غيرهم؛ بل
وربما استغنى عن الجميع بمشيخة نفسه، والاعتداد بفقهاء الأعور،
واستنباطه المعوج، عياداً بالله من الخذلان^(١).

(١) وإليك هذا المبحث اللطيف المنتزع من موسوعة الرد على المذاهب الفكرية
المعاصرة: «قاعدة سد الذرائع: دلت النصوص الكثيرة على اعتبار سد الذرائع،
والأخذ به حماية لمقاصد الشريعة، وتوثيقاً للأصل العام الذي قامت عليه الشريعة،
من جلب المصالح ودرء المفاسد، والله در ابن القيم، عَزَّوَجَلَّ، إذ يقول: «فإذا حَرَّمَ
الرب تعالى شيئاً وله طرق ووسائل تفضي إليه؛ فإنه يحرمها ويمنع منها، تحقيقاً
لتحريمه، وتثبيتاً له، ومنعاً من أن يقرب حماه، ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية
إليه؛ لكان ذلك نقصاً للتحريم، وإغراءً للنفوس به».

ثانياً: منهج المبالغة في التساهل والتيسير: ظهر ضمن مناهج النظر في النوازل المعاصرة؛
منهج المبالغة والغلو في التساهل والتيسير، وتعتبر هذه المدرسة في النظر والفتوى، ذات
انتشار واسع على المستوى الفردي والمؤسسي، خصوصاً أن طبيعة عصرنا الحاضر، قد

= طغت فيه المادية على الروحية ، والأناية على الغيرية ، والنفعية على الأخلاق ، وكثرت فيه المغويات بالشر ، والعوائق عن الخير ، وأصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر؛ حيث تواجهه التيارات الكافرة عن يمين وشمال، تحاول إبعاده عن دينه وعقيدته، ولا يجد مَنْ يعينه؛ بل ربما يجد من يعوقه، وأمام هذا الواقع دعا الكثير من الفقهاء إلى التيسير ما استطاعوا في الفتوى، والأخذ بالترخص في إجابة المستفتين، ترغيباً لهم وتثبيتاً لهم على الطريق القويم، ولاشك أن هذه دعوى مباركة قائمة على مقصد شرعي عظيم من مقاصد الشريعة العليا، وهو رفع الحرج، وجلب النفع للمسلم، ودرء الضرر عنه في الدارين؛ ولكن الواقع المعاصر لأصحاب هذا التوجه يشهد أن هناك بعض التجاوزات في اعتبار التيسير، والأخذ بالترخص، وربما وقع أحدهم في رد بعض النصوص، وتأويلها بما لا تحتل وجهاً في اللغة أو في الشرع.

وضغط الواقع ونفرة الناس عن الدين، لا يسوّغ التضحية بالثواب والمسلمات، أو التنازل عن الأصول والقطعيّات، مهما بلغت المجتمعات من تغير وتطور؛ فإن نصوص الشرع جاءت صالحة للناس في كل زمان ومكان.

فمن الخطأ والخطر تبرير الواقع، والمبالغة في فقه التيسير؛ بالأخذ بأي قول، والعمل بأي اجتهاد، دون اعتبار الحجة والدليل مقصداً مُهماً في النظر والاجتهاد.

ولعل من الدوافع لهذا الاتجاه الاجتهادي؛ أن أصحاب هذه المدرسة يريدون إضفاء الشرعية على هذا الواقع، بالتماس تخريجات وتأويلات شرعية تعطيه سنداً للبقاء، وقد يكون مهمتهم تبرير، أو تمرير ما يراد إخراجه للناس من قوانين، أو قرارات أو إجراءات تريدها السلطة.

ومن هؤلاء من يفعل ذلك مخلصاً مقتنعاً، لا يبتغي زلفى إلى أحد، ولا مكافأة من أحد، ولكنه واقع تحت تأثير الهزيمة النفسية، أمام حضارة الغرب وفلسفاته ومسلماته.

ومنهم من يفعل ذلك، رغبة في دنيا يملكها أصحاب السلطة، أو مَنْ وراءهم من الذين يحركون الأزرار من وراء الستار، أو حباً للظهور والشهرة على طريقة: خالف تُعرف، إلى غير ذلك من عوامل الرغبة والرهب، أو الخوف والطمع، التي تحرك

= كثيرًا من البشر، وإن حملوا ألقاب أهل العلم، وألبسوا لبوس أهل الدين.

ولا يخفى على أحد، ما لهذا التيار الاجتهادي من آثار سيئة على الدين، وحتى على تلك المجتمعات التي هم فيها، فهم قد أزالوا، من خلال بعض الفتاوى، الفوارق بين المجتمعات المسلمة والكافرة؛ بحجة مراعاة التغير في الأحوال والظروف، عما كانت عليه في القرون الأولى.

ويمكن أن نبرز أهم ملامح هذا الاتجاه فيما يلي:

١ - الإفراط بالعمل بالمصلحة ولو عارضت النصوص: إن المصلحة المعتبرة شرعاً ليست بذاتها دليلاً مستقلاً؛ بل هي مجموع جزئيات الأدلة التفصيلية من القرآن والسنة، التي تقوم على حفظ الكليات الخمس؛ فيستحيل عقلاً أن تخالف المصلحة مدلولها، أو تعارضه، وقد أثبتت حجية المصلحة عن طريق النصوص الجزئية، فيكون ذلك من قبيل معارضة المدلول لدليله إذا جاء بما يخالفه؛ وهذا باطل. فالمصلحة عند العلماء ما كانت ملائمة لمقاصد الشريعة، لا تعارض نصاً أو إجماعاً، مع تحققها يقينياً أو غالباً، وعموم نفعها في الواقع، أما لو خالفت ذلك، فلا اعتبار بها عند عامة الفقهاء والأصوليين....

وواقع الإفتاء المعاصر، جنح فيه بعض الفقهاء والمفتين، إلى المبالغة في العمل بالمصلحة، ولو خالفت الدليل المعتبر، ومن ذلك ما قاله بعض المعاصرين، ممن ذهبوا إلى جواز تولي المرأة للمناصب العالية: «إن النبي ﷺ قرأ على الناس في مكة سورة النمل، وقص عليهم في هذه السورة قصة ملكة سبأ، التي قادت قومها إلى الفلاح والأمان، بحكمتها وذكائها، ويستحيل أن يرسل حكماً في حديث يناقض ما نزل عليه من وحي... إلى أن قال: هل خاب قوم ولوا أمرهم امرأة من هذا الصنف النفيس».

ولا شك في معارضة هذا الكلام، لما ورد عن النبي ﷺ بقوله: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة».

ومن ذلك أيضاً ما أفتى به المفتي السابق بجمهورية مصر العربية على جواز الفوائد المصرفية مع معلومية الربا فيها، ومخالفته للنصوص والإجماع، المحرم

= للربا قليله وكثيره.

وظهر في الآونة الأخيرة بعض الفتاوى، التي أباحت بيع الخمر من أجل مصلحة البلاد في استقطاب السياحة، وإباحة الإفطار في رمضان، من أجل ألا تتعطل مصلحة الأعمال في البلاد، وإباحة التعامل بالربا، من أجل تنشيط الحركة التجارية والنهوض بها، والجمع بين الجنسين في مرافق المجتمع، لما في ذلك من تهذيب للأخلاق وتخفيف للميل الجنسي بينهما.

وبعضها جوزت التسوية بين الأبناء والبنات في الميراث؛ بل وبعضها جوزت أن تمثل المرأة، وتظهر في الإعلام بحجة التكيف مع تطورات العصر، بفقهاء جديد وفهم جديد.

وكل هذه وغيرها خرجت بدعوى العمل بالمصلحة، ومواكبة الشريعة لمستجدات الحياة.

ب - تتبع الرخص والتلفيق بين المذاهب:

الرخص الشرعية الثابتة بالقرآن والسنة، لا بأس في العمل بها؛ لقول النبي ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه».

أما تتبع رخص المذاهب الاجتهادية، والجري وراءها دون حاجة يضطر إليها المفتي، والتنقل من مذهب إلى آخر، والأخذ بأقوال عددٍ من الأئمة في مسألة واحدة؛ بغية الترخيص؛ فهذا المنهج قد كرهه العلماء وحذروا منه، وإمامهم في ذلك النبي ﷺ لما قال: «إني أخاف عليكم ثلاثاً وهي كائنات: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تفتح عليكم».

فزلة العالم مخوفة بالخطر، لترتب زلل العالم عليها، فمن تتبع زلل العلماء، اجتمع فيه الشر كله.

وقد حكى بعض المعاصرين خلافاً بين العلماء، في تجويز الأخذ برخص العلماء، لمن كان مفتياً أو ناظراً في النوازل.

ولعل حكاية الخلاف ليست صحيحة على إطلاقها، وذلك للأسباب التالية:

١- أن الخلاف الذي ذكروه في جواز تتبع الرخص، أخذوه بناءً على الخلاف في

= مسألة الجواز للعامي أن يتخير في تقليده من شاء، ممن بلغ درجة الاجتهاد، وأنه لا فرق بين مفضول وأفضل، ومع ذلك فإنهم، وإن اختلفوا في هذه المسألة، إلا أنهم اتفقوا على أنه إن بان له الأرجح من المجتهدين فيلزمه تقليده، ولا يجوز له أن يتبع في ذلك رخص العلماء وزللهم، والعمل بها دون حاجه أو ضابط.

فلا يصح أن يُحكى خلافٌ للعلماء في مسألة، تخريجاً على مسألة أخرى، تخالفها في المعنى والمضمون، ولا تلازم بينها؛ وذلك أن الخلاف في حق العامي، أما المجتهد المفتي، فلا يجوز له أن يفتي إلا بما توصل إليه اجتهاده ونظره.

٢- أن بعض العلماء جَوَّزَ الترخص في الأخذ بأقوال أي العلماء شاء، وهذا إنما هو في حق العوام، كما ذكرنا، كذلك أن يكون في حالات الاضطرار، وألا يكون غرضه الهوى والشهوة، يقول الإمام الزركشي، رَحِمَهُ اللهُ، في ذلك: «وفي فتاوى النووي الحزم بأنه لا يجوز تتبع الرخص، وقال في فتاوى له أخرى؛ وقد سئل عن مقلد مذهب: هل يجوز له أن يقلد غير مذهبه في رخصة لضرورة ونحوها؟، أجاب: يجوز له أن يعمل بفتوى من يصلح للإفتاء، إذا سأله اتفاقاً من غير تلقط الرخص، ولا تعتمد سؤال من يعلم أن مذهبه الترخيص في ذلك».

فالعلماء لا يجوزون تتبع الرخص، إلا في حالات خاصة يررها حاجة وحال السائل لذلك؛ لأن يكون منهجاً للإفتاء، يتبعه المفتي مع كل سائل، أوفي كل نازلة بالهوى والتشهي.

٣- أن هناك من العلماء من حكى الإجماع على حرمة تتبع الرخص، حتى لو كان عامياً، ومن أولئك: الإمام ابن حزم، رَحِمَهُ اللهُ، وابن الصلاح، رَحِمَهُ اللهُ، وكذلك ابن عبد البر؛ حيث قال رَحِمَهُ اللهُ: «لا يجوز للعامي تتبع الرخص إجماعاً».

وقد أفاض الإمام الشاطبي، رَحِمَهُ اللهُ، في الآثار السيئة، التي تنجم عن العمل بتلقط الرخص، وتتبعها من المذاهب، وخطر هذا المنهج في الفتيا.

والتساهل المفرط ليس من سيما العلماء الأخيار، وقد جعل ابن السمعاني، رَحِمَهُ اللهُ، من شروط العلماء أهل الاجتهاد: الكف عن الترخيص والتساهل، ثم صنف، رَحِمَهُ اللهُ، المتساهلين نوعين:

= ١- أن يتساهل في طلب الأدلة وطرق الأحكام، ويأخذ ببادئ النظر وأوائل الفكر؛ فهذا مقصر في حق الاجتهاد ولا يحل له أن يفتي ولا يجوز.

٢- أن يتساهل في طلب الرخص وتأول السنة؛ فهذا متجاوز في دينه وهو آثم من الأول. والملاحظ أن منهج التساهل، القائم على تتبع الرخص؛ يفضي إلى اتباع الهوى، وانخراط نظام الشريعة «إذا عرض العامي نازلته على المفتي، فهو قائل له: أخرجني عن هواي ودلني على اتباع الحق؛ فلا يمكن والحال هذه أن يقول له: في مسألتك قولان فاختر لشهوتك أيهما شئت»، أو سأبحث لك عن قول لأهل العلم يصلح لك، وقد قال الإمام أحمد، رحمته الله: «لو أن رجلاً عمل بكل رخصه؛ بقول أهل الكوفة في النبذ، وأهل المدينة في السماع، وأهل مكة في المتعة كان فاسقاً».

ويروى عن إسماعيل القاضي، رحمته الله، أنه قال: «دخلت على المعتضد فدفع إليّ كتاباً، فنظرت فيه، وقد جمع فيه الرخص من زلل العلماء، وما احتج به كل منهم، فقلت: مصنف هذا زنديق، فقال: لم تصح هذه الأحاديث؟ قلت: الأحاديث على ما رويت، ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح المسكر، وما من عالم إلا وله زلة، ومن جمع زلل العلماء، ثم أخذ بها ذهب دينه، فأمر المعتضد بإحراق ذلك الكتاب».

ولعل واقعنا المعاصر يشهد جوانب من تساهل بعض الفقهاء، في التلقيق بين المذاهب وتبعية الرخص، كما هو حاصل عند من يضع القوانين والأنظمة، أو يحتج بأسلمة القانون بناءً على هذا النوع من التلقيق، أما حالات الضرورة في الأخذ بهذا المنهج فإنها تقدر بقدرها.

ج - التحايل الفقهي على أوامر الشرع:

وهو من ملامح مدرسة التساهل والغلو في التيسير؛ وقد جاء النهي في السنة عن هذا الفعل؛ حيث قال النبي ﷺ: «لا تركبوا ما ارتكب اليهود؛ فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»، وعلى ذلك، اتفق أكثر أهل العلم على عدم تجويزه، وفي ذلك يقول الإمام القرافي، رحمته الله: «لا ينبغي للمفتي إذا كان في المسألة قولان: أحدهما فيه

قال ابن حزم في «مراتب الإجماع»: «وَاتَّفَقُوا أَنَّ طلب رُخص كُلِّ

= تشديد، والآخر فيه تخفيف؛ أن يفتي العامة بالتشديد، والخواص من ولاة الأمور بالتخفيف، وذلك قريب من الفسوق والخيانة في الدين، والتلاعب بالمسلمين، ودليل على فراغ القلب من تعظيم الله تعالى، وإجلاله وتقواه، وعمارته باللعب وحب الرياسة، والتقرب إلى الخلق دون الخالق، نعوذ بالله من صفات الغافلين». وقد حكى أبو الوليد الباجي، رَحِمَهُ اللهُ، عن أحد أهل زمانه، أخبره أنه وقعت له واقعة، فأفتاه جماعة من المفتين بما يضره وكان غائبًا، فلما حضروا قالوا: لم نعلم أنها لك، وأفتوه بالرواية الأخرى، قال: وهذا مما لا خلاف بين المسلمين المعتبر بهم في الإجماع؛ أنه لا يجوز.

وقد فصل الإمام ابن القيم، رَحِمَهُ اللهُ، القول في الحيل الممنوعة على المفتي، وما هو مشروع له؛ حيث قال: «لا يجوز للمفتي تتبع الحيل المحرمة والمكروهة، ولا تتبع الرخص لمن أراد نفعه، فإن تتبع ذلك فسق وحُرْمٌ استفتاؤه، فإن حَسَنَ قصده في حيلة جائزة، لا شبهة فيها ولا مفسدة، لتخليص المستفتي بها من حرج؛ جاز ذلك؛ بل استحب، وقد أرشد الله نبيه أيوب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى التخلص من الحنث، بأن يأخذ بيده ضغثًا فيضرب به المرأة ضربة واحدة، وأرشد النبي ﷺ بلالًا إلى بيع التمر بدراهم، ثم يشتري بالدرهم تمرًا آخر، فيخلص من الربا.

فأحسن المخارج ما خلّص من المأثم، وأقبح الحيل ما أوقع في المحارم، أو أسقط ما أوجبه الله ورسوله، من الحق اللازم، والله الموفق للصواب».

وقد وقع كثير من الفقهاء المعاصرين، في الإفتاء بجواز كثير من المعاملات المحرمة، تحايلاً على أوامر الشرع؛ كصور بيع العينة المعاصرة، ومعاملات الربا المصرفية، أو التحايل على إسقاط الزكاة، أو الإبراء من الديون الواجبة، أو ما يحصل في بعض البلدان من تجويز الأنكحة العرفية، تحايلاً على الزنا، أو تحليل المرأة لزوجها بعد مبايئته لها بالطلاق، وكل ذلك وغيره من التحايل المذموم في الشرع»، انتهى باختصار وتصرف يسير.

تَأْوِيلُ بِلَا كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ، فَسُقُّ لَا يَحِلُّ اهـ.

وتأمل هذه الآيات المباركات التي فصح الله ﷻ فيها أصحاب الهوى، وأصحاب الفتوى حسب الطلب، الذين يقولون ما لا يفعلون، ويركنون إلى أهوائهم، كما أثنى فيها تبارك وتعالى على أهل الاستجابة لما يُحييهم، وقرر ﷺ أنهم هم أهل الفلاح والفوز، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ مِنْهُمْ لُحٌّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ﴿[النور: ٤٦ - ٥٢].

فالواجب على العبد أبداً، أن يكون متبعاً للهدى، ومستسلماً مذعناً، منقاداً تمام الانقياد للكتاب والسنة؛ فإنما بعث الله تعالى النبي ﷺ ليطاع ويُتبع.

وتأمل في هذه الآيات من سورة النساء؛ حيث قال الله جل وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٤١) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَحْكُمَوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي-

أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٤، ٦٥].

فهنا يأمر الله ﷻ عباده المؤمنين جميعاً، بأن يُنْفُوا الهوى عنهم تماماً، وألا يركنوا إليه طرفة عين، فإذا جاءهم الأمر من الكتاب والسنة، فعليهم أن يبادروا إلى الامتنال، وألا يترددوا وألا يتلکثوا، وألا يركنوا إلى الهوى طرفة عين.

ثم قال تعالى بعدها: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعْظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذْ لَا تَتَذَكَّرُهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيْمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدَيْتُهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيْمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيْمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٦ - ٧٠].

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: «وفي الجملة: فما ورد النصُّ به فليس للمؤمن إلا طاعةُ الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وينبغي أن يتلقى ذلك بانسراح الصدر والرضى؛ فإن ما شرعه الله ورسوله يجبُ الإيمانُ والرضى به، والتسليمُ له، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وأما ما ليس فيه نص من الله ورسوله، ولا عَمَّن يقتدى بقوله من الصحابة وسلف الأمة؛ فإذا وقع في نفس المؤمن المطمئن قلبه بالإيمان، المنشرح صدره بنور المعرفة واليقين؛ منه شيء، وحك في صدره لشبهة موجودة، ولم يجد مَنْ يُفتي فيه بالرخصة إلا من يخبر عن رأيه، وهو ممن لا يُوثَّق بعلمه وبدينه، بل هو معروفٌ باتباع الهوى؛ فهنا يرجع المؤمن إلى ما حك في صدره، وإن أفتاه هؤلاء المُفتُّون» اهـ.

فالله جل وعلا هنا يبين أن السعادة والبُحْبُوحَة في العيش، وطمأنينة القلب، وراحة البال، وهدوء النفس، وحسن الحال والقال؛ إنما يكون باتباع الهدى، وأن شتات الأمر وفرقته وانفراطه؛ إنما يكون باتباع الهوى.

ولهذا يخطئ بعض العباد إذا دُعي إلى الله ورسوله؛ فيظن أن بالتزامه بالشرع، واتباعه للهدى والحق؛ أن في هذا تضيقاً عليه، وأن في هذا تحجيراً عليه، ويظن أنه إذا التزم الكتاب والسنة؛ فقد كثيراً من سعادته، لماذا؟ لأنه يهوى كثيراً مما يخالف الهدى، فهو يهوى الأغاني، ويهوى الأفلام والمسلسلات، ويهوى الاختلاط، ويهوى الخلوة بالنساء، ويهوى كذا وكذا وكذا من الباطل، ويعلم أن الاستقامة على الصراط المستقيم مخالفةٌ لكل ذلك؛ فهو يخاف إذا التزم بشرع الله، أن يفقد هذه الملاذ المحرمة، التي يظن أنها سعادة، وما درى هذا المسكين أنها عين الشقاوة، والعياذ بالله.

فنقول له: لا تَضْرِبِ الأمثال، وأَتَّبِعْ وَاِمْتَثِلْ لأمر الله ﷻ، وأمر

رسوله ﷺ؛ فإنك إن فعلت هذا، تخلصت بإذن الله عَزَّوَجَلَّ من الهوى، وعشت الحياة الطيبة، التي أرادها الله جل وعلا لعباده المؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾
 ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ
 الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَٰهٌ مُّحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فَتَنَةَ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٠ - ٢٥].

فهذه الأمور الستة، هي من أعظم العون بإذن الله عَزَّوَجَلَّ لنا، على التخلص من الهوى.



وأخيرا

علاقة الفتن واستحكام الهوى بخروج الدجال

جاء في «صحيح مسلم» من طريق يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذي تحدث به، تقول: إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا، فقال: سبحان الله، أو لا إله إلا الله، أو كلمة نحوهما، لقد هممت ألا أحدث أحدا شيئا أبدا، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمرا عظيما، يحرق البيت، ويكون ويكون.

ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخْرِجُ الدَّجَالُ فِي أُمَّتِي فَيَمُكُّهُ أَرْبَعِينَ، (لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا)، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ؛ فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمُكُّ النَّاسَ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عِدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ؛ فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيْمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ؛ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ».

قال سمعناها من رسول الله ﷺ قال: «فَيَبْقَى شَرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةٍ

الطَّيْرِ، وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَمَثَلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَعِجِبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ؛ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِنَا وَرَفَعَ لِنَا»، قَالَ: «وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يُلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ.

ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ، أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللَّهُ، مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ، أَوْ: الظِّلُّ، (نُعْمَانُ الشَّامِكُ)؛ فَتَبَيَّنَتْ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ»، قَالَ: «ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارِ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟، فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمَائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ»، قَالَ: «فَذَلِكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ».

ولهذا كان النبي ﷺ يستعيز من مضلات الفتن، كما في «الصحيحين»، واللفظ لمسلم، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّاسَ سَأَلُوا نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَخْفَوْهُ بِالْمَسَاكَةِ، فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: «سَلُونِي لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيِّنْتُهُ لَكُمْ»، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ الْقَوْمُ أَرْمَوْا وَرَهُبُوا؛ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ يَدَيْ أَمْرِ قَدْ حَضَرَ، قَالَ أَنَسُ: فَجَعَلْتُ أَلْتَفِتُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَإِذَا كُلُّ رَجُلٍ لَافٌ رَأْسَهُ فِي ثَوْبِهِ يَنْكِحِي؛ فَأَنْشَأَ رَجُلٌ مِنَ الْمَسْجِدِ، كَانَ يُلَاحِظُ قَيْدَعِي لِعَبْرِ أَبِيهِ؛ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَنْ أَبِي؟ قَالَ: «أَبُوكَ حُدَافَةُ»، ثُمَّ أَنْشَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: رَضِينَا

بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، عَائِدًا بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ الْفِتَنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ قَطُّ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ؛ إِنِّي صَوَّرْتُ لِي الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، فَرَأَيْتُهُمَا دُونَ هَذَا الْحَائِطِ».

وذلك أن الفتن منها ما يكون هداية، ومنها ما يكون غواية، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفُ رَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، نسأل الله تعالى الهدى والتقى، والعفاف والغنى، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

الحرب الباردة على الحق:

إن المعركة بين الحق وحملته، والباطل وسدنته؛ قائمة أبدًا على أشدها على قَدَمٍ وساق، وإن العدو لَيَتَفَنَّنُ وَيُنَوِّعُ فِي أَسَالِيْبِهِ، فِي حَمَلَتِهِ عَلَى الْحَقِّ وَأَهْلِهِ؛ فَكَمَا أَنَّهُ يِقَاتِلُهُم بِالسِّنَانِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمَعَارِكِ، وَالْكِيدِ وَالْمَكْرِ لِلتَّصْفِيَةِ الْجَسَدِيَّةِ، أَوْ إِلْحَاقِ الضَّرَرِ لَهُمْ، فَهُوَ كَذَلِكَ يَسْتَعْمَلُ أَسْلُوبَ الْحَرْبِ الْبَارِدَةِ، وَهِيَ فِي نَظَرِهِ أَقْوَى وَأَنْكَبَى وَأَبْلَغُ، فِي وَصُولِهِ لِمَقَاصِدِهِ؛ إِذِ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ يَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ قَتْلَ أَهْلِ الْحَقِّ، وَهُمْ ثَابِتُونَ عَلَيْهِ صَامِدُونَ فِي وَجْهِ الْبَاطِلِ، حَتَّى يُوَافُوا اللَّهَ تَعَالَى بِهِ؛ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ قَدْ نَالُوا مَرْتَبَةَ الشَّهَادَةِ، وَأَنَّ لَهُمْ جَنَاتٍ وَنَهْرًا، فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ، عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْزُقُونَ، إِخْوَانًا عَلَى سِرَرٍ مُتَقَابِلِينَ.

كما أنه يكون مُحرَّصًا للبقية على أن يقوموا، ليموتوا على ما مات عليه هؤلاء الكرام البررة، وأن يثبتوا كما ثبتوا؛ ولهذا فالشيطان وأعداؤه يفضلون الحرب الباردة، التي نتيجتها حَرْفُ المؤمنين عن إيمانهم، وصرفهم عنه، أو تشكيكهم في صراط ربهم؛ حتى يموتوا على الكفر والإلحاد، والعلمانية والديمقراطية، والزندقة؛ عيادًا بالله من الكفر والهوان والخذلان ومن سوء الخاتمة.

وقد تأملتُ في وسائل العدو، في حربه الباردة على الإسلام وأهله؛ فوجدتها تتركز في هذه النقاط العامة الشاملة، والتي يمكن أن تتفرع عنها نقاط أخرى، وهي على النحو التالي:

١- رفع الزخم الإعلامي وال جماهيري ضد الحق وحملته، والاستهزاء بهم، وتشكيل ضغط نفسي، كفيل بأن تبقى الجموع حذرة منه ومن حملته، حتى يستحيوا من ذكره؛ فضلًا عن تقريره والدفاع عنه والصدع به.

٢- أو عن طريق تهميشه وتقديم أمور أخرى عليه، وإيهام الجموع بأن القضية أكبر من كذا ومن كذا؛ حتى يتفوق حملته ويخملون، ويستحيون من حمل معاني الحق وتقديمها؛ لأن الوقت غير مناسب، والأجواء أهم من طرحة، ولا تحتمله المرحلة.

٣- أو من خلال اعتباره مجرد رأي وقول وهو معتبر، ولكنه ليس بمُلْزِم؛ فلكل نظرته ورأيه، وعليك أن تحترم الرأي والرأي الآخر، وهنا وقعت جريمة عظمى؛ حيث وقعت التسوية بين الحق والباطل.

٤- أو بالدق على وتر أنهم قلة في عددهم وعدتهم، والترويج لذلك، وأن الحق مع الأكثرية ورفع الصوت عاليًا بذلك؛ حتى يصبح أصحاب الحق في عزلة حسية ومعنوية، حتى يقع الوهن في نفوسهم؛ فيضعفوا عن حمله، ويتبعوا ما عليه الأكثر ويستجيبوا لضغط الواقع.

٥- الاعتماد على طول النفس وبُعد الأمد، رجاء أن تمل النفوس وتفتت، وتكل القوى وتضعف.

٦- تخويف المجتمع منهم ونشر الريبة من حولهم.

٧- الإغراء بالجاه والسلطان، والدَّعة والسكون والرفاهية، مع الإرجاف والتهديد بمسألة الأرزاق.

٨- تعظيم الشعارات والألقاب الدنيوية وتقديمها، وتهميش الأوسمة والدرجات الدينية.

وهكذا يضيع الحق ويتم التنكُّر له والله المستعان.

ولكن الله تعالى من وراء الحق، ينصره ويؤيده، ويستبدل لأجله من ضَعَف عنه بمن يحمله بحقه، ومن وراء الباطل يدمغه ويزهقه؛ فاللهم أصلحنا واستعملنا ولا تستبدلنا.

فكن رجلاً جَلْدًا في دينك، حديدًا في عقيدتك، ثابت الجنان، مثبت الأركان، قويًا في الحق قَوَّامًا به، ولا يَهْوَلَنَّكَ الباطل وصولته؛ فإنه إلى زوال واضمحلال، وثق بنصر الله تعالى لهذا الدين، مهما انتفش الباطل وأرغى وأزبد؛ فإنما هي الابتلاءات التي يُجربها الله تعالى للتمحيص؛ فاللهم ثبتنا على الحق حتى نلقاك.

جاء في «الموطأ» للإمام مالك عَنْ نَافِعٍ: «أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ وَهُوَ عَلَى الصَّفَا، يَدْعُو يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ قُلْتَ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وَإِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ كَمَا هَدَيْتَنِي لِلْإِسْلَامِ أَلَّا تَنْزِعَهُ مِنِّي، حَتَّى تَتَوَفَّانِي وَأَنَا مُسْلِمٌ» انتهى.

قال ابن القيم في «النونية»: «فصل: في مقدمة نافعة قبل التحكيم»:

يَأْتِيهَا الرَّجُلُ الْمُرِيدُ نَجَاتَهُ اسْمَعْ مَقَالََةَ نَاصِحٍ مَعْوَانِ
كُنْ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا مُتَمَسِّكًا بِالْوَحْيِ لَا بِزَخَارِفِ الْهَدْيَانِ
وَانْصُرْ كِتَابَ اللَّهِ وَالسُّنَنَ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ

واضْرِبْ بِسَيْفِ الْوَحْيِ كُلَّ مُعْطَلٍ ضَرَبَ الْمُجَاهِدُ فَوْقَ كُلِّ بَنَانٍ
واَحْمِلْ بِعِزِّ الصِّدْقِ حَمْلَةَ مُخْلِصٍ مُتَجَرِّدٍ لِّلَّهِ عَيْسَرَ جَبَّانٍ
وَأَثْبِتْ بِصَبْرِكَ تَحْتَ أَلْوِيَةِ الْهُدَى فَإِذَا أُصِيبَتْ فَفِي رِضَى الرَّحْمَنِ
وَاجْعَلْ كِتَابَ اللَّهِ وَالسُّنَنَ الْبَيِّ ثَبَّتَتْ سَلَاكَ ثُمَّ صَحَّ بِجَنَانٍ
مَنْ دَا يُبَارِزُ فَلْيَقْدِّمْ نَفْسَهُ أَوْ مَنْ يُسَابِقُ يَبْدُ فِي الْمِيدَانِ
وَاصْدَعْ بِمَا قَالَ الرَّسُولُ وَلَا تَخَفْ مِنْ قَلَّةِ الْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ
فَاللَّهُ نَاصِرُ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَاللَّهُ كَافٍ عَبْدَهُ بِأَمَانٍ
لَا تَخْشَ مِنْ كَيْدِ الْعَدُوِّ وَمَكْرِهِمْ فَقَتَالَهُمْ بِالْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ
فَجُنُودُ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ مَلَائِكُ وَجُنُودُهُمْ فَعَسَاكِرُ الشَّيْطَانِ
شَتَانٌ بَيْنَ الْعَسْكَرَيْنِ فَمَنْ يَكُنْ مُتَحَيِّزًا فَلْيَنْظُرِ الْفِتْنَانِ

إِلَى أَنْ قَالَ:

فَإِذَا رَأَيْتَ عِصَابَةَ الْإِسْلَامِ قَدْ وَافَتْ عَسَاكِرَهَا مَعَ السُّلْطَانِ
فَهَذَاكَ فَاخْتَرِقِ الصُّفُوفَ وَلَا تَكُنْ بِالْعَاجِزِ الْوَانِي وَلَا الْفَزَعَانِ
وَتَعَرَّ مِنْ ثَوْبَيْنِ مَنْ يَلْبَسُهُمَا يُلْقَ الرَّدَى بِمَذْمَةٍ وَهَوَانِ

ثَوْبٌ مِنَ الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ فَوْقَهُ ثَوْبٌ التَّعَصُّبِ بِشَتِ الثَّوَانِ
 وَتَحَلَّ بِالْإِنْصَافِ أَفْخَرَ حُلَّةٍ زِينَتْ بِهَا الْأَعْطَافُ وَالْكَتِفَانِ
 وَاجْعَلْ شِعَارَكَ خَشْيَةَ الرَّحْمَنِ مَعَ نُصْحَ الرَّسُولِ فَجَبَذَا الْأُمْرَانِ
 وَتَمَسَّكَ بِحَبْلِهِ وَبِوَحْيِهِ وَتَوَكَّلَنَّ حَقِيقَةَ التَّكْلَانِ
 فَالْحَقُّ وَصَفُ الرَّبِّ وَهُوَ صِرَاطُهُ أَلَدُ هَادِي إِلَيْهِ لِصَاحِبِ الْإِيمَانِ
 وَهُوَ الصِّرَاطُ عَلَيْهِ رَبُّ الْعَرْشِ أَيْدٍ ضَا وَذَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ
 وَالْحَقُّ مُنْصُورٌ وَمُمْتَحَنٌ فَلَا تَعَجَّبْ فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ
 وَبِذَاكَ يَظْهَرُ حُزْبُهُ مِنْ حِزْبِهِ وَلَا جُلِ ذَاكَ النَّاسُ طَائِفَتَانِ
 وَلَا جُلِ ذَاكَ الْحَرْبُ بَيْنَ الرُّسُلِ وَالِدُ كُفَّارٍ مُذْ قَامَ الْوَرَى سِجْلَانِ
 لَكِنَّمَا الْعُقْبَى لِأَهْلِ الْحَقِّ إِنْ فَاتَتْ هُنَا كَانَتْ لَدَى الدَّبَّانِ
 وَاجْعَلْ لِقَلْبِكَ هِجْرَتَيْنِ وَلَا تَنْمِ فَهَمَّا عَلَى كُلِّ امْرَأٍ فَرَضَانِ
 فَالهِجْرَةُ الْأُولَى إِلَى الرَّحْمَنِ بِالِ إِخْلَاصٍ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ
 فَالْقَصْدُ وَجْهُ اللَّهِ بِالْأَقْوَالِ وَالِ أَعْمَالِ وَالطَّاعَاتِ وَالشُّكْرَانِ
 فَبِذَاكَ يَنْجُو الْعَبْدُ مِنْ إِشْرَاقِهِ وَيَصِيرُ حَقًّا عَابِدَ الرَّحْمَنِ

وَالْهَجْرَةُ الْأُخْرَىٰ إِلَى الْمَبْثُوثِ بِالْحَقِّ الْمُبِينِ وَوَاضِحِ الْبُرْهَانِ
 فَيَدُورُ مَعَ قَوْلِ الرَّسُولِ وَفِعْلِهِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا بِلَا رَوْعَانَ
 وَيُحَكِّمُ الْوَحْيَ الْمُبِينَ عَلَى الَّذِي قَالَ الشُّيُوءُ فَعِنْدَهُ حَكَمَانِ
 لَا يَحْكُمَانِ بِبَاطِلٍ أَبَدًا وَكُلِّ وَهُمَا كِتَابُ اللَّهِ أَعْدَلُ حَاكِمٍ
 وَالْحَاكِمُ الثَّانِي كَلَامُ رَسُولِهِ مَا تَمَّ غَيْرُهُمَا لِذِي إِيْمَانٍ
 فَإِذَا دَعَاكَ لِغَيْرِ حُكْمِهِمَا فَلَا سَمْعًا لِدَاعِي الْكُفْرِ وَالْعُصْيَانِ
 قُلْ لَا كِرَامَةَ لَا وَلَا نُعْمًا وَلَا طَوْعًا لِمَنْ يَدْعُو إِلَى طُغْيَانٍ
 وَإِذَا دُعِيَ إِلَى الرَّسُولِ فَقُلْ لَهُمْ سَمْعًا وَطَوْعًا لَسْتُ ذَا عِصْيَانٍ

فَيَأْبَاهَا الْإِنْسَانُ الْجَحُودُ الْكَنُودُ، أَلَمْ يَأْنِ لِأَرْضِ الْهَوَىٰ أَنْ تَبْتَلِعَ
 هَوَاهَا، وَلِسَمَائِهِ أَنْ تُقْلِعَ عَنْ غَيِّهَا وَرَدَّاهَا.

كَفَىٰ يَا نَفْسُ مَا كَانَ كَفَاكَ فِي الْحَشَى صَوْتُ كَفَاكَ هَوَىٰ وَعِصْيَانَا
 أَمَّا أَنْ الْمَغَابُ بَلَى مِنْ الْإِشْفَاقِ نَادَانَا بَلَى يَا نَفْسُ قَدْ آتَانَا

خَطَّوَتْ خُطَاكِ مُخْطِئَةً فَسَرْتُ الدَّرَبَ حَيْرَانَا
 فُؤَادِي يَشْتَكِي ذَنْبِي وَيَشْكُو مِنْكَ مَا كَانَا
 أَعْيِدِي لِلْحَمَى قَلْبِي وَعُودِي عُودِي الْآنَا
 تَجَادِبْنِي هَوَى وَهُدَى وَقَلْبِي بَعْدُ مَا لَانَا
 كَأَنِّي مَا سَمِعْتُ وَمَا رَأَيْتُ الْهَدَى إِذْ بَانَا
 كَأَنِّي صَخْرَةٌ قَمَتَى يَلِينُ الصَّخْرُ إِيمَانَا
 أَرَى أَلَامَ أُمْتِنَا كَسَفِّ اللَّيْلِ يَغْشَانَا
 وَأَمْضِي مُغْضِيًا طَرْفِي وَرَاءَ النَّفْسِ هَيْمَانَا
 نَسِيتُ هُمُومَهَا قَمَتَى أَعْيَسُ الْهَمِّ إِنْ سَانَا
 أَيْبَا نَفْسِي خَبَا نَفْسِي بِضَيْقِ الصَّدْرِ أَحْزَانَا
 ظَنَنْتُ سَعَادَتِي لَهُوًّا يُزْنِحُ الْهَمُّ سِلْوَانَا
 فَلَمْ أَرْدَدْ سِوَى هَمٍّ وَلَوْ أَضْحَكْتُ أَحْيَانَا
 يُسَافِرُ بِالْهَوَى قَلْبِي بِدُورِ اللَّهِوِ تَشْوَانَا
 وَتَوَقَّفُهُ مَحْطَاتٌ تَهْزُ عُرَاهُ إِيمَانَا

أَلَا فَارْجِعْ وَأَرْجِعْ مَا مَضَى بِالْقُرْبِ أَزْمَانَا
سَيَاطُ التَّوْبِ تَرْجُرُنِي فَأَخْنِي الرَّأْسَ إِدْعَانَا
وَأُطْرِقْ وَالْحَشَى بَغْلِي بِمَا أَسْرَفْتُ نِيرَانَا
أَصِيحْ بِتَوْبِي نَدْمًا كَفَى يَا نَفْسُ مَا كَانَا

الدُّنْيَا قَصِيرٌ زَمَنُهَا طَوِيلٌ أَمَلُهَا (إنما هي ظل زائل):

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ

إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ [الإسراء: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا

ذِكْرًا ۝٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ

لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۝١٠١﴾ يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢﴾

يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ

طَرِيفَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝١٠٤﴾ [طه: ٩٩ - ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ

صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾ فَإِذَا

فُفِّخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۝١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ،

فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا

أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ تَكُنْ
 ءَايَتِي تُنْذِرُ عَلَيْهِمْ فُكْرَكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٤﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا
 قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٥﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٦﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا
 وَلَا تَكَلِّمُونِ ﴿١٠٧﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ
 خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٨﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءَ حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٠٩﴾
 إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ قُلْ كَمْ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ
 عِدَّةٌ سِنِينَ ﴿١١١﴾ قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ ﴿١١٢﴾ قُلْ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا
 قَلِيلًا لَّوْ أَنَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا
 تُرْجَعُونَ ﴿١١٤﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٥﴾
 وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
 الْكَافِرُونَ ﴿١١٦﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٧﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١١٨].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُسَاءِلَنِي سَاعَةً
 كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى
 يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَئِن كُنْتُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَدْرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
 الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ
 ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطَّعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ

حَقٌّ وَلَا يَسْتَخْفَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقُونَ ﴿٦٠﴾ [الروم: ٥٥ - ٦٠].

جاء في صحيح البخاري: باب قول النبي ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»، ثم ساق حديث عبد الله بن عمر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ.

باب فِي الْأَمَلِ وَطَوْلِهِ: وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ رُحِجَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾. ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾﴾، وَقَالَ عَلِيُّ: ازْتَحَلَّتِ الدُّنْيَا مُدِيرَةً، وَازْتَحَلَّتِ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ؛ فَكُونُوا مِنْ أِبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أِبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلَ، ﴿بِمُرْخِزِهِ﴾ بِمُبَاعِدِهِ.

ثم ساق حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا (خِطَطًا) صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ، مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ، وَقَالَ: «هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ، أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطُطُ (الْخُطُوطُ)

الصَّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَاهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَاهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا».

ثم ساق حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطُوطًا، فَقَالَ: «هَذَا الْأَمْلُ، وَهَذَا أَجْلُهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُ الْخَطُّ الْأَقْرَبُ» انتهى.

وإليك هذه الأبيات الجميلة الرائعة المعبرة يقول فيها الناظم:

إن الحياة قليلة لذاتها	والموت فيها هادم اللذات
ما أقصر الأعمار عند رحيلنا	فكأنها ومض من اللحظات
يا رب إنك مالكُ أمرِ الوَرَى	يا عالم الحركات والسَّكَنَاتِ
اجعل لمن رَحَلُوا إليك مَفَازَةً	ومآلهم ربي إلى الجنات
سبقوا إليك وفي النفوس مَرَارَةٌ	والدَّمَعُ جَمْرٌ يُحْرِقُ الْوَجَنَاتِ
مشواكم جنات خُلد كلنا	يدعو بها جهراً وبالحَلَوَاتِ



خاتمة بشریات وهدایات

اعلموا رحمکم الله تعالى، أنه لن يغلب الهوى الهدى أبداً، حتى يكون ظافراً منتصراً، كما لن يعلو الباطل على الحق، واعلموا أن الهدى لا يغيب ولا يخفى؛ بل يبقى ظاهراً منتصراً، وإن خفي هنا فإنه يظهر هناك.

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَىٰ اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ مُحِطِينَ بِرُءُوسِكُمْ ومُقْصِرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٨) [الفتح: ٢٧، ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ بَحْرٍ مِّنْ نَّجِيٍّ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تَوَّابُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

سَبِيلَ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْغَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيُشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمْنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

[الصف: ٧ - ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ ﴿١٧٣﴾ فَنُورِلَهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَعِدْنَا يَنَّا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِبِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَلِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٨٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٩٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا

يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ [يوسف: ١١٨ - ١١١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ
وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَقُوا مِنْ
قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١١٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ
آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [يونس: ١١١ - ١١٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ
مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾
وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَلِخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا
بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا
لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٤ - ٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ
فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وجاء في سنن النسائي «المجتبى» عَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ الْكِنْدِيِّ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَذَالَ النَّاسُ الْخَيْلَ، وَوَضَعُوا السَّلَاحَ، وَقَالُوا: لَا جِهَادَ، قَدْ وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِوَجْهِهِ، وَقَالَ: «كَذَبُوا، الْآنَ، الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ، وَلَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، وَيُزِغُ اللَّهُ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ، وَيَزُرُّهُمْ مِنْهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَحَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ، وَالْخَيْلُ مَعْقُودَةٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَبِيرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ يُوحَى إِلَيَّ أَنِّي مَقْبُوضٌ غَيْرَ مُلْبِثٍ، وَأَنْتُمْ تَتَّبِعُونِي أَفْنَادًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، وَغُفْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ».

وجاء في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ».

وفيه أيضا من طريق ثورٍ، وَهُوَ ابْنُ زَيْدٍ الدِّيلِيُّ، عَنْ أَبِي الْغَيْثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «سَمِعْتُمْ بِمَدِينَةِ جَانِبٍ مِنْهَا فِي الْبَرِّ، وَجَانِبٍ مِنْهَا فِي الْبَحْرِ؟»، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْرُوهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْحَاقَ، فَإِذَا جَاءُوهَا نَزَلُوا فَلَمْ يُقَاتِلُوا بِسِلَاحٍ، وَلَمْ يَرْمُوا بِسَهْمٍ، قَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ فَيَسْقُطُ أَحَدُ جَانِبَيْهَا»، قَالَ

تُورُ: لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ: «الَّذِي فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّانِيَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الْآخَرُ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّلَاثَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ فَيَمْرُجُ لَهُمْ؛ فَيَدْخُلُوهَا فَيَغْنَمُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْمَغَانِمَ، إِذْ جَاءَهُمُ الصَّرِيحُ فَقَالَ: إِنَّ الدَّجَالَ قَدْ خَرَجَ، فَيَمْرُكُونَ كُلَّ شَيْءٍ وَيَرْجِعُونَ».

وفيه أيضا من طريق الجُرَيْرِيِّ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: «يُوشِكُ أَهْلُ الْعِرَاقِ أَلَّا يُجِبِي إِلَيْهِمْ قِفِيرٌ وَلَا دِرْهَمٌ، قُلْنَا: مِنْ أَيْنَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ قِبَلِ الْعَجَمِ يَمْنَعُونَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: يُوشِكُ أَهْلُ الشَّامِ أَلَّا يُجِبِي إِلَيْهِمْ دِينَارٌ وَلَا مُدِيٌّ»، قُلْنَا: مِنْ أَيْنَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ قِبَلِ الرُّومِ، ثُمَّ سَكَتَ هَيْئَةً، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يُحْيِي الْمَالَ حَيًّا، لَا يَعُدُّهُ عَدَدًا»، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي نَضْرَةَ وَأَبِي الْعَلَاءِ: أَتَرَيَانِ أَنَّهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَالَا: لَا.

وفيه أيضا عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ عَنْ نَافِعِ بْنِ عُثْبَةَ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ، قَالَ: فَاتَى النَّبِيَّ ﷺ قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ، عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الصُّوفِ، فَوَافَقُوهُ عِنْدَ أَكْمَةٍ، فَإِنَّهُمْ لَقِيَامٌ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَاعِدٌ، فَقَالَتْ لِي نَفْسِي: اتَّبِعْتُهُمْ فَقُمْتُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، لَا يَغْتَالُونَهُ، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ: لَعَلَّهُ نَجِيٌّ مَعَهُمْ؛ فَأَتَيْتُهُمْ فَقُمْتُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، قَالَ: فَحَفِظْتُ مِنْهُ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ أَعُدُّهُنَّ فِي يَدَيَّ، قَالَ: «تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ

تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَالَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ»، قَالَ: فَقَالَ نَافِعٌ: يَا جَابِرُ، لَا تَرَى الدَّجَالَ يَخْرُجُ حَتَّى تَفْتَحَ الرُّومَ.

وفي صحيح البخاري: «باب قول النبي ﷺ: لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ يَقَاتِلُونَ، وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ.

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ قَيْسٍ، عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ».

حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ عَنْ يُونُسَ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي حُمَيْدٌ قَالَ: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ يَخْطُبُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللَّهُ، وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، أَوْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ»، وحديث المغيرة ومعاوية رضي الله عنهما متفق عليهما.

نسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى: أن يجنبنا مُضَلَّاتِ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَأَنْ يَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمْ رُشْدَنَا، وَأَنْ يَأْخُذَ بِنَوَاصِينَا وَنَوَاصِيكُمْ إِلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَأَنْ يَقِيضَ لَنَا أَصْدِقَاءَ صَالِحِينَ، يَعِينُونَا عَلَى طَاعَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَنْ يَهَيِّئَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا، وَأَنْ يَجْنُبَنَا أَهْوَاءَ الْمَضَلَّةِ، إِنَّهُ وَلِي ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

هذا، والله ولي التوفيق، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تم الفراغ منه في غرة شهر ذي القعدة، لعام ألف وأربعمائة وأربعين للهجرة النبوية المباركة، على صاحبها أزكى الصلاة وأتم التسليم.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً؛ إذ هو ﷻ الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكتبه الفقير إلى عفوه وإحسانه

أبو عبد الله الصادق بن عبد الله الهاشمي



الفهرس

٥.....	مقدمة
٦.....	الهوى فى ضوء الكتاب والسنة:
٩.....	المحور الأول: بيان حقيقة الهوى وتعريفه عند العلماء
١١.....	المحور الثانى: أقوال العلماء فى الهوى
١١.....	القول الأول: الهوى كله مذموم:
١٣.....	القول الثانى: الهوى منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم:
٢٠.....	المحور الثالث: بيان خطورة الهوى وعظيم ضرره
٢١..	الخطر الأول: أن الهوى كان سبباً فى إهلاك الأمم الماضية الغابرة:
	الخطر الثانى: أن الهوى غالباً ما يجعل العبد، يعيش بعيداً عن
٢٣.....	تحقيق العبودية التامة العامة لله رب العالمين:
٢٨.....	صفات عباد الرحمن:.
٢٩.....	الحقوق العشرة:

الخطر الثالث: أن الهوى يُنسي العبد الدار الآخرة، ولقاء الله

تبارك وتعالى: ٣٠

نوعا الغفلة في الذكر الحكيم: ٣١

الهوى وعبادة الدنيا: ٣٣

الخطر الرابع: أن الهوى يورث العبد المَهانة: ٣٤

الهوى لن يغني عن صاحبه شيئاً، وإن كثر أهله: ٣٦

الخطر الخامس: أنه يتسلط على أهم عضوٍ في جسدك ألا

وهو القلب: ٣٧

الناس شركاء في الحرث والهَمّ: ٤٣

الخطر السادس: أن الهوى جند من جنود إبليس النُّجباء: ٤٦

فرح الشيطان بالهوى: ٤٨

خطبة الشيطان في أتباعه الذين اتبعوا الهوى دون الهدى: ٤٩

ما أكثر الهلكى عياداً بالله!: ٥٢

صفقة الرحمن الرابعة ودعوة الشيطان هي الخاسرة: ٥٤

احذر الصَّفقة الخاسرة: ٥٤

ولاية الشيطان عذاب من الرحمن: ٥٦

- الخزائن بيد الله والله هو الرزاق: ٥٧
- أسباب الرزق المحمود: ٦١
- لا تغتر بالخبيث وإن كثر: ٦٩
- الشیطان یخوف بالفقر لیأمر بالفحشاء: ٦٩
- الخطر السابع: شؤم الهوى على صاحبه في خاصة نفسه، وربما امتد ذلك إلى غيره: ٧٠
- شؤم الراعي الذي يتبع الهوى ويرعى رعيته به: ٧٣
- الخطر الثامن: تأثيره على العقل والأخلاق: ٧٤
- نماذج قرآنية يقص الله تعالى فيها تلاعب الهوى بالعقول: ٧٦
- بين الذكاء والعقل: ٧٩
- الخطر التاسع: أن الهوى يجعل العبد يحب ما يمرضه ويؤذيه: ٨٣
- الخطر العاشر: يجعل صاحبه ينسى حقيقة نفسه: ٨٤
- الخطر الحادي عشر: يقطع العبد عن الرحمن: ٨٦
- الخطر الثاني عشر: يفسد على العبد تصور حقيقة الإيمان: ٨٦
- الخطر الثالث عشر: يفسد على العبد تصور حقيقة التوحيد والسنة: ٨٧
- الخطر الرابع عشر: يعلم صاحبه النفاق: ٨٩

- الخطر الخامس عشر: أنه يُرَغَّبُ في الأشرار، ويرفعُهم: ٩١.....
- الخطر السادس عشر: تأثيره على القُدوات: ٩٢.....
- الخطر السابع عشر: تأثيره على الأحكام والإطلاقات والموازن: ٩٤ .
- الخطر الثامن عشر: أنه يُزَيِّفُ على العبد سفينة النجاة،
ومراكب الخلاص: ٩٥.....
- الخطر التاسع عشر: أنه يضيع الأعمار، ويفسد الأعمال، ويدعو
إلى الإهمال: ٩٧
- الخطر العشرون: أنه يُقَسِّي القلب: ٩٨
- الخطر الحادي والعشرون: نسيان واقع أمته في ماضيها وحاضرها: ٩٩ .
- الخطر الثاني والعشرون: التنكر لآلام أمته وجراحاتها: ١٠٠.....
- الخطر الثالث والعشرون: الإضرار بنصر هذه الأمة: ١٠٠.....
- الخطر الرابع والعشرون: إضرار صاحب الهوى بخيرية هذه
الأمة الوسط: ١٠١
- الخطر السادس والعشرون: أنه يجعل صاحب الهوى يسعى في
التلبس والتدليس: ١٠٢

- الخطر السابع والعشرون: أنه يُثْقَلُ على العبد صُحْبَةُ الصالحين،
وَيُثْبِتُهُ عن ذكر الله تعالى وطاعته والسعي في مرضيه: ١٠٢
- الخطر الثامن والعشرون: أنه يُرْغَب في الكفر والزندقة،
ويزين ذلك: ١٠٣
- الخطر التاسع والعشرون: أنه يُوقَع العبد في الأمن من مكر
الله تعالى: ١٠٣
- الخطر الثلاثون: أن الهوى يُكْثِر من وجود المترفين: ١٠٤
- الخطر الحادي والثلاثون: أن الهوى يُضْعِفُ الأخوة الإسلامية،
ويشتت المسلمين ويفرقهم: ١٠٦
- الخطر الثاني والثلاثون: أنه يبذل الحسنات إما بإحباطها أو
بإزالة أثرها: ١٠٧
- العلاج في الإصلاح: ١٠٩
- المحور الرابع: ما العلاقة بين الهوى والنفس الأمارة بالسوء؟ ١١٢
- المحور الخامس: ما علامة المتبعين للهوى؟ ١١٩
- أمثلة مما كان عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ١٢٧
- معنى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾: ١٣٤

- طريق مُرَكَّبٍ ومسارة محمودة: ١٣٥
- عرض الفتن سنة كونية إلهية؛ فأبي عبد أنت معها؟: ١٣٧
- المحور السادس: أنواع الهوى ومراتبه ودرجاته ١٣٩
- الله تبارك وتعالى أرحم بنا من أمهاتنا: ١٤٢
- جملة من أبرز الأهواء وأشهرها: ١٥٢
- لا فرق بين طاغوت وطاغوت: ١٥٨
- الكفر ملة واحدة: ١٦٧
- دعوة قرآنية إلى التجرد والإنصاف، لاستبانة السبيل، وإصابة
- الحق والهدى: ١٦٨
- لا للتداول السِّلْمِي للسلطة: ١٧٠
- هوى الديمقراطية وتغيير الحكام: ١٧١
- خطورة تتبع الرخص تشهياً وهوى: ١٧٢
- فضح القرآن القوم: ١٧٧
- علماني من حيث لا يشعر: ١٧٩
- مفهوم خاطئ لحديث صحيح: ١٨٠
- ساعة وساعة وكلها في الحق: ١٨١

- المبطلون وشيطة الإسلام: ١٨٤
- لا تتصنع ولا تجامل في دينك (بين المداراة والمصانعة والمداهنة): ١٨٩
- لا إيمان بلا ولاء وبراء: ١٩٢
- الأدلة الدالة على كفر تارك الصلاة: ٢٠١
- خطر النساء: ٢١٨
- ويل لهؤلاء التجار: ٢٢٠
- القرع حرام، ولباس الكاسيات العاريات من الكبائر: ٢٢٣
- وصف دقيق لحالنا اليوم: ٢٤١
- الدخول على السلاطين فتنة: ٢٤٩
- العلم من جهة أثره ونفعه؛ ينقسم إلى قسمين: ٢٥٣
- الإسلام لا يحارب العلم النافع: ٢٦٢
- طريقة السلف في الإنكار: ٢٨٧
- اختيار الزوج: ٢٩٦
- الطيور على أشكالها تقع: ٣٠٣
- المحافظة على الكرامة في المحافظة على التقوى: ٣٠٥
- دورٌ ومؤسسات لتعميم الهوى، وتخريب أفواج العاملين به: ٣٠٦

- ٣٠٧ الاستعمار باق لم يخرج:
- ٣١١..... المعيار الرباني لتقييم الإنسان:
- ٣١٣ ... كرة القدم؛ الهوى الشيطاني، والمعشوق المعظم والكبير اليوم:
- ٣١٩ الهوى المستعلن به أشد وأخطر:
- ٣٢٣ إياكم والمُحَقَّرَات:
- ٣٢٥ فائدة:
- ٣٢٨ الهوى وتخريب الفِطْرَةِ:
- ٣٣١ الهوى يقيم سلطان الشيطان، ويُجَنِّدُ له الأتباع:
- ماذا يقدم الهوى، وماذا يقدم الهدى؟ (بين حي على الفلاح،
وحي على الطلاح):
- ٣٣٢.....
- ٣٣٦..... العقوبة بخفاء الحق:
- ٣٣٩..... المحور السابع: علاج الهوى ودواؤه
- ٣٤٢ طرق الوقاية:
- ٣٦٠ ما أَصْرَ مَنْ نَدِمَ وتَابَ وإن عاودَ الذَّنْبَ:
- ٣٧٦..... ترك الجهاد وعدم الإنفاق عليه هلكة:
- ٣٧٧..... عقوبة الإخلاد إلى الأرض وإيثار الدَّعة والسكون:

- لا تكن إسْفِنَجِيًّا، ولا تكوني إسْفِنَجِيَّةً: ٣٩٣
- المحور الثامن: كيفية التخلص من الهوى بعد استحكامه ... ٣٩٨
- الأمر الأول: سؤال الله ﷻ المعونة: ٣٩٨
- الهدى لا يحرملك شيئاً نافعاً: ٣٩٩
- شرط الله تعالى في قبول الدعاء: ٤٠٥
- الأمر الثاني: طلب العلم الشرعي الموروث عن النبي ﷺ: ٤٠٧
- الخيرية والكرامة، والفلاح والرشد، والمخرج من التَّيِّهِ
والضياع والضلال: ٤٠٨
- فأين السبيل؟ وأين المخرج؟ ٤٠٩
- شهداء الله في أرضه: ٤١٣
- المطلوب اتباع الصحابة بإحسان لا بإساءة: ٤١٥
- الأدلة على وجوب الاعتداد بفهم الصحابة وعلومهم: ٤١٦
- سبب ضلال الفرق بسبب التَّنَكُّر لفهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ٤١٧
- الاعتزال سنة شرعية، وطريقة مرضية: ٤١٩
- جماعة الإخوان المسلمين في ميزان اجتناب الطاغوت: ٤٢٥
- أخبار عن الاعتزال والترك للباطل، واجتنابه والسعي في اجتثاثه: .. ٤٢٦

- الخيرية في العلم والهدى، لا في الجهل بالدين واتباع الهوى: ... ٤٢٩
- المرجعية عند الاختلاف في فهم الأدلة: ٤٣٢
- تنبيه مهم: ٤٣٣
- مَكْرُ الشيطان بالمبتدع؛ فتراه لا يكاد يتوب: ٤٣٣
- أمثلة لفض النزاع بين خصمين: ٤٣٤
- فإذا وقع الاختلاف، فما المخرج إذا؟ ٤٣٥
- وآخرون أهواؤهم مع تسمية المجاهدين والعلماء الربانيين
بالخوارج. ٤٦٧
- رواد للعمل الإسلامي السياسي بين الشريعة الربانية
والشرعية الدولية. ٤٦٨
- التصويت على الصلاة والصيام والحج: ٤٦٩
- التصويت على بيتك، وزوجتك، وولدك، ومالك، وغير ذلك
من ممتلكاتك: ٤٧٠
- مقولة خبيثة: لا يهمني من يحكمني: ٤٧١
- القرآن يستنطق العباد: ٤٧٧
- البهيمية الخرقاء: ٤٨١

- لا يكون صلاح الإسلام بركوب الكفران: ٤٨٢
- نقولات عن أهل العلم، تبين أنه لا يجوز ركوب الكفر بدعوى
المصلحة: ٤٨٥
- الحق واحد لا يتعدد: ٤٩٩
- تنبيه مهم جداً: ٥٠٠
- الأمر الثالث: العمل بهذا العلم: ٥٠١
- الأمر الرابع: التعرف على أعداء الإنسان: ٥٠٤
- الأمر الخامس: اختيار الرفيق: ٥٠٥
- تعرف على قرينك، بمعرفة هواك؛ لتحذره، واذكر حديث القرين: ٥٠٧
- الأمر السادس والأخير: ترك ضرب الأمثال لله والرسول: ٥٠٧
- أمثلة من الواقع على معنى ضرب الأمثلة بالباطل: ٥١٠
- هرقل يوبخ البراغماتية: ٥١٦
- فتنة التلون والتليس، وتكلم الرويضة، وضياع الأمانة: ٥٣١
- ديننا عزنا، فإذا استحيينا من إظهاره أدلنا الله تعالى: ٥٣٨
- عموم البلوى ليست عذراً شرعياً لركوب الحرام: ٥٤٢
- التنادي بأسماء الدين والإيمان: ٥٤٦

- مصطلحات تحتاج إلى ضبط وتحرير وعرض: ٥٤٨
- صاحب الوجّهين مع الأدلة: ٥٥٤
- وأخيراً علاقة الفتن واستحكام الهوى بخروج الدجال ٥٦٦
- الحرب الباردة على الحق: ٥٦٨
- الدُّنْيَا قَصِيرٌ زَمَنُهَا طَوِيلٌ أَمَلُهَا (إنما هي ظل زائل): ٥٧٦
- خاتمة بشريات وهدايات ٥٨٠
- الفهرس ٥٨٧



قائمة كتب المؤلف

صدر للمؤلف :

- ١- التوسل المشروع وما يضاده.
- ٢- الاستنباطات البهية من الأدلة الشرعية.
- ٣- الدرر والزهور من حديث جبريل المشهور (أكثر من ٤٠٠ فائدة).
- ٤- المحبة الحقيقية للأزواج والذرية.
- ٥- الداء العضال.
- ٦- القول المبين في أخطاء بعض الحجاج والمعتزمين.
- ٧- يا أمة الإسلام الاستعلاء بالإيمان.
- ٨- رسائل رمضان إلى أمة القرآن.
- ٩- الإنسان والأمانة الكبرى.
- ١٠- المفاهيم والحقائق الغائبة.
- ١١- فتنة العصر (التشريع).
- ١٢- أجهزة الدمار الشامل.
- ١٣- الموسوعة الكبرى (الجامع الثمين لأخطاء بعض المصلين والأئمة والمؤذنين والمساجد والمتهجدين).
- ١٤- إسعاف السؤول بشرح ثلاثة الأصول.
- ١٥- الديمقراطية والإسلام خصمان لا يجتمعان.

وكتب ستصدر قريباً إن شاء الله تعالى:

- ١- الحقوق العلية لخير البرية ﷺ.
- ٢- الإجماعات السنية لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- ٣- الطائفة البرهانية في ميزان الإسلام.
- ٤- الأمراض الشائعة.
- ٥- الكيفيات المتعددة لصفات الوضوء والتيمم وغسل الجنابة والصلاة.
- ٦- فساد التصور.
- ٧- المخرج من الفتن.

كتب تحت الإعداد:

- ١- تفسير جزأي عمّ وتبارك.
- ٢- شرح العقيدة الواسطية.
- ٣- شرح علل النسائي.
- ٤- ما ضَعُفَ من الأحاديث والآثار في سيرة النبي المختار ﷺ.
- ٥- الكلمات الرضية في الخطب المنبرية.
- ٦- ما خالف الدليل من أخبار بني إسرائيل.
- ٧- الصراط المستقيم.
- ٨- الطريق إلى السعادة. إنهم فتية آمنوا بربهم.
- ٩- موزع الحسنات.